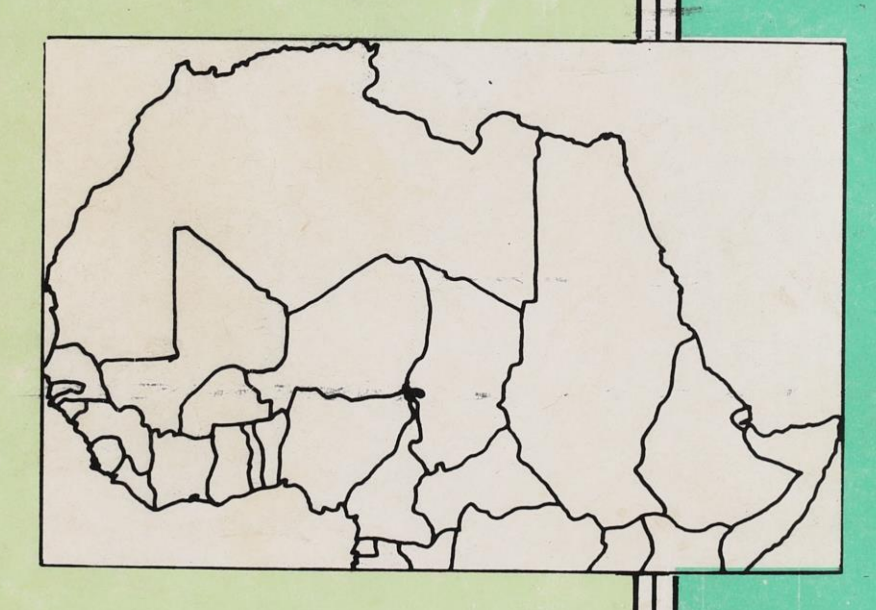
غيرهارد رولفس

عبر افريقيا

رحلة من البحر المتوسط إلى بحيرة تشاد وإلى خليج غينيا



الجزء الأول

ترجمة وتقديم وتعليق

د. عماد الدين غانم

منشورات

مركز البحوث والدراسات الأفريقية سبها

بسم الله الرحمن الرحيم

وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (105)

سورة التوبة

المحتويات

1 ـ تصدير — ابوالقاسم محمد قديح، امين مركز البحوث والدراسات الافريقية

2 ـ مقدمة المترجم «غيرهارد رولفس حياته وآثاره»

3 ـ ملاحق مقدمة المترجم

4 ـ مقدمة المؤلف

المحتويــــات

ـ 1 ـ

طرابلس والرحلة إلى لبدة

فى أرض الوطن ـ دكتور بيترمان ودكتور بارن ـ العودة إلى طرابلس . الرحالون إلى افريقيا الاستعدادات من أجل الصحراء ـ التجارة الالمانية مع شمال افريقيا ـ القنصلان بوتاوهيرمان خدمى ـ الرحلة التجريبية إلى لبدة ـ واحتا المنشية وتاجوراء ـ الحزام الرملى ـ سرقة فى الليل وعقابها ـ طريق العودة عبر مسلاتة ـ الايام الاخيرة فى طرابلس .

ـ 2 ـ

من طرابلس إلى غدامس

الانطلاق ـ زهرة اللوتسى ـ تجارة الرقيق ـ سير الجمل ـ قلعة غريان ـ الباشا ـ الاطباء العسكريون الاتراك ـ القصيبة ـ الحرفيون اليهود ـ خرافات ـ الوصول إلى مزدة ـ أبناء مزدة ـ الطريقة السنوسية ـ رئيس قطاع الطرق ـ ضيوف دون دعوة ـ القيلولة ـ قرا ـ الحمادة ـ واحة درج ـ الدخول إلى غدامس .

ـ 3 ـ

مدينة غدامس وسكانها

نشأة المدينة وسكانها الاصليون ـ العين ـ توزيع المياه ـ المناخ ـ النبات ـ الحيوان ـ بنو وزيت ـ وبنو وليد ـ الارقام التى يستعملها التجار ـ العبادة ـ النساء ـ الزى الشعبى ـ احصائيات ـ التجارة ـ المعمار ـ القبور .

ـ 4 ـ

اقامتى فى غدامس

قاسم باشا ـ مسكنى ـ المرض الخطير ـ رسالة الحاج عبد القادر من عين

صالح ـ فتيات من الطوارق ـ أصل الطوارق ـ عيد المولد ـ سي عثمان بن بكري ـ تغيير مخطط الرحلة ـ وداع أهل غدامس .

ـ 5 ـ

من غدامس إلى جبال السودا

حامد آغا . نقيب العربان ـ حكم قاضي درج ـ الجمل العربي والجمل المهاري ـ مهاجرون جزائريون ـ من مزدة عبر جبل الجن ـ ووادي زمزم ـ في الحمادة الحمراء ـ القبلي ـ القرية الشرقية والقرية الغربية ـ السوداء أو الجبال السوداء .

ـ 6 ـ

الوصول إلى فزان ، تاريخ المنطقة ووصفها

تمساوة ـ أربعة شيوخ عرب ـ عبد آنق ـ واحتا الزلاف وسبها ـ السرير ـ غدوة ـ الوصول إلى مرزق ـ تاريخ فزان ـ معلومات جغرافية ـ الحرارة ـ المناخ ـ موطن النخيل ـ الحيوان ـ تجارة الرقيق ـ الادارة ـ هجناء من عرق أبيض وأسود ـ عدد السكان ـ اللغة ـ الزي الشعبي ـ الغذاء ـ الطباع والعادات .

ـ 7 ـ

الاقامة في مرزق

الدندل ـ القصبة والقشطة ـ القبور ـ عدد السكان ـ الدوائر ـ مراسم الزيارة ـ آخر أمير من سلالة آل محمد الجيش ـ الموظفون الاتراك وتجارة الرقيق ـ عبد صغير أجر للمعانية الطبية ـ السفر إلى تراغن ـ متابعة الرحلة مع الامير مينا آدام من كوار .

ـ 8 ـ

عبر فزان

مطر ـ أغرار وشهود ـ واحة مستوتة ـ عبر القرن الكبير إلى ذكير ـ القطرون ـ

عيد الاحتفال بعودة القمر ـ قريتا بخي ومدروسة ـ كساروة ـ تجرهي ـ وادي القطرون ـ الارتحال من تجرهي إلى كوار .

ـ 9 ـ

بين فزان وكوار

نهر جوري ـ العقبة بوئيا والعقبة كونو ـ جبال تومو ـ نهر لاكاكينو ـ منخفض مافرس ـ على مقربة من تيج غرونتو ـ واحتا يات وأعقيبة ـ الوصول إلى حدود كوار .

ـ 10 ـ

كوار أوحندري تقي

أنيا ـ مرحاض نساء التبو ـ العلاقات الزوجية ـ صخور غوماغانومة ـ أنيكيمي وأشنوما ـ العاصمة السابقة كيسبي ـ بلدتا رابوس وشيمدرو ـ بلدة وجبل امي ماديمة ـ قرية كلالا بالقرب من العاصمة بيلما ـ سلطان كوار ـ مناجم الملح ـ السكان .

ـ 11 ـ

التبـــو

الاسم ـ الاصل ـ قسمات الوجه ـ مناطق سكناهم ـ اعتناقهم الاسلام ـ الطبقات ـ الصناعة ـ المساكن ـ اللباس ـ أصول السلام ـ الدولة ـ الاقاليم وأسماء القبائل ـ مستقبل الشعب .

ـ 12 ـ

نهاية الصحراء الكبرى

مغادرة كوار ـ نبع مكتنو ـ هضبة تنقر تنقر ـ صاوغانا وصاوكورا ـ بداية المناطق النباتية ـ واحة دبلة ـ التحجر ـ واحة أغادم ـ بادية تينتوما ـ صيد الغزال ـ خيانة بولقودا ـ على منبع بلكا شيفري .

ـ 13 ـ

حتى كوكة عاصمة بورنو

غابة الميموز الفسيحة ـ نبعا كوفة وآسي ـ نيقيقمى ـ أول نظرة على بحيرة تشاد ـ الحيوانات فى منطقة تشاد ـ عبر كوما دغو ـ يو ـ الوصول إلى ضواحى كوكة .

ـ 14 ـ

الاستقبال و الاقامة فى كوكة

الدخول ـ هدايا الضيف ـ الزيارات ـ أول استقبال لدى السلطان ـ البيت المسيحى ـ الامير بوبكر ـ استقبال يوم عيد المولد ـ عرض عسكرى ـ ارسال موفد إلى سلطان وداى ـ رسالة من الحكومة الانكليزية ـ الاقتراض .

ـ 15 ـ

بحيرة تشاد

الرحلة إلى البحيرة ـ بلدة كاوا ـ على الضفة ـ طريق العودة ـ المساحة ـ الموقع ـ الشكل ـ المياه التى تصب فيها ـ المياه التى تخرج منها ـ اسم البحيرة ـ جزر بودوما وسكانهم .

ـ 16 ـ

العاصمة كوكا وسوقها

اسم المدينة ـ العمارة ـ طراز معيشة السكان ـ النوكنة ـ النقود ـ المدرسة (العليا) السوق الكبير ـ انعدام الجمارك ـ الاستيراد والتصدير ـ اسعار المنتجات والبضائع ـ شروط اقامة طرق مباشرة للتجارة بين أوروبا وأفريقيا الوسطى .

تصدير

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

أيها القارىء باللغة العربية

يسر مركز البحوث والدراسات الافريقية أن يقدم اليك هذا الكتاب «عبر افريقيا رحلة من البحر المتوسط الى بحيرة تشاد وخليج غينيا» الذى قام المركز بترجمته ليضاف الى قائمة الكتب التى تمت ترجمتها والتى لا تزال تحت الترجمة وذلك تمشيا مع سياسة هذا المركز التى ترمى الى توسيع دائرة القراء بالعربية وإثراء المكتبة العربية بالكتب التى تتناول قضايا افريقيا فى شتى المجالات .

يوثق هذ الكتاب رحلة مؤلفه (غيرهارد رولفس) الالمانى الاصل الذى قام بالرحلة من شواطىء الجماهيرية العظمى عبر الاودية والمرتفعات مرورا بالقرى والواحات الليبية حتى واحة تشاد فأعطى بذلك القارىء معلومات دقيقة حول كل البقاع التى مر بها وأساليب الحياة فيها قبل قرن من الزمن . . ولقد تعمدنا أن نترجم مثل هذه الكتب التى كتبت اصلا بلغات محدودة الانتشار نطلع القارىء العربى عما تنطوى عليه نوايا أولئك الاوروبيين ممن يتزعمون فكرة بسط النفوذ والتسلط على الاخرين وكيف كانوا يعدون العدة لذلك فلم تكن حملاتهم ودعاياتهم وما يتكبدون من متاعب وخسائر تهدف لخدمة الاخرين بل لتمهد لهم الطريق فيزودون بالمعلومات المطلوبة قبل ان يقدموا على تنفيذ اى من مشروعاتهم وهذا الكتاب يوضح لك كيف ان الرحالين الغربيين كانوا جد مهتمين بهذه الحالات يدفعهم التشجيع الهائل الذى يلقونه من حكوماتهم وحكامهم فيقدمون التقارير الوافية الى مشجعيهم عن أى منطقة يزورونها وبذلك

يسهل على حكوماتهم ان تبسط نفوذها وتنفذ برامجها التوسعية بكل جرأة وبدون ان تقابل بأى مقاومة. أن سهولة هذا الكتاب تكمن فى الاسلوب القصصى الذى كتب به يأخذ بيد القارىء الى رحلة شيقة من شواطىء مدينة طرابلس عبر الصحارى والفيافى حتى يصل بحيرة تشاد ويزداد القارىء ارتياحا عندما يخرج بمعلومات جيدة ومفيدة دون ان يجهد نفسه او يشعر بالسأم أو الانزعاج .

نأمل ان يكون اهتمامنا بالترجمة عاملا موصلا للمعلومات المفيدة الى قرائنا باللغة الام .

والله الموفق . . .

««أبو القاسم محمد قديح»»

امين مركز البحوث والدراسات الافريقية .

مقدمة المترجم

غيرهارد رولفس 1869 .1831م

حياته وآثاره

د . عماد الدين غانم

مقدمة المترجم
غيرهارد رولفس ـ 1831 ـ
حياته وآثاره
د . عماد الدين غانم

فى اطار المطامع الاستعمارية المسيطرة على القارة الافريقية تنامت حركة الرحلات وكثر عدد الرحالين الذين وفدوا الى القارة السمراء باسم الكشف الجغرافى حيناً ورصد تجارة الرقيق حيناً آخر، وشكلت الجمعيات الجغرافية، وجمعيات الدراسات الافريقية، وقامت بدعم هذه الرحلات مادياً ومعنوياً وصدرت الكتب والدوريات لنشر ما تتضمنه تقارير هؤلاء الرحالين من معلومات[1] وإذا ما تأملنا كتب الرحلات هذه سنجد فيها مادة حول طبيعة البلدان التى توجه الرحالون وسكانها ومدنها ومواردها ومسالكها والاوضاع السياسية القائمة فيها . .

وما من رحالة قصد وسط افريقيا وبلاد السودان الا وجاءها عن طريق ليبيا حيث ينطلق العديد من طرق تجارة القوافل وأشهرها طريق طرابلس ـ برنو وتفرعاته[2] . وغالباً ما كان الرحالة يجهز رحلته فى ليبيا ويختار مرشديه ومساعديه وينتظر القافلة التى سينضم اليها أو يقرر موعد السفر لوحده ويحصل على رسائل التوصية فى الولاية وقد استفاد الرحالة من حقيقة ان الشاطىء الليبى ينزل باتجاه جوف القارة الافريقية أكثر من غيره من أجزاء الشاطىء الجنوبى للبحر المتوسط[3] ومن حقيقة أمان الطريق الذى ينطلق منها

---

1 ـ حاول اثيليو مورى ان يحصر الرحالين الذين قدموا الى ليبيا وآثارهم انظر : مورى . الرحالة والكشف الجغرافى فى ليبيا . تعريب خليفة محمد التليسى . طرابلس : الفرجانى ، 1971 م : انظر ايضا عمادالدين غانم وآخرين الصحراء الكبرى ، طرابلس : مركز دراسة جهاد الليبيين 1979 . ص 241 ـ 251 كما تتضمن البيليوغرافيات المتخصصة بليبيا الكثير من عناوين هذه المؤلفات سواء كانت كتبا ام تقارير؛ انظر على وجه الخصوص :

2 ـ عماد الدين غانم وآخرون . المصدر السابق ، ص184 .

3 ـ عماد الدين غانم ، «الرحالة الالمانى رولفس وليبيا مجلة البحوث التاريخية ، 1 : 1 /يناير 1979 م ص 113 ومابعدها .

الى وسط افريقيا[4] . لم تبق هذه الحقائق دون تأثير على عدد الرحالين الذين انطلقوا من مناطق مختلفة من ليبيا الى الصحراء وبلاد السودان ووضعوا المناطق التى مروا بها وهكذا تجمعت لدينا مادة هامة من أدب الرحلات الاوروبية تتناول ليبيا فى مناطقها الساحلية والداخلية[5] .

ومن أكثر الرحالين الذين صبوا اهتمامهم على ليبيا وخصوها بعدة رحلات وبالتالى بعدد كبير من الدراسات والتقارير كان غيرهارد رولفس 1831 ـ1896 ونعتقد أن دافعه الرئيسى يعود الى محاولته الدعوة للسيطرة الألمانية على الجزء الشرقى من ليبيا .

ولد غيرهارد فريدريش رولفس فى 14 أبريل 1831 فى بلدة فيغزالة القريبة من بريمن ولا نعرف الكثير عن طفولته، وكل ما عرف به هو شعوره بالوحشة والقلق الدائم وحب المغامرة، فهو ابن طبيب وكان يجدر به أن يدرس الطب مثل شقيقه. الا أنه خرج على ذلك وتطوع بعد الثانوية فى جيش بريمن عام 1849 . ولما كانت النزاعات تختط ألمانيا واوروبا كان يزداد حماسة للقضايا الألمانية وانخرط فى جيش شليزوبغ هو لشتاين كضابط صف فى سلاح المشاة ويحارب ضد جيش الدانمارك. وفى 1851 غادر الجيش الذى حل اثر تسويات سياسة بين بروسياوالنمسا وكان وقتئذ برتبة ملازم[6] .

وبعد خروجه من الخدمة العسكرية درس الطب فى جامعات غوتنغن وهايدلبرغ وفورسبورغ الا أنه لم يتم دراسته ودفعه قلقه مرة ثانية الى الجندية فقد توجه فى 1855 إلى النمسا وسويسرا وايطاليا أملا بالانخراط فى الجيش ثم ذهب الى فرنسا حيث تطوع فى الفرقة الأجنبية وبهذا تمكن من الوصول الى الارض الافريقية فى نفس العام وعمل صيدلياً ميدانياً وشارك فى المعارك التى دارت فى الجزائر 1856 ـ 1857 من أجل التوسع الفرنسى وتدرج فى الترقية

---

4 ـ المصدر نفسه ، ص 122 .

5 ـ انظر : جميع المصادر الواردة فى الهامش الاول اعلاه .

(6) F. Ratzel, Kleine Schriften, Munchen 1906, I. 31.

حتى وصل الى رتبة سرجنت (رقيب) وهى أعلى رتبة يبلغها أجنبى فى هذه الفرقة التى تتشكل من المرتزقة كما حصل على عدة ميداليات[7] ويبدو ان هذه المرحلة التى استغرقت ما يزيد على خمس سنوات من عمره لم تكن سهلة اذ قلما يرد ذكرها فى مؤلفاته .

فى 1861 غادر الفرقة الاجنبية فى الجزائر وكان قد تعلم شيئاً من العربية ودرج على عادات أهل البلاد[8] . وتوجه الى طنجة محاولاً الانخراط فى الجيش المراكشى فقد كان السلطان محمد الرابع (1860 ـ 1873) قد أعلن فى جميع الصحف عن استعداده لقبول متطوعين بحيث يعيد تنظيم جيشه وكان ذلك بعد خسارته حرب تطوان ضد الاسبان[9] . وخلال مقابلة رولفس للسير دروموند هاى المفوض الانجليزى فى طنجة باعتباره القنصل المسؤول عن رعايا بريمن الحرة نصحه بعدم الاقدام على ذلك باعتباره نصرانيا، عندئذ أخذ رولفس يتعلم العادات الاسلامية ويدرس العربية بجدية فقد أدرك أن توغله فى الدواخل لن يتاح له الا بالإسلام وفى لقائه الثانى مع السير دروموند هاى تقرر أن يعتنق الاسلام ظاهرياً وأن يسعى للحصول على وظيفة طبيب فى جيش السلطان[10] . ثم توجه سيراً على الاقدام نحو فاس وتعرض للسلب خلال الطريق الامر الذى جعله يعرج على وزان حيث حل فى ضيافة شريفها سيدى الحاج عبدالسلام ومارس . . . مهنة الطب واستفاد من الفترة التى قضاها فى وزان إذ زادت معرفته بالعربية وتمرس فى التقاليد الاسلامية بحيث كان يصعب الشك فى اسلامه[11] . وغادر وزان متوجهاً نحو فاس حاملا رسالة توصية من شريف وزان الى قائد الجيش. وبعد تقديمه الى السلطان ووزير الحرب عين رئيساً على أطباء الجيش وفتح عيادة فى مكناس باسم «مصطفى النمسى طبيب وجرائحى ، ثم أصبح طبيباً خاصاً للملك وحريمه[12]

---

7 ـ المصدر والصفحة نفسها .

(8) K. Guenther, Gerhard Rohlfs : Lenensbild eines Afrikaforschers, Leipzig 1912, P. 19 sq.

9 ـ المصدر نفسه ، ص 20 ، ابراهيم حركات ، المغرب عبر التاريخ الدار البيضاء دار الرشاد الحديثة ، 1985 3/255 : محمد المنونى ، مظاهر يقظة المغرب الحديثة ، بيروت 1985 م ، 1/76 ومابعدها .

(10) E. Trinkler, "Afrikafahrer und Afrikaforscher" Der Schlussel, 5 (1940). P. 129.

(11) Ratzel, op. Cit, I, 31.

(12) Trinker, op. Cit. P. 130, Guenther, op. Cit. P. 29 sq.

في عام 1862 كان بوسع رولفس أن يبدأ مرحلة طويلة انطلقت من طنجة الى مراكش مروراً بالشاطىء الغربى ثم الى اغادير ومنها الى وادى درعة حيث وصل تافيلالت وفى الطريق الى واحة كنتزة تعرض لاخطر حادث فى حياته فقد ضرب وبقى اكثر من يومين مضرجاً بدمائه الى أن جاء مرابطون وأنقذوه وبقى فى ضيافتهم حتى قوى عوده وتوجه الى جنوب غربى الجزائر حيث عولج وبقيت آثار هذه الحادثة على رولفس طيلة حياته فقد قصر ذراعه وتشنجت أصابع يده[13] .

وعلى الرغم من سوء الحادث الذى تعرض له الا أن اليوميات التى كان يسجلها وصلت الى الجغرافى الالمانى أوغست بيترمان August PETERMANN مدير معهد يوستوس برتس الجغرافى الذى كان يرصد جميع المعلومات الجغرافية الجديدة ويسجلها فى الخرائط. وإن وقوع هذه اليوميات فى يدبيترمان كانت الاساس فى الاهتمام الذى أصبح يوجه الى رولفس واعتبرت هذه أولى رحلاته الهامة. فقد شعر بيترمان أنه أمام مقدرة علمية شابة تستحق كل دعم، وغدا بذلك أكبر مشجعيه رولفس وعندما عاد رولفس الى ألمانيا استقبله بيترمان بحفاوة وفتح أمامه آفاقا جعلته يشعر أنه تلميذه وتحت جناحه إذ يقول عند تأبينه بيترمان : «ربما لم يحظ أحد منه بمثل هذه النصائح والدعم المعنوى[14]» . ومن الملاحظ أن رولفس قد نشر جميع تقارير رحلاته وخرائطه لدى بيترمان وكان هذا من باب العرفان بالجميل .

والى بيترمان يعود الفضل فى الدعم المادى الذى حصل عليه رولفس من الجمعية الجغرافية فى لندن ومن مجلس مدينة بريمن بحيث يتمكن من القيام برحلة كبيرة عبر الصحراء تتوخى الوصول الى تمبكتو وفى أواخر صيف 1863 بدأ رولفس رحلته الثانية التى كان يفترض أن تقوده الى توات عبر الأغواط الا أنه عاد الى طنجة إثر الاضطرابات فى الصحراء الجزائرية وتمكن بموجب رسالة توصية من شريف وزان أن يبلغ توات عبر تافيلالت والاطلس الكبير ولم يتابع رحلته نحو تمبكتو لان مدخراته لم تعد تكفيه للوصول اليها فآثر

(13) Guenther, op. Cit. P. 42 sqq.

(14) G. Rohlfs, Kufra, Leipzig 1881. P. 37.

العودة الى طرابلس عبر تيماسينين وغدامس ووصل طرابلس لاول مرة فى أواخر 1864[15] .

واعتبر بيترمان نتائج هذه الرحلة طريفة لما تحتويه من وصف لمناطق لم يطرقها أوروبى وان الخرائط التى قدمها رولفس تبين مسالك الجزء الغربى من الصحراء والاطلس الكبير ولم يكتف رولفس بتحديد الاتجاهات والمسافات بل قاس الارتفاعات ونشر هذه الرحلة بعنوان «رحلة عبر المغرب وصعود الاطلس الكبير وأكتشاف واحات تافيلالت وتوات ويتدكلت ورحلة عبر الصحراء الكبرى الى طرابلس مروراً بغدامس[16] وساهمت هذه الرحلة فى جعل رولفس أحد مشاهير المختصين بالصحراء فى أوروبا[17] .

وتوجه رولفس لفترة قصيرة الى المانيا وطرح مسألة الوصول الى تمبكتو عن طريق الهقار فجمعت له التبرعات من الجهات الالمانية والانجليزية وتجمع لديه 2500 تالر وإذا ما قورن هذا المبلغ بكلفة رحلة ريتشادسون بارت التى وضع تحت تصرفها 100000 تالر[18] تبين لنا التقنين الكبير الذى كان يسيطر على رحلات رولفس .

ولم يمكث طويلاً فى المانيا بل عاد فى أواخر مارس 1865 الى طرابلس بعد أن اشترى فى باريس الادوات العلمية والهدايا والاسلحة والتقى مع هنرى دوفيريه Henry Deneyrer 1840 — 1892[20] . وفى مرفا طرابلس استقبله مرافقه فى رحلته السابقة حامد الطنجى ، وأخذ يجهز رحلته ويستكمل عناصرها حيث انضم اليه مرافق آخر هو محمد الشتاوى وثلاثة

(15) Rohlfs, Reise durch Marokko, Ubersteigung.

(16) Rohlfs, Reise durch Marokko, Ubersteigung, des grossen Atlas, Explora- tion der Oasen von Tafilet. Tidikelt und Reise durch die grosse Wuste uber Rhadames nach Tripolis. Norden 1868.

16 ـ العنوان بالالمانية :

(17) Ratzel, op. Cit, P. 483.

(18) W. Genschorek, Im Alleingang durch die Wuste, Leipzig 1982. P. 85

(19) Exploration du Sahara : Les Touareg du Nord, Paris, 1864.

19 ـ عرف دوفيريه برحلاته عبر دواخل الجزائر وزار غدامس وتونين قرب غات وسوكنة وطرابلس ووضع مؤلفه بعنوان «طوارق الشمال»

(20) Genschorek, op. Cit. P. 86.

حمالين : الاول من منطقة بحيرة تشاد والثانى من بلاد الهاوسا والثالث من التبو[21] وبدأت هذه الرحلة فى 20 مايو 1865 وانتهت فى منتصف عام 1867 وكان خط سيرها فى مرحلتها الاولى طرابلس غدامس حيث مكث فترة طويلة ينتظر قدوم الزعيم الطارقى سى عثمان بن بكرى بحيث يرافقه الى الهقار ومنها الى تمبكتو والنيجر وإثر تأخر سى عثمان غير مخططه وعاد الى مزدة ومنها الى مرزق حيث مكث خمسة شهور ينتظر وصول النقود والبريد من طرابلس. وفى مرزق انضم الى محمد القطرونى مرافق بارت وتوجه معه الى كوكه عاصمة برنو مروراً ببيلما. وفى كوكه استطاع رولفس أن يربط علاقات ودية مع سلطان برنو وكان وراء ربط علاقات بينه وبين الحكومة البروسية فيما بعد اذ ارسلت له هدايا قام رولفس بترتيب تقديمها الى السلطان وكلف ناختيغال بذلك[22] .

وفى كوكه انتظر رولفس جواباً من سلطان وداى للسماح له بزيارة بلاده ولما لم يصل مثل هذا الجواب قرر التوجه غرباً نحو خليج غينيا وغادر كوكه فى 1966/12/13[23] . ودخل بلاد سوكوتو ومكث فى عاصمتها قارو (جاكوبا) ثلاثة اسابيع ثم توجه الى كفى حيث سمع أن الانجليز أقاموا مستعمرة لوكوجه على مصب البنيوى فى النيجر فتوجه الى هناك وهو يخشى أن تنفذ النقود المتبقية لديه. وقد استقبل فى المحطة الاستعمارية الانجليزية لابل كلف بمهمات تسليم هدايا من طرف المحطة الى الزعماء الافريقين فى المناطق الواقعة الى الجنوب الغربى من المحطة ثم تابع طريقه نحو لاغوس ومن هناك الى ليفربول حيث وصلها فى 2 من يوليو 1867[24] ومن هناك أرسل برقية الى أخيه الطبيب هيرمان وكانت هذه أول اشارة منذ فترة طويلة تؤكد أنه مازال على قيد الحياة اذ كانت قد سادت إشاعة مفادها أنه قد قتل فى وداى[25] .

(21) Ibid, P. 87 sq.
(22) Ibid.
(23) Guenther, op. Cit. P. 84.
(24) Ibid, P. 86 sq.
(25) Genschorek, op. Cit. P. 126.

إن هذه الرحلة التى نشرت تقاريرها كملحقين لمجلة أخبار بيترمان ثم نشرها رولفس فى جزئين خلال عامى 1874 و 1875 بعنوان «عبر افريقيا رحلة من البحر المتوسط الى بحيرة تشاد والى خليج غنيا»[26] هى التى جعلت رولفس يبدو وكأنه بطل قومى وهى التى أوصلته الى ذروة الشهرة وكانت السبب وراء انهيال الدعوات والعروض عليه[27] وان الترجمة التى نقدمها هنا تمثل الجزء الاول من هذه الرحلة وهى تشمل المنطقة الواقعة ما بين طرابلس وكوكه .

لقد قطع رولفس خلال هذه الرحلة قرابة خمسة آلاف كيلو متر وحظى فى اثرها باستقبال لدى فيلهلم الأول ملك بروسيا ولدى الأمراء وعرضت عليه عضوية الجمعيات الجغرافية الأوروبية ومنح دكتوراه شرف من جامعة يينا الالمانية كما منح العديد من الأوسمة ودعى الى سلسلة من المحاضرات فى المانيا وخارجها ومنها روسيا وأمريكا وترجمت أجزاء من كتابه الى لغات عديدة وأصبحت رحلة عبر افريقيا أكثر كتبه رواجا وشهرة[28] .

فى نهاية الستينات ترسخت علاقة رولفس بالسلطة، فقد وجدت لديه كفاءات يمكن الاستفادة منها وعلى الاخص أن القارة الافريقية دخلت فى حيز الاستعباد الاوربى منذ عدة قرون حيث بدأ الاوربيون بنقل الرقيق من افريقيا الى امريكا[29] وعندما انتهوا من هذه المرحلة أخذوا باقتسام القارة واستعمارها وكان الرحالون اداة طيعة وخبيرة عند تنفيذ المشاريع الاستعمارية ومثلما بدأ رولفس حياته العملية جنديا فى سبيل قضية قومية المانية بقى ملتزما بخدمة المصالح الالمانية وبخاصة فى الشئون الافريقية .

فى 1867 كلفه بسمارك بمهمة مراقبة الحملة الانجليزية على الحبشة[30] فسارع مع الحملة ومع طلائعها وقادتها ووصف ذلك فى كتيب عنوانه : « مع

(26) Quer durch Afrika : Reise vom Mittelmeer nach dem Tschadsee zum Golf von Guinea, 1-2. Leipzig, 1874-1875.
(27) Ratzel, op. Cit. P. 483.
(28) Genschorek, op. Cit. P. 126 sq.
(29) Ibid. P. 104 sq.

29 ـ انظر بعض الاحصائيات . Ibid. P. 85 و 94
30 ـ انظر حول هذه الحملة عثمان صالح سبى ، تاريخ ارتيريا . ط2، بيروت : دار الكنوز الادبية ، 1984 . ص 150 ومابعدها .

الحملة الانجليزية على الحبشة بتكليف من جلالة ملك بروسيا[31] واستغرقت مهمته هذه حتى مايو 1868.

وما إن استقر به المقام فى وطنه حتى وجد نفسه أمام مهمة رسمية جديدة فقد رأى ملك بروسيا والمستشار بسمارك فى رولفس الرجل المناسب لتسليم هدايا الملك البروسي الى سلطان برنو وهى تلك التى طلبها السلطان المذكور من رولفس فى احدى لقاءاته معه فى كوكه فى 1866 ولما أبدى رولفس بعض الاعتراضات الموضوعية طلب منه أن يوصل الهدايا الى طرابلس ويرتب هناك أمر ارسالها الى برنو وتسليمها الى السلطان فتوجه الى تونس ومنها الى طرابلس وفى تونس قابل المستشرق النمساوى هيزيش فون مالتسان 1826 ـ Heinrich von Maltzan 1874 وقد أبلغه ان شاباً المانيا يعمل طبيبا خاصاً لدى الباى منذ 1863 يرغب القيام بهذه المهمة وهو غوستاف ناختيفال (1834ـ1885) Gustav Nachtigal وأسند اليه المهمة بعد موافقة الحكومة البروسية وكان يفكر بارسال هذه الهدايا مع محمد القطرونى مرافقه من مرزق الى كوكة.

وقام ناجتيغال بتسليم الهدايا وزار مناطق صحراوية عديدة وعلى وجه الخصوص تبستى ووضع فى اثر ذلك كتابه المشهور بلاد السودان والصحراء[34] الذى مازال محتفظا بقيمته العلمية وترجم منه الجزء الخاص بفزان الى الانجليزية.

وأما رولفس فقد استفاد من بقائه فى طرابلس ونظم رحلة على طول الشاطىء من طرابلس الى الاسكندرية ووضع كتابا حول هذه الرحلة نشر فى 1871 بنفس العنوان[35].

31 ـ العنوان الألمانية :

(31) Im Auftrage seiner Majestat Konigs von Preussen mit dem englishen Expeditions korps in Abessinien, Bremen 1869.

(32) Guenther, cp. Cit. 101 sq

(33) Reise in den Regenschaften Tunis und Tripolis. 1-3. Leipzig 1870.

(34) Sahra und Sudan. 1-3. Leipzig 1879-1889.

(35) Von Tripolis nach Alexandrien 1-2. Norden 1871.

على ان فيرو يتهم الرحالين الالمان الثلاثة أنهم كانوا يتصلون فى تونس وطرابلس بالأهالى ويحرضونهم ضد السياسة الفرنسية وما تتسم به من تعصب دينى نحو مسلمى الجزائر ويدعون الأهالى الى مقاومة الاحتلال الفرنسى غير المشروع[36] وما قاله فيرو ينسجم تماما مع تصرف رولفس عند اندلاع الحرب الفرنسية الالمانية 1870ـ1871 فقد وضع نفسه تحت تصرف الحكومة[37] واستجاب لبرقية وصلته من وزارة الخارجية الالمانية بالحضور فورا الى برلين ولما يمض على زواجه اربعة اسابيع وكتب حينئذ الى عروسه : لا تحزنى بل تذكرى نساء الرومان والاغريق اللواتى كن يثرن حمية رجالهن للقتال وتذكرى الجرمانيات اللواتى كن يترلن الى ميدان المعركة[38]

وفى وزارة الخارجية سئل رولفس عن امكانية تحريض الجزائريين ضد فرنسا بحيث تضطر الى سحب جزء من قواتها من ميدان الحرب، فرد بالايجاب وطلب ان يرافقه المستشرق فتسشتاين Z.G.Wetzstein الذى كان معروفا بتمكنه من اللغة العربية الفصحى وشغل منصب قنصل بروسيا بدمشق 1848ـ1862 فسافرا الى تونس وظهرا فى سوقها واتصالا بالشعب لمعرفة رأيه بعد توزيع المناشير الا ان فصاحة فتسشتاين لفتت الأنظار وتوجه رولفس الى زغوان قاصدا الحدود الجزائرية حيث منع من متابعة طريقة فقد تدخل الفرنسيون لدى الباى وأبعدا خارج البلاد وقدم رولفس مذكرة الى الخارجية الالمانية بين فيها استعداده لدخول الجزائر من الحدود الغربية كما دون فتسشتاين يومياته حول هذه العملية (39) وعلى الرغم من فشل العملية الا ان الانتصار الالمانى لم يعبأ بذلك وعين الملك رولفس برتبة مستشار ملكى بروسى[40].

(37) Guenther, op. Cit. P. 125.

(38) Ibid.

Peter Heine, Das Rohlfs Wetzstein. Unternehmen in Tunis wahrend des deutch. Franzosischen Krieges 1870-71. **Welt des Islams**, 22 (1882)

39 ـ شارل فيرو . الحوليات الليبية ترجمة وتقديم وتعليق محمد عبدالكريم الوافى . ط ، مزيدة ومنفحة . طرابلس : المنشأة العامة للنشر والتوزيع والاعلان 1983 ، ص 711 ومابعدها .

(39) P. 61 sqq.

(40) Guenther, op. Cit. P. 128.

وبعد استراحة لم تتجاوز ثلاث سنوات عاد رولفس الى حياة الرحلات فقد سبق ان قدم عرضا الى الخديوى اسماعيل بدراسة الجزء الشرقى من الصحراء الكبرى فوافق على الاقتراح وخصص لهذه الغاية ثمانين الف مارك [41] وهو مبلغ ضخم قلما فكر به رولفس واستجاب للبرقية التى وجهها اليه القنصل العام الالمانى فى القاهرة فى صيف 1873 وأخذ يفتش عمن يشاركه فى هذه الرحلة من ذوى الاختصاصات العلمية فانضم اليه ثلاثة من العلماء البارزين هم الجيولوجى Zittel من ميونيخ وعالم النبات اشرسون Ascherson من برلين وعالم المساحة يوردان Jordan فى كارلسروه ومصور مشهور اسمه ريملى Remele[42] وجهزت الحملة تجهيزا محكما ووضع لها 500 وعاء ماء ووضع كل اثنين منها على جمل اذ كانت الخطة بلوغ الكفرة من صعيد مصر على طرق غير مطروقة وفى ديسمبر 1873 استقبل الخديوى رولفس ثم عقد اجتماع فى المعهد المصرى لمناقشة مخططات الرحلة حيث جرى التأكيد على اهمية التوصل الى حل لمسألة وجود مجرى قديم للنيل أو ما يسمى بحر بلا ماء »[43] وفى ديسمبر 1873 توجه اعضاء الرحلة الى المنيا بالقطار ثم بالسفينة الى اسيوط حيث كانت مئات الجمال جاهزة لبدء الرحلة وفى 18 ديسمبر بدأت الرحلة نحو الفرافرة ومنها الى واحات الداخلة ونظرا لانعدام النبات على مسافات طويلة غير اتجاه القافلة وسارت شمالا نحو سيوة ثم عادو الى اسيوط عن طريق واحات البحرية وفى القاهرة استقبل الخديوى رولفس ونشرت نتائج هذه الرحلة فى كتاب بعنوان ثلاثة شهور فى الصحراء الليبية[44] ويبدو ان الخديوى اسماعيل ادرك مكانة رولفس لدى السلطة الالمانية فنراه فى 1879 يطلب منه ومن السياسى الايطالى المشهور كريسبى أن يرتبا له لقاء مع بسمارك توخيا لمساعدته فى العودة الى الحكم بعد أن اجبرته القوى الاوروبية على التنازل لصالح ابنه إلا أن مثل هذا الموضوع لم يطرح فى حينه[45]

---

(41) Ibid. P. 138.

(42) Ibid. P. 135 sq.

(43) Ibid. P. 22.

(44) Drei Monate in der libyschen Wuste. Kassel 1875.

44 ـ العنوان بالألمانية :

(45) Guenther, op. Cit. P. 128 sq.

وفى المؤتمر الذى نظم فى سبتمبر 1876 بناء على دعوة ليوبولد الثانى ملك بلجيكا وكان رولفس احدى شخصياته اللامعة حيث ناقش رحالون ومتخصصون طرق استعمار افريقيا وأسست الجمعية الدولية الافريقية لتوفير المعلومات عن المناطق التى لم يطرقها الاوروبيون بعد والقى رولفس دراسته المشهورة عن اهمية ليبيا بذاتها واهميتها كنقطة الانطلاق الرحالين نحو افريقيا[46] وسعى للحصول على دعم لمشروعه المتعلق بالقيام برحلة نحو الكفرة الا انه لم يحظ الا بالقليل[47]

ولئن ابتعد رولفس عن القارة الافريقية خلال الفترة 1874ـ1878 فقد ركز جهوده على تجهيز المواد الواردة فى اوراقه للطباعة وأسس مع اخيه الطبيب هاينريش سلسلة بعنوان الارشيف الالمانى لتاريخ الطب والجغرافيا الطبية [48] حرر منها ثلاثة مجلدات كما زار فى أواخر 1874 الولايات المتحدة الامريكية حيث ألقى سلسلة من المحاضرات استمرت ستة شهور .

بعد مضى اربع سنوات على اخر رحلة قام بها الى افريقيا عاد للتفكير بمشروعه الوصول الى الكفرة وعرض الأمر على الجمعية الافريقية الالمانية للتمويل فكلفته بالقيام برحلة من الشمال الافريقى نحو وسط افريقيا ودراسة منطقة توزيع المياه بين بنيوى وشارى والكونغو [49] وعاد فى اواخر 1878 الى طرابلس واخذ يجهز رحلته مع مرافقة عالم الحيوان دكتور ستكر Stecker وجاءه على القطرونى ابن مرافقة السابق محمدوانضم اليه وفى 22 ديسمبر انطلقت الرحلة من عين زارة وبقيت زوجته فى صيافة القنصل الايطالى بطرابلس الذى وضعت الرحلة تحت حمايته وتولت نسخ تقارير الرحلة وتنظيم مراسلات زوجها[50]

---

46 ـ ترجمنا نص هذه الدراسة ونشرناها بعنوان الرحالة الالمانى رولفس وليبيا فى مجلة البحوث التاريخية ، 1 : 1 (يناير 1979) ص 109 ـ 122 .

(47) Genschorek, op. Cit. P. 212 sq.

48 ـ العنوان بالألمانية :

(48) Deutsches Archiv fur Geschichte der Medicin und medicinische Geographie. 1-3. Leipzig 1878-1880.

(49) Guenther, op. Cit. P. 173.

(50) Ibid. P. 174.

وتوجهت الرحلة نحو الجفرة وفى سوكنه انتظر رولفس وصول هدايا الامبراطور الالمانى التى كلف بتقديمها الى سلطان وادى [51] ثم سار نحو زلة ومنها الى أوجله وجالو و ولكنه خاف من البرود الذى قوبل به فقد نظر اليه ابناء جالو واوجلة انه قد يضر بعلاقاتهم مع وداى ولم يتجاسر على متابعة سيره بل توجه الى بنغازى حيث تفاوض مع الجهات العثمانية وبعض المشايخ لتأمين سلامة وصوله الى الكفرة ولجأت السلطة العثمانية وبعض المشايخ لتأمين سلامة الرحلة وهكذا اعاد رولفس الى اوجلة والح على سرعة الانطلاق ووصل فى 26 يوليه بطفيل ومنها اسرت القافلة ليلا نهارا وقطعت المنطقة الخالية من الماء خلال اربعة ايام وعشر ساعات[52]

ومن تازربو سار نحو بوزيمة ومنها الى مركز واحات الكفرة الاانه هوجم ليلا ولم ينقذ حياته سوى تدخل بعض الاشخاص الذين قدموا له الزاد وسلامة العودة وهكذا الغى مخطط رحلته وادرك انه بلغ من الكبر عتيا مالم يسمح بتحمل اعباء السفر عبر الصحراء وقد اصبح على ابواب الخمسين ف«كتب الى زوجته الان أتوق الى الهدوء وامل ان يكتب لى ذلك لقد شخت وهذه السنة وماصادفنى خلالها من اهوال وقلق جعلت الشيب يتطرق الى رأسى ولو اعطيت الالاف لما كررت الايام التى عشتها فى الكفرة على اننى سعيد بما عانيته [53]

حقاً كانت هذه آخر رحلة كبيرة يقوم بها وعاد الى بنغازى فى أكتوبر 1879 . وبعد عودته وضع كتابه بعنوان ، الكفرة . رحلة من طرابلس نحو واحة «الكفرة» وصدر بجزئيه فى 1881 ويقع فى 599 صفحة وعدد من الملاحق[54] .

وما ان عاد رولفس الى المانيا حتى وجد مهمة دبلوماسية فى انتظاره . فقد كلف بالتوجه الى الحبشة ومقابلة الامبرطور يوحنا الرابع (1872 ـ 1889) .

(51) Ratzel, op. Cit. 485.

(52) Guenther, op. Cit. 184.

(53) Genschorek, op. Cit. 176.

(54) Kufra, Reise von Tripolis nach der Oase Kufra, Leipzig 1881.

وفى أواخر 1880 غادر المانيا وقابل الامبرطور ثم قدم تقريراً كتابياً الى المستشار بسمارك وتقرير شفوياً الى الامبرطور الالمانى ونشر كتاباً يتضمن مشاهداته فى الحبشة بعنوان «بعثتى الى الحبشة بتكليف من جلالة الامبرطور الالمانى»[55]

وفى الثمانينات أخذت المانيا تتجه نحو الاستعمار وبذلت أقصى جهودها للحصول على حصتها عند تقاسم القارة الافريقية فوضعت يدها على جنوب غرب افريقيا والكاميرون والتوغو وغيرها وفى 1884 أوفد الرحالة باغتيال لرفع الراية الالمانية فى الكاميرون والتوغو[56] .

ان رولفس بعلاقاته المعروفة مع بسمارك والامبرطور كان ولاشك من جملة الشخصيات التى أوكلت اليها مهام فى إطار السياسة الاستعمارية الالمانية . فقد عين قنصلاً عاماً فى زنجبار وأسندت اليه مهمة تشجيع المشاريع الاستعمارية الالمانية فى شرق افريقيا فوصل زنجبار فى يناير 1885 وبدأ نشاطه إلا انه على مايبدو لم يكن الرجل المناسب فى هذا المكان فاستدعى فى نفس العام الى برلين[57] .

وبالطبع حاولت وزارة الخارجية ان تستفيد من خدماته فى مناطق أخرى فعرضت عليه قنصلية القدس فلم يقبلها ثم المغرب فرفضها على اعتبار انه معروف هناك باسلامه وسيتعرض الى إهانات فى حالة كشف أمره فعرضت عليه مسينا ولم يشأ تسلمها . وعلى مايبدو أنه كان يرغب أن يصبح قنصلاً فى طرابلس إلا أن وزارة الخارجية الالمانية كانت تعتبر أن المصالح الالمانية فى ليبيا لم تكن على درجة كافية من الحساسية بحيث يتطلب الامر وجود قنصل خاص بها . وكلف أحد اليهود بتولى أمور الوكالة القنصلية الالمانية فى طرابلس واستمر الوضع كذلك حتى 1907 عندما تسلم رجل أعمال المانى الوكالة القنصلية ثم رفعت هذه الى مرتبة قنصلية[58] .

54 ـ العنوان بالألمانية :

Meine Mission nach Abessinien auf Befehl. Seiner Majestat des Deutchen Kaisers. Leipzig 1884.

(55)

(56) Genschorek, op. Cit. P. 197.

(57) Ibid, P. 207 sq.

58 ـ عماد الدين غانم ، المصالح الالمانية فى ليبيا «مجلة البحوث التاريخية» 5 (1983) . ص 37 ومابعدها ، انظر ايضا مقالنا «تقرير قنصل الرايخ حول نتائج السنة الأولى من الغزو الايطالى «مجلة البحوث التاريخية» ، 2 (1983 م) ، ص 275 ومابعدها .

وخلال الثمانينات ركز ولفس جهوده على الدعوة الى السياسة الاستعمارية وإذا كانت هذه الدعوة تظهر فى السبعينات خلال محاضراته وتتسم بالعمومية ، فانها لم تلبث أن أصبحت فى الثمانينات محددة فقد دعا ألمانيا الى استعمار الصومال كما دعا الالمان الى الاستيطان فى المنطقة الشرقية من ليبيا ، ونشط اعلامياً فى سبيل هذا الموضوع[59] فقد كان سقوط الدولة العثمانية تدريجياً مسألة وقت وفى 1890 قال أن ايطاليا ستقدم على استعمار طرابلس الغرب وأراد أن يستبق الالمان الاحداث وأن يستعمروا المنطقة الشرقية من الولاية ونشر مقالاً فى جريدة كولونيا الواسعة الانتشار Kolnische Zeitung بحث فيه على الاقدام على هذه الخطوة ، وحاول مقابلة الامبرطور والمستشار لهذا الغرض !! الا إنهما رفضا ذلك لاعتبارات سياسية تخص علاقات المانيا بالدولة العثمانية وايطاليا[60] .

على ان المقال أثار اهتمام رئيس الرابطة الاستعمارية الالمانية الامير هو هنلوهه لاندنبرغ وطلب من رولفس معلومات اضافية حول الموضوع ، فكتب إليه رسالة نورد ترجمتها ضمن الملاحق[61] .

بعد عودة رولفس من زنجبار فى 1885 تراجع نشاطه وقلما وضع مؤلفات ولم نعد نسمع عنه الكثير ، فقد انكفأ فى بيته الذى بناه فى رونغسدورف على مقربة من بون ـ بادغود سبرغ العاصمة الدبلوماسية لالمانيا الاتحادية حالياً وطلبت منه زوجته أن يكتب أو يملى عليها مذكراته فلم يفعل وتوفى فى يونية 1896 بعد أن بلغ الخامسة والستين من العمر .

ويعود اسم رولفس للظهور بعد وفاته بفترة طويلة فى حمأة الاستعداد لغزو ليبيا . فقد نشرت جريدة لاراجونى La Ragione الايطالية فى سبتمبر 1911 رسائل زعم أنها تبودلت بين رولفس والرحالة الايطالى كامبريو وبين كريسبى ، وتتضمن هذه الرسائل دعوة إيطاليا الاستعمار برقة ذات الغلال الوفيرة وقد تبين أن هذه الرسائل مزورة[62] .

---

(59) "Colonisation in Cyrenaika". **Unsere Zeit,** 1880, PP. 29-39.

(60) Guenther, op. Cit. P. 256.

61 ـ انظر الملحق الاول .

62 ـ باولو مالتيزى «ارض الميعاد» ترجمة عبدالرحمن سالم العجيلى ، طرابلس : مركز دراسة جهاد الليبيين منذ الغزو الايطالى ، 1979 ، ص 124 .

لقد أشرنا خلال ماتقدم الى مؤلفات رولفس وتشكل رحلاته أهم كتبه نذكرها هنا حسب تواريخ صدورها بصيغة كتاب ، إذ أن مادة هذه الكتب كانت قد نشرت كمقالات وتقارير فى مجلة أخبار بيترمان :

ـ رحلة عبر المغرب : صعود الاطلس الكبير ـ واحات تافيلالت . توات ـ تبدكلت والرحلة عبر الصحراء الكبرى الى غدامس ثم طرابلس 1868 .

ـ مع الحملة الانجليزية على الحبشة بتكليف من جلالة ملك بروسيا 1878 .

ـ من طرابلس الى الاسكندرية . جزءان 1870 .

ـ رحلتى الاولى الى المغرب ووصولى الى وادى درعه وواحة تافيلالت 1873 .

ـ عبر افريقيا : من البحر المتوسط الى بحيرة تشاد والى الخليج غينيا 1874 ـ 1875 . جزءان .

ـ الكفرة : رحلة من طرابلس الى واحة الكفرة بتكليف من الجمعية الافريقية الالمانية 1881 .

ـ بعثة لدراسة الصحراء الليبية باشراف صاحب السمو خديوى مصر 1883 .

ـ بعثتى الى الحبشة بتكليف من الامبرطور الألمانى 1883 .

ملاحظات حول كتاب عبر افريقيا وترجمته :

إن الصيغة التى صدر بها كتاب «عبر افريقيا» ـ الذى نقدم الجزء الاول منه ويمثل رحلة رولفس من طرابلس الى كوكه عاصمة برنو ـ تمثل تحريراً وتنقيحاً ليوميات رولفس حول رحلته . وكان هذه اليوميات قد صدرت فى عددين ملخصين بمجلة بيترمان «أنباء جغرافية geographische Mitteilungen» خلال عامى 1886 ـ 1869 . وجاء الكتاب فى اثر هذه الصياغة متسماً باسلوب جذاب وجد كثيراً من القراء وطار بشهرة رولفس . وكان كتاب عبر افريقيا الاساس الذى قامت عليه حركة تكريم رولفس داخل ألمانيا وخارجها وعلى المستويين الرسمى والعلمى كما أعلاه

يعتبر كتاب عبر افريقيا من المؤلفات الكلاسيكية الالمانية حول الصحراء

وهو الى جانب كتابى هيزيش بارت وغوستاف ناختيغال من المصادر الرئيسية فى دراسة المنطقة الوسطى من الصحراء الكبرى خلال القرن التاسع عشر . وقلما نجد دراسة حول هذه المنطقة تخلو من الاشارة الى مؤلفات هؤلاء الرحالين الثلاثة . لقد قدرت المسافة التى قطعها رولفس عبر الصحراء وحدها بحوالى خمسة عشر الف كيلومتر.

وإذا كانت أهمية الكتاب لدى الاوربيين تعود إلى مايقدمه من معلومات جديدة واسماء أماكن لم تعرفها خارطتهم لافريقيا فاننا نرى فيه نموذجاً للمهام التى كان يقوم بها الرحالة الاوربى فى اطار التمهيد للنفوذ الاستعمارى والذى بدأ بتجميع المعلومات حول الارض والشعب فى المناطق التى يرتادونها وافساد العلاقات التاريخية بين العرب والافارقة .

فى المرحلة الاولى من رحلته أى عندما كان فى نطاق ولاية طرابلس الغرب نراه يفتش عن مشكلات الحكم العثمانى والقهر والعسف الذى يمارسه ضد العرب ليخرج بنتيجة مؤداها أنه يجب على القوى الاوربية أن تستعمر ليبيا لان العثمانيين غير قادرين على القيام بدور حضارى[65] .

ويكرر نفس الموقف عندما يتناول حكم أولاد محمد فى فزان ويتحدث عن محمد البصيركى سليل أولاد محمد . وكيف دعاه الى الاقتران بابنته ثم الاستعانة بالقوى الاوربية فى القضاء على الحكم العثمانى[66] .

لقد درس رولفس القوة العسكرية فى دواخل ليبيا خلال اقامته فى مرزق كما درس القوة العسكرية فى برنو وتطرق الى تركيبة الحكم والمشكلات القائمة . وفى كل ذلك اشارة الى مايمكن أن يجابه التغلغل الاوربى وظل يسعى الى تحقيق هذا الهدف الى أن أعلنه بوضوح ودعا الالمان الى استعمار الشرق الليبى[67] .

---

(63) Guenther, op. Cit. P. 243.
(64) Ibid.
(65) Ibid, 247.
(66) Quer durch Afrika. I, 167.

67 ـ انظر الملحق الاول

والعجيب فى الامر ان رولفس الذى ظل يتعامل على مدى ثلاثين عاماً أى منذ انخراطه 1855 فى الغرفة الاجنبية بالجزائر حتى تعيينه قنصلاً فى زنجبار ـ مع العرب والمسلمين ، لايدع مناسبة تفوته دون أن ينفث سماً وحقداً عليهم ، ويشكك بكل ماعرفوا به من كرم وشجاعة ومروءة وحضارة[68] .

والاغرب من ذلك أنه يتهم الاسلام بتعبئة أتباعه بالحقد على النصارى وبممارسة تجارة الرق[69] وينسى التاريخ الاوربى والويلات التى أنزلها الاوربيون بافريقيا على مدى قرون وأساليب صيد البشر التى نظموها وأدت الى خسارة افريقيا لشبابها ويقدر هذا الاستنزاف بحوالى مائة مليون افريقى[70] وشاركت فى ذلك معظم الدول الافريقية من البرتغال الى اسبانيا الى فرنسا الى هولندا الى السويد على أن الدور الانجليزى كان الاهم .

فقد شرع الانجليز فى العام 1651 فى تجارة الرق وبلغوا فى العام 1800 ذروة نشاطهم جيث كان عدد البحارة العاملين فى نقل الرقيق الى المستعمرات البريطانية وخاصة الى امريكا 18400 بحار وبلغ عدد السفن المخصصة لهذا الغرض 25٪ من سفن لڤربول . وبلغ عدد الرقيق الذى وصل الى امريكا ثلاثين مليون افريقى مات منهم ضعف او ثلاثة امثال هذا العدد فى عمليات الصيد الوحشية فى ظل الظروف الوحشية التى كانوا يعانون منها خلال الطريق وفى عملهم الجديد[71] واذا كان رولفس قد كلف بمراقبة تجارة الرقيق بين بلاد السودان وبين سواحل الشمال فانه لم يذكر عددا يمكن ان يقارن مع الارقام الاوروبية ولم يذكر عددا يزيد على العشرات ويعترف ان بعض ممثلى الدول الاوروبية كانوا ضالعين فى ذلك وبخاصة قاقليوفى وكيل بريطانيا بمرزق[72] .

ويقتصر دور رولفس على ما يدعيه من رصد تجارة الرقيق بل يدعو القوى الاوروبية سواء انجلترا أو فرنسا او المانيا لتأسيس وكالة دائمة لها فى فزان

---

(68) Kufra, P. 244.
(69) Quer durch Afrika, P. 253.
(70) Genschorek, op. Cit. 104.
(71) Ibid. P. 104 sq.
(72) Quer durch Afrika, P. 171.

وغدامس بحيث تعمل فى ظلها احدى المؤسسات التبشيرية وتعمل على شراء الارقاء وتقوم بتعليمهم وتربيتهم بحيث يمكن على هذا الوجه تأسيس مجموعة سكانية مسيحية[73] .

على اننا عندما نقف على الفكر الاستعماري والعنصرى لرولفس وننبه القارىء الى ما تتضمنه كتب الرحلات من معلومات قد تبدو لنا لاول وهلة عديمة الاهمية الا انها كانت تعتمد على وضع الخطط والسياسات ، كل هذه المثالب لا تفقد كتاب « عبر افريقيا » قيمته المصدرية ، فهو يقدم وصفا حيا للاحوال الاقتصادية والاجتماعية فى عدد من مدن الدواخل الليبية مثل غدامس ومزدة وسبها ومرزق والقطرون وتجرهى كما يقدم وصفا حيا لمدينة كوكه عاصمة بورنو ولسوقها والحركة التجارية والثقافة فيها . وعندما يسرد تاريخ فزان معتمداً على مقتطفات أخذها من قيود مصطفى خوجة حول سلالة اولاد محمد ، يحاول ان يكمل هذا التاريخ على ضوء ما ورد عن الرحالة الاخرين وما سمعه من روايات شفوية ويشير الى مصدر تاريخى آخر لم يطلع عليه يؤرخ لفزان خلال الفترة ما قبل حكم اولاد محمد ويحدد اسم الفقيه الذى كان يملك هذا التاريخ اذا يقول « وحسب معرفتى يوجد فى مرزق تاريخ آخر فى حوزة الفقيه الحاج ابراهيم يتبع سلطنة فزان منذ تأسيسها[73] .

يعتبر رولفس فى كتابه « عبر افريقيا » مصدر اساسيا لوجود العرب فى افريقيا ولدراسة الروابط القائمة بين وسط افريقيا والشمال العربى ، فالعرب ينظمون القوافل ويحمونها واللغة العربية هى اللغة الرسمية فى بلاط الاسرة الكانمية فى بورنو ، ويشكل العرب عنصرا اساسيا فى مجلس السلطان اليومى ، ولباس السلطان الكانمى الشيخ عمر 1835 ـ 1881 لا يختلف عن لباس تاجر طرابلسى ثرى ، ومدرسة كوكه العليا تضم عددا يتراوح بين الفى او ثلاثة الاف طالب وتدرس العلوم العربية والعلوم الاسلامية[75] .

ومثلما يعتبر هذا الكتاب مصدرا للوجود العربى فى وسط افريقيا ، يتضمن معلومات هامة حول الاستعمار الاوروبى للتسلل الى وسط افريقيا ، وحول دور الرحالين فى ربط العلاقات الاوروبية الافريقية ، فقد اقترح رولفس على الحكومة الالمانية بتقديم هدايا الى سلطان بورنو وأقنعها بذلك وتولى تأمين

(73) Ibid.
(74) Ibid. P. 143.
(75) Ibid, P. 342.

ارسال الهدية الى كوكه وكلف بذلك غوستاف ناختغال . وقد اقترن التقدم الاوروبى بالقضاء على الوجود العربى .

ان هذا الكتاب يدعونا الى التأمل كيف تغيرت الاحوال تغيرا تاما خلال قرن من الزمن على مختلف الاصعدة . وكيف تمكن الاوروبيون من احداث حزق فى العلاقات وتثبيت دعائم نفوذهم . وإنها لمدعاة لنقد الذات ودعوة الى ربط العلاقات ووضعها على ركائز جديدة

وأخيرا لم تنجز ترجمة الجزء الاول من كتاب « عبر افريقيا » دون مصاعب . فقد عانيت من اسماء الاعلام ، والامكنة والنباتات ، واعتمدت فى قراءة الاسماء على ان رولفس قد كتب الاسماء كما سمعها فحرف « القاف » مثلا يكتبه g وليس « q » أو kوغالبا ما يكتب الغين بالطريقة الفرنسية rhوفى بعض الاحيان يكتبها gh ، كما يكتب « الجيم » dj ونظرا لعدم توفر اطلس عربى يركن اليه ، فقد اجتهدت فى قراءة الاسماء بعد ان أخذت عدة نماذج من الكلمات الشهيرة وعرفت الطريقة التى يعتمدها فى كتلبتها الحروف اللاتينية ثم حاولت منها ان اتعرف على اسماء المدن أو المواضع الاقل شهرة .وما من شك انى وقعت فى أخطاء عند كتابة اسماء بعض الاماكن . اما ترجمة النص فقد سعيت الى تحقيق نصيب كبير من الدقة آخذ بعين الاعتبار أن هذا النص سيكون مصدر للدارسين .

وجل ما أرجوه أن اكون قد وفقت فى تقديم هذا النص الهام بصورة مفيدة والله من وراء القصد .

طرابلس فى مايو 1987

د . عماد الدين غانم
وحدة البحوث التاريخية
مركز بحوث العلوم الانسانية ـ طرابلس

ملاحق - مقدمة المترجم

ـ الملحق الاول ـ

رسالة رولفس الى الامير هوهن لوى لاندبيرغ رئيس الرابطة الاستعمارية برلين*

غودسبرغ فى 1890/9/25 م

سمو الامير

بادىء ذى بدء اتوجه الى سموكم بخالص شكرى على رسالتكم الكريمة التى وجهتموها الى اثر مقالى عن برقة واسمحوا لى ان أبين لكم كيف خطرت برقة على بالى .

عندما كنت اقطن فايمار** ـ التى غادرتها قبل سنة ـ القيت محاضرة قبل خمسة عشر عاما عن برقة التى زارها بارت قبلى . وفى هذه المحاضرة التى القيت فى 1874/73 ، قبل مدة طويلة من بدء سياستنا الاستعمارية اشرت الى جدوى الاستيطان فى برقة ورأى كونت فايمار ان هذه المنطقة يجب ان تصبح المانية . وكنت اعرف وقتئذ ان مثل هذا المخطط لا اساس له . وفى نهاية العام الماضى عندما كنت اتأمل النجاح الرائع الذى حققته طموحاتنا الاستعمارية وضعت للكونت مخططا لجعل برقة المانية وكتبت مذكرة لعرضها على الامبرطور ووعدنى بذلك . على ان مثل هذا يصطدم بصعوبة حالية اثر علاقاتنا مع تركيا وايطاليا . ان تركيا حساسة جدا لما يسمى مبدأ سيادتها واما ايطاليا فتنظر الى ان منطقة برقة عبارة عن جزء متكامل مع منطقة طرابلس . وفى 9 من اغسطس كتب الى الكونت عن المصاعب التى يواجهها الرايخ فى تثبيت مستعمراته فى افريقيا ويرى انه من الصعب تقديم مثل هذه المذكرة طالما ان المفاوضات الشائكة لم تلبث ان انتهت فقد توقظ حساسيات دول اخرى .

---

* نشر غونتر (Guenther) الرسالة فى كتابه عن رولفس ص 256 ـ 259 (انظر العنوان فى الهامش 8)

** تقع حاليا فى ألمانيا الديمقراطية وكانت لفترة طويلة العاصمة الثقافية لألمانيا وعلى وجه الخصوص خلال القرنين الثامن والتاسع عشر وعاش فيها رولفس بعد زواجه وكان ذا حظوة لدى اميرها .

* محفوظة مع الاصل فى السراى الحمراء بطرابلس ـ المحفوظات التاريخية الملف رقم 5 .

وفى اثر ذلك فكرت انه اذا ماكان موقف الحكومة سلبيا فلا ضير اذا ما دعونا الشعب الالمانى للهجرة الى برقة . ونشرت ذلك المقال فى جريدة كولونيا (Kol-nische Zeitung) وأرسلت قصاصة من الجريدة تحتوى المقال الى المستشار وطلبت منه ان يضع تحت تصرفى بضعة آلاف من الماركات بحيث اسافر الى تلك المنطقة واركز على الاراضى الزراعية ولا أشك فى جودة التربة فى تلك المنطقة ولو ان بعض الباحثين ينتقدوننى بانى لم اهتم الاهتمام الكافى بالزراعة خلال رحلتى 1869و1881 .

وجاء الجواب [من المستشارية] أن المخصصات قد صرفت وكانت اللهجة حادة . وبغض النظر عن مخططى توطين مزارعين فى برقة فقد كتب الى سيد من برلين يطلب نصيحتى بخصوص برقة . ويبدو ان جمعية يهودية ـ ربما الاتحاد الاسرائيلى ـ بصدد جمع مبالغ كبيرة لدفع يهود تونس وطرابلس للهجرة الى برقة . واشار السيد المذكور الى ان الداعى الى ذلك هو مايعانونه من اضطهاد ، وقد كتبت اليه ان يدعو اليهود الالمان للهجرة الى هناك . فلدينا عدد لابأس به من اليهود المعدمين الذين يمكن ان يهاجروا الى برقة ويعملون للصالح الوطنى . من يستطيع ان يضطلع بحماية اليهود الفقراء من تونس وطرابلس تجاه الموظفين الاتراك طالما انهم لم يحصلوا على حماية قنصل . فالباب العالى مازال يعتبر الرعايا الجزائريين والتونسيين عثمانيين واليهود فى طرابلس الغرب هم فى الحقيقة رعايا عثمانيون . .

[ثم ينصح بالحصول على موافقة الباب العالى بالخصوص ويعتبر الامر غير معقد لصداقة الحاكمين كما يعتبر انه من الضرورى الحصول على موافقة محمد المهدى السنوسى فى الجغبوب اذ ان ذلك يسهل شراء الاراضى وباسعار رخيصة ثم يمضى قائلا :]

لقد توقعت ان تظهر ردة فعل من جانب الجرائد الاجنبية على المقال وبخاصة الايطالية اد اننى بينت استقلال برقة عن طرابلس [اداريا] . . . ومن المؤكد ان البحر المتوسط لم يعد هاما لأوروبا كما كان فى القديم الا انه يجب ان تكون لدينا مستعمرة على البحر المتوسط وعلى الاقل لصالح اسطولنا الذى تتزايد حركته فى البحر المتوسط . وان برقة لاتثير حساسية احد سوى الايطاليين .

وفى 2 من سبتمبر وصلتنى رسالة من شخص يطلب فيها تشكيل شركة مساهمة ويقول انه قد درس الزراعة وينبغى ان ينشط فى هذا المجال .

الملحق الثانى

* نص الرسالة التى وجهها والى طرابلس الغرب الى القنصلية الايطالية بشأن رحلة رولفس الى الكفرة 1878 ـ 1879 ترجمها الأستاذ محمد الاسطى الى العربية وهى محفوظة وترجمتها فى السراى الحمراء بطرابلس ـ المحفوظات التاريخية ـ الملف 5 .

الملحق الثالث

ترجمة رسالة والى طرابلس الغرب الى القنصلية الايطالية

الى قنصلية دولة ايطاليا

صاحب الرتبة حضرة الموسيو القنصل .

احد تقاريركم المؤرخ فى 21 تشرين الثانى (نوفمبر 1878 لاخطارنا باعطاء رخصة سفر الى الموسيو شواليه رولفس السائح التابع لدولة المانيا الذى سيقوم برحلة الى السودان مع رفقائه وترفيق ادلاء له من فرسان الكول أو غلية الى سوكنه . ورغما على ماجاء فى الامر السامى الذى بيده انه سيقوم بهذه الرحلة باسم مستعار وهو مصطفى بك فانه أظهر رغبته بحضوركم باذ، يحرر اسمه الاصلى فى مرسوم رخصة السياحة . وعليه ارسلنا امرنا الى متصرف فزان صاحب العزة على باسم رولفس ونبهنا على صاحب العزة باش آغا ان يخصص فارسا من الكول اوغليه ليرافقه الى سوكنة . ومع ان الحكومة سارعت فى تقديم التسهيلات والمساعدات الممكنة للموصى اليه ورفقائه فى سياحتهم التى اختاروها خدمة للعلم والمعرفة فانه يجب تبليغ المذكور اجتناب الطرق الخالية من العابرين ومحلات تجول العربان والعشائر الرحل البعيدة عن انظار الحكومة التى أمنها غير مضمون . اعد ببان ذلك من واجباتى والتمس من همتكم وصداقتكم تبليغ المومى اليه بذلك واتخذ هذه المناسبة لتأكيد احتراماتى الفائقة .

21 ذى الحجة 1265 ـ 2 كانون الاول 1294
15 ديسمبر 1878م .

الوالى

ملاحظة :
يظهر ان قنصل ايطاليا وكيل على مصالح الرعايا الالمان .
المترجم/محمد الاسطى .

* محفوظ فى السراى الحمراء ـ المحفوظات التاريخية .

الملحق الرابع

تقرير من منصور المجبر الى الوالى العثمانى*

والى ولايت طرابلس غرب

دولتلو افندم حضر تلرى .

قد تشرف عبدكم بورود امركم السامى المؤرخ 11 محرم 96[12] مسأل علياى ان احد تبعث دولت الالمانيا الفخيمة موسوا[1] رولفس ومن معه الموجهون الى بر السوادين لما بلغو الشرشارة واجهتهم مشكلات عاقتهم عن السفر على ما استفيد من قنصلانيت دولة الايتاليا الفخيمة وحيث انه متوجه الى سوكنه فى مقدار القول غليه فاذا ظهر له الرجوع من تلقاء نفسه فبها واذا صمم على الذهاب فلتكونو فى رفقته ومحافظين اليه حتى يصل الى سوكنه الى آخر مابه والحال افندم لدا قدوم عبدكم العاجز الى قضاء ترهونة بواد ملغة سئلنا عنه وجدناه بالشرشارة بقبر قصر الحكومة توجهت له بالذات وافدته بحضور قايمقام ترهونة على موجب امركم المطاع الواجب له القبول والتباع بانه ورد لنا أمر نامه سامى فى حقك ان كنت جازم عن السفر فلتكن برفقتنا الى سوكنة وان جزمت عن الاقامة اعطى لنا جواب لنكونو على بصيرة فاجابنى ان له ملاحظة وتخميم وانت ارجع الى منزلك فان جزمت عن السفر صباحا نعرفك . ويوم الثلاث ارسل لنا رقاص[2] بجواب وفيه يذكر انه حزم على السفر والملاقات بوادى تنزيوه وقد رحلنا وتبعناه وبقينا ننظرو فيه مقدار سعتين ولولى رفقته وابطاء حركته فى الرحيل والنزول لقطعنا المسافت وتجاوزنا نصف الطريق وامتثالا للامر بناحيتكم ها نحنو نساعدو فيه وفق الامر ويوم الخميس

* أصل التقرير محفوظ فى السراى الحمراء بطرابلس ، المحفوظات التاريخية .
1 ـ الاصح موسيو .
2 ـ يعنى مراسل .

وصلنا وزفلة على أحسن حال وطلب الاقامة يوم الجمعة ورافقناه وان شاء الله يوم السبت وبعون الله وانفاس دولتكم السمية نبلغوه الى سوكنة وربنا بمنه العون يجيب تصرفاتنا فيما يرضى به دولتكم العلية ولاجل ذلك تجاسر عبدكم بتقديم هاذه العريظة الى تراب اقدامكم الكريمة وباقى الامر والفرمان لحضرت من له الفضلى والاحسان.

افندم 17 محرم 96 مقبل نعل اقدامكم عبدكم
منصور المجبر
خاتم مدور

الملحق الخامس

اصل تقرير منصور المجبر الى الوالى العثمانى

* محفوظ فى السراى الحمراء « المحفوظات التاريخية »

الملحق السادس

مسودة رسالة من الولاية الى قائمقامية فزان*

الى فزان

17 شوال 1286 ـ 7 كانون الثانى 1285

20 يناير 1870

رقم 242

قد استفيد ان احدى معتبرى دولة البروصيه (المانيا) المسمى نختكار** الموجود الان بمرزق مراده التوجه الى طرف حاكم برنوح بالهدية التى معه وصار الالتماس اليكم فى حقه بناء على ذلك اذا وجد الموصى اليه قافلة متوجهة الى ذلك الطرف وأراد التوجه معها وحصلت له الأمنية بذلك وهو أدرى بمصلحة نفسه واذا طلب التوجه وحده من غير قافلة فليكن تأمينه بخفراء يرافقونه الى حدود هذه الولاية ويرجعون اليكم مع ايفاء التسهيلات السفرية المقتضية فى حقه بالتوفيق الى النظام فاجعلوا همة مادام بحدود الولاية وفق المنوال المحرر ولهذا تحرير الثقة .

ناقلها/محمد الاسطى

---

* حررت هذه الرسالة بعد أن قام رولفس بتسليم هدايا ملك بروسيا الى الرحالة غوستاف ناختيغال فى طرابلس ليقوم بتقديمها الى سلطان بورنو. السراى الحمراء ـ المحفوظات التاريخية (الملف رقم 5)

** المقصود الرحالة غوستاف ناختيغال .

الملحق السابع

الملحق السابع

قد استفيد ان احد معتبرى دولة البروصية المسمى نختكار الموجود الان بمرزق واراده التوجه الى طرف حاكم برنوح بالهدية التى معه وصار التماس توصيتكم عليه بناء على ذلك اذا وجد الموصى اليه قافلة متوجهة الى ذلك الطرف واراد التوجه معها وحصلت له الامنية بذلك واذا طلب التوجه وحده من غير قافلة فليكن تامينه بخفراء يرافقونه الى حدود الولاية مع ايفاء التسهيلات السفرية المقتضية بالتوفيق الى النظام فاجعلوا همة وفق المنوال المحرر ولهذا تحرير الثقة

---

* اصل مسودة الرسالة وهى محفوظة فى السراى الحمراء بطرابلس ـ المحفوظات التاريخية الملف رقم 5 .

عبر افريقيا

الملحق الثامن*

مصطفى بى Godesberg 8. II. 1893.

Lieber Georg,

aus: Nachlass Guenther IV B

* نموذج من رسائل رولفس وقد كتب فى بدايتها بالعربية اسمه الذى عرف به خلال رحلاته (مصطفى بى أو مصطفى بى النمسى) وأهم هذه الرسائل ما وجد فى تركة (Guenther) مؤلف سيرة رولفس (انظر عنوان كتابه فى الهامش 8) ويحتفظ قسم الوثائق والمحفوظات بمركز دراسة جهاد الليبيين بطرابلس بمجموعة طيبة من هذه الرسائل قمنا بتصويرها من المكتبات الالمانية المختلفة وعلى وجه الخصوص برلين ، ميونخ ، بريمن ، هانوفر .

مقدمة المؤلف

أقدم إلى الجمهور فى هذا الكتاب وصفا لرحلتى التى قمت بها خلال السنوات 1865 حتى 1867 عبر الصحراء إلى بحيرة تشاد ، وإلى بورنو - وواندلة وإلى لوكويا الواقعة على نهر النيجر عند بلاد الهاوسا والبولو وإلى منطقتى نوبى ويوروبا .

من المعلوم أن وصف هذه الرحلة نشر فى معظمه فى ملحقين لمجلة (Peter-manns Mitteilungen) الا أنهما لم يتضمنا التقرير الخاص بالثلث الاول من هذه الرحلة والذى يتضمن سير الرحلة من طرابلس حتى غدامس ، ومنها إلى فزان عبر مزدة سلكت خلالها طريقاً جديداً . كما أضفت إلى ما نشرته فى الملحقين المذكورين تحقيقات وتصحيحات وملاحظات جديدة . وهكذا فان هذا الكتاب يقدم للقارىء صورة متكاملة عن الرحلة بتمامها من طرابلس حتى لاغوس الواقعة على خليج غينيا .

وقد وجدت أنه ليس من الضرورى أن أضمن هذا الكتاب ملاحظات دكتور هان (Dr Hahn) حول الظروف المناخية وخريطة بذلك . ومن يهتم بهذه الامور يمكنه الرجوع إلى الملحق 34 من مجلة Petemanns Mitteilungen .

لقد حاولت أكتب أسماء الامكنة والكلمات المأخوذة من اللغات الافريقية المختلفة بحروف لغتنا قدر الامكان ، وبالشكل الذى يلفظها به سكان المنطقة . وان الحركات التى أضعها أحيانا تساعد فقط على تحديد طريقة النطق .

ان الخريطتين اللتين ضمنتهما هذا الكتاب ، انما تمثل أولاهما القسم الاول من رحلتى من طرابلس حتى مرزق ومن مرزق حتى كوكة ويما القسم الثانى فتمثله الخريطة فنى التى ترسم الطريق من كوكة حتى قجبة ومن قجبة حتى لاغوس .

وقد أعددت هاتين الخريطتين على أساس الخرائط التى وضعها الدكتور بيترمان (Petermann) من أجل الملحقين 25 و 34 لمجلة (Petermanns

(Mitteilungen) وقد رسمت فى الخريطة الاولى فقط منطقة تبستى كما ورد وضعها فى الابحاث الجديدة التى قام بها غوستاف ناختيغال والتى نجدها فى اللوحة 15 من مجلد سنة 1870 للمجلة المذكورة .

والآن وعندما شرعت بطبع هذا الكتاب ، كلفنى خديوى مصر بالمهمة المشرفة أن أقوم برحلة عبر الصحراء الليبية . وعليه فأننى أرجو قبول اعتذارى أن لا يصدر الجزء الثانى من هذا الكتاب مباشرة بعد هذا الجزء وينما سيتلوه بعد حين .

قيمار يونيو (حزيران) 1874 . = غيرهارد رولفس =

طرابلس والرحلة الى لبدة

فى نهاية سنة 1864 وصلت طرابلس قادما من رحلتى عبر اطلس المغرب عن طريق تافيلالت وتوات والصحراء . وكنت انوى البقاء فى طرابلس معرضا عن السفر الى اوروبا ، الا ان شوقى لرؤية اشقائى بعد غربة طويلة الامد ، وتفكيرى الطويل بالمخطط الذى وضعته من اجل القيام برحلة الى اواسط افريقيا ، واقتناعى انه من الاجدى التواجد شخصيا فى برلين وغوتا[1] وبريمن وعرض هذا المخطط بحيث يلقى الدعم وعدم الاكتفاء بالمراسلات كل هذه الاسباب ادت الى تغيير رأيى . وبالطبع لم يقدر لى ان اتواجد فى اوروبا خلال شتاء سنة 1864 ـ 1865 .

وقلما تجاوزت نطاق البحر المتوسط وبلغت باريس ، حتى اعترتنى آلام جراحى الناتجة عن الرصاصات التى اصابتنى ، هذه الجرح التى بقيت مفتوحة[2] ، على اثر ذلك فكرت انه من الافضل تخفيض مدة اقامتى فى المانيا قدر الامكان . فبعد زيارة قصيرة لاشقائى فى بريمن سافرت بسرعة الى غوتا حيث اتيحت لى الفرصة ان اشكر شخصيا ذلك الرجل الذى اعاننى خلال رحلتى فى المغرب ، انه الدكتور بيترمان (Dr . Petermann) لقد ناقشت معه بالتفصيل مخططى من اجل القيام برحلة انطلاقا من طرابلس عبر غدامس وان اسير على امتداد الايغفر او فى واديه حتى اصل ايدلس وان اصعد هضبة الهقار واتوغل الى النيجر بعد ان اسلك الجانب الجنوبى الغربى من هذه الهضبة متبعا فى ذلك تاخرت . لقد سبق ان سلك منطقة الا يغفر الرحالة بودربه[3] وقدم برهانا انه من الممكن سلوك هذا الطريق . لم يكن من الصعب على ان اقوم على كل حال برحلتى عبر الطريق المذكور اذ ان سى عثمان بن بكرى[4] الذى يقدم الحماية لرحلتى كان بإمكانه ان يوصلنى الى

(1) حيث كان مقر مجلة بيترمان الجغرافية التى تدعم الرحالين وتنشر تقارير رحلاتهم ويشرف عليها الدكتور اوغست بيترمان 1822 ـ 1878 الذى يرد ذكره فى طيات هذا الكتاب وقد نشرت تقارير هذه الرحلة لاول مرة فى ملحقين تابعين لهذه المجلة . (م .)

(2) يشير بذلك الى الجراح التى تعرض لها اثر حادث وقع له فى المغرب . (انظر المقدمة اعلاه ، ص (م)

(3) اسماعيل ابو دربه من الجزائر كان يعمل فى المكتب العسكرى الفرنسى بالاغواط وعمل ترجمانا ودليلا لبعثة ميرشر العسكرية الفرنسية التى حاولت تدعيم النفوذ الفرنسى فى دواخل الجزائر (انظر مورى الرحالة والكشف الجغرافى فى ليبيا تعريب خليفة التليسى ، ص 69 ومابعدها)

(4) سبق للحكومة الفرنسية ان اعتمدت عليه فى تدعيم نفوذها لدى القبائل الجزائرية (انظر مورى . المصدر السابق ص 69)

ايدلس ومن ثم كان يمكن ان يساعدنى بحيث اتوغل الى مسافة ابعد عن طريق علاقاته بالطوارق .

ومن المؤسف ان الدكتور بارت[1] لم يقتنع بهذا المخطط الذى وضع من قبل بيترمان بناء على معلوماتى . واما حجة بارت فى موقفه هذا . هو ان سلامتى غير مضمونة ، وذلك ان الناس فى طرابلس قد علموا اننى نصرانى وان تصرفاتى ماهى سوى قناع واه . ولكننى غالبا مازرت فيما بعد جامع غدامس ، ولم يشك احد فى اسلامى . وان الوضع فى افريقيا لايختلف عما هو فى مناطق العالم الاخرى ، فالطرق الامينة والمطروقة عادة هى تلك التى تسير على ضفة نهر او على امتداد الوديان والمنخفضات . واقترح بارت عوضا عن المخطط المذكور ان اسير عبر منطقة التدا الى وادى ودارفور وان احاول من هناك ان ابلغ المنابع الغربية للنيل .

لاشك ان هذا الهدف لايقل اهمية عما انا بصدده الا انه لايقل صعوبة عن توغلى الى النيجر عن طريق ايدلس ولنتذكر الصعوبات التى جابهت ناختيغال (Nachtigal)[2] فى التبستى ، ولنتذكر ايضا رحلة محمد التونسى[3] ، وكذلك مقتل ڤوغل (Vogel)[4] وبويرمان (Beuermann)[5] .

وهكذا كنت ارغب ان اجتمع مع بارت واتحدث معه عن امور عديدة ، ان اخى هرمان الذى كان يخاف على بسبب الشتاء القاسى ويرعانى كما يرعى الاب ابنه ، رافقنى الى غوتا وبرلين ، وان الساعات التى قضيناها فى بيت بارت وضيافته لن ننساها ابدا . وعلى الرغم من الرعاية التى خصنى بها اخى الا ان البرد القاسى سبب آلاما فى جروحى ولما كنت لا ارغب ان اضطر

---

(1) هينرش بارت 1821 ـ 1865 عرف برحلته الشهيرة التى استغرقت قرابة خمس سنوات ونصف وشملت المنطقة من طرابلس حتى كوكة (انظر عماد الدين غانم (محرر) . الصحراء الكبرى . طرابلس : مركز دراسة جهاد الليبيين 1979 . ص 216)

(2ـ) محمد بن عمر التونسى (ت 1857) عرف برحلته الى دارفور ووداى ووضع كتاب تشحيذ الاذهان بسيرة بلاد العرب والسودان .

3ـ غوستاف ناختنيغال (1834 ـ 1885) رحالة المانى عرف برحلته الى تبستى وبورنو ووداى ودارفور ووضع كتاباً هاماً حول فزان وبلاد السودان مازال ذا قيمة علمية .
(انظر مورى ، المصدر السابق ، ص 79 . ومابعدها)

4ـ ادوارد ڤوغل (1829 ـ 1856) رحالة المانى انضم الى رحلة بارت بعد وفاة احد اعضائها وتوجه الى وداى حيث لقى مصرعه (انظر مورى ، المصدر السابق ، ص 57 ومابعدها) .

(5) موريتس بويرمان (1835 ـ 1863) ضابط بروسى ورحالة عرف برحلاته من بنغازى نحو وداى حيث لقى مصرعه (مورى ، المصدر السابق ، ص 72 ومابعدها)

للبقاء فى السرير فقد قررت ان اذهب الى منطقة ذات مناخ دافىء فى اقرب وقت ممكن .

وهكذا فقد غادرت بريمن يوم 23 شباط (فبراير) 1865 بحيث اعود الى طرابلس عبر باريس ـ ومرسيليا ومالطا وزرت فى باريس مالته برن Malte) Brun)[1] ڤيڤيان سانت مارتين (Vivien St Martin)[2] ودوڤيرية (Duveyrier)[3] ومونوار (Maunoir)[4] وخظيت لدى الجميع بحسن الاستقبال . وكان حظى جيدا عندما وجدت فى مالطا وسيلة سفر الى طرابلس ووصلت ارض افريقيا ثانية يوم 19 مارس 1865 وعادة ماينتظر المرء فى مالطا اسابيع عديدة حتى تتسير له فرصة السفر الى طرابلس .

ولعمرى انه لأمر غير عادى ان يقوم المرء برحلة الى وسط افريقيا . ان الرحلات الكبيرة والمترفة ، تكون فى مثل هذا الاقليم سببا للعرقلة . اكثر من ان تكون مثمرة . لاشك ان رحلة بارت التى جهزت بأناقة وسخاء قد تمخضت عن نتائج ممتازة ، ونفذت بالتعاون مع ڤوغل (Voyel) . وريتشارسون (Richardson)[5] واوڤرڤغ (Overweg)م(م[6] وكلفت 100,000 مائة الف تالر الا انها انقسمت الى رحلات مختلفة جزت كل منها بشكل مستقل عن الاخرى .

واما بخصوص التجهيزات التى وضعت تحت تصرف هذه الرحلة فأننى اذكر العربة والسفينة ـ والهدايا النفيسة . وعلى عكس ذلك فقد اخفقت رحلات تينه (Tinne)[7] بأجمعها بسبب التموين الزائد من جهة وبسبب

---

1 فيكتور ادولف مالته برن (1816 ـ 1889) كان يشغل وقتئذ منصب السكرتير العام للجمعية الجغرافية الفرنسية (grand Larousse Ency clo Pedique . t . 7.)

2ـ لويس فيفيان سان مارتين (1802 ـ 1897) جغرافى فرنسى عرف بكتابة حول الشمال الافريقى (grand Larousse Encyclopedique , t . 10)

3 ـ هنرى دوفيريه (1840 ـ 1892) رحالة فرنسى عرف برحلاته فى دواخل الجزائر وليبيا ووضع كتاباً هاماً بعنوان طوارق الشمال (مورى ، المصدر السابق ص 65 ومابعدها)

4ـ شارل مونوار جغرافى فرنسى قام بنشر اجزاء من مؤلفات دوفيريه (مورى ، المصدر السابق ، 69)

5 ـ جيمس ، ريشارسون (1809 ـ 1851) عرف برحلاته فى المغرب العربى وبخاصة ليبيا واعتبرت رحلاته ممهدة لرحلة بارت (مورى ، المصدر السابق : ص 43 ومابعدها)

6ـ ادولف وفيرفيغ (1822 ـ 1852) رحالة رافق بعثة بارت ولقى حتفه (مورى ، المصدر السابق ، ص 51 ومابعدها)

7ـ الكسندرينا تينه (1834 ـ 1869) رحالة هولندية عرفت برحلاتها فى مصر والسودان وليبيا ولقيت حتفها (مورى ، المصدر السابق ص 81 ومابعدها)

غنى هذه الانسة الذى اصبح مشهورا . وكذلك لم يكتب النجاح لرحلة ديكن (Decken)[1] التى جهزت ايضا بمواد كثيرة ومكلفة . وان نتائج رحلة باكر (Baker)[2] ليست على درجة من الفائدة اذا ماقيست بالتكاليف الباهظة ، لقد تمكن الدكتور شڤانيفورت خلال هذه الفترة وفى نفس المناطق من ان يتوصل الى حل مشكلات جغرافية هامة هذا مع العلم انه لم تكن تحت تصرفه سوى وسائل متواضعة .

وعلى ضوء هذه الحقائق لم أخشَ فى يوم من الايام ان اقوم برحلات قاصية فى حين لم يتوفر لدى سوى مبلغ ضئيل نسبيا من المال . لقد انطلقت فى رحلتى الاولى ولم تتوفر لى اية وسائل لذلك . وفى رحلتى الثانية التى قطعت خلالها مسافة تبلغ مثل المسافة بين ليشبونة وميمل ولم اصرف اكثر من 1000 تالر[3] . وفى هذه المرة وضع تحت تصرفى مبلغ من المال قدره 2500 تالر . قدم منه مجلس مدينة بريمن 300 تالر ومنحتنى مؤسسة كارل ريتر (Carl Ritter)[4] فى برلين مبلغ 275 تالر ومابقى من المبلغ وصلنى من غوتا ومن مدينتى بريمن حيث جرت حملة تبرعات لهذا الغرض . وعند استلامى لهذه المبالغ لم توضع اية شروط من اية جهة بخصوص التصرف بها ولم يطلب منى اى التزام ، على عكس ماجرى لڤوغل (Vogel) عندما قدمت له النقود اللازمة لرحلته . وعلى ان اذكر هنا ايضا ان الجمعية الجغرافية فى لندن التى سبق وقدمت لى منحة اقرت مبلغا مناسبا لهذه الرحلة .

وكم كانت الفرحة كبيرة عندما وصل رحالة افريقيا الى هذه القارة التى يعتبرها كوطنه بعد الوقت الطويل التى استغرقته رحلاته فى ارجائها .

نعم ان الفرح بالوصول كان مبررا وبخاصة بعد عبور البحر المتوسط وقد ثارت امواجه . هنا فى افريقيا يأمل هذا الرحالة ان يغنى المعلومات الجغرافية

---

1 - كارل كلارس ديكن (1833 - 1865) رحالة المانى عرف برحلاته فى شرق افريقيا حيث لقى مصرعه (Brockhaus Enzyklopadie 4/361)

2 - السير صامويل وايت باكر (1821 - 1893) رحالة انجليزى عرف برحلته الى منابع النيل (المصدر السابق 233/2)

3 - التالر عملة نمساوية من زمن ماريا تيريزيا كانت تعرف فى طرابلس والدواخل بأسم (بوطير) وكانت متداولة كثيرا وجرينا على استعمال الاسم العام لها وهو تالر .

4 - نسبة الى الجغرافى الالمانى كارل ريتر (1779 - 1850) اسست فى برلين 1860 لتشجيع الرحلات والابحاث الجغرافية .

وان يكشف اقاليم جديدة وجبالا جديدة ، وان يكتشف انهارا وبحيرات[1] كما يأمل ان يجد شعوبا جديدة ذات عادات واديان مغايرة .

ان افريقيا جنة الرحالة ، ماالجديد فى افريقيا (Quid novi ex Africa) كان هذا سؤال الاقدمين . والان يسأل الجغرافيون المعاصرون بالحاح ماهى المكتشفات الجديدة فى افريقيا منذ مطلع هذا القرن منذ ان وطىء بارك (Park)[2] وبوركها ردت (Burkhardt)[3] روبل (Ruppel)[4] . كلابرتون (Clepperton)[5] دنهام (Denham)[6] ليون (Lyon)[7] وفيما بعد بارت (Bart) ، او فرڤغ (Overweg) ريتشادسون ، منذ ان وطىء هؤلاء ارض افريقيا . اخذ الاهتمام يتزايد باستمرار بالبحث عن افريقيا . فقد عقبت رحلة فوغل الاستكشافية رحلة هويغلينغ (Heugling)[8] ورحلة بوبرمان (Beuermann) ، وهذه كانت بصورة غير مباشرة سببا لرحلتى الى بحيرة تشاد .

ان اول مايجب ان يحضره من وطنه رحالة افريقيا او اى شخص يريد ان يبحث فى مناطق غير معروفة ، هو ان يعرف نفسه تماما ، لانه فقط عندما يعرف نفسه تماما وبدقة ، يمكنه ان يأمل بأنه سيخبر الناس ، ومعرفة الناس هى مايحتاجه الرحالة وبخاصة فى افريقيا حيث يقابل يوميا شعوبا واناسا عليه ان يتعرف عليها بدقة ، وان المخاطر لاتأتى الا من جهة واحدة من الناس . واما التأثيرات المناخية فيمكن مقاومتها عن طريق تناول دواء الكينا واما الاخطار التى تسببها الوحوش فهى منعدمة .

---

1 - ان هذه العبارات يجب ان يفهمها القارىء فى الاطار الاوربى ، فالمناطق التى زارها رولفس فى اطار هذا المجلد من رحلته اهتدى اليها بواسطة مرشدين من العرب او ابناء المنطقة

2 - مونغو بارك (1771 - 1805) رحالة المانى عرف برحلته الى نهر النيجر (عماد الدين غانم (محرر) الصحراء الكبرى . ص 293)

3 - يوهان لودفيغ بوركهارت (1784 - 1817) رحالة سويسرى عرف برحلاته الى الجزيرة العربية والشام والنوبة (Brockhaus Enzyklopadie , 3/47.)

4 - فيلهلم بيتر روبل (1794 - 1884) رحالة وعالم طبيعة المانى عرف برحلاته الى جنوب مصر والسودان . (Enc Brit . M : cropaedia 8/720)

5 - هيوغ كلابرتون 1788 - 1827 رحالة انجليزى عرف برحلته الى غرب افريقيا وبرحلته مع اودنى ودنهام من طرابلس الى بورنو عبر مرزق كما قام بزيارة غات . (مورى ، المصدر السابق ، ص 35 ومابعدها)

6 - ديكسون دنهام (1786 - 1828) رحالة انجليزى كان احد اعضاء بعثة اودنى كلابرتون الى بورنو (مورى ، المصدر السابق ، ص 35 ومابعدها)

7 - جورج فرانسيس ليون نقيب فى البحرية البريطانية قام برفقة ريتشى برحلة الى دواخل ليبيا خلال الفترة 1818 - 1820 (مورى ، المصدر السابق ص 24 ومابعدها)

8 - تيودور هو يغلينغ (1824 - 1876) رحالة المانى عرف برحلاته فى اثيوبيا ومنطقة النيل الابيض وبحر الغزال (Enc . Brit . Micropaecsedia , 2/163)

كم يصعب هنا ان يعرف المرء الصديق من العدو . واصعب من هذا ان يأخذ المرء بالمدنية ، والمطلب الثانى من الرحالة ان يتعلم الصبر الى اقصى درجة . وان يتحمل جميع انواع الاجهاد ، والجوع والعطش ، وحتى المرض والصعاب ، من غير هذه المزايا لن يستطيع اى من التوصل الى اواسط افريقيا .

ان الخطوة الاولى وبالاحرى المرحلة الاولى هى مرحلة الصعوبات الكبرى ، وتتمثل هنا فى اختراق الصحراء ، حيث تجابه المرء آلاف من الامور التى لايمكن أن تؤخذ فى الحسبان او ان يفكر بها ، ان رحلة عبر الصحراء تحتاج من الاعداد ماتحتاجه سفرة فى سفينة شراعية كما أن قبطان السفينة الشراعية لايستطيع ان يقول فى اليوم الفلانى سيصل المرفأ الفلانى ، فان قائد القافلة لايستطيع أن يقول أنه يوجد فى النقطة الفلانية ماء ، أو أن يقول بعد كذا يوما سنستريح فى الواحة الفلانية ، ولهذا يجب أن يؤخذ زاد كما هو الامر فى السفر عبر البحر . على الرغم من الخبرة الطويلة فى السفر عبر الصحراء التى تقدر بآلاف السنين ، كم يتعرض الانسان الى مواقف يجد فيها أن مالديه من طعام وماء لايكفيان للرحلة . وأما مايخصنى فقد اشتريت قسما من معداتى في المانيا وفرنسا . فى باريس اشتريت الادوات اللازمة لدى سكريتان (Secretan) مثل مقياس الحرارة والبوصلة . . . كما أشتريت اسلحة لدى لوفوشو وهى فقط للاستعمال الشخصى ، وأشتريت فى الصيدلية المركزية فى مرسيليا 500غ من الكينا 50 غرام أفيون (Opium Extract) ، و 5 غرامات ضد التقيؤ وحمص ، وجود قالى ، وملح انكليزى ، 2000 غرام حمض الليمون من أجل تحضير الليموناده . . . وغيرها من الادوية . وفيما بعد اشتريت فى لافاليتا سجاداً ، وأغطية صوفية ، وحزام للسباحة ، وبنادق ، وذخيرة ، وشاى ، وبعض علب الكونسروة واغراضا اخرى . وفى طرابلس كان على أن أكمل شراء ما أحتاجه .

ان شراء الاغراض فى طرابلس لمن لا يعرف البلد أمر صعب ، فأهل البلد والاوروبيون يرون فى الرحالة الاوروبى غنيمة خاصة يجب أن يستفاد منها . وعلى سبيل المثال عندما يذهب المرء الى السوق ويريد أن يشترى جملا أو اية بضاعة ، يجد أن البائع لايحدد سعرا . فهو يجيب على السؤال كم ثمن هذا ؟ كم تدفع ؟ فماذا يفعل الغريب الذى لايعرف هذه الظروف كم يدفع فى بضاعة لايعرف هو ثمنها التقريبى .

وكان ينقضى الكثير من أجل أن أؤمن كافة التجهيزات للرحلة . عدا عن الخدم كنت احتاج الى جمال والى حادى الجمال فى هذه الرحلة عبر صحراء لايتوفر فيها الماء وكان لابد من التفتيش عن قرب جيدة وتعتبر القربة المصنوعة من جلود الماعز السودانى من أفضلها . ولا تعود جودتها الى اتساعها الزائد وانما الى مقاومة الجلد المصنوعة منه فالقربة تتكون من جلد واحد لم يخيط ، وانما تسلخ العنزة المذبوحة بحيث يخرج جسمها من فتحة الرقبة التى تستخدم فيما بعد لصب الماء . ويطلى الجلد من داخله بالقطران بحيث يصان الماء من الفساد ، وكى لايضيع ماء كثير بالتبخر . وان القربة الكبيرة تتسع حتى 75 رطل[1] من الماء .

وبعد هذا كان لابد من مسمرة الصناديق ، ومن شراء أوانى الطبخ لى ولمرافقى ، وكذلك الكميات المطلوبة من الزاد ، والحبال ، وبلطات ومعدات وأخيرا كان يجب أن اشترى بضائع يمكن أن اقدمها كهدايا او اقايض بها مثل برانس بألوان صارخة مقصبة بالذهب ، مناديل ملونة ، اقمشة قطنية ناعمة وخشنة وتسمى مالطيه ، عمامات بطول ثمانين ذراعا وليفكر المرء كم من الوقت يستغرق لكى يلف هذا القماش الرقيق حول الرأس ، قبعات حمراء ، بعض قطع المخمل والحرير ، بعض المحاليل المركزة ، ومرجان أصلى واصطناعى ، وقناطير من اللؤلؤ المصنوع من الزجاج من مختلف الانواع . حوالى 50000 أبرة ويدفع فى طرابلس لكل 6000 منها تالر من نوع ماريا تيريزيا وهذه الابر ليست جيدة الصنع ، كما أصطحبت معى ورقا عاديا للكتابة من المانيا ، ومئات السكاكين . وقد اشتريت كميات من المواد بحيث أصبح بيتى كما لو كان متجرا . وكان يجب ان اساوم على سعر تالر ماريا تيريزيا اذ أنه كان يبدل فى المتوسط فى مالطا والاسكندرية وطرابلس بما يعادل $1\frac{1}{3}$ تالر .

ان تالر ماريا تيريزيا هى العملة المرغوبة فى وسط افريقيا ويجب أن تكون قد صكت فى سنة 1780 كما يجب أن تكون سبع نقاط على تاج ماريا تيريزيا وان كل تالر لايحمل هذا التاريخ او النقاط السبع على التاج لايقبل لدى أهالى بلاد السودان ، وفى السنوات لسابقة كان السودانيون يصرون على أن يكون التالر ذا مظهر أسود وقد حدثنى القطرونى[2] : انه عندما كان يرافق بارت كانوا يضعون

1 ان وحدة الوزن التى يستعملها هى البفوند الالمانى وهو يزن أقل من نصف كيلو غرام بقليل (453)غ - وعمدنا الى أخذ كلمة رطل حتى لانلجأ الى هذه الكلمة أو كلمة باوند عليه يرجى من القارىء الكريم أخذ ذلك بالاعتبار

2 يقصد محمد القطرونى . وهو من جملة مرافقى بعثة بارت وروولفس وسيرد ذكره فى الفصول المتعلقة بمرزق وكوار

القطع النقدية ضمن البارود كى تكتسب اللون الاسود ولكن لماذا يوجد فى جميع ارجاء بلاد السودان التالر النمساوى فقط . هذا سؤال لم أتمكن من الاجابة عليه .

وعلى وجه العموم فأن البضائع الالمانية التى تصل الى وسط افريقيا ليست قليلة بالنسبة لما يصدر الى هذه المنطقة . ليس فقط تالر ماريا تيريزيا ألمانيا وانما أيضا الاسلحة التى ترد من هاغن وسولنغن ، والابر من ايزرلون . وعيدان الكبريت والشمع من فيينا ، والقماش من ساكسونيا والورق والمنتجات الصناعية الصغيرة من نورنبرغ وهذا يعنى أن غالبية البضائع التى تستخدم فى وسط افريقيا انما تنتج فى المانيا وهى أرخص من غيرها .

وعلى الرغم من ذلك فأن العلاقات التجارية المباشرة بين المانيا وشمال افريقيا مازالت قليلة اذا ما استثنينا بعض البيوتات فى مصر ، وهذا يعود جزئيا الى أن الالمانى فى شمال افريقيا متروك من دون حماية واذا ما احتاجها فإنه يلجأ الى قناصل الدول الاخرى . وعندما كان يأتى التجار الالمان الى طرابلس ويحاولون ان يعقدوا صفقات تجارية مباشرة ، كانت تضيع جهودهم هباء ، لان القناصل الاجانب الذين كانوا يعتقدون أنهم يساعدونهم فى ذلك انما كانوا يضعون العقبات فى طريقهم ويحولون دون ذلك . وهذا أمر طبيعى لانهم لو ساعدوهم كانوا سيضيعون تجارة تدر عليهم أرباحا ، وان ما تعلنه الحكومات الالمانية غير صحيح عندما تقول : «لماذا يجب أن نرسل الى المنطقة الفلانية أو تلك قنصلا ، طالما أنه لايوجد تجار ألمان هناك يحتاجون الى الحماية القنصلية» . وأقول ان التجار الالمان لايستطيعون الذهاب الى مكان حيث سيوقظون حسد تجار الامم الاخرى . لقد سكنت خلال اقامتى فى طرابلس بيتا فى المنشية . وهو بيت بسيط تقليدى ذو فناء داخلى استأجرته من أحد مواطنى طرابلس وهو يتألف بالاضافة الى الفناء الداخلى من غرف للسكن ومطبخ وقبو وغرف للمؤونة ، وخلف البيت يمتد بستان صغير يطل على البحر . زرعت فيه اشجار البرتقال التى كانت تزهر فى ذلك الحين ، ولم يكن المرء يتصور أن يسكن على وجه أفضل من ذلك وقد فضلت الاقامة فى الريف على المدينة لاننى لم أجد الهدوء فى المدينة وبخاصة أن الطرابلسيين يتصفون باللطف وحسن المعاشرة .

ان الفترة التى اتسمت بجو اجتماعى ناشط ، كانت خلال المدة التى عمل

فيها وارنجتون (Warington) [1] قنصلا عاما فى طرابلس وقد انقضت هذه الفترة واستفاد منها بيتشى ، وليون ، ودنهام وكلابرتون وغيرهم ، وهؤلاء جميعا كانوا عاجزين عن الاشادة بضيافة وارنجتون ودعمه الدائم والفعال لهم . وان الوحشة المملة التى تسيطر على المجموعة الاوروبية حاليا لم تجد لها مستقرا وقتئذ . وكان بوتا (Botta) [2] ـ مؤلف كتاب آثار نينوى ـ (Monuments de Niniue) وكتب علمية أخرى ـ على رأس القنصلية العامة الفرنسية . وانه لمن نافلة القول . أن أكون قد حظيت ببعض التوجيهات من خلال التعامل مع مثل هذا الرحالة الذى طاف العالم . وقام بدراسات معمقة حول مصر وسنار ، ووضع القاعدة الاولية لدراسات الكتابات المسمارية التى اكتشفها فى نينوى وخسرو أباد ومن المأثور أن بوتا لم يمتلك المعلومات الاساسية التى كان يقدمها عن طيبة خاطر فحسب . وانما كان يتمتع بطباع فارس حقيقى . فهو ابن المؤرخ الايطالى المشهور ، فهو اذن من أصل ايطالى ، وقد ترعرع فى فرنسا وتربى فيها : وماضيافته وكرمه ونخوته سوى أدلة على أنه فرنسى أصيل . وقد كان يعمل لديه كمستشار صديقه لوكو (Lequeux) مستشرق أصله من اللورين .

أما القنصل الانكليزى فقد كان العقيد هيرمان (Herman) [3] لمتقدم فى السن وهو من المحاربين القدماء الذين شاركوا فى حرب شبه الجزيرة الاسبانية ، ولم يكن من المشهورين بعلمهم الا أنه كان انسانا لطيفا جعل بيته ملتقى للمجموعة الاوروبية . ومما يؤسف له أن عداوة مريرة كانت قائمة بين هذين القنصلين العامين يعود سببها الى خطأ فى الاتيكيت ارتكبه الكولونيل هرمان لدى قدوم بوتا الى طرابلس ، ومهما كان هذا السبب عديم الاهمية الا أنه أدى الى أن الرجلين اللذين بقيا فى منصبيهما بطرابلس عشرين سنة . لم يقتربا من بعضهما البعض ولم يجى واحدهما الآخر ، ولئن تواجدا معا لدى شخص ثالث فقد كانا يتجاهلان بعضهما تماما .

وأذكر من أعضاء المجموعة فى طرابلس القنصل الامريكى السيد بورتر (Porter) وزوجته والقنصل النمساوى روسى (Rossi) وزوجته ، والقنصل

(1) انظر عن نشاط هذا القنصل شارل فيرو ، الحوليات الليبية ، ترجمة وتقديم محمد عبدالكريم الوافى . طرابلس المنشأة العامة للنشر 1983 . ص 549 ومابعدها

(2) انظر عن نشاط هذا القنصل . المصدر نفسه ، ص 683 ومابعدها .

(3) انظر حول نشاطه ، المصدر نفسه ، ص 667 ومابعدها

الهولندى السيد تستا (Teste) والقنصل العام الاسبانى مع عائلة كبيرة . وقناصل آخرين ومستشارين وبعض الاطباء الاوروبيين ومن بينهم صيدلى المانى ، وبعض التجار الذين كانوا يترددون على مجالس القناصل والوالى وقد كان الوالى فى ذلك الحين محمود باشا [1] الذى أصبح فيما بعد وزير البحرية فى الدولة العثمانية .

وقد كنت على علاقة ممتازة بالباشا المذكور . وكان يعلم أننى قد قمت برحلتى الاولى والثانية على أساس انى مسلم ونصحنى ان لا أسلك الطريق الجنوبى الغربى عبر أدليس وعبر منطقة الطوارق ، لانهم اصبحوا الآن على علم بأننى لم أكن مسلما حقيقيا واذا ما عدت الى هذه المناطق فسأكون معرضا الى خطر مؤكد . الا أننى أصررت على ان أسلك هذا الطريق وأن امضى فى البداية حتى غدامس وان اسير حتى النهاية وانا ألبس الزى الاسلامى . وكنت أعلم أننى لأستطيع التوغل بعد غدامس مالم أتخذ هذا اللباس التقليدى .

اما مايخص خدمى ومجموعتى هذه المرة فقد جرى اختيارها بشكل جيد واذكر اولا حامد الطنجاوى وهو رفيق سابق خبرته عند صعودى الاطلسى الكبير . وثانيا محمد الشتاوى وهو طرابلسى كان يعمل فى خدمة قنصلية نابولى ، ابعد الى امريكا بسبب اتهامه بالقتل (كانت الحكومة العثمانية حينا تبعد المجرمين الى الجزء الاخر من الارض) وعاد بعد صدور عفو وقد كان لقية بالغة الاهمية الى بسبب وجهه المتجهم وشحه البارز وبخاصة انه كان بتصرفاته المنفرة يبعد الزوار المزعجين من بيتى ، ولم يكن مطلقا على علاقة جيدة مع بقية الخدم وكان يتصرف بما املكه بكل وفر . وقد اخذت بالاضافة الى هذين الخادمين المذكورين ثلاثة من الكنورى والهاوسا والتيدا .

وعندما جمعت خدمى الاساسيين وجمالى عزمت ان اقوم بسفرة على سبيل التجربة الى مدينة لبدة التى تقع مسافة 15 ساعة شرقى طرابلس . وقبل بدء هذه الرحلة بيوم واحد امرت ان تنصب خيمتى والتى تشبه خيمة باشا عثمانى - جوار البرج الانكليزى [2] وقد احضرت الجمال من المرعى وكان كل شىء جاهزا . وقد انتظرت فقط قدوم القنصل الامريكى الذى كان يريد ان ينضم

(1) يقصد محمود نديم باشا الذى استمرت ولايته 1277 ـ 1283 هـ انظر المنهل العذب ص 377 ومابعدها .

(2) ان البرج الانكليزى يقع على بعد نصف ساعة شرقى طرابلس مقابل المدخل الرئيسى للمرفأ وهو حاليا خراب .

الى رحلتى حتى لبدة ، ولكن فى اللحظة الاخيرة اعطت الزوجة الشابة الجميلة السيدة بورتر زوجها البالغ من العمر سبعين سنة امرا جديدا ، فاعتذر وعزيت نفسى عن رفقته بزاد الطريق والخمر ، والطعام المجهز فى علب وغيره مما كان قد ارسل من اجله .

بدأت الرحلة يوم 26 من ابريل مع تجهيزاتى الجديدة ، وبعد ان سرنا ساعتين بلغنا واحة المشية [1] التى يحدها البحر من الشمال والكثبان الرملية من الجنوب ، وعلى مقربة منها تقع واحة تاجوراء ذات غابة من النخيل طولها ساعتان من الزمن ، وفى تاجوراء سكان حضر كما هو الامر فى المنشية ، وفى وسط تاجوراء يقوم الجامع الذى يعتبر على درجة كبيرة من القدسية من قبل السكان وهو ذو عمارة تثير الانتباه ، متأثرة بفن العمارة المسيحية . ويذكر بارت (Barth) الذى شاهد الجامع من الداخل ان عدد الاعمدة الكورنثية ذات التيجان هو 48 عمودا . وعلى الاغلب ان الامام قد رافق بارت الى داخل الجامع وقد استبدل هذا بشخص اخر فقد منعت من دخول هذا الجامع .

ان الواحتين على درجة كبيرة من الخصوبة وحبتها الطبيعية بجمال فائق ان اشجار النخيل العالية التى ازكاها هواء البحر قوة تتعانق على هذه المساحة المحدودة وتقوم فى ظلالها اشجار البرتقال من مختلف الانواع ، كما ينبت فيها الرمان والزيتون والتين والدراقن والمشمش وجميع اشجار منطقة البحر المتوسط السعيدة ، كل هذه الاشجار تشكل بستانا من الازهار والفواكه ، ان الكولونيل وارنجتون قد اوجد هنا جنة من جنات عدن ، فقد اقام على شاطىء البحر بستانا صغيرا وفى المنطقة ذاتها يملك بوتا بستانا هو جوهرة البساتين ولايختلف عن امثاله فى ماديريا فقد كان بوتا يحب العزلة ، وقلما كان يسكن مبنى القنصلية فى المدينة ، المفروش بشكل مترف . وكان يأتى فقط لحضور الاحتفالات فى الكاتدرائية القديمة ليظهر كممثل للامبراطور الذى يريد دائما ان يظهر فى الخارج باعتباره حاميا للكاثولكية ، وفيما عدا ذلك فقد كان يسحره بيته الريفى فى المنشية وسط بستان رائع مسور بحائط يبلغ ارتفاعه عشرين قدما . وغرس فى هذا البستان جميع انواع الازهار التى امكنه الحصول عليها ولم يقتصر فى ذلك على ازهار اوروبا والشمال الافريقى بل استقدم ايضا ازهارا من المناطق الاخرى فى العالم .

(1) ـ يكتبها المشية وربما كانت المنشية ولو ان بيانات المسافة غير مطابقة وسنوردها باسم المنشية لان معظم القناصل كانوا يملكون بيوتا ريفية فيها .

ان نباتات امريكا المدارية، ونباتات توابل الهند، وازهار اوروبا ذات الروائح الفواحة والياسمين الايرانى والمندرينا كل هذه تدع ازهارها تعبق بروائحها الفواحة. لقد كانت هذه عزلة بوتا الذى كان يقطن هنا مع مستشاره لوكو وبعض الخدم ويتذكر حياته المليئة بالتنوع والاحداث. وقد كان مجتمع طرابلس [1] يسخر من عزلته ولم يتفهمها ولهذا فقد كان بوتا يتفادى قدر الامكان ان يكون على علاقة معهم.

اما ان تكون لكل رحلة منغصاتها ايضا فهو امر عشته فور بدء رحلتنا التجريبية والتى كان يسيطر عليها طابع التسلية، فقد اهدانى اخى هرمان لدى مغادرتى بريمن كلبا كبيرا. وكى اصطحب هذا الحيوان الرائع خلال رحلتى بذلت جهدا دائبا وتحملت تكاليف باهظة حتى وصل الكلب الى طرابلس عبر فرنسا والبحر المتوسط واستطاع الكلب ان يتحمل تغيير المناخ عندما كنت اسكن فى طرابلس بالقرب من البحر حيث كان يمكث طوال النهار تقريبا فى الماء. ولكنه تبين الان ان بول - كما كنت اسمى كلبى هذا - لم يكن قادرا على تحمل متاعب رحلة عبر افريقيا، فلم يستطع متابعة السير بعد مضى ساعة واحدة وحاولت ان اجلسه على ظهر جمل الا ان هذا كان صعبا. وان كراهيته للجمل كانت بمقدار كراهية الجمل له، كما كنت الاحظ وبعد مدة قصيرة اختفى الكلب. ولااعرف فيما اذا هرب الى بيت طلبا لجو رطب فاستبقى هناك ام انه اختار ظل نخلة كثيفة الاغصان، واختصارا فاننا لم نستطع العثور عليه وكان علينا ان نتابع طريقنا بدونه.

وبعد تاجوراء وصلنا الى شريط غير مزروع الا ان ارضه صالحة للزراعة بدون شك، وفى صباح اليوم التالى دخلنا الحيز الرملى الذى يلف الواحات: جنزور فى الغرب، والمنشية فى الجنوب وتاجوراء فى الشرق وان البحر هو مصدر هذه الرمال اذ ان تراكمها كذرات منفصلة عن بعضها البعض، يدل بوضوح على مصدرها وعلى حداثة نشأتها، وقد سماها بارت الرمال المشفوطة حينا والهضاب الرملية النشطة حينا اخر الا انه كان يشك فى تصنيفها من بين الكثبان الرملية البحرية واذا لم تكن هذه الرمال صادرة عن البحر، فقد تكون نشأت نتيجة لتفتت كميات من الحجارة فى نفس المكان، هذا اذا ماأخذنا باحتمال صحة نظرية فانتون (vantonna) حول تشكل الكثبان الرملية، وطبقا لهذه

(1) - يقصد بذلك المجموعة الاوروبية التى تعيش فى مدينة طرابلس من قناصل وتجار وغيرهم.

النظرية يجب ان تحتوى هذه على نواة صلبة، وفى جميع المنطقة لاتوجد تشكلات صخرية، وتتكون الارضية باجمعها من طمى جرفه البحر، واما الصخور التى نراها هنا وهناك ماهى سوى احجار انهارت من الجبال.

بعد عبور مجريى وادى الرمل [1] ووادى المسيد وصلنا حيزا خصبا يضيق عرضه كلما اتجهنا شرقا لان الجبال تقترب من الشاطىء. ولكى يعرف المرء معنى اقليم طرابلس وخصوبته يجب ان يكون قد خرج من الحزام الرملى. الا ان معظم الاوروبيين الذين يزورون طرابلس يفوتون عليهم هذه الفرصة ويعتقدون انهم اذا مامشوا على طرف المنشية فانهم قد بلغوا افريقيا وهذا يعنى الصحراء الرملية، وهكذا يمكن ان نفهم ان كثيرا من الاوروبيين وحتى من كبار المثقفين يتصورون ان الصحراء هى بحر من الرمال لاينتهى ولئن كان هذا التصور ليس صحيحا بالنسبة للصحراء ذاتها، فكيف اذا ماعمم على قارة باجمعها تشكل مساحتها ثلاثة اضعاف اوروبا.

ان المنطقة الواقعة شرقى وادى المسيد مزينة بدوار العرب وتضج بقطعان كبيرة من البقر والغنم والماعز لقد ترك هنا الاغريق والرومان والفينيقيون وشعوب اخرى من قبلهم اثارهم. وفى يوم 2مايو سرنا عبر النقازة اعلى بروز جبلى يقع بين طرابلس ولبدة. وبعد ساعات وصلنا الى الخمس هذا الاسم الذى يطلقه العثمانيون حاليا على منطقة لبدة.

وقد نصبت خيمتى وخيم اتباعى فى وسط الطريق البالغ 4 كم والذى يمتد من اطلال لبدة حتى السراى العثمانية. وقمت بزيارة القائمقام واستقبلنى بحفاوة واكد لى انه بوسعى ان اقيم هنا دونما خطر، وقد زرت خلال بقية ساعات النهار آثار مدينة لبدة القديمة.

وعندما عدنا من لبدة استرحنا ونحن مطمئنون لتأكيدات القائمقام ولوجود الثكنة العسكرية العثمانية على مقربة من مكان المخيم. وفجأة ونحن نغط فى نوم عميق واذا بى اسمع ضجيجا وكان خدمى يصرخون: لص. فقفزت من الخيمة ومسدسى فى يدى واطلقت عدة رصاصات وبعد ان اختفى الهارب تحت جناح الظلام توجهت وسألت مالذى حصل، لقد صرخ حامد لقد سرق مسدسى وقال شتاوى اين سيفى؟ وبعد التفتيش الدقيقى تبين ان اشياء اخرى

(1) - ورد عند رولفس باسم وادى الرملة والاصح وادى الرمل (انظر الزاوى، معجم البلدان الليبية: طرابلس مكتبة النور 1968، ص 342).

قد فقدت ، ومثلما يجبان الراحلة ، فقد وضعا سلاحهما جانبا عند النوم ـ بينما كنت انام ومسدسى فى حزامى وبذلك استطاع اللص الذى مد يده من الخارج تحت الخيمة ان يحصل على الاغراض المذكورة ومن الطبيعى ان لانفعل شيئا فى تلك اللحظة وفى صباح اليوم التالى ذهبت باكرا الى القائمقام . ومن علامات الحيرة التى بدت على وجه هذا الموظف المحترم ، علمت انه قد اخبر بالحادث الذى وقع ليلا اذا وجد عند الفجر امام خيمتنا اشخاص من المدينة وتحدثوا مع خدمى ولم يكن من الادب ان ابدأ فورا بالحديث حول هذه القضية : وبعد اصول التحية التقليدية تحدثت معه عن امور غير ذات بال ، كما تحدثت عن الاستقبال الودى الذى خصنى به محمود باشا فى طرابلس وذكرت اننى احمل جوازا رسميا صالحا لولاية طرابلس (بيورلدى) وباننى مزود بفرمان عال من السلطان فى الاستانة وبجواز سفر وزارى تركى وقد اخرجت الوثيقتين من الجيب ، وكان خوف القائمقام يزداد بشكل ملحوظ كلما علت مكانتى لديه ، ولئن كان يظن فى البداية اننى تاجر فقد عرف الآن اننى رجل ذو مكانة رفيعة لدى حكومته ، وقد تجاسر ان يسأل فيما اذا كنت راضيا عن كافة الامور ام اننى اريد ان اعبر عن بعض الرغبات ، فاجبت اننى راض جدا عن استقبالك وضيافتك ، والا لما قابلت هذا بالهدايا ، وبناء على نصيحة فريدريك وارنجتون المرشد الامين لجميع الرحالين فى طرابلس ، حملت ست زجاجات من الكونياك وقدمتها هدية الى القائمقام وقلت له : ان الطعام الذى تفضلت بارساله لى مساء امس كان على درجة كبيرة من الوفرة ، بحيث لم يؤكل باجمعه ، ولكننى وفى ظل حراستك تعرضت بالامس للسرقة واننى اطلب القبض فورا على اللص ومعاقبته ، وفى حالة عدم القبض عليه يجب ان تدفع تعويضا عن الاشياء المسروقة بقيمة 125 فرنكا . وخلال حديثى كانت قطرات العرق تلمع على جبين القائمقام وقد اعتراه الخوف ، وكان يعلم اننى احظى بدعم القناصل الموجودين فى طرابلس بالاضافة الى حماية باشا الولاية . اذ اننى احمل فرمانا عاليا من السلطان وباعتبارى من مواطنى المدينة الحرة بريمن ، فقد كنت اتبع رسميا لرعاية القنصل الانكليزى ، وفى الواقع

كنت أتوقع الحماية من جميع القناصل الاوروبيين ، فالعلاقات فى ذلك الوقت مازالت لم تصغ عليها روح العداوة بعد . ولكى يخفف القائمقام من حدتى وضع تحت تصرفى قاضيا ليحقق فى الامر فى مكان الحادث . وقد جمع

هذا سكان المناطق المجاورة وبدأ معهم تحقيقا طويلا ، ولما لم يعترف أى من هؤلاء بأرتكاب السرقة ، سألنى : ماذاا كنت سأفعل فيما لو كنت فى مكانه . وبقيت لحظة أتذكر تصرف الباشا محمد بن طالب فى فاس الذى اتخذ نفس الموقف فى حادثة مماثلة ، ثم أجبت القاضى . . لتسجن جميع هؤلاء ولتلزم كل واحد بدفع قسطه من التعويض عندئذ سيعترفون من هو السارق . وكما يبدؤ أن القاضى قد أقتنع بالاجراء العملى الذى اقترحته ، لان الجميع أودعوا السجن بناء على أمر صادر عنه .

ومن يسمى هذا الامر ظلما وبغيا أود أن أقول أنه على الاوربيين أن يتصرفوا فى البلدان الاخرى ومع اتباع ديانات أخرى بشكل ينم عن محبة الانسان وايثار الغير ولكن لنضع امام اعيننا اننى كنت اقف أمام رحلة طويلة مليئة بالمخاطر ، أعتمد خلالها على طاقتى فقط ، عدا عن أن ما يجرى فى هذا البلد لشخص أوروبى يضخم وينتشر خبره انتشار النار فى الهشيم وينتقل من شخص الى آخر وهكذا فقد كان على أن أفكر بتأمين احترامى والمحافظة على ما أملكه ولو تطلب ذلك القسوة المفرطة . ولو سكت على مثل هذه الحادثة التى جرت فى حيز السلطة التركية ، وأنا فى ظل رعاية القائمقام وفى جوار ثكنة عسكرية فماذا كان سيجرى لى فى مناطق نائية حيث لا تسود سلطة القانون .

لقد أصررت على موقفى على الرغم من جميع المحاولات والنداءات التى وجهت لى من أجل السماح وكان مضمون هذه النداءات أنه الان وقت الموسم وعيد الاضحى يقف على الابواب ولا يمكن احتجاز الناس فى السجن . وقد أجبت بأستمرار على هذا : إما أن يعترف السارق أو أن تدفع النقود . وفى اليوم التالى أتى القاضى يتبعه جمع من ابناء البلد وهم يولولون . وبعد الاعتذار الزائد قال أنه لم يتمكن من معرفة السارق ، وقد احضر لى 50 فرنكا وقدم لى ابناء البلد خروفا سمينا . وبهذا لم تعوض الاشياء المسروقة بنصف ثمنها اذ ان الخروف لم يكن ذا قيمة بالنسبة لى . ولم ارغب فى تأزيم الموضوع وانما اعلنت عن رضائى وبعدها فتح باب السجن وعاد الاباء الى ذويهم . ولقد فرحت ان الاخذ والعطاء قد أنتهى وأن هؤلاء يستطيعون أن يقضوا عيد الاضحى من غير ازعاج .

لقد أغفلت هنا أن أورد وصف آثار لبدة الرائعة التى اثارت دهشتى فقد كانت زيارتى لها سريعة اذ اننى رحلت عنها يوم 5 مايو عائدا الى طرابلس عبر مسلاتة . ان هذا الطريق ذو مناظر رومانتيكية عديدة واطلالات مفاجئة . الا أنه ليس مريحا لعربة أوربية لا بل من الصعب عبوره . وأما أن عربات الفنيقيين والاغريق والرومان قد عبرته . فأننا نلاحظ ذلك من آثار العجلات وقد حفرت مكان عبورها فى الصخور . وتمنح المناطق الاثرية العديدة والقصور والقلاع والقبور والبيوت المتناثرة فى هذه المنطقة منظرا حزينا من ناحية فى حين أن الحقول المزروعة بالشعير والقمح والذرة والتبغ ، وبساتين الفواكه المزروعة بأشجار العنب والتين والخروب والزيتون والبرتقال تثير أفكار فيها عزاء للنفس فقد تحدرت من الاجناس التى أختفت أجيال جديدة تعمل بنشاط وان النباتات ليست قليلة فى هذه المنطقة الجبلية التى تروى من الآبار والمجارى المائية . وتشاهد على الطريق أشجار الزيتون البرى وأشجار البلوط ذات الاوراق الصغيرة وأشجار الاثل تحيط بجوانب السواقى . وعلى سفوح الجبال التى لا يغطيها العشب تنبت الارتيميزيا الفواحه وغيرها من النباتات الطبية . وتعبر جانبى الطريق الرئيسى ، وديان منطلقة من الجبال توفر فرصا جيدة للصيد . أعداد هائلة من الحمام اتخذت أعشاشها فى الفجوات الموجودة فى السفوح الكلية والحجل يجرى عبر الاحراج والبط البرى يبعث الحياة فى هذه العزلة . وغالبا ما نرى هنا من الحيوانات ذات الاربعة قوائم الارانب والثعالب وابن آوى وفى بعض الاحيان نجد الخنزير البرى . وبعض الحيوانات المفترسة الصغيرة . وأما الفهود والأسود فقد انقطع أثرها فى هذه المنطقة .

ولدى انطلاقنا من لبدة تتبعنا فى البداية المجرى الجنوبى الشرقى لوادى لبدة ثم بلغنا ذروة الجبل وسرنا باتجاه الغرب . ويبدو أن المنطقة مكتظة بالسكان ومما يلاحظ على السكان وبيوتهم أنهم يعانون من ضغط حكومة الولاية ومرهقون من استغلالها . وينقسم السكان الى حضر وبدو . ويعيش البدو فى ظل خيام سيئة وصغيرة . وأما السكان المستقرون فيعيشون فى بيوت مثل العشش قلما نؤمن لهم الحماية من عوامل الطبيعة وهى مبنية عادة من حجارة عادية وضعت فوق بعضها البعض ، وان هذه الابنية القديمة الرائعة والقصور المنهارة يمكن أن تصلح مأوى للعديد من الاسر اذا ما أدخل

عليها شىء من التصليحات . ولكن هؤلاء الناس الذين يعيشون عيشة ضنك (قلما يعبأون بأمر مثل هذه الابنية التى يمكن أن تكون سكنا صحيا) قلما يسألون أنفسهم لماذا لا نستطيع ان نبنى مثل هذه الابنية ونسكنها ؟ ولا يدفعهم سد صخرى بنى من أجل الاحاطة بخزان ماء أو قنطرة قناة مائية قديمة الى التفكير حول الفقر الحالى الذى وقعت البلد تحت وطأته . انهم يعبرونها برتابة أو يقول ذكيهم : إن هى الا اثار الروم وقد حالفهم الشيطان وبنوا بمساعدته هذه القصور بئس المسيحيون . وعلى الرغم من هذا كله فان هذا الشعب قادر على التعليم . واذا ما توفرت له قيادة مناسبة سيكون بأمكانه الخروج رويدا رويدا من سباته ، الا أنه للاسف ليس من الممكن أن يرتقى هذا الشعب بسبب نظام الادارة الذى تتبعه الحكومة العثمانية . ان الباشا الذى يرسل من القسطنطينة الى ولاية بعيدة . يمارس هناك ما يشاء من دون أية رقابة . ويعتبر الولاية التى تولاها بأمر السلطان كمرحلة للاثراء ولذلك يبدأ بأستغلال الاهالى . لانه لا يعرف متى تسحب منه الولاية .

فى المدينة الجبلية مسلاتة دعانى قائد البلدة والافندى لان ابيت فى بيته ، وقبلت الدعوة وأنا متخوف من قلة نظافة البيت العربى [7] وهذا فى الواقع ما حدث فقد عانيت من عذاب البراغيث والحشرات الاخرى تحت سقف بيت مضيفى بما فيه الكفاية ، وتساءلت كيف سيكون الحال هنا خلال الصيف . وأما الافندى فقد هدأ روعة بأن عاقر زجاجة من العرق ولم استنكر هذا ، طالما أن زجاجة الخمر الكبيرة المصنوعة من الصفيح قد اصطدمت وهى محملة على ظهر الجمل بصخرة على الطريق بين طرابلس ولبدة بأنضغطت وتحطمت وعلى كل حال فالضيافة هنا كانت مطابقة لما هو معروف عن العرب . وان المرء ليفعل حسنا اذا ما تذكر دائما المثل المراكشى عندما يحل ضيفا وحتى عند العرب ، اكثر شعوب العالم ضيافة والقائل « مرحبا بالضيف فى اليوم الاول ، وفى اليوم الثانى فهو محتمل وأما فى اليوم الثالث فليذهب الى الشيطان ويجب ان لا يعتقد ان التمتع بالضيافة رخيص الثمن

(7) ان مثل هذه النظرة العنصرية الى العرب ستتكرر ويجدر بالقارى أن ينتبه الى عداء الرحالين تجاه العرب ، فقد أتوا أصلا لمعرفة اساليب إخضاعهم وللقضاء على العلاقة العربية الافريقية ودراسة امكانية غرس العلاقات الاوروبية الافريقية .

بالنسبة للرحالة . وكان على فى هذه الحالة ان ارضى خدم القائد ، وخدم الافندى . فقد طلبوا منى أن أهديهم . وقد قال خدم الافندى أننى بك وعلى أن اعطى البخشيش الى خدم موظف تركى ادنى مرتبة . وان غرورى لم يسمح لى الا ان اوزع عددا من الشملات والقبعات الحمر .

وفى اليوم التالى صادف عيد الاضحى ، فذهبت مع القائد والافندى الى الجامع لاداء صلاة العيد . ولاحظت أن العادة المتبعة فى المغرب وهى أداء صلاة العيد فى مصلى فى الهواء الطلق غير معروفة فى ليبيا . ولما كان مخططى يهدف الى الوصول الى منطقة الهقار عن طريق غدامس وايدلس . فقد عمدت الى اتخاذ الزى الاسلامى واتباع عادات وتقاليد المسلمين . وقد تحقق لى هذا على أفضل وجه . ان شرب الخمر لا يسترعى انتباه الليبيين فقد تعودوا على مشاهدته منذ الحكم العثمانى . إذ كان شرب الكحول شبه مسموح به . وأما الصلاة فكنت أقيمها وأسلك فيها سلوك فقيه ورع . فقد تعلمتها جيدا فى المغرب ولم أدع شيئا من دقائقها يفوتنى ، وأننى لمقتنع أن بعض الطلاب من المنطقة كانوا يحسدوننى على مهارتى فى السجود وفى رفع السبابة عند الصلاة . وفى الطريق من الجامع الى البيت كان يضحى كل رب عائلة خروفا ـ طالما أنه يملك ما يكفى لشراء الضحية ، وكان الفقراء والشحاذون يطوفون من بيت الى بيت ، اذ يحصلون فى عيد الاضحى على اعطيات أكثر شخاء من المعتاد .

وبعد الظهر صعدت هضبة تقع امام المدينة وقد رأيت بذهول كيف أن خادمى قد كسر مقياس الحرارة . ولحسن الحظ فقد كان لدى عدد آخر منه فى طرابلس . وأما اطلال القلعة التى تتوج الجبل ، انما هى اسبانية الاصل وليس فيها ما يثير الاهتمام .

وفى 7 مايو تحركت قافلتى ثانية . ومن مسلاتة ينطلق طريق عبر حقول خصبة ، تمتد على طول سفوح الجبال حتى وادى قريم وينحدر على امتداده حتى قصر قريم الذى يقوم على صخرة على الضفة اليمنى من الوادى ، وهنا تخلف الطريق قريم الذى ينحدر ليصب فى وادى الرمل ويستمر الطريق ليبلغ تقريبا هضبة الجفارة . وفى جميع الوديان يعثر المرء على

آثار الزراعة الرومانية القديمة ، فمازالت بقايا قطع الحجارة الضخمة التى اقترحت حديثا للزراعة فى الجزائر ، والبعض منها على درجة هائلة من السمك ومازال فى وضع جيد ، بحيث يمكن مع بعض التصليحات أن يعمل منها خزانات مياه ضخمة تكفى لسقاية هذه الهضبة الخصبة التى تجف أرضها خلال الصيف بسبب حرارة الشمس ، وفى أثر نقص الغابات فى ليبيا فان المطر لا ينزل رذاذا وانما ينهمر بقوة . ولكى يحصر الرومان المياه المتكونة نتيجة الامطار الشديدة فقد سدوا وديانا بحجارة ضخمة بحيث تكونت بحيرات صغيرة كانت تكفى لسقاية الحقول خلال فصول السنة ، وهذا برهان أن ليبيا كانت خلال عصر الرومان فقيرة بالاشجار كما هى عليه الآن . . وفى 8 مايو وصلت بسلامة الى طرابلس وكنت راضيا بشكل اجمالى عن رحلتى وقد سرنى أن باخرة قد وصلت من اوروبا ووصلتنى رسائل ، ومما ألمنى أننى لم أعثر على كلبى وكنت آمل أن أجده فى البيت . وقال الطرابلسيون ربما أكله أهل تمشية ، وهذا ما لم يتأكد لدى مع أنه من المعروف على وجه العموم أنهم يأكلون لحم الكلاب وعلى كل حال فقد ضاع كلبى .

والان أخذت أعمل بجد لكى أنهى التجهيزات اللازمة ، ولكى أقترب من المدينة فقد سكنت بيت السيد لابى [1] ذا الموقع الجميل وان لابى يهودى من ابناء البلد قد تكرم ووضع هذا البيت تحت تصرفى ، وقد كان على درجة من الاتساع بحيث أن جميع خدمى قد استطاعوا ان يجدوا مأوى فيه .

لقد استمرت المجموعة الاوروبية فى رفدى بحسن معاملتها، فالانكليز، والفرنسيون والاسبان والنمساويون كانوا يتنافسون فى تقديم جميلهم لي . وكانت علاقتى وطيدة بخاصة مع الاب بريفكت وهو انسان مبجل وله صلاحيات بطريك ويقوم على رأس الكنيسة الكاثوليكية فى طرابلس، وكما كان هو مرات عديدة فى ضيافتى، لم أكن ممن لا يقدرون مطبخة الممتاز وخمر الدير الجيد، على أن مودتى كانت تخص بوتا القنصل العام الفرنسي، لانه هو ومستشاره ـ السيد لوكو كانا الوحيدين فى المجموعة الاوروبية فى طرابلس

---

[1] يقصد اسحاق لابى من يهود طرابلس شغل منصب وكيل القنصل الالمانى منذ تأسيس وكالة القنصلية الامبراطورية الالمانية بطرابلس فى 1884 . أنظر مقالنا « المصالح الالمانية فى ليبيا » مجلة البحوث التاريخية /5 (1983) .

اللذين يتفهمان ما هو خارج نطاق الحياة العادية، ولقد فهمت كيف احافظ على حيادى بين بوتا وهرمان القنصل العام الانكليزى وكما ذكرت لم يسبق أن تكلم الاثنان مع بعض أو زارا بعضهما. وعندما عاد بارت من رحلته الطويلة أقام فى بيت هرمان الذى تربطه معه صداقة قديمة. وقد وضع بوتا تحت تصرفه سفينة حربية فرنسية كانت ترسو وقتئذ فى طرابلس كى يسافر على متنها الى أوروبا كما دعاه لزيارته. الا أن غيره هرمان جعلته يمنع وصول العرض والدعوة الى بارت، الذى لم يتمكن حتى من شكربوتا على اكتراثه به، وقد قال لى هرمان صراحة: لا يسرنى أبدا أنك تزور الفرنسيين. الا أننى لم أعبأ بهذا، وقد كان على درجة من اللباقة بحيث لم يدعنى أشعر با زعاجه.

وأخيرا اقترب وقت الارتحال، وقد أقام القنصل الامريكى عشية سفرى استقبالا رائعا على شرفى دعا اليه جميع القناصل مع زوجاتهم، وقد لبوا جميعا الدعوة وزاد من روعة هذا - الاحتفال حضور محمود باشا بذاته وقد أفرغت زجاجات عديدة من الشامبانيا على نخب الامل بنجاح رحلتى الاستكشافية وبعد أن غادر قسم من الضيوف عزفت لى السيدة بورتر مقطوعة ادليد (Adlaide) لبيتهوفن للوداع وقد رأيت فى هذا فألا جيدا اذ أنه قبل سفرتى الثانية الى توات[1] والاطلسى صحبتنى أيضا أنغام موسيقية، وعندما غادرت فى المساء الاغواط سمعت أنغام مقطوعة السيدة البيضاء تصدح عبر غابة النخيل وتصل مسا معى، فقد كان يعزفها ضابط فرنسى على قرن الغابة(؟؟)

وقبل أن يغادر - المدعوون، جرت حادثة مضحكة، لقد لف الحزن خادمى حامد الطنجاوى الذى ذهب يودع أصدقاءه ولكى يخفف من حزنه فقد شرب كثيرا من العرق على غير عادته، وعندما طال غيابى بدأ يشك فى الامر، وسار بسرعة من البيت الريفى الى المدينة على الرغم من أن أبواب طرابلس تغلق ليلا، وقد دخلها من دون أن يلاحظ أحد، وفجأة دخل وهو يحمل قنديلا فى يده الى وسط عالم نساء طرابلس الانيقات وسيطر ذهول وصراخ فى البداية، ثم انتقل هذا الى ضحك متواصل وعندها غادرت المكان متمنيا ليلة سعيدة، وكانت هذه ليلتى الاخيرة فى طرابلس.

---

* 1 - وردت فى النص خطأ توارث Turat فوجب التصحيح

وفى الصباح الباكر من يوم 20 مايو كنت جاهزا للسفر وعندما لبست ثيابى وهممت بوضع محفظة نقودى، افتقدت عشرين فرنكا، كنت أتذكر جيدا أننى أخرجت فى اليوم الماضى 100 فرنكا من الصندوق وعندها اتهمت حامد الذى كلفته بأن يحرس نقودى وكما يبدو أنه أخذ النقود عندما سكر ولهذا فقد أخذت أضربه من دون رحمة ومن دون أن اسمع أيمانه، وبعد وصول مجموعة المودعين الذين سيسيرون معى حتى المنشية تكريما لى، كان على رأس هذه - المجموعة جميع القناصل، وبعد عودتهم وأنا أفتش وجدت فى احدى جيوبى القطعة النقدية المفقودة وهذا ما أخجلنى، لقد كان حامد خارج أطواره ولم أتمكن من تهدئة خاطره الا - بعد عدة أيام وقال لى أننى لا أبكى الما من الضرب ولكننى لن أنسى أنك شككت بأمانتى وعلى الرغم من ذلك فقد نسى هذا ولم يحقد على بسبب هذا الامر فقد كان، وبقى أخلص خدمى، مخلصا وصادقا حتى الموت.

أوه، أوه، تعالى صراخ الحمالين ثم أخذوا يرددون السلام على رسولنا ونبينا وبين هذه الدعوات كنت أسمع أصوات النساء الحزينات وهن يودعن ويصرخن يو، يو، لقد وضعت آخر الامتعة على الجمال وثبتت وكان كل شىء جاهزا للانطلاق وهذا - ما جرى فى الساعة السابعة والنصف ووضعنا البحر وراءنا وانطلقنا الى الدواخل.

من طرابلس الى غدامس

السفر - لوتسى زيزيفوسى - تجارة الرقيق - سير الجمل حصن غريان - الباشا - الاطباء العسكريون الاتراك - القصيبة - حرفيون يهود - أساطير - الوصول الى مزدة - أهالى مزدة الطريقة السنوسية - رئيس عصابة اللصوص - ضيوف دون دعوة - القيلولة - قرا - الحمادة واحة درج - دخول غدامس.

فى حين أن رياح القبلى الشديدة قد رفعت درجات الحرارة حوالى الساعة العاشرة قبل الظهر يوم أمس حتى 40°، تهب الآن نسمات عليلة قادمة من البحر، ستنقلب بعد فترة الى رياح بحرية شديدة، ويمكننى أن أقول مثل القبطان الذى تغادر سفينته المرفأ ان الرياح تهب مناسبة لقد وصلنا الى الطرف الشرقى من واحة النخيل حيث تبدأ الكثبان الرملية، هنا وعلى مقربة

من طرابلس نجد أمامنا صورة حقيقية من افريقيا، اشجار نخيل رفيعة، برتقال ـ زيتون وبالقرب منها كثبان رملية ويلف كل هذا سماء زرقاء عكرة ان حجابا وماديا سيطر على السماء فى الشمال الافريقى، والسماء الزرقاء الصافية التى نراها فى جنوب أوروبا لا تعود ثانية للظهور الا فى منطقة كتل الغيوم، وهذا يعنى فى وسط افريقيا خلال الفصل المطير .

لقد توقفت القافلة عند بير بوملبانة على طرف الكثبان وملئت القرب بالماء وشربت كاسا من الخمر مع مرافقى الذين أتوا من المدينة وشكرتهم على مرافقتهم وودعنهم آملا أن نلتقى ثم ركبت على ظهر جملى وضغطت على ايديهم وحييتهم، والآن قلت للمدينة ولوقت طويل ، وداعا .

لقد كانت قافلتى تتكون فيما عداى من ستة أشخاص وعدد مماثل من الجمال وكنت مسلحا وكذلك خادمى وكان كل منا قد جهز سلاحه لاطلاق اثنتي عشرة طلقة .

فى البداية سرنا فى خط مستقيم باتجاه الجنوب، وأخذنا نصعد ونهبط الكثبان الرملية وكان هذا مجهدا لجمالنا، وبعد ساعة وصلنا بير السبالة وهو مثل بير خويلد الذى يبعد عنه ساعة ونصف محاط بالنباتات، وحول البئر الاخير وجدنا عربا يرعون الماعز وينتهى العرق عند بير الكثير حيث تبدأ أراضى خصبة وهنا يتفرع الطريق فى فرعين وقد قيل لنا أن الفرع الغربى الذى يميل بدرجة 16 هو الاقرب فاتبعناه وحوالى الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر نصبنا خيمنا عند الدوار[1] وقد كان علينا أن نرتب هنا الكثير وأن نصحح، فقد كان أحد الصناديق ثقيلا جدا، وهناك كيس خفيف وقد ربطت أحذية المرافقين بشكل أفضل، واستفدنا من الوقت حتى الليل من أجل اجراء الترتيبات .

وفى صباح اليوم التالى وحوالى الساعة السادسة وبعد أن أتى رجل بليد، يعتبر نفسه مباركا ووهبنى بركته مقابل نقود ولاشك، رحلنا ثانية باتجاه جنوبى شرقى، لان أهل الدوار قالوا لنا أن الطريق الشرقى هو الاقرب .

فى هذا اليوم كان الطقس مناسبا مثل سابقه وكانت الحقول فى الغالب مزروعة الا أن السكان وخيامهم على درجة كبيرة من الفقر، ولا يمكن أن نسمى هذه الاكواخ خياما، ولم تكن كثير من الاسر تمتلك حتى مثل هذه

1ـ يقصد به النجع .

الخيام، بل كانت تعيش فى اكواخ اكثر تعاسة، فى كل شبر تظهر آثار اقتصاد الباشوات الاتراك على الشعب الذى يتعرض لكل أنواع الاستغلال .

فى كثير من المواضع شجيرات كثيفة، لا يعرف أهل البلد سبيلا للتخلص منها أنها شجيرات السدر[1] التى كانت بجذورها العميقة وأشواكها مدعاة لبأس المستعمرين الاوروبيين فى الجزائر لقد وجدت السدر أيضا بكثرة فى السوس المقاطعة الجنوبية الغربية من المغرب، وان حبيباتها التى كنت تنضج فى فصل الخريف ، كنت أضيفها الى طعامى وهى لذيذة ولو أنها لا تشبع ويسمى أهل البلد هذه الشجيرات ـ بالسدر وتبعا لهذا الاسم يطلق على المنطقة السدرية .

أمامنا فى الجنوب، والى الجنوب الشرقى منا نجد الجبال، وحوالى الساعة الثانية بلغنا مقدمة الجبال والجبل الشرقى، منها يدعى جبل الباطس ويبلغ ارتفاعه حوالى 500 متر وبعد نصف ساعة وصلنا ضفة وادى الهيرة[2] وهذا الوادى يزود بالماء ترهونة فى الشرق وغريان فى الجنوب وبعد أن يدع مجراه فى الاتجاه الغربى ينحرف نحو الشمال ليسقى واحة جنزور واذا ما هطل مطر قوى يجرى حتى يصب فى البحر .

وقد التقينا هنا بقافلة قادمة من مرزق تحمل أرقاء وأمات وقد ثبت لى أن الاتجار ـ بالانسان لم ينقطع بعد فى الاقاليم الخاضعة للحكم العثمانى وعلى الرغم من هذه الحقيقة فإن الباب العالى مايزال يؤكد العكس للقوى الاوربية ، وسأعود للتحدث تفصيليا عن هذا الموضوع وأود هنا أن أذكر فقط أن حكومة طرابلس تحابى تجارة الرقيق .

لقد انتهت مسيرتنا هذا اليوم حوالى الساعة الثالثة أيضا ، وأن الحمالين وأصحاب الجمال التى استأجرتها لهذه الرحلة ، رفضوا الاستمرار فى الرحلة ولما كنت دائما أفكر أن ـ أدخر طاقة جمالى وأتباعى فلم أسلم لهذا الامر عن طيبة خاطر .

فى يوم 22 مايو كنا نمر بين تلال جبل غريان ، لقد اشتدت الحرارة شيئا ماالا أنها لم تؤثر علينا كثيرا لاننا دخلنا منطقة مرتفعة ، وقد عبرنا عدة مرات

(1) وردت عند بارت بأسم النبيقة (Rhamus nebeca) وعند دوفيرية باسم (Zigyphus lotus) .
(2) بارت يكتبه : هئيرة (Haeros) .

وادى المجار الذى يتعرج كثيرا جنوبى غريان ويصب فى وادى الهيرة ووصلنا على طريق متعرج حوالى التاسعة الى الجبال ذاتها . ان السفح الذى يقابلنا لايحمل نبتا الا أن ـ منظره يقدم لوحة فنية ، وفى حين أن ظهره عار من النبات كانت الاخاديد والوديان تمتلىء ـ بالخضرة النضرة التى تنطلق من أشجار الزيتون والتين والبرتقال والنخيل ، وان هذا المنظر الجميل يزداد روعة فى وسط هذه الهضبة المتجانسة التى عبرناها .

ولكن كيف الصعود على هذا الجدار الجبلى ؟ فى الواقع لم تكن أمامنا سلسلة جبال وانما جدران وشقوق لجانب عال قد يشكل حدود الشمال الافريقى ومن بعد يبدو هذا الجانب وكأنه سلسلة من الجبال المتلاحقة ، وعندما رأيته قلت كيف ستصعده الجمال ، ولكن كان الأمر ـ أيسر مما تصورت وان الطريق الى الجبل يمر عبر مسلك ضيق ، وتجاوزته جمالنا من غير أى حادث يذكر ، وان هذا المسلك واحد من أصعب الطرق فى المنطقة عامة وهو أخطر بكثير من الطريق عبر الزنتان ، وفى بعض الاحيان كنت أرتعش عندما كان جملى يخطو على مقربة من حافة هاوية الا أن الجمال تسير بأمان كما تفعل البغال ، ولايحدث مطلقا أن يقع الجمل ، وعلى كل حال فان صعود الجبال يتطلب أقصى درجات الحذر ، واذا ماتركت الحيوانات لوحدها فانها ستجرى الى أن تشعر أن أرضا مستوية قد أصبحت تحت أرجلها ، ومن ركب على جمل عند صعود الجبال يقدر خطر هذا الوضع ، فاللطمات التى تنال الراكب غير قليلة ، ويجب أن ينزل عن دابته والا يعرض نفسه لخطر الارتطام بصخرة أو أن ينزلق فى أعماق هاوية وكذلك الحمولة تخرج عن نطاق التوازن بسبب حركات الحيوان القاسية ، وهكذا فان الجمل قد يميل الى الجانب أو يرجع الى الوراء وأخطر مافى الامر أن ينزلق الجمل الى الامام وتنزل الصناديق أو الأكياس على رقبة الحيوان وعندها يثور ويضاعف سرعته وإما أن يرتطم بصخرة أو أن يكسر رجله لانه لايرى عثرات الطريق . واذا ماكان الطريق منحدرا يخفف سير الجمل بأن يمسك جمال أو جمالان بذنبه ويجعلانه يجرهما .

بعد ساعة سعدنا ببلوغ القمة واستمتعنا وحيواناتنا باستراحة قصيرة فى ظل شجرة زيتون قديمة ، ثم سرنا متبعين مجرى واد [1] متجه نحو الجنوب

(1) يذكره بارت باسم ـــ وادى بوغيلان

وتبعناه الى النقطة حيث ينحرف مجراه نحو الشرق ثم تابعنا سيرنا جنوبا تحت ظلال اشجار الزيتون والتين ، وحوالى وقت الظهر شاهدنا أمامنا جبل تكوت [1] وهو حسب أقوال سكان جبل غريان أعلى جبل فى السلسلة ، ويلفت النظر مباشرة بسبب شكله المخروطى المنتظم الذى يذكر ببركان ، ويعيش السكان هنا كما فى الزنتان والريانية فى كهوف الا أنهم أصح وأقوى بنية من سكان السهل ، وقد شملهم منذ وقت قريب نظام باشا طرابلس الاقتصادى وهكذا فقد امتدت اليهم يد الاستغلال .

فى الساعة الواحدة والنصف توقفنا أمام قصر غريان وهو قلعة جبلية صغيرة يوجد فيها مابين 100 ـ 120 رجلا وهو فى الوقت ذاته مقر قائد غريان ، وعلى مسافة من البلدة نصبت خيمتى وبالطبع فقد أتى بعد وقت عدد من الفضوليين والضباط والعساكر ليسألوا من أين أصلى والى أين أذهب ومن أنا الخ . . . . وعوضا عن الجواب كنت أضع أمامهم البيورلدى وهو عبارة عن رسالة التوصية والرعاية التى حررها لى باشا طرابلس باللغة العربية ، وقد أرسلت هذه ـ التوصية مع حامد الى الباشا وطلبت أن يضع لى حرسا خلال الليل ، فجاءنى ضابط ليبلغنى أن الباشا لن يضع حرسا فقط وانما سيزودنى بالمواد الغذائية لى ولخدمى كما سيرسل علفا لجمالى ويسأل متى يمكنه زيارتى ، ومع تقديرى للحقيقة أن العرب والترك لايرغبون بالتحرك من مكانهم ، فقد كلفت هذا الضابط أن يبلغ الباشا شكرى على لطفه وأن يقول له أنه لاداعى لان يزعج نفسه بالقدوم الى فاننى مستعد لزيارته فى قصره .

وفى المساء أحضرت الأشياء التى وعد بها ، فقد خص اتباعى بخروف وبازين (وهى نوع من عجين الشعير عائم على مرق دسم وتؤكل بالاصابع وتؤخذ من أسفل وعاء خشبى) وأرسل للجمال شعيرا وأرسل لى مائدة عليها أنواع مختلفة من الاطعمة التركية ، لايطابق بعضها مفهومنا فى فن الطبخ .

وفى صباح اليوم التالى قمت بزيارة الباشا وشربت عنده القهوة وأكلت التشيبول وقد أقسمت يمينا اسلاميا أننى لم إتعرف على رجل بهذا الكرم مثل سيادته ، وقد أجاب وهو يقسم برأس النبى بأنه لم يقابل رجلا كريما مثلى ، فقد أهديته قطعة من الحرير الابيض (حايك) وهكذا دفعت ثلاثة أمثال

(1) يقدر بارت ارتفاعه بحوالى 2800 قدم ،

ضيافته ، هذا عدا عن أنه كان ملزما بأن يقوم بأعباء ضيافتى طبقا للبيورلدى وأن يرسل فواتير التكاليف الى الحكومة .

وعلى الرغم من ذلك لم ينته الامر بيننا من دون خلافات ، فقد أثيرت لديه الريبة بأننى لست مؤمنا وأنما مسيحى وعليه لم يرسل لى عشية اليوم الثانى الطعام أو العلف لجمالى أو الحطب ، وبعد أن هددته بأن عمله هذا لن يمر دون أنعكاسات سيئة عليه ، اذا لم يرسل لى على الاقل شعيرا للجمال وحطبا (فقد كان من الصعب الحصول على هاتين المادتين بالشراء) وبعدئذ سمح بأرسال ماطلبته ثم كلف نفسه بأن يرسل اعتذاره مع أعلى شخص لديه وقد حيانى بالطريقة الاسلامية السلام عليكم وهذا لايرمى الا الى المؤ منين وعليه فأنه قد كان قد اقتنع بأننى سأدخل الجنة كما يوعد بها المؤمنون المسلمون .

لقد زارنى أيضا الطبيب العسكرى التركى وهو شاب وسيم يرتدى اللباس الرسمى الفخم ويبدو أن معلوماته ليست على هذه الدرجة ، وقد تذكر اسم ألمانى من بلدى الدكتور شتروك Dr struck) الذى قضى مدة طويلة كطبيب لدى الاتراك ويقول اننى أقسم ـ الاطباء العسكريين الاتراك الى عارف ، ونصف عارف ، وجاهل ، وأن العارفين منهم تبلغ معلوماته فى الطب معلومات الحلاقين لدينا وفيما إذ كان الامر كذلك بعد مضى ثمانى سنوات لا أستطيع أن أجزم به .

ان قصر غريان ذو موقع رائع على أعلى نقطة فى الجبل ، الا أنه لا يستطيع مقاومة آلية ـ الحصار الاوروبية عدا من أنه مبنى من مواد سيئة ، توجد بعض النقاط المرتفعة والقريبة منه ذات الوضع المسيطر بالنسبة له .

فى شماله وغربه يوجد واد تنبت فيه بكميات اشجار الزيتون والعنب والتين والرمان ويجرى الماء فى جزئه العلوى، ومن جزئه السفلى أتى الى ممثلو سكان الدواميس (الكهوف) وقدموا لى الحليب والبصل والبهار الاحمر وقد رجونى أن أرافقهم الى الوادى، وقالوا أنهم سمعوا أننى أعرف الهندسة وهكذا فأنه يمكننى أن أقول لهم أين توجد مياه جوفية وقد لبيت دعوتهم برغبة وتمكنت من أن أدلهم على النقاط التى يمكن ان يوجد فيها الماء ولا أعلم فيما إذا كان هذا قد ساعدهم ولم أتمكن من أن أدل على عين جارية، وليست لديهم الوسائل لحفر الآبار كما ينقصهم الاستمرار والطاقة وان دراستى. لارتفاع قصر غريان تمخضت عن أنه يبلغ 2118 ـ قدما وهذا التقدير يختلف عما توصل اليه رحالون آخرون ، فيقدر بارت ارتفاعه بـ 1696 قدما ويقدره غيره بـ 1900

أما الدكتور هان الذى أستخدم جداول أرصاده قد حسب الارتفاع على أنه 2155 قدما، وخلال هذه الفترة هبت رياح القبلى على أزعج وجه وبعنف غريب مما اضطرنى الى استخدام حبال اضافية لتثبيت خيمتى ولولا المقاومة الفائقة للاوتاد الحديدية لما بقيت الخيمة ثابتة .

وعندما تهيأت للرحيل يوم 25 مايو وجدت أن أصحاب الجمال التى أستأجرتها غير موجودين، وفى مكان ما بالقرب من المخيم كان يوجد سوق وقد ذهبوا ليشتروا بعض الاغراض من غير أن يستاذنوننى وقد جربت صبرى لعدة ساعات وعادوا عند الظهيرة فأنطلقنا ووصلنا القصيبة الواقعة على الحدود الجنوبية لغريان وعلى مسافة نصف ساعة غربى القصيبة تقع قصور كليب (يكتبها بارت كليبة) وبينهما تقع قرية بنى وزر الصغيرة وفى جميع هذه القرى الواقعة على الحدود الجنوبية، نجد بيوتا صغيرة من الحجارة وعلى الطريق توجد بساتين الزيتون والكرمة والتين، كما توجد قرى كثيرة فوق الارض وتحتها وكلها تدل على أن المنطقة مكتظة بالسكان نسبيا .

وبعض القرى القائمة تحت الارض يسكنها يهود يمارسون نفس عادات وتقاليد سكان المناطق الجبلية ويختلفون عنهم بوضوح فى مظهرهم الخارجى، بينما نجد أن اليهود يميلون الى البياض، نجد أن الآخرين ذوو ملامح بربرية، ويتكلم اليهود ولاشك البربرية ولكن يمكن تمييزهم عن طريق لثغتهم وجدل شعرهم على الاصداغ كما يفعل يهود المغرب وبولندا، أنهم يتعايشون جيدا مع الآخرين وبخاصة أنهم الوحيدون الذين يمارسون الحرف مثل صناعة السلاح والصباغة : وان قراهم وسخة مثلها مثل القرى الأخرى والبؤس يطل من كل مكان وان أغنياءهم يخفون ظواهر غناهم من أن يسلبهم الباشا ما يملكونه أو أن يتعرضوا للنهب عند أى هجوم عدوانى .

تبعد القصيبة عن قصر غريان 6 كم فى اتجاه الجنوب اذا ما حسبت التعرجات وان ـ منظرها على شيء من الجمال ويسمى سكانها انفسهم مرابطين ويزعمون أن أصلهم من الساقية الحمراء فى غرب افريقيا وقد يكون هذا صحيحا اذ أننى غالبا ماالتقيت فى شمال افريقيا بقبائل عربية زحفت حتى اقصى غرب افريقيا وهم فى هذا كانوا يأملون أن يعثروا على أماكن أفضل بحيث يقيمون فيها وعندما يشعرون بالخيبة كانوا يعودون الى الشرق. وقد استقبلت فى القصيبة بالكلمات مربح شريف (أهلا وسهلا باسليل النبى) وقد رفضت لقب شريف وقال خدمى أن اسمى مصطفى بك. ويبدو أنهم تخوفوا

من الاسم . لانهم اعتقدوا أن طلباتى ستكون كبيرة ولكننى لم أفعل بالطبع ما اعتقدوه، وقدم لى قائد البلدة وجبة ممتازة كما أطعم خدمى وقدم العلف لجمالى، وللاسف فقد انكسر هنا ميزاناً الحرارة وكانت هذه خسارة ولم يتبق لدى سوى ميزان الحرارة العادى .

لقد تأجل موعد رحيلنا فى صباح اليوم التالى حتى الساعة السابعة ، لانه لم يكن من الممكن العثور على مفتاح الماجن وان الماجن عبارة عن صهاريج كبيرة من الصخر يعلوها قوس أو أنها مغطاة بخشبة أو حجارة أو طين وتمتلىء هذه الصهاريج خلال فصل الأمطار والثلج . ان الثلج يسقط فى الشتاء على ارتفاع 3000 قدم وهو ليس نادرا وتغلق الصهاريج لكى لا يتمكن منها من لا يحق له الاستفادة منها ، ومن القصيبة تتبعنا مجرى أحد الوديان ـ ساقية الفرس ويسمى فى أسفله جنيبة وفيما بعد تفل رحل ـ وبهذا الاسم ينحنى الوادى نحو الجنوب الشرقى ويجرى فى سوف الجين قبل مصبه ، ثم توجهنا نحو الشرق ومن هنا فى اتجاه الجنوب الى الاسفل وهنا وصلنا الى منطقة منبع النهر الكبير سوف الجين ، وهو يجمع معظم مياه جبال غريان فى حوضه ليصبها فى البحر وتسمى هذه البقعة قدامه وهى فى معظمها صالحة للزراعة ويمكن زراعتها خلال موسم الامطار ولا توجد هنا أشجار مثمرة فيما عدا بعض أشجار البطن ونباتات الحلفاء والشيح . ـ ومما لفت نظرى فى بعض الأمكنة أن المرء يربط عيدان الحلفاء عقدا ، فقد لاحظت هذا مرارا هنا عندما كنا نمر عبر خرم الحنشت لقد شاهدت أحد الجمالين الذين يرافقوننى وهو يضع يديه خلف ظهره ويعقد عيدان الحلفاء وقد سألته : ماذا تفعل ؟ فأجاب ، لا يوجد دواء لألام الظهر أفضل من عقد الحلفاء فيمكن بواسطتها ربط الألام المستقبلية كما تشفى فورا وتبعاً للعقد الكثيرة فقد يكون الناس هنا يعانون من آلام فى الظهر ، وعلى كل حال فأن لهذه الوصفة اتباعا كثيرين هنا ، وقد تعرفت على شعوذة أخرى من شعوذات الجمالين فى هذا المساء ، وقد فرحوا جدا عندما شاهدوا عصفورا صغيرا يدخل خيمتى ويجلس على كتفى وهتفوا « انه مرابط » وقالوا لى « وأنت أيضا مرابط » فأنت تفهم بالتأكيد لغة العصافير مثل سيدنا سليمان « وأن سبب دخول العصفور الى الخيمة يمكن تفسيرها بأن العصفور المسكين كان على درجة شديدة من العطش وعندما شاهد الماء امامه شرب حتى ارتوى ثم طار خائفا وخرج من

الخيمة ، وغالبا ما تتبع القوافل فى الصحراء طيلة أيام عصافير وبخاصة الدورى كى ينقر بقايا الطعام أو كى يطفىء عطشه من نقطة ماء من القربة ، واذا رأى المرء بعد رحلة طويلة عبر الصحراء الدورى والسنونو ، فأنه يستطيع أن يتأكد أن واحة ليست بعيدة عنه ويستطيع أن يصرخ مثل البحارة انه البر ، انه البر .

وفى بداية خرم الحنشت كانت تقوم حجرة حدود رومانية لقد حرقت أشعة الشمس الحارة رؤوسنا ومنذ صباح اليوم والرياح هادئة تماما وتطرق الاعياء الى اجسادنا فأضطررنا حوالى الرابعة والنصف أن ننصب خيامنا فى العراء تماما . وقد رتبت حرسا خلال الليل لأنه بلغنى سابقا أن منطقة مزدة غير أمينة ، وعلى الرغم من أن جماعتى قد شربوا كمية كبيرة من الشاى الاخضر الذى أحضرته معى لهذه الغاية الا أنهم لم يستطيعوا أن يبقوا يقظين ولحسن الحظ لم نتعرض لاى حادث وقد رحلنا لأول مرة فى الوقت المحدد عند الساعة الخامسة من صباح ـ السابع والعشرين من مايو ، لقد عبرنا حوض واد نسيت أسمه وسرنا عبر خرم أبو العلق جميع الاسماء هنا ذات معنى وقد سألت لماذا اسمى هذا الممر أبو العلق مع أن هذا الدود لا يوجد الا حيث الماء وليس بين حجارة حارة ولكن لم يجبنى أى منهم على هذا السؤال . ـ

ويوصل خرم أبو العلق الى أرض تشبه الحمادة وهذا يعنى أرضا مغطاة بالحجارة ذات الأطراف الحادة ، وعبرنا حوالى الساعة الثامنة وادى الزميطة وهذا اسم غريب ، أيضا اذ ـ أن الزميطة طعام يحضر من شعير وتمر بعد أن يتم شويها ، وعلى بعد 5 كم شرقى بئر الكشة وهو يعرف بجودة مياهه للشرب ولما كان عدد من قربنا مازال مليئا بالماء لم نضطر الى تغيير الطريق .

وبعد ساعة دخلنا ثانية فى ممر ضيق هو خرم المشاهد حيث جرنت قبل فترة موقعة موية بين ورفلة (سكان الجبل) وأولاد بوسيف (البدو) ومشاهد تعنى أن يشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله . وان الجبال الواقعة يمينا وشمالا انما تعلو من 200 300 قدما وجميع الوديان تتجه من الغرب الى الشرق . ثم عبرنا ممرا آخر هو خرم ـ العريان ووادى الذى يأتى من الشمال الغربى ويقع تحت مزدة ويجرى حتى يصب فى سوف الجين ثم وصلنا الى واد عريض يقع شرقى جبل سوداء المزدة وغرب الهضاب المنخفضة وعند وسطه وعلى بعد نصف ساعة من مزدة يرتفع جبل بوقران وكنا قد عبرنا عدة مجار لسوف الجين وبلغنا حوالى الساعة الثالثة مزدة .

ان مزدة التى يعتبرها بارت المدينة الواردة عند بطليموس بأسم موستى كومة (Musti Come) انما تتألف من بلدتين لا يفصلها عن بعضهما سوى بضع مئات من الخطوات وهما مزدة الفوقانى فى الغرب ومزدة التحتانى فى الشرق والبلدتان صغيرتان ولا يقدمان معا أكثر من 100 رجل قادرين على حمل السلاح أى أن عدد سكان مزدة لا يزيد عن 500 نسمة وان أصل السكان من البربر الا أنهم تعربوا عن طريق التعامل والاختلاط مع العرب والبعض منهم يبحث عن أصله لدى قبيلة قنطرار والبعض الآخر يرى أن أصلهم يعود الى أولاد بوسيف ، وهؤلاء الذين يسكنون غالبا الجزء الشرقى انما يزعمون أنهم مرابطون وفى القديم كانت العداوة قائمة بين البلدتين . ولأتفه الأسباب كان يقع الشجار بينهما وقد زال هذا الوضع تحت الحكم التركى . وان عملهم الرئيسى يقوم على حركة تجارة القوافل على طرق غدامس من ناحية ومرزق من ناحية أخرى وعدا عن ذلك فأن لديهم الوسائل الطيبة لتربية الجمال فى المراعى الجيدة التى يؤمنها سوف الجين ، وأن استئجار الجمال هنا لا يقوم على أساس وزن الحمل كما هو فى توات والأجزاء الغربية من الصحراء وإنما يحسب الايجار على اساس عدد الجمال والطريق . وعادة ما يكلف استئجار جمل واحد حتى فزان سبعة محابيب وحتى غدامس خمسة محابيب ويبرر ارتفاع سعر ايجار الجمل الى غدامس بعدم توفر الماء خلال المسافة بين مزدة وغدامس وعليه فأن الجمل يعانى منها الكثير .

ان البساتين الصغيرة التى تحيط بمزدة تؤمن البصل ، والبندورة ، والفلفل الاحمر ، ـ والقرع والبطيخ الاحمر وعلى كل حال فان الارض غير مناسبة تماما لمحاصيل البساتين بسبب تربتها الكلسية ، ويبدو منظر بعض أشجار النخيل التى تنبت حول مزدة كئيباً وتقوم بعض الزراعة تحت القصر واذا ما فاض سوف الجين خلال السنوات الممطرة بلغت مياهه البحر أو أنه يروى التربة تحت الارض .

وان جميع السكان يتبعون الطريقة السنوسية التى تأسست مجدداً هنا والتى عرفت بتشددها وكرهها للمسيحية ، واذا ما علمنا أن الطريقة مازالت حديثة النشأة ، وأنها تتخذ من واحة الجغبوب القريبة من سيوه واحة الاله جوبتر أمون والبعيدة عن هذه المنطقة ، فأنه لابد أن نعجب لسرعة واتساع انتشارها ، ولا يمكن القول أن أهالى مزدة قد أصبحوا أفضل حالاً باتباعهم تعاليم هذه الطريقة التى تفرض شروط وضوء اضافية ، وتزيد من الصلوات

وعلى العكس من ذلك فكما يسود فى كل مكان التمسك بظواهر التقاليد الدينية واهمال الواجب تجاه الغير فأننا نجد هذا الوضع هنا أيضا . وأننى لا أجد لدى سببا لكى أمتدح طباع أهل مزدة ـ كما فعل بارت ـ فقد وقعت مشاجرة مزعجة فور وصولى اليها ، اذ سبقنا احد خدمى وعندما كان يشرب من بئر تسلل لص معروف فى المنطقة كلها اسمه عمر بوخيل وأخذ بندقيته ذات الماسورتين التى كان قد وضعها جانبا : وكان هذا اللص وشركاؤه يجدون ملجأ ورعاية من أهل مزدة بحيث لا يتعرض لهم بينما كان يشمل شره المنطقة الواقعة بين الجبال وغريان وقد وضعت الحكومة العثمانية مكافأة مالية لمن يأتى برأسه ، وأرسلت عدة مرات جنودا كى يقبضوا عليه أو يقتلوه وكان كل هذا من غير جدوى لان سكان الجبال كانوا يخافون أن يوشوا بأوكار هذا اللص المرعب ، وبعدها ذهب مع البندقية الى جامع البلدة التحتانية حيث كان ـ يقيم بينما كانت عصابته التى تبلغ عشرين رجلا تقوم بغزو خارج المنطقة ، وقد أرسلت اليه خادمى حامد وكلفته أن يبلغه أن هذه بندقيتى وعليه أن يعيدها لى حالا ، وطلب فدية قدرها خمسة تالرات ، عندئذ وجدت أنه لابد لى من التوجه الى مجلس البلدة وبينت لاعضائه أنهم يتحملون مسؤولية سلامة أملاكى واذا لم يؤمنوا لى البندقية ، سأدع الجنود تأتى من قصر غريان وستدفع البلدة الثمن لانهم يقدمون الحماية لرئيس عصابة مشهور ، وقد أثر هذا التهديد وأعاد البندقية بعد أن تفاوضوا معه حتى المساء ودفعوا له مبلغ ثلاثة تالرات وقد كان اللص على درجة من الوقاحة أن أتى بذاته فى اليوم التالى الى خيمتى وعرض على أن أدفع له تالرين ، وفى هذه الحالة يمكن لقافلتى أن تسير بأمان حتى غدامس ، ومن دون أن أنطق بكلمة واحدة ، أطلعته على أسلحتى ، بندقية لوفوشو ذات 18 طلقة ومقروطة (بندقية قصيرة) ذات 9 طلقات . وقد كان أثر هذه الاسلحة عليه واضحا وهذا ما قصدناه ، وعلى كل حال فقد عوضت أهل مزدة الثلاثة تالرات بعد أن كانو قد دفعوها كما قدمت هدية الى شيخ الزاوية التقى كى لا يشك احد باسلامى .

وقد استغليت هذا الوقت كى أتجول فى المنطقة ، فهى قفراء وذات شكل واحد ، وأن الوادى العريض الذى تقع فيه مزدة انما يتفرع فوق البلدة الى فرعين وان اتجاهه الاساسى من الشرق الى الغرب . وفى هذه المساحة الشاسعة لا توجد شجرة واحدة بينما تنبت بعض الاعشاب لكنها تبقى صغيرة

بسبب حركة الرمال على الضفة الجنوبية ، وعلى مسافة ثلاثة كليومترات
شرقى مزدة تقوم أطلال قلعة عربية على هضبة رملية ارتفاعها حوالى 50 مترا
ويقول عنها أهل البلد أنها من وقت الجاهلية ، الا أنه ليس هناك ما يشير على
أنها من أصل رومانى سواء فى السور أو الباب وأن اجزاء مختلفة من هذه
القلعة مازالت باقية بشكل جيد ومطليه بالكلس وان مظهر الطلاء يوحى كما
لو أنها طليت منذ فترة قصيرة . أن مؤنتى من المواد الغذائية قد نقصت اليوم
الى درجة كبيرة فى أثر قدوم قافلة من الطوراق من فزان ـ فان هؤلاء الثمانية قد
اعطوا رماحهم وسيوفهم الى خدمى كى يبقوا فى ضيافتى ، وقالوا أنهم قد أتوا
عندما سمعوا أن مصطفى مقيم بالقرب من مزدة ، لم يسبق لى أن رأيتهم
ولكنهم قالوا أن سيدهم سى عثمان بن بكرى ، وقد أتيت معه من تيدكلت
وعليه فأنهم يعتقدون أن من حقهم أن ـ

أن يكون فى ضيافتى طالما أننى صديق عثمان العزيز ، وعلى الرغم من ان
هذا لم يكن سببا كافيا لاستضافتهم الا انى رحبت بهم وبعد قليل نصبوا
خيامهم الجلدية الصغيرة بجانب حيمتى ، وان اهل مزدة كانوا سعداء انهم لم
يضطروا لاطعام هؤلاء الغرباء الجائعين وقد تجمعوا حول خيامنا وعندما
شاهدوا كيف انى ارسلت دقيقاً وتمراً الى هؤلاء الضيوف الغير متوقعين حمدوا
الله ان هذا لم يخرج من مؤنهم وقد اكلوا كما لو انهم يذوقوا طعاما منذ ثمانية
ايام ، لقد بكى خادمى العتيق شتاوى حنقا عندما راى ، كيف كان يرسل
اليهم طبق من التمر بعد الآخر وكيف كان يقل ما لدينا من الدقيق ان الكمية
التى استهلكت كانت تكفى لعشرين عربيا ، لقد تيقنت ان مؤنتى التى
خططت بحيث تكفينى لمدة ثلاثة شهور ما عادت تكفى لثلاثة اسابيع وعليه
كنت امل ان اتمون فى غدامس .
لقد كان على ان اتعرض لازعاج اخر فى مزدة ، فقد كنت مضطرا كى
استاجر جمالا قوية ، ولما كان اصحابها يعرفون ان لا وجود للمنافسة فقد
طلبوا اسعارا خيالية وبدا لى انهم قد اتفقوا جميعا ضدى ولحسن الحظ فان
المدير كان رجلا عاقلا استطاع ان يقنع ابناء بلدته ان يتقاضوا السعر المعتاد
وهو خمسة محابيب (تبلغ قيمة المحبوب اكثر من تالر) الا انهم جاؤوا
باعتراضات جديدة ، فقد زعموا ان الحمولة ثقيلة جدا . وقضيت على
تذمرهم بان اخذت شيئا من الحمولة ووضعتها على جملى .

فى الساعة الخامسة من ظهر يوم 5 يونيو غادرنا مزدة وقطعنا حتى المساء
مسافة ساعتين ثم نصبنا خيامنا فى منطقة غنية بعلف الجمال فى وسط وادى
سوف الجين وحيث يصب وادى حراجه الذى يوجد فيه ماء جار خلال فصل
الربيع . وعلى يميننا كان جبل درمن الذى يفصل سوف الجين الى فرعين .
لقد قضيت ليلتى هكذا من غير خيمة لان هذه الارض ذات النباتات كانت
قد شوتها الشمس واصبحت على درجة من الصلابة بحيث كان من الصعب
ان تخرقها الاوتاد الحديدية الى العمق المطلوب .
فى الساعة الخامسة صباحا تابعنا رحلتنا فى اتجاه 225 . وبعد نصف
ساعة مررنا عبر خرم الجفالة ومنه عبر فرع آخر من وادى سوف الجين قادم
من الشمال ثم من الشمال الغربى ان ضفافه منخفضة ولكن حيث يصب وادى
فسانو الذى اذخلنا الان فى سوف الجين ترتفع زاوية ناشئة عن الواديين ويبدأ
جبل يسمى بسبب لونه الاسود الجبل الاسود الطويل ، وكما هو الامر فى
وادى سوف الجين فان وادى فسانو ذو نباتات وعندما ياتى مطر كاف يزرع
سكان جبل غريان ارضه وعندما صعدت مرات ضفة الوادى التى ترتفع
حوالى مائة ذراعا وجدت ان المنطقة المحيطة ليست فقيرة بالنباتات . فى
الساعة التاسعة صباحا اضطرنا القيظ القاسى الى الاستراحة ، فلم تستطع
الجمال والجمالون ان يتحملوا لهيب الشمس اكثر من ذلك ، وبسبب حرارة
الارض وضعنا لكلبى العربى الابيض نوعا من الصندل . لقد كانت العملية
خطرة جدا لانه يعض ولا يدع احدا يلامسه فاستعملنا الحيلة معه وتمكنا من
ربط فمه وبعدها وضعنا الصندل فى ارجله ثم علمته ان يجلس على ظهر
الجمل عند ما تسير ، لقد كان على درجة كبيرة من اليقظة ليلا نهارا ولذلك لا
يمكن الاستغناء عنه فى قافلتنا .
حتى الساعة الثانية والنصف امتدت قيلولتنا ثم تابعنا سيرنا النهارى باتجاه
200° وعند الخروج من وادى فسانو يدخل المرء الى سهل واسع فيه نباتات
مثل تلك التى تنبت فى الوديان وبخاصة السبط والبقيل والرتم والشيح ،
ولوادى فسانو فرع واتجاه غربى توجد فيه سانية فسانو ذات الماء الدائم . وهنا
يسكن اولاد المشاشيه الذين يربون الغنم والجمال ان المنطقة غنية بالغزلان
والارانب وابن اوى والضباع وفى جبل كف موسى الذى لمحناه من على مسافة
15 كم يقال انه مازالت فيه غزلان كثيرة . لقد مررنا بدوار ((بنجع)) اولاد
المشاشية وقد استقبلونا بلطف وسقونا حليب النوق وان خيامهم افضل

واوسع من خيام العرب الذين يسكنون منطقة طرابلس . والان وصلنا
الطريق الآتى من الزنتان شمالا الى غريان والذى يؤدى الى فزان ووصلنا بعد
ساعة منطقة البريقة ونصبنا مخيمنا الليلة حوالى الساعة السادسة والنصف .
ان الطريق الذى قطعناه خلال النهار كان يصعد تدريجيا والميل كان شماليا
شرقيا ، ولما كنت لا اخشى التعرض للسرقة فى منطقة المشاشية لم اجد انه من
الضرورى ان اصع حرسا ليليا ولم يوضع الرباط الحديدى فى ارجل الجمال ،
وعادة فان السفر عبر منطقة طرابلس آمن فيما عدا منطقة الحدود مع تونس
حيث تعمل بعض القبائل فى الغزو ، ان مجموعات السرقة مثل عصابة
بوخيل التى تعرفت عليها فى مزدة تختار سرقة المواشى اكثر مما تتعرض للقوافل
وبخاصة ان الاخيرة تكون مسلحة وذات قوة .

فى يوم 5 يونيو الساعة الخامسة صباحا تحركنا باتجاه 195° لقد استمرينا فى
الصعود وشاهدنا فى الجنوب الشرقى جبل البريك الاحمر اللون . وقد وجدنا
بالاضافة الى النباتات التى ذكرناها حتى الان نبات الدومرحن وفى منطقة
النقلية التى وصلناها بعد ساعتين وجدنا امكنة خيام الزنتان المتروكة ، وهم
ياتونها عادة فى الربيع مع قطعانهم وهذه المنطقة تعتبر مرعى جيدا للجمال
وملجا للغزلان وبعد ساعة وصلنا الى منطقة العنادليب التى لا تختلف عن
الاولى بغير الاسم . والان ناخذ الاتجاه 225° ووصلنا حوالى الساعة 9½
على نفس الارتفاع الى خشم الكبش وهو فى الواقع امتداد لجبل مسوسة .
ويعبر خرم الرشادة قمة منخفضة من الغرب الى الشمال الغربى وامام هذا
الخرم توقفنا حوالى الساعة   من اجل القيلولة ، ان البقعة المحيطة بنا
كانت مليئة بالبقايا المتحجرة الا اننى لم اعثر على قطع قليلة وهى بحالة جيدة
وعلى كل حال فان الحرارة المرتفعة خلال النهار تجعل من غير الممكن التفتيش
عن المتحجرات وجمعها وفى الساعة الثانية والنصف بعد الظهر عبرنا خرم
الرشادة ووصلنا بعد مسيرة ساعة الى منطقة عرق اللبى الرملية التى تغطى
ارضها النباتات . وقد استطاع احد الجمالين ان يصطاد غزالة . وتحقق لنا
صنف جديد فى طعامنا الذى كان غالبا ما يتكون من الخبز والسمن والتمر فى
الصباح والبازين فى المساء وكى أؤمن لنفسى شيئا من الطعم والقوة فكنت
اضيف الى هذه الماكولات خلاصة اللحم . ومن عرق اللبى الذى يمتد ساعة
من الجنوب الغربى الى الشمال الشرقى وصلنا الى واحات تشبه منطقة الحمادة
وهى مغطاة بكثير من النباتات الصغيرة وتسمى قرة وتعترضها منطقة قرة

الصواوين . وقد استرحنا حوالى الساعة   فى احدى هذه الوحات . وبعد
قليل تجمع خدمى حول مائدة ضخمة وقد اكلو بالاضافة الى حلة من البازين
نصف الغزال . واخيرا شبع الجميع وهذا يعنى كثيرا بالنسبة لهم فقد بقى
شىء من البازين اتوا عليه فى الساعة الثانية من صباح اليوم التالى .

وفى الساعة الثالثة من صباح يوم 6 يونيو تابعنا سيرنا فى نفس الاتجاه الذى
سلكناه فى اليوم السابق وهو 225° ووصلنا حوالى الساعة الثامنة الى ما يشبه
حوض وادى اسمه اغادير وعندما سألت الى اين يذهب ماء هذا الوادى ذى
الاتجاه الجنوبى الشرقى والشمالى الغربى عند المطر ، اجاب اهل المنطقة انه
يشكل مع وادى الخيل وجميع وديان المنطقة الآخرين اغادير (بركة من مياه
المطر) ولم يستطيعوا ان يزودونى بمعلومات عن موقعه واسمه . وحوالى الساعة
التاسعة نصبنا خيامنا فى اغادير الخيل للقيلولة اتقاء للقيظ اما ما يتعلق
بالعلف للحيوانات فقد كان لدينا منه ما يكفى واما الماء فقد اصبح قليلا
ولعله لا يكفينا لاكثر من يومين وتفصلنا عن درج مسافة قدرها خمسة ايام
ولذا قررت ان ارسل احدهم ممن يعرفون المنطقة وبعض خدمى وجميع الجمال
الى بير الكلاب الذى يجب ان يقع الى شمالنا كى تشرب الحيوانات وتملأ قرب
الماء وقد بدأوا رحيلهم بعد الظهر وأمرتهم أن يعودوا فى اليوم التالى .

اما نحن الباقين فقد أتيحت لنا فرصة الاستراحة الا ان مخيمنا كان قائما فى
ارض لا شجر فيها تحت اشعة الشمس اللاهبة . وعليه فاننا لا نحجسد على
ما نحن فيه ان مقياس الحرارة كان يسجل فى الظل بعد الظهر من 35 _ 40 د
ولم يسجل ابدا قبل شروق الشمس اقل من + 18 د . وبالاضافة الى ذلك
كانت تنفخ الرياح العاتية فجاة وتختفى ايضا بشكل مفاجىء وهذا ما يلاحظ
فى الصحراء .

فى الساعة 9½ قبل ظهر اليوم التالى عادت المجموعة وكانت قد انطلقت
من بير كلاب مع شروق الشمس واتخذت اتجاها مقداره 350° وقد حسبت
ان المسافة بين وادى الخيل وبير كلاب تبلغ 10 كم خطا جويا . وهذه
النتيجة مطابقة تماما لاقوال جمالى الذى يعرف لمنطقة . لقد مرت المجموعة
بالقرب من بير كلاب بدوار لاهالى الزنتان . وعليه فان فى المنطقة بعض
السكان .

كان الوقت مساء عندما غادرنا محطتنا وقد سلكنا اتجاها مقداره 225°
وسرنا على طوال وادى الخيل وتوغلنا مع مجراه فى المنطقة الجبلية الصخرية
.

ينطلق ويتلقى عددا كبيرا من الادوية الفرعية من الجنوب والشمال . وان الوادى الفرعى الرئيسى ياتى من الجنوب الغربى . ان ارتفاع جدران هذه الادوية المكونة من الرمل والجبس يتراوح بين 100 و 150 قدما وفى مغارة طبيعية وجدت على الجانب الايسر من الصخرة أشكالا منحوته فى الجدران من غير دقة فنية ومع ذلك فانها تدل على مرحلة معينة من الحضارة وتمثل الاشكال المنحوته ، فيلة وجمالا ، وغزلانا وامرأة ذات مظاهر زنجية وفى وضع ليس فيه حشمة ولم أعثر على كتابات اذ ان الاسماء العربية مثل محمد وعبدالله وسور القرآن الكرين المنقوشة انما تعود الى فترة احدث بكثير من زمن هذه الاشكال .

وفى الساعة 2½ مساء وصلنا الى طرف الحمادة ، تلك الهضبة ذات الحجارة الحادة الأطراف وقبل ان نتجاوزها طلب منى الجمالون ان أعمل كومة من الحجارة (بوسفور ، ابوسفار) اذ أننى أسلك هذا الطريق لاول مرة . ولم يعرفوا أصل هذه العادة ومعناها او اننى لم أفهم تفسيرهم لها . وقد علمت فيما بعد ان بوسفور نوع من التمائم تحفظ المسافر الذى يطأ هذه النقاط لأول مرة من الخطوب وعندما يقيم هذه الكومة من الحجارة إنما يلتزم ايضا بتقديم وجبة من الطعام لرفاقه فى السفر وإنها لمدعاة للتفكير كم هم عديدون أولئك الذين أقاموا أكوام الحجارة فى الأمكنة المذكورة وعلى كل حال فان الحمادة ليست خالية من النبات وانما يوجد فى كل مكان البقيل وهو نبات علفى لا تحبه الجمال كثيرا . وعذا عن ذلك غالبا ما يصادف المرء عصافير وحشرات ، واما الدروب ذات المعالم الثابتة .

انما هى اشارة اكيدة على انه فى هذه المنطقة الصخرية تعيش غزلان وفى البداية لم أعرف كيف نشأت هذه الدروب إذ أنها أضيق بكثير من تلك التى سلكها الناس والجمال . وعلى الرغم من أنها تتقاطع كثيرا فى الصحراء مع دروب الانسان إلا أنه ما من أحد استطاع ان يعطينى معلومات حولها . وإن الجمالين الذين يرافقوننى هذه المرة كانوا أذكياء فقد حدثونى أن ـ الغزلان تسلك فقط الدروب التى اختطتها منذ مئات السنين ويمشين افراد خلف بعضهم البعض بحيث لاتجرح ارجلهن النحيفة بالحجارة الحادة فى منطقة الحمادة .

فى الحادية عشرة والنصف ليلا توقفنا كى ننصب مخيمنا ، وقد سمعت من

مرافقى خلال رحلاتى السابقة أنه من الأفضل أن تعلق القرب على أن توضع على الأرض إذ أن الأرض تشرب الماء ، وقد يكون فى هذا شيء من الحقيقة طالما ان الارض على هذه الدرجة من الجفاف ولهذا السبب فقد كنت اصطحب قاعدة ذات ثلاثة ارجل كما يفعل الرحالة المغاربة . وهنا كنت ألاحظ كيف كان الجمالون يصففون القرب على حصيرة ثم يغطونهم بحصيرة اخرى وقد سألتهم : لماذا لاتعلقون القرب . فأجابوا : لاننا فى هذه الحالة لا نستطيع ان ـ نغطيها جيدا . ولماذا يجب ان تغطى جيدا : لان القمر يشرب الماء فى غير هذه الحالة ـ ولو حاولت ان ابعدهم عن هذه الخرافة ، لكان هذا ضربا من المستحيل ، فتركتهم وشأنهم وان خدمى ذوى المنشأ المدنى كانوا اكثر ذكاء ووعيا من سكان الحمادة واحتجوا على ذلك ولكن عندما أقسم أحدهم أن القمر يشرب الماء ، وان القرب تنفجر عندئذ فقد بدوا وكأنهم قد آمنوا واقتنعوا ايضا . ووضعوا القرب على الحصير وافترشوا الارض .

وفى الساعة الخامسة من صباح اليوم التالى كنا مستعدين للرحيل وحافظنا على ذات ـ الاتجاه ومررنا حوالى الساعة السابعة فى منطقة يوف يوف الغنية بالنبات ثم مضينا حتى سرو مليحة ووصلناها فى الساعة الثامنة وهى عبارة عن منخفض طولانى ذى اتجاه شمالى جنوبى يتجمع فيه الماء شتاء ويتبخر صيفا ليخلف وراءه طبقة سميكة من ملح الطعام ويوجد فى الصحراء من هذه الاحواض الملحية فقد وجدتها فى توات ، وتافيلت وسيوه ، ووجدت فيما بعد ان كافة مناطق السودان يزود بالملح الذى تنتجه سبخة بيلما وان المملحة المذكورة تغطى حاجة مزدة والجبال من الملح ، وتوجد سبخات ملحية اخرى بالاضافة الى المليحة ، الاولى تقع جنوبها والاخيرة بعيدة عنها فى الاتجاه الجنوبى الغربى ، ويوجد بالقرب منهاماء صالح للشرب الا انه غيرعذب تماما كما وصفه لنا الرعاة الذين كانوا يقودون غنمهم وماعزهم من هناك الى موطنهم الزنتان .

لقد خصصنا الوقت من التاسعة صباحا وحتى الثالثة والنصف للقيلولة وفى الساعة . الخامسة بلغنا سرو عطوة وسرنا عبره الى منخفض عطوة وهو يشبه تماما شكل المليحة ويتجمع فيها ماء عذب خلال فصل الشتاء يكفى لنمو النباتات وعلى وجه التحديد الاثل والرتم واوراق الرتم واغصانه ذات طعم مرجدا وحطبه ذو دخان اسود وازهاره ذات رائحة عبقة تختلط فيها رائحة الزريدة والياسمين ولا اعلم فيما اذا كان صحيحا ما يقوله العربان من

اح حليب الماعز التى تأكل من الرتم مسكر وبعد ان اخترقنا العطوة نصبنا خيامنا فى الحمادة الساعة الحادية عشرة ليلا . وعادة كنت انصب الخيام نهارا لكى تقينا اشعة الشمس واما ليلا فلم انصبها لان الليالى حارة وجافة بحيث لايتطلب المرء ان ينام تحت سقف .

وفى اليوم التالى بدانا رحيلنا فى الساعة الخامسة صباحا . وكان الهواء قد اصبح رطبا لا بل سقطت بعض قطرات المطر الا ان مسيرتنا النهارية لم تكن من دون منغصات . فالجمال التى استأجرناها كانت قد ارسلت مع القوافل منذ وقت قريب ، ولذلك كانت على درجة من الاجهاد بحيث كنت اخشى ان تصبح بطالة اذ ان واحد منهم كان يجثو بين الحين والآخر وكان من الصعب ان يتابع طريقه وكنا نشق طريقنا ببطء عبر سرو ونصرة الى حوض نصرة الذى يتلقى مجارى من جهات مختلفة . وكان يوجد فيه سابقا بئر بعمق 7 قامات ذو ماء عذب انهار قبل عام اما صدفة او بسبب القدم ولم يفكر احد حتى الان بازالة الردم وتحسين وضعه وكانت قيلولتنا عند 11½ بجوار نصرة وخلال الطريق لاحظت ان الجمالين كانوا يلاحقون الابو بريص وكانوا يقتلونه ويعتقدون انه يسمم الطعام بنفسه ويؤذى الانسان واذا ما راته المراة الحامل فانها تلد طفلا ذا بقع بيضاء (مصابا بداء البرص) وهذا الحيوان المسالم يكثر فى هذه البادية . وكى اقنعهم ان حججهم واهية اخذت ابوبريص ووضعته على يدى ورجلى وعلى صحن الشاى الخاص بى وعلى الرغم من ذلك لم يقتنعوا وزعموا انى محروس من الاذى .

وعندما تابعنا سيرنا حوالى الساعة الرابعة بعد الظهرة باتجاه 250 د كان من حظنا ان اصابتنا عاصفة مطرية . اى متعة ان يتبلل المرء تماما ، وحتى كلبى بدا وكانه سعيد بذلك وكانت الجمال تسعى وراء قطرات المطر . وعلى كل ان هذه الحالة نادرة جدا فى الحمادة وبخاصة خلال الصيف . فالعاصفة المطرية قدمت من الغرب باتجاه معاكس للرياح التى كانت تهب شرقية وفى الساعة التاسعة والنصف عبرنا وادى عسام الاول الذى يجرى مثل الواديين التاليين من الشمال الى الجنوب ثم ينحرف نحو الغرب ويصب فى وادى ميمون وفى الساعة 10 وصلنا وادى عسام الثانى .

لقد كان الليل بعد هطول المطر رائعا فقد انخفضت درجة الحرارة ليلاً حتى 14 وبقيت كذلك حتى شروق الشمس فى حين انها لم تنخفض خلال الأيام الماضية عن 02 د وقد ضلت جمالنا طريقها خلال الليل وهى ترعى

ولذلك تأخر موعد انطلاقنا حتى الساعة السادسة صباحا . وهذه المرة انطلقنا باتجاه الغرب وعبرنا حوالى الساعة السابعة وادى عسام الثالث وحوالى الساعة الثامنة كنا فى وادى ميمون ذاته . وفى وسط الوادى يبلغ عرضه فى كل مكان 5 كم او ما يزيد تنتصب جبال قرشه الصغيرة ، ويتلقى وادى ميمون من الجنوب رافدا آخر وهو وادى البئر وكما يعنى الاسم فان فيه بئرا الا انها مندثرة بئر وادى النصرة لقد توقفنا امام مصب وادى البير من الساعة العاشرة حتى الخامسة بعد الظهر ثم تابعنا سيرنا غربا على طول وادى ميمون وعند انعطاف هذا الوادى نحو الشمال الغربى ثابرنا على اتجاهنا الغربى ان هذه المنطقة لها طابع واحد وهى أنها حمادة ينمو فيها السدر وقد نصبنا مخيمنا حوالى الساعة الحادية عشرة ليلا .

فى 10 يونيو كنت آمل ان نصل اخيرا الى واحة درج هدفنا التالى ، لقد آن الوقت فقد كنا اجهدنا نتيجة للحرارة العالية خلال الايام الثمانية التى امضيناها عبر الحمادة فقد اصيب اثنان من خدمى وانا باسهال لم يتراجع على الرغم مما تناولنا من الافيون لقد نحفت كثيرا خلال رحلتى القصيرة عبر الصحراء فقد كان على أن أضيق حزام نقودى خمى بوصات واننى أشعر أن قواى تتراجع وأن مرضاً شديداً قد بدا يعترينى .

لقد مررنا ببعض القرى وظهر لنا فى الشمال على بعد حوالى كيلو متر واحد جبل خشم الدب وحوالى الثامنة والنصف عبرنا خرم طويل النعيلات وتلته ارض تشبه الارض السبخية تتشكل فيها كتل سنتحدث عنها فيما بعد كما نجد فيها مستحاثات كثيرة مثل التى عثرت عليها فى وادى الخيل وخرم الرشادة .

كانت القيلولة حوالى الساعة العاشرة . لقد ارسلت اثنين من خدمى ، وحملتهم البيورلدى بحيث يعلمون اهالى درج ويختارون لنا مكانا جيدا لنصب المخيم . وتبعناهم ووصلنا الساعة الرابعة بعد الظهر . فقد بلغنا مجرى وادى القطب عبر خرم الكسيب ، وقد سمى الوادى كذلك لان الاهالى ياخذون منه مايحتاجونه من حطب ، وتجرى مياهه فى وادى ميمون فى الساعة السابعة مساء وصلنا درج بعد ان صادفنا اناسا وحيوانات وكل هذا كان يشير الى اقترابنا منها لقد هيألى الاهالى استقبالا طيبا ويبدو ان البيورلدى لم يكن من دون تأثير فقد اختاروا لنا مكانا ظريفا لنصب مخيمنا تحت اشجار النخيل

وامنوا لنا الماء وقد كنت وحدى أفضل ان أخيم فى الحمادة حيث كنت آمل من هوائها النقى ان ينعكس بشكل ناجع على صحتى المتردية .

ويوجد عدا عن واحة درج ـ التى سميت كذلك لانها تقع على حافة الحمادة المنحدرة ـ ثلاث قرى اخرى توقته وتغلغلت ان سكان درج وتغلغلت وتوقته ليسوا من اصل عربى وانما بربر بينما سكان ماترس عرب وتطلق القبائل التى تقطن المنطقة المحيطة على سكان توقته تغلغلت اسماً مشتركا هو مملوكى وهذا مايدل على علاقتها لسابقة بطرابلس الا أنه لا العرب ولا البربر الذين يسكنون درج ـ يحملون ملامح هذا العرق وانما هم متأثرون بالسود وقلما نجد لديهم ملامح القوقارى واما ما يتعلق بطباعهم فقد وجدتهم كرماء طيبين ولكنهم جامدون ويبدو انهم كانوا فى صراع حاد مع النظافة واما الوسخ فانهم كانوا يعرفونه جيدا ، ان بيوتهم التى ابتنوها من الحجارة تشبه نظام البيوت المعتاد فى منطقة طرابلس ان بيوتهم وسخة ويسكنها الناس والماعز سوية وفى اغلب البيوت توجد غرفة يوضع فيها مقدم المرأة او النسوة وغالبا فى اوعية كبيرة من النحاس الاصفر ويضعون ايضا الأوعية النحاسية على الحيطان وليس لها اية وظيفة سوى إظهار غنى الاسرة باعتبار ان النحاس هنا نادر وباهظ الثمن . ان سكان درج وتوقته وتغلغلت ذو سمعة سيئة لدى اهل غدامس الأتقياء لانهم يشربون اللقبى فى حين ان أهل ماترس مثل الغدامسيين لايستمتعون باللقبى علانية ويعانون منهم كثيرا .

واذا ما كانت تظهر هنا الملاحظات العامة حول طبيعة المنطقة الممتدة بين جبل غريان ودرج فالانحدار يبدأ على وجه العموم من الجبل نحو سوف الجين الذى يتلقى فروعه من الحمادة التى تبدا عند وادى الخيل ولا نجد فى الحمادة انحدارات بارزة وفى وسط الحمادة يتجمع الماء فى المناطق المنخفضة من السهل الذى يرتفع وسطيا حوالى 1200 قدم عن سطح البحر وتسيل باتجاه الغرب جميع فروع الوديان الى وادى ميمون الذى يمر امام ماترس ، ويكمل جريانه نحو الغرب ويصبح اكبر بكثير بعد ان يرفده وادى تناروت القادم من الجنوب الشرقى وتقع درج على ضفته اليمنى عند نهايته حيث يوجد ماء فى حوضه صيف شتاء وان طرف الحمادة الحمراء هنا ليس فقيرا بالنبات والحيوان بالدرجة التى يصفها دوفيريه وريتشاردسون فيوجد فى هذه المنطقة غزلان وارانب كما توجد الضباع من بين فصيلة الحيوانات المفترسة .

الكبيرة ويبدو ان النعام نادر الوجود الا انه غالباً ما تشاهد العصافير

الصغيرة ذات الريش الابيض والاسود اللون ويسميها الاهالى المويكة وتعرف بتغريدها الخاص الذى يتشكل من اربعة اصوات متتالية . ان الحشرات والزواحف كثيرة ايضا . ومن النبات يوجد البقيل والرمث وفى القرة تنتشر أحراش جميلة من الرتم والسدر .

ان الاراضى حول درج تروى فى العادة من وادى تناروت الذى يتخذ هنا عند مصبه فى وادى الملحه اسم وادى درج ويتلقى على مسافة يوم من درج وادى حريكات وعلاوة على الماء الذى يجرى فوق الارض يحصل المرء على الماء من الفجارات ومن الآبار فى النهار ان حقول النخيل المتوفرة تزيد عن حاجة السكان فيما لو لم يجر بيع ثلثيها الى اشخاص من غدامس والجبل . ومما يدل على خمول السكان انهم سمحوا بان يذهب جزء من اراضيهم وأغلى ممتلكاتهم وهى أشجار النخيل لاشخاص من خارج بلدتهم وذلك فى اثر مواسم سيئة وكما هى العادة فى جميع الواحات تباع هنا ايضا اشجار النخيل والارض التى تقوم عليها بصورة منفصلة عن بعضها البعض وهذه العادة تسبب نزاعات حامية . وعلى سبيل المثال يشكو مالك شجرة نخيل ضد مالك الارض . من ان الشجرة قد الت الى اليبوس والموت لان صاحب الارض لم يروها بصورة كافية ، ان الارض رخيصة فى درج وحتى البساتين اذا ما اخذ المرء بعين الاعتبار خصوبة الارض وتوفر الماء ومن الطبيعى ان يدفع ثمنا أعلى للاراضى التى تروى من الماء الجارى وعلى العكس من ذلك فان قيمة الأشجار عالية نسبيا اذ تبلغ قيمة شجرة نخيل من صنف جيد وذات محصول سنوى يصل إلى حمولة جمل من التمر ، مائة محبوب او 500 فرنك واما سعر حمولة جمل من التمر مائة محبوب او 500 فرنك واما سعر حمولة جمل من افضل انواع التمر فتتراوح بين 7 و 8 محابيب وقد يصل عدد اشجار النخيل فى المناطق الاربعة الى حوالى ثلاثمائة الف . واما ما يتعلق بالمنتجات الاخرى فلا تختلف دَرج عن سواها من واحات الحمادة . وهى تدفع علاوة على عشر جميع الثمار 1182 محبوباً بمثابة ضريبة .

ان سوء حالتى بلغت وضعا مزعجا . ونصحنى مدير البلد ان اتناول اللقبى . والحق اننى شربت طنجرة من هذا المشروب المقرف . وفى البداية ساءت حالة الاسهال الا اننى شعرت بتحسن فى مساء اليوم التالى بحيث كنت قادرا أن أتحمل أعباء الطريق الى غدامس حيث كنت آمل ان تتيسر الى غناية افضل واستراحة اطول ولما كان الجمالون الذين رافقونى قد عادوا الى

موطنهم مزدة فقد استأجرت جمالين آخرين من ماترس وبعد ان ارضيت جميع شحاذى درج انطلقت يوم 15 يونيه السابعة والنصف من درج .

وبعد ثلاث ساعات وبزاوية قدرها 275 د وبعد أن سرنا على طول وادى ملحه وصلنا الى ما ترس واسترحنا هنا فى ظلال النخيل وقت القيلولة ، ان البلدة الصغيرة التى لا يتجاوز عدد سكانها مائة نسمة يعيشون على تأجير الجمال اذ أن عدد النخيل ليس بكثير ومعظمها ملك لاشخاص من غدامس وقد زعم أن الطريق من هنا حتى غدامس ليس آمنا تماما ، لهذا السبب عرض عدد من أهالى ما ترس ودرج وأولاد محمود أن ينضموا الى ركبى ولما كانوا جميعا مسلحين ببنادق فلم أجد أى ضير فى تعزيز قوة قافلتى ولو أننى كنت أخشى أن يؤثر ذلك على مؤنتى وهذا ما تأكد بصورة تامة .

وفى الساعة الخامسة بعد الظهر تابعنا سيرنا بزاوية قدرها 265د وكنت أود أن أتابع السير حتى منتصف الليل للاستفادة من طراوة الليل . وما أن قطعنا نصف ساعة من المسافة حسب سرعة خطى الجمال الرئيسية حتى سمعت ضجة فى مقدمة القافلة وميزت هدير صوت جمل وعادة ما كنت أسير فى مؤخرة القافلة بحيث أراقب أى اضطراب فى النظام وأتخذ ترتيباتى وكى أتكمن أيضا من مراقبة من مراقبة الناس على وجه أفضل . وقد سقت جملى بسرعة ووجدت أن القافلة قد توقفت واستطعت أن ألمح ما قد حدث . أن خادمى الاسمر خير ضرب الجمل بالعصا .

وأدى هذا الى سقوط عين الجمل اليمنى فخر على الارض ينزف دما . وعادة تبرز عيون الجمال . وفى الوقت الذى كان الجمل مستمرا فى اطلاق أصواته كان يضج صاحب الجمل وهو من ماترس والوضع يهدد بوقوع اشتباك بالايدى ، ما العمل ؟ كان يتكلم عن القاضى أو دفع مبلغ مقابل الضرر أوتبديله بأحد جمالى ولم أكن ضده فى ذلك ، فجمله كان صغير السن وقويا وكان يرغب أن تعود كل القافلة على درج لوضع الامر أمام قاضيها بحيث يبت فيه ولم أقبل برايه وقلت له إذا ماكان يريد ان يوصل الأمر الى القاضى فان بوسعه أن يفعل ذلك فى غدامس أيضا . وكنت أتوخى أن أتوصل معه خلال هذه الفترة الى تفاهم ، وبعد أن سار الى جانبى لمسافة قصيرة يفاوضنى ، جرى الاتفاق أن يعود الى ما ترس ويحضر جملا جديدا أو يلحق بنا الى غدامس حيث القاضى . وهكذا عاد وقد توقفنا حوالى السادسة بانتظار غودته وفى الواقع عاد بعد ساعات الا أنه أحضر

معه أخاه عوضا عن الجمل . وقد طلب . هذا أيضا أن أعود معهم الى درج أو أسلم على الاقل خادمى خير بحيث يبرز أمام القاضى ليحكمه ، ولما أصررت على موقفى اقترحا أن أصدر الحكم فى القضية بأعتبارى بك وهذا هو اللقب الذى وصفت به فى الفرمان والبيورلدى ، انه اقتراح خبيث أنهما يتوجهان بذلك الى عدالتى وشهامتى . لقد اعترفت لهم أن من حقهم الحصول على تعويض بالضرر الا أننى أفهمتهم أنهم غير محقين فى طلبهم الحصول على القيمة الكاملة للجمل المجروح اذ أن الجمل ليس من الحيوانات المستعملة فى الرفاهية . وان فقدان عين واحدة لاتؤثر فى مقدرته على الحمولة وهكذا فأن اعطاءهم خمس قيمته يعتبر تعويضا زائدا وبعدئذ سألت فيما اذا كانت العادة تجرى بأن يتحمل السيد كل ضرر يسببه خادمه . وجاء الجواب « : أن خير ليس خادمك بل مولاك » واذا ما صح ذلك فاننى ملزم بدفع كامل التعويض ، ومثلما يملك السيد ما يكسبه مولاه فان عليه أن يتحمل كل ما يسببه ،وأقسمت أن خير ليس من موالى بل انه خادم يتلقى مقابل خدمته وأقسم بقية خدمى على ذلك أشد الايمان وان اطلاق الايمان من الامور المعتادة فى كل مناسبة ويتوقع دائما أن يدعم أى قول بأيمان أمام الناس . ان ـ الاخوين كانا يعرفان جيدا أن خير الذى بدأ عمله لدى منذ فترة قصيرة ، لن تكون لديه أموال يمكن أن يضغط عليه للدفع منها ، وهكذا فأنهم خضعوا مؤقتا لبختهم السىء ولم يشكوا لحظة واحدة بالدواء والشاش المدهون بالمرهم الذى وضعناه فى حفرة العين ستخفف من آلام الجمل المسكين وعندما انطلقت القافلة فى صباح اليوم التالى كما أصدقاء .

ومنذ الثامنة صباحا وحتى الثانية بعد الظهر كنا نسير على طول وادى الملحة الذى ـ يسير بأنحناءات عديدة نحو الغرب الى أن يغور فى العرق عند مزيسم وقد عبرنا عرق الرمل وبلغنا وادى الكراب وطيلة النهار كنا ننعم بريح شمالية غربية واستطعنا أن نسير دون قيلولة على أننا حططنا الرحال حوالى الساعة الرابعة بعد الظهر .

وأخيرا كان 17 يونية وهو آخر يوم يجب أن نسير خلاله . حوالى الرابعة صباحا انطلقنا باتجاه الغرب وبلغنا هضبة الكراب وترتفع حوالى 500 قدم وخلال عشر دقائق كنا قد صعدنا الهضبة وأخذنا ننزل سفحها الغربى دون استراحة . ومن هذا الطرف من الجبل يخرج واد يسير فى البداية نحو الغرب ثم نحو الشمال الغربى ولم أعرف اسمه على الرغم من أنه ما من مكان تقع عليه العين فى طريق القوافل الا ويحمل اسما ، على أنه تخلو النباتات تماما الى الغرب

من جبل الكراب وفى منطقة غدامس لا توجد شجيرات ولم نجد عيدانا وحوالى التاسعة استرحنا للقيلولة وأرسلت خادمى حامد برفقة بعض الناس حاملا معه البيورلدى وقبل غروب الشمس وصلت القافلة بأجمعها الى غدامس .

للمدينة ثلاثة أبواب من الجهة الشمالية الغربية ، واعتقدت أن حامد سينتظرنا عند الباب الاول ، الا أنه لم يكن هناك ولم نشاهده عندالباب الثانى أو الثالث فعدنا الى الباب الاول وهو الرئيسى ودخلنا المدينة تتبعنا مجموعة من أولاد الطوارق اعتادوا أن يضربوا خيامهم خارج السور الغربى للمدينة . كما انضمت الى ركبنا مجموعة من الغدامسيين الا أن اهتمامهم لم يكن موجها الى أو الى أتباعى بل الى كلبى «مرزق» فأن الغدامسيين لم يشاهدوا الكلب من قبل ، اذ أنهم لا يعتبرون الكلب السلوقى العربى الذى يقتنيه الطوارق من جنس الكلاب ، واذا ما أثار هذا الكلب الصغير الابيض اهتمام نصف المدينة فكيف كان سيفعل كلبى الكبير الضائع .

انها المرة الثانية التى أدخل فيها غدامس ، فقد دخلتها قبل سنة قادما من المغرب ـ متسترا باعتبارى مسلما زاهدا ، عندئذ كنت فى ظل حماية الطوارق ، فقد كنت محاطا بشىء من الهالة اذ أننى أتيت مباشرة من وازن ودار دمانة من زاوية مولاى الطيب وفى هذه المرة أيضا أثار شخصى اهتمام السكان بنفس المقدار ، وعندما كنت أمر سمعت البعض يقولون أننى نصرانى وكان آخرون يقسمون أننى تركى ، الا أن مجموعة أخرى كانت تقول أهلا بالقنصل وأوقفت موكبى أما منزل القائمقام .

وقبل أن أتابع سرد مشاهداتى أود أن أقدم للقارىء بعض المعلومات حول هذه المدينة الهامة .

مدينة غدامس وسكانها

نشأتها ـ سكان المدينة الاصليون ـ العين ـ توزيع المياه ـ المناخ ـ النبات ـ الحيوان ـ بنووازيت ـ بنو الوليد ـ الارقام التى يستعملها التجار ـ التقاليد ـ النساء الزى ـ احصائيات ـ التجارة ـ المعمار ـ التبو ـ

فى كل الانحاء تقريبا حيث يكون سهل صخرى وسط جدران تهبط عموديا على السهل تنفجر العيون من الارض حتى فى الصحراء وهى تروى

الارض وتسمح بنشأة الواحات ـ وتعود نشأة واحة غدامس الى مثل هذه العيون ، وهى تقع على مدخل الصحراء وحدد دوفيريه موقعها على خط عرض 48ر7ر30 شمالا 15ر43ر6د شرقى باريس وتقع على مسافة 10 أيام من البحر اذا ما سار المرء فى خط مستقيم منطلقا من صبراته وتبعد عن طرابلس حوالى 12 يوما ويأتى معظم القادمين اليها من طرابلس ، يبلغ ارتفاعها عن سطح البحر حوالى 1000 قدم على الرغم من أن الهضاب التى تحيط بها ليست أعلى منها بكثير الا أن عظمها وتكونها الكلسى يتبلور فى تفجر العين . ومن خلالها يفهم المرء تدفق عين نيم .

ومن المؤكد أن منطقة هذه العين قد أنشأت بصورة طبيعية غابة كثيفة من النخيل فقامت السكنى على أساسها فى الازمنة القديمة ، وتثبت ذلك آثار مازالت قائمة لأبراج مدورة ومربعة بنيت من حجارة لم تنحت ويطلق عليها السكان أصنامن ، ،

وفى كل برج حجرة مازالت فى وضع جيد ذات أقواس مدببة وفى بعض الابراج توجد حجرة فوق الحجرة الاولى يصعد اليها درج خارجى . وقد بنيت من مواد صلبة وربطت مع بعضها البعض بالاسوار . وربما كانت تؤدى غرضين الغرض الاول بأعتبارها ملجأ والغرض الثانى باعتبارها حجرة الكنز .

وكل شىء يشير الى أن الابراج وجدت قبل فترة طويلة من وصول الرومان الى غدامس ويعتقد أن تأسيسها يعود الى الجرمنت ، ومن المؤكد أن المدينة ليست موطنهم الا أن الرومان كانوا يعتبرون **سيداموس** عندما احتلوها ، كمدينة تابعة للجرمنت . ولا تفيدنا الروايات الرومانية بمعلومات تزيد عن ذلك كثيرا اذ أنها تشير فقط الى أن القنصل لوسيوس كورنيليوس بالبو قد احتل المدينة عام 19 ق م . على أننا لا نعرف كم من الوقت استمرت تحت السيطرة الرومانية ولا نعلم فيما اذا أنتشرت فيها النصرانية ، فيما بعد . ان ما يذكره الجغرافيون القدماء وجغرافيو العصر الوسيط عن غدامس ضخل وغير موثوق . ان ليون الافريقى يذكر تحت اسم غدامس منطقة كبيرة كثيفة السكان ذات قصور عديدة وضياع مسكونة ويذكر دابر (Dapper) تحت اسم غدامس (يكتبها Gademeg أو Gademe) 16 مدينة مسورة و92 قرية وعلى ضوء الظروف الطبيعية قلما ينبغى القول أن مثل هذه المدن والقصور والقرى لا يمكن أن تكون قد وجدت .

لقد اكتشف هنرى دوفيريه خلال اقامته فى غدامس نقشا كتابيا رومانيا هاما ، ويرى ـ شربونو (Cherbonneux)(1) أن النقش يعود الى عهد اسكندر سفيروس (221=235) ـ ويستفاد منه أن غدامس كانت تتبع ولاية نوميديا . ولا تزال هناك بعض الآثار التى تشير الى الرومان ففى داخل الجامعين الرئيسيين نجد أعمدة من صنع رومانى على ما يبدو ، فهى صقيلة ومحززة ذات رؤوس دورية وكورنتية تمثل بقايا أبنية فنية قديمة .

أن عين غدامس ذات الفضل فى نشأة الواحة وفى تأسيس المدينة تحظى بأهتمامنا الخاص ويبلغ طول حوضها 25م وعرضه 15م ويلاحظ فى عدة مواضع من القاع تدفق الماء وان الاحجار الكبيرة التى بنى بها سورها توحى بأنها من عمل الرومان اذ كانوا يعرفون جيدا أنه من الهام جدا أن يجمع الماء بكميات كبيرة قبل الاقدام على توزيعه . ويطلق عليها بالعربية اسم العين ، وبالطارقية «تيت» أو أرشيشوف (عين التمساح) . وتجرى العين من خمس مجار ، ثلاثة منها كبيرة واثنتين صغيرتين ويبلغ ماء العين الى أحواض أخرى تستعمل فى رى مساحة من الارض تبلغ حوالى 85 هكتاراً وتبلغ الارض المسورة التابعة للواحة ضعف هذه المساحة ويحسب ميرشر (Mirscher)(2) محيط الواحة بحوالى 6000م ويتروح قطرها بين 1200 و 1600م تبعاً لذلك أما أن العين كانت أقوى بكثير مما هى عليه الآن أو أنه قد جرى التخلى عن زراعة الاراضى البور الموجودة ضمن الاسوار اذ لوحظ أنه من العبث الاستمرار فى الكفاح ضد الطبيعة أو لم يتوخ مثل ذلك ، ان الاحتمالين كليهما واردان ـ اذ أنه غالبا ما توجد فى الصحراء عيون تختلف كمية المياه التى تعطيها من سنة الى أخرى . وهكذا يمكن أن تكون عين غدامس قبل فترات قد أعطت كميات من المياه كافية لرى جميع الارض المسورة ومن جهة أخرى ليس من النادر أن تكون الارض التى تستخدم بساتينا قد غطتها كميات من الرمل ـ جعلت أستمرار الجهود فى زراعتها من باب العبث ، وهذا ما يحدث بخاصة فى حالة غدامس التى لا تروى من ماء جار ، وفى مثل هذه الواحات على الانسان أن يكافح بأستمرار ضد زحف ـ الرمال . وهكذا يجب أن يستمر سقى البساتين وأن يستبعد منها الرمل على الدوام وفورا .ـ

ان حرارة ماء العين كانت 33د عند العاشرة مساء وفى ظل حرارة الجو البالغة 33د ـ وكانت بعد الظهر+ 35د فى ظل حرارة الجو البالغة 40 د

وقاس فاتون (Vatonne) ودوفيريه حرارتها شتاء فبلغت 29 د الا أنهما لم يقيسا حرارة الجو، ومن المؤكد أن حرارة الجو لم تبق دون تأثير على حرارة الماء فى الحوض وأن فاتون ليس محقا عندما يقول :ـ ان حرارة الماء الموجود فى الحوض هو 25° وهى تساوى حرارة الجو الخارجى وقد يكون هناك عامل آخر أثر على اختلاف النتائج التى توصلت اليها وتلك التى توصل اليها رحالون آخرون . ولقد قست حرارة الماء فى وسط الحوض فى حين أن الآخرين أخذوا القياس من الاطراف ، وقد استنتج فاتون من حرارة ماء الحوض ، أن ـ العين وبئرين آخرين على مقربة منها لها حرارة ماء واحدة اذ أنهما يأخذان ماءهما من طبقة عمقها حوالى 120م ، ولما كانت قياساته تفتقر الى الدقة يجب أن ينظر الى نتائجه من هذه الناحية ، وان آباراً أخرى يبلغ عمقها حوالى 20م كانت حرارة مائها +19° فقط الا انها ذات ملوحة عالية ، وهكذا يمكن الاعتقاد بوجود طبقتين مختلفتين من الماء وأن ماء العين وماء اثنين من الآبار القريبة منها تحتوى 2ر5 غرام ملح فى الليتر الواحد بينما تحتوى الابار الاخرى على 9 غ فى الليتر الواحد . وقبل أن يشربها الأهالى بحرارتها التى تزيد عن 30° يضعونها فى جرار فخارية أو فى قرب بحيث تبرد .

يجرى توزيع الماء على البساتين وفق ساعات مائية ويتطلب ذلك عملية معقدة لان الارض موزعة الى قطع صغيرة قلما تبلغ هذا الحد فى مكان آخر، ان معظم البساتين لا تتجاوز مساحتها 200م^2 وكثير منها لا يزيد عن نصف هذه المساحة لا بل أصغر من ذلك . وفى ميدان سوق المدينة وضع القادوس وهو عبارة عن وعاء نحاسى ذى فتحة مدورة فى أسفله يجرى منها الماء خلال ثلاث دقائق عند امتلاء الوعاء ، وفى كل مرة يفرغ القادوس يسرع صبى ويعمل عقدة فى جريدة النخيل ، وخلال فترة معينة يبدل الصبى . كل سبعة قواديس تسمى درميسا وهى تعطى ماء لمدة عشرين دقيقة وتكفى لسقاية ستين نخلة ، وتبلغ النوبة 13 يوما ويرى دوفيريه أنه توزع خلال هذه الفترة 925 درميسا من الماء ، ويتبع أسلوب مشابه فى السقاية من العينين الآخريتين القريبتين منها ويقوم على أعمال سحب الماء رجل أسمر ، وفى الفترات السابقة كان يؤدى توزيع الماء فى الغالب الى نزاعات دامية بين أصحاب الاراضى ، ويعتبر الآن جميع الماء المستخدم فى السقاية ملك الدولة وتجبى الدولة العثمانية حوالى 50000 ـ فرنك اذ أنها تتقاضى، عن كل درميس

ثمانين ريالا سبيلى وهذا يعادل 50 فرنك وعشرين قرشا ، وحسب دوفيريه فأن ميرشر يذكر خطأ سعره 700 فرنك)

أن مناخ غدامس لا يختلف عن المناخ الصحراوى فالمطر نادر جدا وقلما يسقط كل عشرين عاما مطر كاف ، ان متوسط الحرارة السنوية + 23° وترتفع فى شهور الصيف حتى 50 درجة فى الظل وتنخفض فى الشتاء قبل شروق الشمس حتى - 5د ان الرياح السائدة شمالية فى الشتاء وجنوبية شرقية فى الصيف ، والمناخ صحى الا أنه لا يجتذب الاوروبيين - أما أمراض العيون والزهرى والحمى والزحار فمنتشرة ، وينتشر الزحار فى موسم البطيخ على وجه الخصوص ، وقد كان الزحار المقترن بالدم سائدا فى عام 1865 وكدت أموت من أثره . والبطيخ الاحمر والبطيخ الاصفر يمثلان الفاكهة الوحيدة التى تنتجها غدامس وفى بعض الحالات تصل بعض حبات البطيخ الى حجم هائل اذ يبلغ وزن الواحدة منها قنطارين بحيث تشكل بطيختان حمولة جمل .

وأما بقية الثمار مثل الخوخ الاصفر والرمان والدراقن والمشمش والتين فأنها تجف وتصبح فى أثر حرارة الصيف العالية عديمة العصير والطعم . ويزرعون خضارا رأيت منها البصل والثوم والفاصوليا ، واللفت والطماطم والفلفل والباميا والملوخية ، والباذنجان كما يزرع السلق فى ظل النخيل ، كما يزرعون تحت أشجار النخيل شيئا من الحبوب من قمح وشعير وذرة بيضاء ، الا انها لا تكفى استهلاك السكان . ولسوء الحظ فأن أشجار النخيل لا تعطى موسما مرضيا كما أن التمر ليس على درجة من الجودة مثلما هو الحال فى الواحات الاخرى بحيث يقايض مقابل الحاجة الى الحبوب والمواشى والسمن والزيت وغيرها من المواد الغذائية ان الستين ألف شجرة نخيل التى تمتلكها غدامس قلما تؤمن غذاء الواحة لمدة شهر واحد من السنة .

ان النخلة التى تدعى بالطارقية تازيت قد دجنت تدريجيا بحيث يوجد الان أنواع عديدة منها بكثرة أنواع التفاح ، ان أكثر الانواع وجودا فى غدامس هى مدغيوا ، انها صغيرة جدا ذات لون أسود تشبه فى اشكالها ثمرة الزيتون . على أن أفضل نوع بينها يدعى أم العسل وهذا الاسم يشهد على حلاوة طعمها وأما الانواع الاخرى فهى تن دوغوت ، الدقلة ، التمودى تصوين ، تن جوهرت ، دمبو دمبو ، سيردتد يصداس تن طولة ، تن تواجيت ، تن سكر(ان - كلمة تن تعنى تمر) وتوجد انواع عديدة من هذه التمور فى توات ولا تنبت خارج أسوار المدينة أية نباتات برية ، وفى المدينة

ذاتها رأيت بعض أشجار الميموزا على العين كما توجد أعشاب فى الواحة وأما السماد فيؤخذ من أرض مجاورة على شكل واحة دون أشجار ، اذ أن روث الدواب لا يكفى لتسميد الواحة ويسمى العقول وهو عبارة عن عشب .

وفى غدامس عدد قليل من الحيوانات . ومن الحيوانات المنزلية نجد الجمل والحمار - والقطط والفئران والدجاج ، ولا يوجد حصان واحد وأما الكلاب فهى غير معروفة تقريبا ، ولذلك أثار كلبى الصغير الابيض دهشة الجميع ، وفيما عدا الفراش شاهدت السنونو وفى جذوع - النخيل كان يعشعش الحمام البرى ، ان الافاعى نادرة ، الا أن الافعى ذات القرون تظهر احيانا وأما الوطواط فيعتبر ضيفا محببا ، وتوجد أنواع أخرى من الجراذين مثل الضب الذى يعيش على أسوار البساتين وأما الضفادع فأنها تسكن العين ومجارى الماء بأعداد كبيرة .

ونذكر بين العنكبوت العقرب والاسماك لاتوجد لا فى العين ولا فى الآبار على الرغم من أن أسماكا صغيرة تعيش فى كثير من عيون الصحراء حتى تلك الموجودة تحت الارض وعلى العكس من ذلك يوجد كثير من العلق وأنواع من الرخويات ، وأما الذباب فأنه يلوع الناس نهارا والناموس يلوعهم ليلا ، ان النحل غير موجود الا أن نوعا من الدبور يبنى أعشاشه فى البيوت والجوامع وبالطبع لاينعدم وجود الحشرات الوسخة فيما عدا البراغيث التى لاتوجد فى الصحراء على مايظهر والطفيلى الخطير هنا هو دودة غينيا .

ان سكان غدامس ذوو أصل بربرى مثلهم مثل جميع سكان شمال افريقيا على أنهم احتلطوا كثيرا بالعرب والافارقة ، ان لهجتهم تشبه الى حد بعيد اللهجات التى يتكلمها سكان بقية الواحات مثل سوكنه وسيوه واوجله ، كما تشبه الطارقية ، ولهجة سكان الاطلسى والجبال على طول الشاطى الافريقى من البحر المتوسط ، وكل غدامسى تقريبا يفهم الى جانب الغدامسية احدى لغات وسط افريقيا وتنتشر على وجه الخصوص لغة الهاوسا وصنغاى ، كما يفهم معظم الغدامسيين الطارقية .

ينقسم السكان إلى فريقين من الناس منفصلين عن بعضهما هما بنو وازيت وبنو الوليد وان المجموعة الثانية من البربر وتتشكل من ثلاث قبائل هم تصكو، وبنو درار ، وبنو مازيغ وتبعا لهذه القبائل دعيت ثلاثة أحياء من المدينة، وأما بنو وازيت فيتكونون من أربع قبائل تنقرين تفرفزة ، حرسان ، أولاد بليل ،

والقبائل الثلاثة الاولى بربرية وأما القبيلة الاخيرة فهى ذات أصل عربى ، وفيما عدا ذلك يوجد سمر أحرار واتباعهم ويدعون العترية .

ومنذ أن وقعت المدينة تحت السيطرة العثمانية توقفت النزاعات الدامية التى كانت تقع بين الجانبين على أن الكره بينهما مازال قائما ، فما من تعامل بين بعضهما البعض وهذا ينعكس أيضا على لهجة كل من الجانبين ، اذ توجد بينهما فروق واضحة ، وحتى الآن لم يختلط بالزواج بنو وازيت وبنو وليد ، ولم يدخل واحد من هذا الجانب أحياء الجانب الآخر وهكذا يوجد غدامسيون ممن شاهدوا كوكه وكانو وتمبكتو وطرابلس وغيرها من المدن القاصية إلا أنه لم يضع قدمه مطلقاً فى حى الجانب الآخر من مدينته الام ان المناطق المحايدة تتشكل من سوق المدينة وبيت الحاكم العثمانى وزاوية مولاى الطيب الوزانى وزاوية مولاى عبد القادر الجيلانى البغدادى واما بقية الجوامع فيرتادها ابناء الجانب الذى يتبع له . ان السوق يشكل وسط المدينة وتحيط به البيوت التابعة للجانبين بحيث يصل كل فرد الى دكاكين الجانب الذى يتبع له دون أن يحتك بالجانب الآخر ، وأما الزاويتان ومقر الحاكم العثمانى فانهما يقعان خارج حيز المدينة ، ان هذه العداوة التى تقوم بين الجانبين داخل المدينة ، لاتنعكس على اتباعهما فى خارجها ، فاذا ما التقى أبناء الجانبين المتعادين فى تمبكتو أو على أرض غريبة فأنهم لايجانبون بعضهم بل يتعاملون كأبناء بلد .

لقد اتخذ الغدامسيون مثلهم مثل بقية الشمال الافريقى اللغة العربية فى مراسلاتهم وفى بعض الاحيان يستخدمون أيضا الحروف العربية فى كتابة الغدامسية وهذا يحدث فى مراسلاتهم التجارية اذ أن الرسائل ترسل مفتوحة ، ويريدون بذلك ان تبقى خفية المضمون عن منافسيهم فى المدن الاخرى ولنفس السبب يستعملون فى كتابة اسعار البضائع أرقاما سرية ربما كانت مأخوذة عن الليبية القديمة ، ومما يلفت النظر أن الغدامسيين لايعدون فى لغتهم أكثر من عشرة تم يتابعون العد بالعربية ، وفى عموم شمال افريقيا لانجد كتابة خاصة فيها عدا المصرية والحبشية والطارقية ، الا أن هذه الرموز الكتابية لايمكن أن تستخدم لما يزيد عن جمل قصيرة أو فى كتابة أسماء ونقوش الخ .

ويلاحظ دوفيريه اذا ما وجدت فى مكان ماكتب طارقية فانه يجب أن تكون مكتوبة بالعربية ولم أتمكن من العثور على أرقام خاصة بالطارقية القريبة من الغدامسية ولا أعتقد أن فريمان وريشاردسون وهانتو ودوفيريه الذين يذكرون الحروف الطارقية ، قد أوردوا أيا من الارقام بالطارقية والارقام الغدامسية

كانت مجهولة لدى هؤلأ المؤلفين ولدى ميرشر وديكسون وفاتون وغيرهم . ويبدو ان هذه الارقام مستعملة فقط فى العمل التجارى ويستعملها التجار بحيث يسجلون أسعار بضائعهم برموز بفهمها فقط من يجب أن يباح له السر ، وان مثل هذه الامور معروفة ولاشك فى تجارة البضائع الاوروبية ، ولما كانت مدينة غدامس تعتبر منطقة صغيرة جداً اتجاه افريقيا ، وتقوم بامدادها ببضائع تجارية قادمة عن طريق البحر المتوسط ، فان التجار الغدامسيين يملكون ولاشك مزية كبيرة تجاه مزاحميهم من خارج المدينة وتجاه المشترين ، وبالطبع فانهم يخفون تفسير هذه الرموز عن تجار طرابلس وتونس والقاهرة وعن التجار النصارى واليهود وكذلك عن التجار العرب ولم أستطع الحصول على معنى هذه الرموز الا بعد تقديم هدية قيمة الى غدامسى اقتنع بتأكيداتى أننى لست تاجرا وقد شرح هذه الارقام وفقا لما يلى :

1100	=422	.=0	1>=6	110=12
	×=500	1=1	11>=7	1110=13
1111000	×=534	11=2	111>=8	11110=14
11>	×=657	111=3	1111>=9	>0=15
>0	×=765	1111=4	0=10	1>0=16
1005	×=876	310=5	10=11	11>0=17
	×=900			
	=1000			

111>0=18	>	=55
1111>0=19	11>0	=67
00=20	111>00	=68
100=21	1111>000	=89
000=30	1111>000	=99
10000=32		=100
11110000=44	1	=201
=50	10	=311

ويقوم الغدامسيون بتركيب الاعداد من 1000 حتى 10000 على نفس النسق وكما يلاحظ فأن لديهم رموزاً بسيطة للاعداد 0 ـ 1 ـ 5 ـ 10 ـ 50 ـ 100 ـ 500 ـ 1000 ـ ولم يفدنى سندى فيما اذا كان يوجد رمز للرقم 10000 . وأن طريقة الكتابة من اليمين الى اليسار ـ المتبعة فى الكتابات السامية تطبق أيضا فى مجموعات الاعداد ، وربما يضع الغدامسيون ارقامهم فوق بعضها البعض من باب التوفير فى الحيز . مثلا : 55 = 20 يمكن أن تكتب : و 1110000 = 44 ويمكن أن تكتب أيضا 1100 إلا أنه من المعتاد أن يتبع نظام الكتابة من اليمين الى الشمال ومن الاعداد المركبة التالية نجد الاشارات الرومانية ، وهكذا < 1 = 71 الرومانية . = 7 × ، 10666 = 1 × CCC وإذا ما استخدامت هذه الاعداد فى العمليات الحسابية الواسعة فقد لاتكون مناسبة مثلها مثل الاعداد الرومانية .

ويسمى ريشاردسون غدامس فى كتابة أنها مدينة المرابطين . وهذا خطأ والغدامسيون باعتبارهم من البربر ليس من حقهم أن يكونوا مرابطين . على أنه قد يحيطون أنفسهم بهالة من الزهد فى بلدان وسط افريقيا ويجعلون من أنفسهم مرابطين أمام السمر الافريقيين ممن لا ـ يعرفونهم ، انهم من أتباع المذهب المالكى ومعظمهم من الفكرى أى من أتباع طريقة مولاى الطيب وهناك عدد قليل من أتباع طريقة عبد القادر الجيلانى كما يتبع البعض طرقا أخرى مثل السنوسية والجميع يحافظون بدقة على الفرائض الدينية . ولما كان كل غدامسى يتعلم القراءة والكتابة فهو اذن « طالب » وهذا ما يعادل فى التركية أفندى . وأغلب النساء يصلين فى الجامع ويحجزهن فى ساعات الصباح . وعلى كل حال فأن الغدامسيين منفتحون بعيدون عن التعصب . وهم مضطرون أن يتعاملوا فى الموانى ، مباشرة مع اليهود والنصارى أو أن يعيشوا فى وسط افريقيا مع الوثنيين وبذلك تخلصوا من كثير من الاحكام المسبقة . فى غدامس ذاتها لايعيش نصارى أو يهود الا أنه كان يوجد فى بعض الاحيان قناصل أو رحالون .

ان الاهالى يتحفظون أمام الغرباء ، وأما فى علاقاتهم مع بعضهم فهم طبيعيون ويشربون بسرية اللقبى والعرق . وأما التعامل مع النساء فانه يتم وفقا لا عراف ثابتة ، أغلب الرجال يتخذون زوجة واحدة ، ولكن عندما يعيشون فى الغربة ، فقد يتخذ لنفسه أمة أو أكثر دون أن يتزوج منها . ومن النادر جدا أن تسير المرأة فى شوارع غدامس ولاتظهر فى السوق والشارع سوى نساء العتريات

وغالبا دون حجاب . ولاتتجاسر نساء الطبقات العليا أن تسير فى الشوارع لانها مقبية ومظلمة وهكذا لايمكن السير فيها دون مصباح والا يتلمس المرء طريقة تلمسا ويجب أن يعلن عن اقترابه من حين لآخر بالسعال أو النحنحة ، انهن يزرن بعضهن أو يتجمعن على سطوح البيوت فهى محجوزة للنساء فقط ، وتقفزن بخفة من سطح الى آخر وغالبا مايسرن بنشاط أكثر من الشوارع المظلمة .

يجدر بالمرء أن يثق بكلمة الغدامسى ، فهو يحافظ على العهد ، ولذلك يعطى تجار أوربيون زبائنهم الغدامسيين بالامانة بضائع تبلغ قيمتها آلاف التالرات ولم يحصول حتى الان أن قام أى من الغدامسيين بعمل شىء يغضب عملاءه .

فى أغلب اشكال الاجسام غير الجميلة وملامح الوجه يوجد امتزاج مع السود ويطفى على ملابسهم اللون الأبيض وهى لاتختلف عن ملابس سكان مدن الشمال الافريقى فيلبس الرجال قميصا داخليا طويلا من القطن ويضع فوقه جلبابا أقصر من الصوف يدعى جلابه أو حايك ويلبس على الرأس عمامة بيضاء لفت فوق قبعة حمراء ، وفى قدمه يرتدى شبشبا جلديا أصفر او صندلاً ، واما الاغنياء وعلى وجه الخصوص أولئك الذين قضوا فترة طويلة فى وسط افريقيا فانهم يفضلون الاثواب المطرزة الواردة من بلاد السودان ولم أجد فى غدامس رجالا ملثمين الاأنهم يستعملون خلال السفر طرف عمامتهم كلثام واما الرأس فيحلق تماما ولايترك من شعر الوجه سوى الشوارب وتحت الفم . ويحمل أغلبهم عدة خواتم فضية فى الاصابع وعندما يخرجون من بيوتهم يعلقون فى رقبتهم مفتاح الباب وهو كبير جدا ويربط بنطاق جلدى والنشوق مسموح به واما تداول الحشيش فهو مكروه الا انه سائد واما الكحول فانه يتناول فى الخفاء .

وان لباس النساء هو أيضا من القمصان الطويلة من نوع الغندورة ذات اللون الابيض وأما النساء العتريات فيرتدين اللون الارزق ، وحليهم يتكون من الخواتم والخلاخل وحسب ثروة الفرد اما ان تكون من الفضة أو النحاس الاصفر ، ومن الحلق والمرجان والسلاسل واللؤلوء الزجاجى الذى يجدل حسب الطريقة المتبعة فى البلدان الافريقية ولايحل طيلة الحياة سوى بضع مرات بحيث ينظف ويرتب .

وانى أقدر عدد سكان غدامس بحوالى 5000 نسمة يضاف اليهم حوالى 1000 نسمة من الغرباء المقيمين فيها ويقدر ريشارسون عدد سكانها بثلاثة

آلاف فقط بينما يذكر دوفيريه وميرشر أنهم حوالى 7000 نسمة ، وفى السابق كان أعلى موظف فى المدينة يدعى مديرا ومنذ 1864 يوجد قائمقام عثمانى يتبع والى طرابلس وليست لديه قوة عسكرية سوى بعض العساكر من جبل غريان ، ويتلوه شيخ البلد فى المركز . ومن شيخ البلد وبعض اعيان التجار والقاضى والمفتى يتشكل المجلس أو الجماعة ، ويجتمعون فى الاسبوع مرة وفى الحالات الطارئة أكثر من مرة وتجرى الاجتماعات عند القائممقام . وللمجلس صوت عند توزيع .

الضرائب العامة وهذا يعنى ينبغى ان يوافق على ماتأمر به الحكومة التركية ، وتبلغ الضرائب التى تدفعها المدينة سنويا 250000 فرنك . وفى غدامس لايوجد جمارك فالتصدير لايخضع هنا للجمارك واما جمرك الاستيراد فلا يستوفى الا على الرقيق ويتراوح ذلك بين 10 و 15 ـ فرنك للرأس الواحد ، انه لمبلغ كبير يذهب الى جيب القائمقام ، ومن بين الدول الاوروبية عينت فرنسا وكيلا قنصليا اختارته من الاهالى ، واما انجلترا فليس لديها قنصل منذ سنوات .

واما علاقات الغدامسيين التجارية فتصل شمالا الى طرابلس وتونس ، وتبلغ جنوبا توات وتمبكتو وسوكوتو وكانو وكوكة ، انهم الوسطاء التجاريون الرئيسيون بين البحر المتوسط وبلدان افريقية الوسطى ، انهم يحملون الى وسط افريقيا ، الاقمشة الابيض منها والملون ، برانس جاهزة قبعات حمراء ، اقمشة قطنية وحريرية ملونة ، لؤلؤ زجاجى ، مرجان اصلى وتقليد ، مواد مركزة اصلية ومقلدة ، نحاس ، ورق ، رصاص ، بارود ، كبريت ، مرايا صغيرة ، سكاكين ، مقصات ، ابر الخ . ويأخذون مقابل ذلك رقيق ، عاج ، ريش النعام ، غبار الذهب ، وهذا الاخير قلما يصل خلال الفترة الاخيرة الى غدامس الا بكميات ضئيلة اذ يذهب معظمه من دواخل افريقيا الى الشاطىء الغربى للقارة .

اذا ماغضضنا النظر عن منازل اولاد بليل المبعثرة امام الابواب ، فان مدينة غدامس تشبه حصنا ذا اسوار عالية غير منتظمة ضغطت فى داخله منازل متعددة الطوابق لها نافذة ـ صغيرة فى الاعلى ، وتصل المدينة مع بعضها البعض ازقة مسقوفة تؤدى الى سوق مفتوح ، وجميع الازقة تصل تقريبا الى السوق او الميدان الذى يحيط بحوض العين ، ان المدينة تذكر بواحة سيوه حيث كان مقر الاله جوبتير امون والفارق ان العين فى غدامس تقع فى وسط المدينة .

ان المقبرة الكبيرة طريفة جدا يبلغ طولها حوالى 2 كم وتقع غرب المدينة

وتطوق هذه الجهة . ان عدد القبور وشواهدها يبلغ حداً غير معقول الا اننى لم اجد قبرا واحدا من العصور القديمة على الرغم من انه يعتقد ان قبورا رومانية كانت تقوم على طول الطريق الذى يخترقها ، ولم اجد نقوشا عربية قديمة ، وفى الوسط والطرف الشمالى للمقبرة تقوم قبور من الزمن الحديث وعلى وجه التحديد فانها تعود الى القرن الاخير وماقبل الاخير ، وهى ليست من الاحجار الكلسية بل من الطين وقد كتب فى الطين الطرى الاسم والسنة وآية من القرآن ثم يجف تحت حرارة الشمس ونتيجة للهواء الجاف جدا بقيت الكتابة واضحة .

ان الجوامع سواء الجامعين الكبيرين والمساجد الصغيرة لاتمتلك قيمة معمارية ، على الرغم من ان الاعمدة المستعملة فيها صنعت فى العصور القديمة ، واما البيوت من الداخل فانها تتسم بالنظافة وكثرة الاغراض مثل الصناديق واطباق النحاس والمرايا ومايشبه ذلك الا ان الحجرات محصورة ولذلك لاتعرف الهواء الصحى ، وتقتصر التهوية على بعض البيوت التى بنيت فى البساتين حيث تتوفر لها باحات مفتوحة ، واذا مانظرنا اليها من بعيد نشاهد مجموعة من البيوت البيضاء ترتفع وسط بياره من النخيل مزدحمة بالاشجار ذات اللون الرمادى الغامق وهى تؤمن منظرا رائعا ومفاجئا .

اقامتى فى غدامس

قاسم باشا ـ منزلى ـ المرض الخطير ـ رسالة الحاج عبدالقادر من عين صالح ـ زيارات ـ فتيات الطوارق ـ اصل الطوارق ـ عيد الميلود ـ سى عثمان بن بكرى ـ تغيير برنامج الرحلة ـ وداع غدامس .

فى هذه المرة لم آت الى غدامس عن طيبة خاطر ، فالرحلة جرت من ناحية فى عز الصيف وهذا الوقت بالذات غير مناسب للاقامة على طرف الصحراء وكان على ان افعل ذلك لابلاغ الاهالى او على الاقل ازالة الشكوك لديهم من ان مانسب الى من مروق ماهو الا من باب المزاعم . وقد قررت منذ البداية ان اصمد لوحدى امام جميع الاحتمالات ، على انه كان بوسعى ان اعتمد على دعم الحكومة العثمانية وعلى الدعم المعنوى من جانب القناصل الاوروبيين .

وفى الواقع جابهت منذ اليوم الاول بعد وصولى شدائد الامور ، وعندما قابلت قاسم باشا اوضح لى ان البيور لدى الذى احمله سارى المفعول لفزان

فقط ، وهكذا فانه لايعنى شيئا هنا ، لقد ارتكب كاتب المشير فى طرابلس خطأ عندما ذكر فزان على وجه الخصوص ولكن لما كان الجوار صالحا لعموم منطقة طرابلس كان من الطبيعي ان يسرى مفعوله على غدامس ولو ان هذه لم تذكر بالاسم . ان البيت الذى امر قاسم باشا بتخصيصه لى فى المدينة كان اصغر من ان يوفر لى ولخدمى مأوى مريحا ، لقد وجدت ترحيبا اكثر وودا لدى مقدم زاوية مولاى الطيب الوزانى ، ولما كان يعتقد ان الباشا سيتولى ارسال عشائى حسب التقاليد المتبعة لم يقم هو ايضا بارسال العشاء ولم اعط شخصيا الامر لاتباعى بتحضير العشاء وهكذا كان على وعلى خدمى وحيواناتى ان نختتم يومنا جائعين ، وعندما شعرت بخطأى كان الوقت قد تأخر من اجل الحصول على مواد غذائية .

وفى اليوم التالى سارت امورى على وجه افضل ، ربما فكر الباشا ان موقفه الخارج عن روح الضيافة قد يسبب له بعض العواقب السيئة ، لقد اوفد الى شيخ البلد يسألنى فيما اذا كان فى حوزتى فرمان من الاستانة فسلمته الوثيقة كى يعرضها على الباشا ، وعاد فى اثر ذلك ليبلغنى اعتذار الباشا عن سوء التفاهم كما افهمنى انه قد صدرت التعليمات بتأمين منزل اوسع على مقربة من باب المدينة ، وان هذا البيت الاخير كان بمثابة عمل خير تجاهى اذ ان السكنى فى المدينة الضيقة الرطبة كان امرا مريعا ، فى النهار ينبغى ان تمشى عبر الازقة المظلمة ولاتستطيع ان تجلس ليلا على السطح ، وزاد من امتنانى للانتقال الى هذا البيت ، حقيقة ان البيوت خارج المدينة قليلة جدا وان بيتى الجديد كان مقابل زاوية مولاى الطيب ، وفى المساء ارسل الىّ الباشا العشاء المعتاد ان العرب والاتراك درجوا على تناول وجبة كبيرة وهى عادة عند المساء ، وتتكون هذه الوجبة لدى الاغنياء من الوان الطعام على ان الصحن الرئيسى بينها هو لبلاو ويدعى المغاربة لدى الكسكسى ، وما ان وجد الغدامسيون ان الباشا قد احاطنى باهتمامه ، حتى اصبحوا مستعدين للتعامل بصورة افضل مع الضيف الغريب .

كان الباشا رجلا متقدما فى السن ذا مظهر مهيب انه عربى اصيل وخال غومة المشهور الذى قاوم الاتراك بضراوة وهو واحد من اولئك الاخيرين الذين صمدوا فى الدفاع عن وطنهم ضد السيطرة الاجنبية ، ثم امتهن وتخلى عنه جميع ابناء بلاده ولقى مصرعه بصورة مزرية اذا ما كان الموت فى سبيل الوطن مزريا فى وقت من الاوقات ، الا ان سكان الجبال مازالوا يتغنون

بامجاده ومن المؤكد ان الاجيال القادمة ستحيى ذكراه المجيدة وعلى العكس من ذلك فان قاسم باشا قد ولد فى الجبل الا انه كان دائما الى جانب الاتراك لقد تعلم لغتهم ويحافظ بدقة على تقاليدهم وعاداتهم ، وبعد ان تقلد منصب قائمقام الجبل سنوات طويلة جرى نقله الى غدامس بنفس المنصب ، وعلى وجه العموم فقد ظهر امامى خاليا من جميع الاحكام المسبقة وهذا مااستقيته من رواياته حول ميرشر «رئيس بعثة غدامس» وقد غدونا نتمتع بصداقة طيبة .

وربما كان يصعب عليه كثيرا ان يتخذ الملابس الاوربية باعتباره موظفا عثمانيا ، فقد كان يلبس السترة السوداء الرسمية وسروالا ضيقا وجزمة لماعة ، فما من شىء يزعج العربى المتعصب اكثر من ارتداء الزى الاوربى ، وحسب رأيهم ان هذا اللباس غير مناسب وانه يفرض عليهم اخلاقا اخرى غير التى ارادوها ، ان جميع المحاولات الفرنسية لجعل العرب والبربر ميالين الى المدنية الاوروبية ستبقى دون جدوى ، طالما انهم لايستطيعون ان يجعلوا هؤلاء يغسلون شعرهم عوضا عن حلق رأسهم وان يتخلوا عن السروال الفضفاض والجلابية والحايك فهى تناسب على مايظهر النساء اكثر مما تناسب الرجال ، وان السترة مناسبة اكثر للعمل والقتال ، واذا ماتيح لهم التوصل الى ذلك تكون قد ازيلت الصعوبة الاولى وبذلك يمكن التوصل الى اختراق الحصن الحصين من الاراء ضد المسيحية .

لقد نظمت أمورى فى منزلى بصورة مريحة ، ان المبنى يشمل فى طابقه الارضى مطبخا ومخازن واصطبلات ، وفى الطابق العلوى غرفة كبيرة واخرى صغيرة وامامها سطح ، لقد جعلت الغرفة الكبيرة مظلمة تماما تفاديا للذباب الذى ينقلب فى غدامس وغيرها من الواحات المنتجة للتمر الى عذاب للرحالة الاوروبيين ، ان الذباب موجود باعداد مهولة والظلمة المطلقة هى الوسيلة الوحيدة لطرده من البيت ، لقد ارسلت جمالى الى المرعى وارسلت احد اتباعى السود الى طرابلس بحيث يحمل لى الرسائل والارساليات التى قد تكون وصلتنى .

لقد صعد ميزان الحرارة بعد الظهر الى 50 د فى الظل وفى الصباح الباكر قبل شروق الشمس كانت تشير دائما الى مايزيد عن 20 د ان مجرى الهواء الذى يبدأ منذ الصباح واللباس الخفيف وتنفس الجلد الدائم كل هذا كان يخفف من وطأة الحرارة والليالى التى كنت امضيها عادة على سطح بيتى كانت رائعة ، الا

انى كنت قبل ذلك اصب عليه الماء اذ انه كان قد تعرض الى حرارة اشعة الشمس العمودية.

وعلى الرغم من ذلك فقد عانيت صحيا من الحرارة المنهكة وربما نتيجة لتناول البطيخ دون حذر، لقد مرضت مرضا شديدا وبقيت عدة ايام فى خطر، ان التبرز الدائم المختلط بالدم اوهن قواى الى درجة انى كنت اشك بشفائى منه، لم يعد بوسعى التفكير بالطعام كما كنت لا ـ اتجاسر كثيرا على رى عطشى، ولم يتوقف نزيف الاعور الا بعد تناول كميات من الافيون الا ان جسمى اصبح لايستغنى عن تناول المخدر نتيجة لتعاطى الافيون لمدة طويلة وعندما حاولت الامساك عن تناوله اصبت باسهال مثل الماء، ولذلك كان على ان احافظ على وضعى نصف مخدر وهذا الوضع ليس مريحا مطلقا، وان بعض زجاجات من نبيذ بوردو ارسلها الى صديقى بوتا [1] كانت ذات تأثير مناسب ولو انها لم تشفنى تماما.

وعندما شفيت الى درجة انه كان بوسعى أن اخرج من البيت لم اهمل المواظبة على زيارة المساجد حيث الاعمدة القديمة المصنوعة من الحجر الكلسى او الرملى وهى عادة قطعة واحدة وقد اجتذبتنى بتيجانها الرشيقة وبحزوزها المستقيمة او الحلزونية.

وان الاهالى كانوا يسرون عندما ازور جوامعهم اذ انهم كانوا ينظرون الى باعتبارى مؤمنا وقوى هذا الاعتقاد لديهم الاخبار التى وردتهم من توات، ان الحاج عبدالقادر من عين صالح اعطانى مسدسا للتصليح فى طرابلس الا اننى لم اجد من يستطيع تصليحه وعندما وصلت غدامس اعدت اليه المسدس وفى الوقت ذاته ارسلت اليه مسدسا من نوع لوفوشو يحتوى على 18 طلقة ووضعت معه ذخيرة مناسبة، وبعد فترة وصلتنى منه الرسالة التالية:

«الحمد لله، لا اله الا الله والصلاة والسلام على نبيه وآله وصحبه وعلى قارئه السلام من الحاج عبدالقادر بن محمد فى عين صالح الى صديقه مصطفى النمسى [2] حفظه الله ورعاه بدين الحق والخير والنعم وحماه فى عمله مع النصارى هؤلاء الكلاب الذين لعنهم الله مخترعو السفينة النارية (البخارية آلة

---

(1) قنصل فرنسا فى طرابلس.

(2) انه الاسم الذى اتخذته عندما كنت فى مراكش

الشيطان ومخترعو السلك [1] وليمنح الله صديقى مصطفى ابن النصارى الاستمرار فى الشهادة ان محمداً وحده رسول الله وحبيب الله وبعد. لقد استلمت المسدس القديم والمسدس الجديد ذا الطلقات الثمانية عشرة، انه اداة الشيطان النصرانى وقد جعلت الفقيه يباركه ووضع عليه شريف من وزان حجابا وليبارك الله شرفاء وزان، وبعد فان الشريف سيدى حامد الوزانى باركه الله، قد وصل ويرسل تحياتى من نسل النبى اليك، لقد اعلن امام جميع الناس انك حبيب ابن سيدى الحاج العربى [2] واننا نعلم الآن جميعا انك قلت الحقيقة

وأننى أدعوك للقدوم الى توات. والله أن كنت نصرانيا ستكون آمنا لدينا [3] سلم على الذين عندكم وخير الختام السلام حررت الرسالة فى 3 ربيع الأول 1282 [4] أمين.

وبالطبع أبلغت الرسالة الى جميع أصدقائى الغدامسيين وهى تعنى بالنسبة لى انه بوسعى أن أذهب الى توات دونما خطر. ولكن ماذا أفعل هناك وحدى؟ ان القوافل القاصدة تمبكتو من غدامس هى وحدها التى تمر عبر توات، وخلال الفترة القادمة لم تكن أية قافلة بصدد التوجه نحو تمبكتو. وكنت أتوقع وصول سى عثمان البكرى يوما فيوما اذ أنه وعدنى بأن يرافقنى الى ايدلس ومثلما زارنى أهالى المدينة زارنى أيضا كثير من الطوارق ومن بينهم فتيات طارقيات علهين مسحة جمال. وكى ينلن هؤلاء رضائى كن يزعمن أنهن من أقارب سى عثمان ولم يقتنعن أننى لست أبن عم هنرى دوفيريه وحسبما يظهر فأنه خلف انطباعا ممتازا لديهن، فلم تكن كلماتهن كافية لوصف الفرنسى الوسيم الظريف بعيونه الزرقاء وشكله الجميل وطباعه التى تتسم بالكرم والسماحة. وربما كانت له مغامرات كثيرة فى الصحراء. وفى كل زيارة كانت الفتيات تطلب منى بعض القطع المرغوبة مثل المرايا الصغيرة. والمناديل الصغيرة، واللؤلؤ الزجاجى، والابر وما شابه ذلك.

---

(1) يقصد التلغراف، ولما كان الحاج عبدالقادر قد حج مرات الى مكة وتعرف خلال سفره على القطار والتلغراف فقد اسند هذه الاختراعات الى امير العالم السفلى الشيطان

(2) سيدى الحاج العربى والد الشيخ الحاكم حاليا فى وزان.

(3) اى أنه يريد أن يحمى نصرانيا لم يوضع تحت هذه الكلمات فى أصل الرسالة.

(4) 28 يوليه 1865.

واذا ما جاءنى رجال الطوارق فكانوا يخلفون ثغرة كبيرة فى مؤنتى . ولم يبق الامر عند هذا الحد بل حدث مشهد وخيم كان يمكن أن يتخذ أبعاداً تنعكس علىَّ بصورة سيئة . ان كلبى الصغير اليقظ والعضاض كان يكره الغرباء الذين يقتربون من بيتى كرها لايمكن السيطرة عليه ويشاطره هذا الشعور خادمى البخيل شتيوى وقد سمعته ينطق بهذه العبارة : بارك الله فيك ياكلب لو لم تكن لدينا لما ترك لنا الطوارق شيئاً . أنه لمن المدهش حقا ان ينطق مسلم بمثل هذه العبارة فالكلب لدى المسلمين نجس ومحتقر . وفى أحد الايام سمعت من ينادى من الطريق اربطوا الكلب يامصطفى . اربطوا الكلب يامصطفى ان اصدقاء قادمون ، فامرت ان يربط الكلب وان يستقبل القادمين على الباب أحد الخدم بحيث يحضرهم الى . فدخل ثلاثة طوارق بخطوات بطيئة وحذرة .

وكانوا يضعون اللثام على وجههم وفى اليد اليمنى سيف طويل وفى اليد اليسرى مسبحة وعلقت على الصدر وحول الرقبة الاحجبة ، وآية من القرآن تلف جرابا صغيرا لقد أسندوا السيف الى الجدار ، الا أن خنجرا بقى لديهم كسلاح وقد حمل على الجهة الداخلية من الذارع وبعد أن جلسوا أمامى واستفسر كل منا عن صحة الآخر أحضرت لهم ستة أرغفة من الخبز ووعاء فيه زيت وملح تغمس فيه قطعات الخبز كما قدمت لهم بطيخة ، وبدأوا يأكلون بجد بعد ان أزالوا اللثام تماما ، وعادة ما يأكل الطوارق وهم ملثمون فى حضرة الغرباء ويضعون اللقمات فى الفم تحت اللثام ، وفجأة صدر عن أحدهم صراخ شديد من الألم وفى نفس اللحظة وجدت الكلب ينزل الدرج وكان قد تسلل دون ان يلاحظه أحد ، وعض الرجل فى ظهره وتعالى صراخه وقد قفز الآخران قفزة واحدة الى لينتقموا لرفيقهم الجريح ومن كان يدرى ماذا سيحصل لو لم يكن المسدس تحت يدى . الا أننى عرفت كيف أخفف من وطأة الموقف ، لقد ناديت شتيوى ، اذ أننى شككت ان يكون قد افلت الكلب ، وحمل فورا ستة أرغفة أخرى من الخبز وصحنا من الزيت واكبر بطيخة ورطلا من اللحم حمس بالدهن (قلية) لقد صعق شتيوى وتلعثم قائلا ، أعوذ بالله ، فلتفكر أن ثمن رطل القلية يساوى نصف محبوب ، قلت له امضى فورا أو أرسل حامد ، أنت تعلم أنه ليس شحيحاً مثلك لقد انصاع بتردد ، أن الطوارق الذين لايفهمون العربية بصورة طلقة لم يفهموا الامر الذى أصدرته وهكذا استمروا فى شتمى وتهديدى . على أن الأثر كان أكبر من ذلك عندما شاهدوا الوجبة الاضافية وهى توضع . وهكذا اخذوا يقولون ، يامصطفى كم أنت كريم واكراما لك

سنأكل الآن حتى التخمة . بارك الله فيك سنفخر فى كل مكان بحسن ضيافتك وقد أسرعوا بتناول الاطعمة غير المتوقعة التى قدمت اليهم وافترقنا ونحن على وئام تام . وعلى الرغم من ذلك وجدت أنه من المناسب أن أقابل عضة الطارقى بأرسال خبز وزيت وبطيخة فى اليوم التالى ، فقد كنت ألح على صداقة الطوارق سادة طرق القوافل .

من المؤكد ان الطوارق بربر أو أنهم ذو أصل مشترك معهم كما أنهم يتكلمون نفس اللغة تمازيغت ، الا أن عيشهم فى الصحراء حيث يتحول كل سنتين صوف الغنم الى شعر ، أثر مع الوقت عليهم تأثيرا جوهرياً وهذا مايبرز فى عاداتهم ومؤسساتهم فى الوقت الذى تعتبر المرأة لدى العرب مستعبدة . فأن المرأة لدى البربر الذين يعيشون فى الشمال الافريقى مختلطين بالعرب تتمتع باستقلالية أكبر وتتخذ لدى الطوارق مركزاً متميزا ، فتعاقب الارث لدى الزعماء يتم على أساس التسلسل النسائى . وجذور الاسلام لدى الطوارق أقل مما هى عليه لدى البربر لقد عارضوا كل ما من شأنه أن يناقض عاداتهم القديمة . ويرى بارت أن كلمة طوارق نجمت عن دمج عبارة "تركوا دنيهم" وقد ألصق بهم هذا الاسم تكرر ارتدادهم عن الدين الاسلامى وفى كتاب دوفيريه "طوارق الشمال" يزعم الشيخ ابراهيم ولد سيدى ذو المكانة الجليلة أن الطوارق شرفاء اذ أنهم ينتسبون الى الادارسة وهذا يعنى أنهم من نسل محمد (ﷺ) . ومن المعلوم أن جميع المسلمين شعوبا وأفرادا يرغبون أن يفخروا بأنهم ينتسبون الى محمد (ﷺ) ولو أنهم ليست لديهم حجة على ذلك وهذا طبيعى لأن القرآن يجعل من العرب خير أمة أخرجت للناس وينظر سليلو النبى (ﷺ) من بينهم على أنهم محببون الى الله ويضيف دوفيريه الى ذلك اذا ماسبب بربرى فى احدى المقاطعات الثائرة مشكلات للحكم ، فأن المقاومة تنكسر اذا ما اتخذت احدى بناته مكانتها فى حريم السلطان . وأن مثل هذا الشرف لايرفض أبدا لان الطفل الذى ينجم عن مثل هذا الزواج له الحق بلقب شريف ولايعتبر أى طلاق يمكن أن يقع ويعيد المرأة والطفل الى اسرتها بمثابة اهانة وعلى العكس من ذلك ينظر اليه على أنه تفويض بتأسيس سلالة من الشرفاء . وأريد ان أناقض ذلك اذ أن أية امرأة تدخل فى عصمة السلطان المراكشى لايمكن ان تعود الى أسرتها ومن النادر ان يطلق السطان زوجته الشرعية واذا ماحصل مثل ذلك يجب ان تعيش السلطانة فى تافيلت . حيث يوجد مسكن خاص لمطلقات السلطان المراكشى . ومن المستحيل ان يقوم مولاى سليمان ومولاى عبد الرحمن

بأعطاء الصلاحية لخمسمائة اسرة بـربريـة بحمل لقب شرفـاء" ويقول دوفـيرية ايضا ان الطوارق عـلى الرغم من اختـلاطهم بالـدم مع الادارسـة العرب بقـوا بربرا وباعتبارهم كجزء من الشعب البربرى فأن أصلهم ليس مجهولا .

خلال اقامتى فى غدامس جاء عيد المولد النبوى (الميلود) لقد احتفل السكان بـالعيد وان الابهـة الخارجيـة التى ظهرت عـلى الاهالى تشهـد عـلى غنـاهم وفى الحقيقة فأن غدامس دون منازع أغنى وأهم مـدينـة فى التجـارة الصحـراويـة بعد تمبكتو . وقبل عدة أيام من الميلود كان الشباب منشغلين فى تزيين جميـع الميادين الفارغة اى الامكنة الصغيرة المفتوحة بـين الازقة المقببة بالسجـاد او بالاقمشـة الاخرى الملونة والمرايا وصحـون النحاس الصفـراء[1] . وفى مساء يـوم المولـد النبوى كان يتحرك فى الازقة المنـورة حشـود من الاطفـال وقـد لبسـوا افضـل مالديهم وغالبا مايتكون لبسهم من فسطان أحمر وبرنس أخضر من نفس القماش واما رؤوسهم فقد حلقت على الصفر بحيث تلمع ماعدا غطايـة او تمثال صغـير ذى شعر طويـل يتخذ شكـل هلال وبـالأحرى رمـز الاسلام ان صـديقى بودن شتيت[2] صاحب قصيدة "ميرزا شافي" كـان سيسر بصلعات الاطفـال . وكان الاطفال ينشدون سوراً من القرآن[3] وان أبناء الاسر الغنية كانوا يـوزعون عـلى الفقراء الكعك والحلوى واما اليافعـون فكانـوا يشربون سرا العـرق واللقبى .

وفى تلك الاثناء كان يجتمع الكبار فى الزاويا للذكـر يرددون اسم الله بـاستمرار مرات لاتحصى وحسب التعليمات لاتقل عن 700000 مرة وذلك فى وقع واحد وحتى الان كـان يسمـح للنسـاء والصبـايـا أن يتجـولن فى أزقـة المـدينـة دون حجاب ، الا أن شيخ البلد منع ذلك فى هذه المرة ولانعلم فيما اذا كان المنـع قد جاء نتيجة لوجود غريب أم لانه يرى فى ذلك نوعا من البدعة . وبعد عدة أيـام أشيع ان شيخ البلد سيستبعـد من منصبه وعـلى الاغلب ان السبب يعود الى ان العالم الجميل (النساء) لايمارسن نفوذا يقل عن نفوذ المرأة لـدينا . وامـام البـاب كانت الساحة حيث اخذت العـتريات والـطوارق والسود يحتفلون بـالعيد عـلى

---

(1) ان اهالى غدامس يسعملون الصحون النحاسية الصفراء كثيرا مثلهم فى ذلك مثل اهالى درج وهم يـزينون بهـا جداران الغرف . بينما يتخذون أوعية الطعام من الخشب .

(2) فريد ريس ماريتن بودن شتيت (1816 ـ 1892) . كاتب المانى عرف برحلاته فى شرق روسيا ونشر قصائـد شافى مـيرزا (Brockhaus Enjyklop"adie 2162)

(3) من المؤكد ان المؤلف وقع فى خطأ اذ أن المدائح النبوية هى التى تنشد وليست سور القرآن كما يزعم

طريقتهم . وعلى ما يظهر لايعرفـون شيئا عن المعنى الـدينى للعيد . الكـل كان يلعب ويلهو رجالا ونساء وصبيانا وبناتا وقد بـرز الرجـال السود من الهـاوسا فى مزجهم لقد كانوا يهتفون ويرقصون ويقفزون ويضربـون الشيش ويعزفـون على القيثارة ويطبلون ويزمرون ونجم عن ذلك ضجيج صاخب انها أمسية المـولد ، انها الليلة التى ولد فيها سيدنا محمـد صلى الله عليـه وسلم . ما من مسلم يجب أن ينام هذه الليلة فأنه بذلك يرتكب اثما كبيرا .

وعلى الرغم من أن شفـائى من المرض لم يكتمـل بعد . مـاكنت لاتـردد فى الانطلاق نحو الهقار فيما لـو وصل سى عثمان بن بكرى الـذى انتظره منـذ وقت طويل . وغالبا ما أتانى زعماء من الطوارق وعرضوا على أن يوصلونى بسـلام الى ايـدلس ولكن امـا أنهم اوغـاد يـأخــذون جهـلى فى الحسبـان أو أنهم بسـاطء لايستطيعون ان يحافظوا على مواعيدهم . وان هؤلاء كانـوا يتخذون من عـزمى السفر الى ايدلس حجة كى يزيدوا فى غيظ شتيوى الدائم ويؤثروا على مؤنتى من الاطعمة .

وأخـيرا قررت أن احـزم امرى وفى أواخـر اغسطس احضر لى الشنـطاط[1] الرسائل التى وصلتنى الى طرابلس وكذلك الصحف الفرنسية الحديثة . وقرأت فى جـريدة مـونيتور (Monitreur) الخبر التالى : فى الجـزائر يتـوقع قـدوم زعيم الطوارق سى عثمان بن بكرى خلال الايام القادمة وسيصل مـع عدد من أتبـاعه قادما من غدامس . كى يقوم بزيارة الحاكم الفرنسى .

وهكـذا كان من بـاب العبث بالـوقت أن أستمر بـالانـتظار مـدة أطـول فى غدامس لانه ستمضى عدة شهور قبل أن يعود سى عثمان من الجزائـر . وحسب مفاهيمنا فقد حنث بوعده معى وأما هو فأنه يعتبر الامر سهلا اذ أن قيمـة الوقت خارجة عن نطاق التصور لديه . فهو يقول فى نفسـه : مصطفى سينـتظرنى ولا يستـطيع أن يـذهب الى ايدلس بمفرده . ولما كـان مأواه جيـدا فى غدامس فلن يضره أن يمكث فيها سنة . وطبقا لهذا المنطق فأنه لايعتقد أنه أقدم على مايضرنى اذا ما قام الآن بزيارة للجزائر .

لقـد اتخذت قـرارى بسرعة ألغيت بموجبه الـرحلة الى بلاد الهقار وقـررت السفـر الى فزان آمـلا أن أصل تلك البـلاد بسلام دون أن أنضم الى قـافلة ومن

---

(1) الرجل الذى كان يتولى قبول احضار البريد من طرابلس على الجمال .

هناك ستتوفر لى فرصة حتى أتوغل فى الدواخـل . وعليه كـان على أن أعـود الى مزده لاستأجر من هناك جمالا حتى مرزق .

ولم أفارق غدامس وأهلها دون أسى فقد حـزت على معـزتهم على الـرغم من حب التظاهر لديهم . فقد أظهروا تعاطفهم تجاهى خلال فـترة مرضى وأدوا لى خدمات ودية مثل الشيخ عمر الضرير ومقدم زاويـة مولاى الطيب فقد كـانا صديقين حميمين . وقد احترمت جميع التقاليد السائدة قدر الامكان فقد حرصت على زيارة الجامع بانتظام يوم الجمعة واستمعت الى خطبة الجمعة المملة ودفعت للطوارق وللبيت الذى سكنته وكانت الاجرة غالية الى حد ما وقدمت مسدسا ذا 24 طلقة من نوع لوفوشو هدية الى صديقى قاسم باشا .

وكل هذا لم يكن دون تأثير فقد جعلونى ألاحظ أننى ضيف محبب الى النفس وظهر الود المتبادل عند رحيلى . اذ جاء عدد من المعارف من المدينة ليشاركوا بوداعى يحيط بهم عدد من شباب المدينة كى يظهروا اعجابهم بكلبى العجيب . لقد صافحت العديد وسلمت على الكثيرين وتعالت نداءات الى اللقاء وغادرت غدامس بعد ظهر يوم 31 أغسطس .

من غدامس الى جبال السودا

حامد آغا - نقيب العربان - حكم قاضى درج - الجمل العربى والامهارى - مهاجرون - جزائريون - من مزدة عبر جبل الجن ووادى زمزم - فى الحمادة الحمراء - القبلى - القرية الشرقية والقرية الغربية - الهروج السوداء أو الجبال السوداء .

كانت قافلتنا كبيرة ، اذ تضم عدا عن جملى ستين جملا من الزنتان أحضرت بضائع الى غدامس وعادت فارغة ماخلا الجمال التى حملت أغراضى .

ورفيق سفرى هو حامد آغا نقيب فى جيش السلطان العثمانى ويعتبر شخصية هامة فى طرابلس ومعه حوذى الباشا الذى يعتبر أحد المقربين من

المشير فى طرابلس وقد أوفد ليسلم قاسم باشا فرمان نقله من الجبل الى غدامس . ولما كان مستلم الفرمان الجديد ملزما بأن يقدم لحامل الفرمان هدية نقدية مجزية ، فان هذه المهمة تنم عن أهمية الشخص الذى يكلف بها . وقد حزت على ثقة مرافق النقيب فى غدامس عندما نفذت مدخراته من العرق الذى كان يتعاطاه بكثرة وأمنت له عدة زجاجات من هذا المشروب الظريف . وبالطبع أعطاه قاسم باشا ما يكفيه للعودة . أنه كريم حسب عادة الشرقيين ومتحرر فى الامور الدينية ، مثله فى ذلك مثل التركى الذى يحب النساء ولا يتزوج بأكثر من إمرأة .

لقد تتبعنا لمسافة قصيرة الطريق الذى قدمنا عليه من مزدة ثم توجهنا جنوبا الى طريق يسير موازيا للطريق الاول ويبعد عنه حوالى ساعتين وعند غروب الشمس توقفنا لكى نطبخ ثم سرنا وتوقفنا عند منتصف الليل حيث بتنا فى جبل الكراب ، وأثناء استراحتنا الليلية فقد حامد آغا وهو نشوان شارة وجاهته وهو كرباجة الطويل المحلى بالفضة وتذكر أنه نسيه عند وداع قاسم باشا فى فناء منزله وأرسل احد خدمه لاستقدام الكرباج - ان حوذى باشا طرابلس الغرب قادر ان يكون لديه عدد من الخدم - وقد غادر الشخص دون أن يحضر الكرباج ، فقد استهوى بطلائه الفضى أحمد الهواة واختفى على الرغم من التفتيش الطويل وخرج الحوذى عن طوره - إثر ضياع الكرباج وكان يفضل ان يقدم سيفه بدلا عن الكرباج وبالاضافة الى ذلك ما يملكه معلمه . وفى اطار غضبه صب أغلظ السباب على البدو الذين يرافقوننا مثل خنزير - كلب - والذين تعرضوا للسباب لم يتجاسروا على التفوه بنبت شفه على الرغم من عدم علاقاتهم بالحادث فهو من أتباع المشير . ولكى يقضى على غضبه وانزعاجه نظر الى زجاجة العرق وشرب منها وعندما جلسنا ثانية لم يكن بوسعه ان يقف على رجليه وكان يريد الجمالون أن يربطوه على ظهر جمله حتى لا يقع من على ظهره الا أنه دفعهم جانبا . وكان سعيدا ان تمكن من تجاوز الخطوتين الاولتين دون مساعدة وعند الخطوة الثالثة مال جسمه الثقيل نحو الخلف ووقع على الارض . وان السكارى يقعون عادة دونما خطر وهكذا فأنه تعرض فقط لبعض الرضوض الخفيفة . لقد شملنى الله ورسوله برحمته سأصوم عشرة أيام وسأصلى غدا وكان يتلفظ بهذه الكلمات وهو يعتقد على الاغلب أن سقوطه عن ظهر

الجمل كان عقوبة له على شرب الخمر . وقد أخذ الان ينظر الى الجمالين بطول بال وهم يربطونه على مقعد الجمل . وفى الصباح الباكر عندما استيقظ من نومه رأى ان الرضوض لا اهمية لها سألنى بجدية فيما اذا كان سيدنا محمد قد حرم شرب الخمر تحريما مطلقا . من المؤكد انه حرم الخمر ولكن ليس العرق . فقال مصطفى أنك رجل حكيم وأخذ يشرب من زجاجته بنعنف .

لقد وصلنا درج دون مشكلات أخرى وبرزت هنا ايضا فظاظة حامد آغا وتكبره على أبشع وجه ، فقد تسلم مثلى رسالة توصية خاصة موجهة من قائمقام غدامس الى مدير درج فأرسل هذه الرسالة مع خادمه الى البلدة وأمره بمايلى : قل للخنزير الكلب العربى ، أن يستلم رسالة رئيسه « الا أنه وجد فى المدير نده اذ كان جوابه » قل لهذا الفاسق شارب العرق أننى لا أريد أن أتعامل معه « لقد جن جنون حامد آغا وأمر خدمه أن يحضروا المدير مكتوفا أمامه . ولما كانوا أحكم من أن ينفذوا الامر السخيف . تحملوا وطأة الجلد عوضا عنه .

وقام المدير بوضع بيت تحت تصرفى حرصا منه على سلامتى اذ أن لاقامة تحت الخيمة لمدة طويلة كان من باب المحال نتيجة الحرارة المتوهجة ، وبالطبع لم تكن الاقامة مريحة فى ذلك البيت فقد كان وسخا وهو يشبه مغارة للحيوانات الكاسرة أكثر مما هو مخصص لسكنى البشر وجرت هنا المحاكمة بشأن عين الجمل التى ضربت ، فلم يطالب صاحب الجمل الجريح بحقوقه فى غدامس اذ رحل فورا بحمولة الى الجبل ، ثم عاد الى درج وهو يطالب الان بنصف ثمن الجمل تعويضا عن الضرر ويهدد فى حالة عدم تلبية مطالبه أن يأخذ خادمى الاسود ، وأخيرا قدم شكواه الى قاضى درج ، وقد حكمنى القاضى بدفع عشرة محابيب الا أنه خفض المبلغ الى النصف عندما اعترضت موضحا بأن الجمل مازال قادرا على العمل ، ثم توجه الى قائلا : « اننى اتبرع شخصيا وليدفع خادمك الاسود محبوبا وتدفع أنت ما تبقى من المبلغ » ، لقد دفع خير قطعة سبيلى (تساوى 1/4 محبوب) ودفعت بقية المبلغ وكان المدعى بصدد أخذ المبلغ ، وفى هذه اللحظة سأله القاضى : «أين جملك الان ؟ « أجاب » أنه فى سفرة الى مزدة . قال القاضى : فيه الخير ، أحم ،

أحم اذا ما كان الجمل قادرا على السفر بأستمرار ليس لك الحق بالتعويض ، ياحبيب القلب وعلى كل حال يجب أن ارى الضرر أولا . . وبهذه الكلمات وضع القاضى المبلغ فى جيبه وابتعد قائلا أنه يريد أن يؤدى صلاة خاصة ، وأخذ صاحب الجمل ينظر اليه مفتوح الفم وتعلوه الدهشة .

أقمت عدة أيام فى درج لاننى كنت أفكر بتأمين خبير من أجل السفر مباشرة نحو مرزق الا ان المطالب كانت عالية الى درجة أننى قررت متبعة سفرى الى مزدة ، لقد أسرت خادمى حامد بالسفر مع حوذى النقيب الى طرابلس وكلفته أن يحضر النقود التى وصلتنى قبل حين وأن يتوجه من هناك الى مرزق .

وعلى مسافة بضعة ايام من مزدة خارت قوى أحد جمالى وربما أكل بعض الاعشاب السامة أو أنه لم يتحمل الماء المسهل أو أن الحمل كان أكثر من مقدرته ، فتركته على الطريق سقيما عله يجد ماء شافيا أو اعشابا تفيده وبذلك يتخلص من مرضه . لانه عندما تقوم غزوات لسرقة جمال أو عندما تضيع جمال من القافلة أو المضرب لا ينظر أحد الى ان هذا الجمل طبيعى وحتى عندما يشفى من مرضه ، وهكذا تهاجم قوافل وتسلب الا ان البضائع والممتلكات التى يرميها المرء لتخفيف حمولة الجمل تبقى فى مكانها لا يلمسها أحد .

فى جميع انحاء الشمال الافريقى وكذلك فى واحات الصحراء الواقعة خلفه يعيش الجمل ذو السنام الواحد ، وفى مصر يؤثر العلف الاجود والماء الحلو وقصر مسافات السفر فى نشوء تباين ، فى تطور الحيوان وهو بذلك اكبر جسما وقادر على تحمل حمولات أثقل وحسب رأى بريم يستطيع الجمل فى مصر أن يحمل حتى 1000 رطل وأما فى بقية بلدان الشمال الافريقى فان اثقل حمل للجمل لايزيد عن 500 رطل وتؤخذ هذه للسفرات القصيرة وأما فى السفر الصحراوى الطويل فلا تزيد الحمولة عن 300 رطل . على الرغم من أن الجمل لم يرد فى رسوم الآثار المصرية الا أنه على ما يظهر كان منتشرا فى الاجزاء الشرقية من افريقيا منذ أقدم العصور ومن هنا انتشر الى الاجزاء الواقعة فى غرب القارة .

ويختلف عن الجمل العربى فى الشمال الافريقى ، الجمل الافريقى والمهارى الذى يستوطن الصحراء وهذا الاختلاف يشبه اختلاف الفيل الافريقى عن الهندى ان علامات الاختلاف واضحة الى درجة أن المرء يعتبر المهارى جنسا خاصا وهذا لا ينفى كون الجمل العربى والافريقى من أصل واحد . ولا يمكن القول الى أى حد تشابه المهارى والهجين وجمل الركوب البشارى اذ اننى لم أر هذا الاخير .

لا يستغنى عن المهارى فى السفر عبر الصحراء ، ولولا هذا الحيوان لاصبح من باب المحال عبور الصحراء الكبرى ، أنه قادر على تحمل حمولة أكبر نسبيا ويستطيع أن يعيش عند الضرورة عشرة أيام دون ماء ويكتفى بأقل أنواع الغذاء ويتميز بمعرفته للاماكن ، وليس من النادر ان تهتدى قوافل ضلت طريقها الى احدى الواحات أو الابار بواسطة مقدرة الجمال على تتبع الاثر فهى تشتم الماء من بعيد وبخاصة اذا ما عطشت وتترك عندئذ حرة فى سيرها وعلى الرغم من موقفها السلبى فأنها تظهر عرفانها بالجميل وتعلقها بمن يحسن اليها وكنت أعطى الجمل الذى امتطيه خبز أو حفنة تمر ، وكان يرسل عدة أسابيع الى المرعى مع أشخاص آخرين وعندما يعود كان يعرفنى ويأتى الى دون أن أناديه ويشم يدى متذكرا أعطياتها . وفى القوافل الكبيرة يعرف كل جمل الخيمة التى يقيم فيها صاحبه عند عودته من المرعى أوقات الاستراحة .

ان جملى المريض الذى تركناه فى الطريق تتبع أثرنا لوحده وأتى حتى مزدة ، ولما كنت آمل أن يشفى من مرضه وقعت عقدا كتابيا مع احد ابناء البلد بحيث يدخل الجمل فى قطيعة وأن يعتنى به واذا ما تعافى يقوده الى طرابلس للبيع ويأخذ مقابل ذلك ربع القيمة وفى اليوم التالى قال لى ان وضع الحيوان قد ساء الى درجة تنذر بأنه قد يتوفى فى كل لحظة واذا ما كنت اريد الاستفادة من جلده ولحمه يجب أن يذبح فورا . ومن المعلوم ان المسلم لا يأكل غير لحم الذبيحة وأما اذا سقط الجمل أو قتل برصاصة أو ضربة البرق فهذا حرام على المسلم ، على أن الذبح يمكن ان يتم على يد أى شخص مسلم ولا يتطلب الامر الى رجل دين كما هو الحال عند اليهود حيث يقوم بذلك أحد الاحبار ، لقد قام خادمى الاسود خير بذبح الجمل على الطريقة الاسلامية وقد وزعت اللحم ودفع لى $3\frac{1}{2}$ محابيب مقابل الجلد .

وفى مزدة كان يخيم معى فى نفس المضرب مجموعة من المهاجرين الجزائريين القادمين من الاجزاء الجنوبية لوهران وقد غادروا موطنهم وأحضروا معهم نساءهم واطفالهم وجيادهم وثيرانهم وأغنامهم وماعزهم ويرغبون فى الاستيطان فى برقة ، انهم يمتلكون خياما كبيرة وواسعة ومسلحون تسليحا جيدا ويحمل البعض بنادق فرنسية ذات فوهتين ، وقد أفادوا أن سبب هجرتهم يعود الى أنهم شرفاء من نسل النبى (ص) ولا يمكنهم الاستمرار فى العيش فى ظل نير الكفار . ومن المؤكد انه فى صالح الفرنسيين اذا ما هاجرت مثل هذه القبائل العربية المتعصبة المضطربة من الجزائر لانهم لن يعترفوا مطلقا بمزايا حكومة منظمة ولن يكون فى وسع فرنسا مطلقا توقع استسلامهم أو تأييدهم . فاذا كانوا لم يتحملوا فى السابق حكم أخوتهم فى الايمان كيف يمكن ان يتحملوا حكم الكفار .

ان مقدم الزاوية السنوسية فى مزدة سى على بن عبد الله اهتم بالمهاجرون « شهداء الشريعة المقدسة » اهتماما بالغا وقام بجمع الصدقات للشرفاء الغرباء على الرغم من أنهم لا يحتاجون الدعم على ما يظهر ، وعندما اتيت الى الجامع التمس منى المشاركة بتبرع مجز وأكد لى بأننى بذلك سأستمتع بملذات الجنة ، فأجبته بهدوء أنه يبدو لى من غير المناسب جمع صدقات لاناس ليسوا بحاجة اليها ولكنى اذا ما اعلن ان الصدقة من الوصايا الدينية فلن أتوانى عن ذلك ولكن بشرط ان يلتزم امام الجميع أنه سيتبرع بضعف المبلغ الذى أتصدق به ، فأجاب ان شاء الله الا انه امتنع عن بذل الوعد بذلك وعاد سريعا دون أن يزعجنى ثانية ، وقد أثر هذا المشهد على الآخرين بأن امتنعوا عن تقديم اعطياتهم .

ان اهالى مزدة ويدعون عادة القنطاريون طلبوا أجرة لجمالهم لا تقل عن تلك التى طلبها أهالى درج ولحسن الحظ وصل فى تلك الاثناء ولد المشاشية الذين كانوا قد توجهوا الى فزان بحيث يقايضون هناك حبوبهم بحاجتهم من التمر خلال الشتاء ، وقد اجرونى جمالا بسعر رخيص نسبيا يبلغ 6 محابيب على كل جمل حتى وادى الشاطىء الطرف الشمالى من فزان ، ان مثل هذا التقايض فى المنتجات بين مزارعين من عرب وبربر من جهة وسكان الواحات الغنية بأشجار النخيل من جهة ثانية يحدث فى جميع انحاء الشمال الافريقى .

كل واحة وكل بلدة لها وكلاء فى مناطق معروفة يحضرون سنويا الحبوب اليها ويعودون بما يقابلها من التمر وحسب نوعية التمر والقمح والشعير يحدد عدد احمال التمر مقابل حمل القمح والشعير ، الا ان كمية التمر تزيد دائما عن كمية ما يقابلها من الحبوب وهذا ما يؤدى الى ان قوافل الحبوب المتوجهة نحو الواحات تأخذ معها عددا من الجمال دون حمولة .

فى الساعة الرابعة من بعد ظهر يوم العشرين من سبتمبر كان بوسعى ان اغادر بلدة مزدة المملة ، وعلى الرغم من أننى مازلت مضطرا للاستمرار فى تناول الافيون الا اننى كنت مسرورا انى سأسلك طريقا الى فزان لم يسلكه اوروبى قبلى وحتى الآن لم أجرؤ على السفر الا متخفيا بشخصية مسلم . والان توجهنا نحو الجنوب الى مناطق لا يتعامل سكانها مع اتباع الديانات الاخرى بصورة عدائية أو يهددونه بالقتل كما هو الحال فى الغرب فى فزان حيث التسامح وفى بورنو حيث استقبل اوربيون بصورة ودية لم يكن ضروريا اتخاذ اللباس الشرقى ولا افهم لماذا استخدم هذا اللباس بارت وفوغل وكلابرتون ودنهام مع انهم لم ينكروا دينهم النصرانى . وما ان اختفت عن ناظرى اشجار نخيل مزدة حتى طرحت جانبا ثياب التنكر ولبست بدلة صيفية اوروبية ، ولم يعنى ذلك شيئا بالنسبة لمرافقى وللجمالين اذ ان الموظفين العثمانيين يرتدون ملابس اوروبية .

لقد اخذنا اتجاها جنوبيا مباشرا وصعدنا ضفة سوف الجين ووصلنا الى وادى الجراجة وهو عند مزدة اعلى من سوف الجين بحوالى 100 ـ 150 قدم ويفصل مزدة عن الحمادة الحمراء وكان الصعود صعبا بسبب الالواح الصخرية والجدران الكلسية والحجارة الملقاة فى الطريق ومع الغروب قابلتنا قافلة كبيرة قادمة من فزان ونتج عن ذلك لخبطة عامة ولم تهدأ جمالنا الهائجة التى كانت قد عادت لتوها من المرعى الا بعد جهد جهيد . وحوالى الساعة الثامنة مساء ضربنا خيامنا .

وفى اليوم التالى وقلما سرنا ثلاث ساعات بأتجاه 160° حتى توقف المشاشية وقالوا بأنهم يجب ان ينتظروا احد جماعتهم . والسبب الحقيقى لتوقفهم هنا يعود الى المرعى الجيد المتوفر للجمال . ففى هذا المكان ينبت الجلجلان وهو يمتاز بأمتصاص الماء من الهواء وحتى عندما لايسقط ندى نهائيا وتموت النباتات

الاخرى نجد على اوراق الجلجلان نقاطا كبيرة من الماء . وربما يجذب الماء نتيجة لما يحتويه هذا النبات من نسبة ملح او انه يحتوى على اوعية امتصاص خاصة تستطيع ان تجتذب الرطوبة من الهواء ، وان مضرب الخيام كان ظريفا وقد استمتعنا بلحم الغزال الطرى الذى احضرناه معنا من مزدة حيث كنا نشتريه كل يوم . وبعد الظهر ازعجنا ريح شمالى شرقى خلط الرمل فى كل شيء .

وفى الساعة الثامنة من صباح اليوم التالى وصل المشاشى المنتظر ، وبعد سير ساعتين باتجاه شرقى وصلنا الى وادى الاتريس وهو ذو حوض جنوبى شرقى تحف به جدران عمودية وفيه بئران قليلا العمق فيهما ماء ممتاز ، وعلى مسافة 10 كم من اليمين تقوم تلال تنطلق من كف مسوسة باتجاه الجنوب الشرقى ينبع منها على الاغلب وادى الاتريس ليتوجه بعدئذ نحو سوف الجين ، ومنذ الساعة 9 حتى 11 كانت قيلولتنا عند احد البئرين المذكورين .

وانتهزت الفرصة لزيارة آثار رومانية واقعة بالقرب من هذه المنطقة ولايمكن تفسير وجود مثل هذا العدد من الآثار فى منطقة تعيسة عديمة النبات فى معظمها مالم نفترض ان هذه المناطق كانت تختلف فى طبيعتها قديما اذ كانت تعرف طبقة نباتية اكثف وعدداً كبيرا من السكان ان التمثال الذى زرته بنى بحجارة منحوتة قاعدتها 5×6 قدم ويتكون من طابقين بأرتفاع 20 قدما من المؤكد انه كان اعلى من ذلك لان ذروته منهارة . وهذا الاثر يمثل على الاغلب مسلة لاتحمل زخارف خارجية بينما تحمل فى داخلها قوسين منهارين وعلى الجدران تماثيل وحيوانات مثل الكلاب السلوقية والغزال .

وحوالى الساعة الواحدة بلغنا وادى بو الاجراف القادم من الجنوب الشرقى وحسب روايات الناس لاعلاقة له بسوف الجين ، وحوالى الساعة الثانية طلب اصحاب الجمال التى استأجرتها التوقف لوجود مرعى للجمال فقد كان نبات الدمرهن مزهرا ونصبت الخيمة اذ لابد فى مثل هذه الحالات من الرضوخ ، وقد شاهدت هنا ايضا بقايا آثار رومانية الا اننى لم اجد اية نقوش عليها .

وحوالى الساعة السادسة صباح الثانى من اكتوبر انطلقنا بزاوية 125° واصبحت المنطقة متماوجة لابل جبلية واصبح الطريق يصعد نحو جبل الجن ومن الممر توجد اطلالة رائعة زادت من جمالها الآثار الرومانية والخطوط الخضراء المتعرجة التى تختط الوديان وحوالى الساعة العاشرة بلغنا فروع وادى

طلحة ، وبينما كانت الجمال تسير الهوينا وهى ترعى الاعشاب تناولنا فطورنا
وان الحرارة ماعادت تضطرنا الآن للتوقف خلال آخر ساعات النهار وبقينا
نسير عبر وادى طلحة حتى الثالثة بعد الظهر وعبرنا حوالى الخامسة سلسلة من
الهضاب وبعد ساعة بلغنا وادى فروفن حيث نصبنا خيامنا .

وقد صادفنا خلال النهار هدة مرات عصابة من 8 ـ 10 رجال اثنان منهم
يمتطيان الجياد ويمتطى البقية الجمال . يجوبون المنطقة بعيدا وكلما توقفنا او
اعطوا الاشارة كانوا يطردون بسرعة ولما كانت المنطقة بما تحتويه من آثار
وحصون ومقابر قديمة تسمح لافراد العصابة بالاختباء وتعتبر اثر ذلك غير امنة
فقد توجب علينا الاسراع فى تجاوز هذه المنطقة ولو اننا لم نكن نخشى هجوماً
مباشرا من العصاب فقد كنا عدديا متفوقين اذ ان عددنا ثلاثة امثالهم كما كنا
مدججين بالسلاح الا انه كان بوسعهم ان يحاولوا خلال الليل استبعاد بعض
جمالنا او ان يسرقوا وفى اثر ذلك اخترت جداراً صخريا يصعب صعوده
وخيمنا هناك وبذلك حمينا ظهرنا وامرت بتشكيل جناحين من الصناديق التى
وضعت فوق بعضها والحاويات (خرج الجمل) ووضعنا بينهما الجمال ووقف
امامهم كلبى ثم استسلمنا للنوم . وحوالى منتصف الليل هجم كلبى بعنف
واستمر فى النباح ثم هجم على شخص لبعضه ثم نبح ، وهنا اطلقت
رصاصة ، لقد نهضنا فورا وخشيت ان يكون الكلب قد اصيب اصابة قاتلة
الا اننا رأيناه يجرى خلف اللصوص الفارين وكانوا قد وضعوا جيادهم
وجمالهم على مقربة ومما يدل على قوة العضة آثار الحايك التى اقتطعها الكلب
بانيابه من رداء احد المهاجمين .

ان الكلب (مرزوق) كان بطل هذه الموقعة واصبح بذلك شخصية مقدرة
واذا ما اكل احدهم التمر او الزميطة فكان يحظى بحصته منها واذا ماتعب من
المشى كانوا يضعونه على احد الجمال وتعلم مع الوقت ان يقف بأقدامه الاربعة
على ظهر الجمال متغلبا على تأرجح سفينة الصحراء ولم تقتصر وداعة الكلب
علىّ وعلى رجال القافلة بل اصبح يتفاهم مع الجمال واذا ماعطى الجمال شىء
من التمر فأنه يدخل ليأخذ حصته وكان الجمال يدعونه يشاركهم وفى الصباح
ومع الهواء الطرى كان يحاول ان يلعب معهم فقد كان يعضهم بلطف
ويركض حولهم نابحا مداعبا وبهذا اصبح كلبى (مرزوق) يتحلى بجميع
صفات الكلب المدنى .

وبالطبع كان الحادث الذى وقع ليلا موضع نقاش حيوى وبدأت

التخمينات حول اللصوص فقد رأى البعض انهم من الزنتان ورأى آخرون
انهم من اولاد بوسيف وقال البعض الآخر ان رئيس العصابة من مزدة ، على
ان السؤال بقى غير محسوم مبدئيا اذ لم يتكرر ظهور احد من العصابة ، لقد
سرنا على زاوية 162° وبعد فترة كان يقترب من يميننا جبل الجن وعلى مسافة
عشر كيلو مترات الى اليسار كنا نشاهد جبل الخدامية وحوالى الساعة السابعة
كنا نصعد هضابا صغيرة فى تفرعات وادى التقيجة وبعد ساعة ظهر فى الشرق
عمود حجرى مرتفع وقال لى الناس انه من عصر الجاهلية ولكى اقترب منه
سرت وخادمى خير نحوه ووجدت امامى بناء هرميا بنى من احجار مربعة
منحوتة ويتكون من طابقين وعلى الرغم من أن ذروته منهارة فقد قدرت
ارتفاعه من جهة الظل بحدود 32 قدماً ويوجد حوله من جميع الجهات آثار
أعمدة كورنتية ومن الاشكال الباقية على الواجهة الشرقية التى تعتبر الواجهة
الرئيسية يمكن التوصل الى ان هذا الهرم قد بنى بمثابة ضريح لصياد شهير اذ
يتضح من الرسم فارس يرمى رمحا ويطارد غزالا ، ولايحمل الهرم اى اثر
لنقش ، وهذا يتطابق مع مايصفه ويرسمه بارت فى رحلته (الجزء الاول
ص 125) ويقول بارت ان ارتفاعه يبلغ 48 قدما وانه وجد داخله ثلاثة
اركان بينما بلغ ماوجدته ثمانية اركان .

أليس من واجب جيلنا انقاذ مثل هذه الاثار القديمة القيمة فنيا والتى تشهد
على عظمة الماضى ؟ ويجدر بالمرء ان يفك هذه الحجارة عن بعضها البعض
باشراف متخصص وان ينقلها الى طرابلس ، ان مثل هذا ليس ضربا من
المحال فالعرب مستعدون لتحمل اعباء النقل الى طرابلس مقابل اجر
بسيط .

ولما كانت قافلتنا قد استمرت فى سيرها كان على ان اقطع وخير مسافة عدة
ساعات للحاق بالقافلة ، ولما قلق الجمالون لطول فترة غيابى ارسلوا احدهم
ومعه جمل يحمل قربة ماء بأتجاه التمثال كى يحضرنى من هناك . وقد عاد
الشخص فى وقت متأخر من الليل الى القافلة بعد ان انتظرنى هناك طويلا ،
ويقول المشاشية انه من حسن حظى اننى قد عدت سلام فقد يراقبنى افراد
العصابة ويقطعون على الطريق . وقبل الظهر سارت القافلة عبر وادى تقيجة
الذى يسير من الشرق الى الغرب ثم عبرت وادى الكويس ، ونصبنا خيامنا
حوالى الساعة الثانية والنصف .

والى الشمال الشرقى من مضرب خيامنا تمتد جبال عالية نسبيا هى كاف

المقيلات على طريف الحمادة ، وقبل ان نصعد هذه الجبال مشينا عبر وادى زمزم وهو احد اكبر احواض الوديان فى منطقة طرابلس وفيه ابار كثيرة ذات ماء طيب المذاق وقد سمى الوادى حسب بئر زمزم فى مكة كما يزدان الوادى بأشجار الطلح وعلى جذوع وفروع هذه الاشجار صمغ يستسيغه الذباب ولا يجمع فى المناطق الواقعة شمالى الصحراء على الرغم من انه لايقل جودة عن صمغ السودان والسنغال كما ان اشجار الطلح قلما يخلو واد منها فى الشمال .
وفى المكان الذى ضربنا فيه خيامنا يبلغ ارتفاع الوادى حوالى 270 م وفى اليوم التالى بلغنا نهاية الوادى واخذنا الاتجاه الجنوبى الغربى بحيث نصعد طرف الصحراء وقد اخذت الجمال تجهد فى صعود طرف الحمادة وان طريق القافلة الذى سلكه بارت يقع الى الغرب من طريقنا ، وعلى الرغم من صعوبة الطريق لم يقع اى جمل ووصلت القافلة الى ظهر الهضبة . ان النظرة من على ارتفاع 430 م على وادى زمزم تقدم منظرا خلابا ، لقد سألت نفسى كيف كان من الممكن ان تنشأ مثل هذه الوديان الهائلة ، اية تبدلات وقعت هنا وكم من عشرات الوف السنوات او مئات الالوف تفصل بين تلك الفترة وزمننا .

وعلى سطح الهضبة كان علينا ان نعبر فجوة تسير من الشرق نحو الغرب ثم تتلوها الحمادة الحقيقية وهى سهل مرتفع يتكون من غضار احمر متحجر وقد غطيت اطرافه بصخور مسودة .

منذ مدة كان يهب القبلى وهو ماندعوه فى اوربا بالسموم وبدت الشمس وكأنها كرة نارية متوهجة وكانت الحرارة تلفح الوجه والهواء ساكن تماما الا ان غيمة سوداء كانت تقترب بتؤدة لم تدع ى شك بأن عاصفة هوجاء ستهب قريبا ان الشمس كانت تزداد احمرارا والحرارة تضغط وغدا التنفس عسيرا ، الآن وصل الشبح وقد ادارت جمالنا ظهرها من تلقاء نفسها كى لايدخل الرمل فى عينها كما انها جثت دون ان تؤمر ان ظلمة تامة اخذت تلفنا فقد حالت العاصفة الرملية التى يبلغ ارتفاعها عدة مئات من الاقدام من وصول نور الشمس وساد جو كما لو انه خسوف ، لقد استقلينا بجانب ظهر الجكل كى نتفادى الرياح الرملية ، لقد جف الفم والحلق وامتلأت العينان والانف والاذن بالرمل ، ومن الخطأ الزعم ان البدو يستلقون على الارض لان السموم لاتهب فوق سطح الارض مباشرة بل تبقى فى الهواء من اين ستأتى هذه الكميات من الرمال لو ان العاصفة لاتهب مباشرة فوق الارض ان المرء

يستلقى لانه لايستطيع ان يرى وقد تحمله الريح او ترميه ، لقد مضت العاصفة بسرعة مثلما اتت بسرعة ، ولم تستمر اكثر من عشرين دقيقة .

ثم نهضت الجمال وكان بوسعنا ان نتابع سيرنا ، وحوالى الساعة الخامسة بعد الظهر صعدنا الطرف الجنوبى للحمادة الا انه كان اقل ارتفاعا من الطرف الشمالى اذ ان الارض كانت تميل تدريجيا نحو الجنوب وبعد فترة قصيرة وصلنا وادى القرية ، وضربنا خيامنا عند القرية الشرقية ، وهى بلدة صغيرة يحيط بها سور تعيس يعيش فيها بضع مئات من السكان وربما كانت محصنة فى الازمنة القديمة اذ ان كامة قرية تعنى حصنا وعلى مسافة 10 كم منها تقع القرية الغربية وقد زارها بارت من عين الطابونية حيث كان مضرب خيامه وحيث وجد ذلك الحصن الرومانى ذا النقوش الكتابية .

تقع القرية الشرقية على الضفة اليسرى للوادى الذى يحمل اسمها ويصب فى وادى زمزم ويرتفع حوالى 568 م عن سطح البحر ، ان سكانها يدعون انفسهم مرابطين ويزعمون ان سكان الغربية ذو منشأ عادى ، ان الآخرين هم فى الغالب قطاع طرق ولصوص الا ان بارت لايذكر شيئا عن طباعهم السيئة ، وفى القرية الشرقية تسقى البساتين بالفجارات .

وعلى الرغم من ان الماء شديد الملوحة الا انه لايؤثر على التمر وعلى العكس من ذلك حيث يسقى النخيل بالمياه المتفجرة توحد افضل الثمار ، وفى الحقيقة فأن التمور التى تنتج هنا تضاهى افضل انواع تمور فزان ، والماء المالح الذى يشرب هنا لايؤدى الى الاسهال كما هو الحال فى مياه الصحراء الاخرى المالحة ، وربما لانه يحتوى على نسبة اقل من النطرون والمغنزيوم .

ويمارس السكان بالاضافة الى التجارة بالتمر شيئا من الزراعة وتربية الحيوان ، واما نحن فقد وجدناهم محتالين وقطاع طرق ، وبذلوا جهدهم فى فرض اعمالهم المشينة علينا وبخاصة ان سلطة الدولة منعدمة هنا . وان شيخ البركة يستغل مركزه فى سبيل مصلحته الشخصية وعندما غادرنا البلدة بينت لهؤلاء الحثالة[1] ان كل من يقترب من مضرب خيامنا

---

(1) انهمايصبه رولفس من تهم وصفات مقذعة على العرب سيتزايد ويؤكد على عداء عنصرى تجاهم ومن جملة مهامه دراسة امكانية عزل العرب عن بلاد السودان وافريقيا .

ليلا سنطلق عليه النار فورا ، وتوجهت إلى الشيخ بصورة خاصة وقلت له : « أنك شيخ البركة وأنت رجل زاهد ، وحبيب الله ، وسيؤسفنى جدا اذا ما أزعجنا جماعتك ليلا ، وأصابتهم طلقاتنا » وهكذا أخذوا يكيلون لنا السباب ، وفى الوقت الذى كان يسلم على شيخ البركة ويتمنى لى سفرة سعيدة كان يقول فى قلبه ، فليحرق الله أباك بنار جهنم أيها الكلب النصرانى .

وفى اثر ذلك مضى الليل بهدوء ، وفى الساعة السابعة من يوم 6 من أكتوبر تابعنا سيرنا جنوباً . وأن الطرف الشرقى للحمادة الحمراء الذى نمر به الآن ليس مقفرا مثل الطرف الغربى واذا كان طريق القوافل الرئيسى طرابلس فزان يمر عبر بونجيم سوكنة ، فأنها لا تأخذ الطرف الشرقى للحمادة لانها تمتد شرقا بل لوجود الكلأ للحيوانات وتوفر عدد أكبر من الآبار وان أقصر الطرق نحو مرزق هو ذلك الذى يمر عبر غريان مزدة القرية ، وادى الشاطىء ووادى الشرقى الا أنه من المحال أن يطرق هذا الطريق مسافر بمفرده .

لقد شاهدنا عن بعد كثيرا من الغزلان وكانت تقطع فى الغالب طرق هذه الحيوانات التى تعيش هناك بأعداد كبيرة ، حوالى الساعة التاسعة وصلنا ، إلى فرعى وادى الشويرف الذى يجرى أيضا نحو الشرق وذلك بعد أن عبرنا أرضا ذات هضاب ووديانا صغيرة تسير بأتجاه الشرق وحوالى الساعة الثانية عشر وصلنا وادى بوقيلة[7] ويسمى طرفه الشمالى وادى أوريدة وصادفنا دوارين يسكنهما أولاد المشاشية وهذا يدل على أننا لم ندخل الصحراء الحقيقية وهى فى الغالب على بعد واحد من سرت تقريبا .

وانتهزت هذه الفرصة كى أعفى خادمى الاسمر خير فقد أثبت أنه غير مطيع ومهمل فى عمله إلى درجة قصوى ، ففى غدامس سمح بسرقة شكال جملى وفى مزدة سمح بأخذ البندقية ولم يكن بوسعى أن أتحمل خروج هؤلاء على الطاعة ، فهو يستطيع الآن أن يذهب من الدوار إلى طرابلس مع المشاشية بحيث يحصل على أجره عن ثلاثة شهور من هناك .

ان المنطقة التى نعبرها الآن غنية بالمياه إلى درجة أننا لم نكن بحاجة إلى ملء القرب فى الآبار عندما غادرنا بوقيلة حوالى الساعة السابعة من اليوم التالى بحوالى الساعة الرابعة بعد الظهر دخلنا وادى زيرمحت ، وقد وافقنا الحظ بصيد غزال وكان على أن أعجن بذاتى ، فلم يبق لدى من الخدم سوى شتيوى ولكنه

(7) يعتقد الاهالى أن مياه هذا الوادى تشفى من الشلل .

ماكان يغسل وجهه سوى مرة كل ثمانية أيام وهو مازال أنظف من بقية الجمالين ، وهكذا تصورت أن الوسخ الذى تجمع على يديه طيلة أسابيع سينزل فى العجين ، ان أزهد المسلمين يدع الوضوء فى الصحراء ويستعيض عنه بالتيمم فكيف يخطر له أن يغسل يديه من أجل اعداد الخبز ، ولكى أحافظ على مقامى لدى الجمالين وشتيوى أغلقت خيمتى وجهزت العجين وكنت أقوم بذلك كل يوم من الآن وحتى مرزق وأما الخبز فكان يقوم به شتيوى .

لقد وجدت جمالنا هنا مرعى أضافيا فيه نوعان من الشجيرات المزهرة تسمى حلبة وجدرية ، وان الشجيرة الأخيرة شوكية ويذكر دوفيريه الذى أخذت من كتابه أسماء هذه النباتات أن جذور وقشور الجدرية تستخدم فى دبغ جلود الغنم ، لقد ضربنا خيامنا عند الساعة الرابعة بعد أن قطعنا خمس ساعات حسب سير الجمل .

وفى 8 أكتوبر سرنا باتجاه جنوبى شرقى عبر سهل مقفر حصوى وكنا نتحمل وطأة ريح القبلى الحارة ، وحوالى الساعة العاشرة بلغنا روافد أم الخيل وفى الساعة الثانية وصلنا الضفة الشمالية للوادى وخيمنا عند بئره على ارتفاع 462 م عن سطح البحر ويوجد فيه ماء ممتاز ، ويزعم أبناء البلاد أن الماء ذو طعم مالح الا أننى لم أستطع اكتشاف ذلك . وصادفنا بالقرب من البئر بدوا من المشاشية .

ان وادى أم الخيل الذى يجرى باتجاه جنوبى شرقى يشكل حدود قائمقامية الجبل وان المنطقة التى تقع جنوبه تتبع قائمقامية فزان ، وان قبيلتى المشاشية وأولاد بوسيف تبلغ خيام كل منهما 1000 خيمة على الأقل ، يتبعون منطقة الجبل على الرغم من انهم ينتقلون على جانبى الحدود الا أنهم يعودون على الدوام إلى منطقة الجبل . وفى الازمنة القديمة أى قبل أن يسيطر العثمانيون على البلاد كان أهل الزنتان أسياد هذه المنطقة بأجمعها وحتى الآن هم وحدهم أصحاب الحق فى الأرض والعقارات وهكذا فان المشاشية وأولاد بوسيف لا يرعون أو يزرعون هذه المنطقة الا بعد أذنهم وكى يجرى تفادى النزاعات فان مدير أو باشا الجبل يقوم سنويا بتوزيع هذه الاراضى ويعترفون بذاتهم أنهم ليسوا ملاكا هنا بل هاجروا منذ وقت بعيد من الساقية الحمراء إلى هذه المنطقة .

ويبدو أن العرب بعد أن قاموا بفتوحاتهم وبلغوا الشاطىء الغربى لافريقيا بدأت هجرة عكسية لانه توجد فى تافيلت وتوات والجزائر وتونس وطرابلس

الغرب قبائل عربية تزعم أن أجدادهم قد بلغوا المحيط ، وحتى يومنا هذا فان هذا الشعب المتحرك ينتقل بأستمرار ويكفى سبب بسيط حتى يحمل خيامه الخفيفة ويرحل إلى منطقة أخرى ، ان حب التنقل قائم فى طبيعة الدين الاسلامى وحيث يمكن للعربى أن يحمل اسلامه يجد موطنه وليس له وطن أم ولا يشكل قومية وبالنسبة اليه يوجد أخوان فى العقيدة أو كفار .

ان الجمالين أجبرونا تحت جميع الحجج إن نبقى يومين عند أم الخيل ، ولم أكن أرغب فى ذلك وبخاصة أنه كان يهب ريح قبلى قوى حار محمل بالرمال وبلغت الحرارة فى اكتوبر فى الظل 42 د بعد الظهيرة ، وأخيرا تابعنا سيرنا عند الساعة الحادية عشرة ليلا من يوم 11 اكتوبر وغادرنا وادى أم الخيل مع انبلاج ضوء النهار حوالى السادسة صباحا ثم اتجهنا نحو الجنوب الغربى وسرنا على أرض الحمادة مسافة قصيرة وبلغنا وادى الرتم ، وأن رياح القبلى التى هبت فجأة اضطرتنا أن نستريح حتى الثانية بعد الظهر ، وتحركنا حوالى الثالثة بعد الظهر وعبرنا وادى الملك وهو يتفرع عن وادى الخيل ووصلنا حوالى الخامسة إلى وادى يسير بأتجاه جنوبى وهو فرع من وادى الفاعات وهذا بدوره يشكل فرعا رئيسيا من وادى البى حيث ضربنا خيامنا

وقد لاحظت هنا لاول مرة - ما يذكره ليون ودوفيريه - الظاهرة التى يعرفها العرب وهى أن الاشياء تشحن كهربائيا فى آخر هبوب ريح قبلى عنيف . فقد صدرت عن بطانياتى الصوفية عند نفضها ومضات كما صدرت مثل هذه الومضان عن شعر كلبى وأنا أمر بيدى عليه ، وفى الوقت ذاته لاحظت تأثير القبلى على أجهزة الهضم لدينا اذ أنه يسبب اسهالا وينقطع الاسهال مع هبوب الرياح الشمالية وربما يعود بسبب نشأة الكهرباء وإلى الاحتكاك الشديد الذى ينجم عن ذرات الرمل .

وعلى الرغم من أننا انطلقنا حوالى الساعة الثانية صباحا وبقينا نسير طيلة النهار اذا غضضنا النظر عن فترة الفطور فلم نقطع أكثر من مسيرة 12 ساعة اذ أن الجمال كانت ترعى الاعشاب الطرية خلال سيرها وان الهواء والارض مازالتا محملتين بالكهرباء .

وفى اليوم التالى الثالث عشر من اكتوبر حيث انطلقنا عند الساعة الخامسة صباحا ظلت الجمال ترعى خلال سيرها حتى الحادية عشرة ثم عادت إلى سرعتها المعتادة فى السير وعند الساعة الواحدة عبرنا الخرم وشاهدنا من على مسافة حوالى 50 كم جبل نبة الجردق المرتفع وهو يسيطر على سلسلة من

الهضاب السوداء ومع عبورنا الخرم خلفنا وراءنا مصب وادى الفاعات وبلغنا سهلا حصويا ونصبنا خيامنا عند بعض احراج الميموز .

وبعد أن انطلقنا فى اليوم التالى عند الثالثة صباحا بأتجاه جنوبى مررنا عند الساعة السادسة من خرم آخر وجدنا أمامنا جبل نبة الجردق ثانية ، الا أننا شاهدنا إلى جانبه عددا من القمم الجبلية الاخرى وبعد حين كنا فى وسط سلسلة جبلية متكاملة يسميها العرب الهروج السوداء أو الهروج الابيض أو جبل السودا . وصعد هورنمان وبويرمان الأطراف الشرقية لهذه الجبال وعبرت الأطراف الغربية ، إلا أن بارت وريتشاردسون وأوفيرفيغ لم يقتربوا منه ، فقد ساروا خلال رحلتهم إلى بلاد السودان على طريق يقع إلى الغرب وهكذا فأنهم عبروا الحمادة ولم يصادفوا جبالا ، ويكتب بارت حرفيا : « لقد تأكدنا أن الاعتقاد بوجود الهروج فى هذه المنطقة خطأ الا أننا أردنا أن نتأكد من عظم حجم هذه الهضبة والا كيف يمكننا أن نزعم أنها لم تقع إلى جانب طريقنا ، ان الهروج لم تكن بعيدة كثيرا إلى الشرق من طريقه ، فقد كان بوسعه أن يشاهد بعينه نبة الجردق اذ أنه مر على مسافة 10 أميال ألمانية عنه .

وفيما اذا كانت الهروج السودا أو جبال الطوارق حسب فرضية دوفيريه مطابقة لجبل آتر (Mons Ater) الذى يذكره بلينيوس ، هو أمر مشكوك فيه جدا ، فالوصف الذى يخصصه بلينيوس لجبل آتر يتطابق جيدا مع جبل السوداء اذ يقول : وبعد سرت الصغير تأتى فزان حيث تغلبنا مؤخرا على الفزانيين بالاضافة إلى مدينتى أليلة (Alele) وسيلابة (Cillaba) ومن هنا تمتد من الشرق نحو الغرب سلسلة جبلية طويلة نسميها آتر (Ater) لانها تظهر وكأنها محروقة أو ملتهبة بسبب تسلط أشعة الشمس عليها وخلف هذا الجبل تقع الصحراء ، ولو أن جبال السوداء تشكل قوسا الا أن اتجاهها الرئيسى من الغرب نحو الشرق وأن هذه الجبال تبدو عن بعد وكأنها محروقة وهذا ماسبق وأشرت اليه .

ان الامتداد الطولانى للجبال نحو الجنوب الشرقى لم يتأكد بعد بصورة قطعية وربما ترتبط هذه بجبال تبستى وبوركو ، على أن طولها لا يقل عن 80 ميلا ألمانيا ولا تتوفر الآن معلومات أكيدة حول عرض هذه الجبال اذ أنه لم يجر أختراقها الا فى بعض نواحيها ولم يجر قياس ارتفاع الجبال فى الاجزاء الجنوبية الشرقية ولا يذكر هورنمان سوى ارتفاعات نسبية للهروج الابيض حوالى 80 قدما ويتحدث بويرمان عن ارتفاعات قليلة نسبيا فى المنطقة الشمالية الغربية التى

صعدها وفى خريطة بترمان يذكر الارتفاع المطلق للهروج على أنه 1557 قدم وأن أعلى نقطة عثر عليها دنهام وكلابرتون فى طريقهما التى سلكها أيضا بارت هى 2266 قدم (وردت عند بترمان بارتفاع 2415 قدم قرب سوكنة) وبلغ ارتفاع الموضع الذى وصلته فى الطرف الغربى 2959 قدم وهذا يعنى ان الجبال ترتفع باتجاه الغرب . ان دوفيريه الذى يعتبر الهروج والسوداء كجبلين مستقلين يحدد ارتفاع الاول بحوالى 600 م وارتفاع الثانى حوالى 736 م .

وأما ما يخص الصخور فى الجبال فأن الاراء تختلف عن بعضها البعض وحسب هورنمان ان منظر الهروج الحالى المخربط انما يعود إلى اندفاعات بركانية ، فقد وجد صخورا بازلتية ، وصخورا كلسية . كما يؤكد على وجود تحجرات ، وحيوانات بحرية وقواقع محصورة ، وفى الهروج الابيض الذى يتكون حسب رأيه من صخور كلسية فقط وجدت رؤوس أسماك متحجرة وهى كبيرة إلى الحد الذى لا يستطيع معها الانسان حملها ، وان النماذج الصخرية التى حملها معه دوفيريه أثبتت أنها ذات طبيعة بركانية ، وعلى العكس من ذلك يقول بويرمان : لم أجد أى آثار للبازلت ولا أعتقد أنه يوجد مثل ذلك فى الاجزاء الجنوبية لهذه الجبال ، ويتوصل إلى هذا الرأى أيضا فوغل اذ يقول أن هذه الجبال تتكون فى سطحها من صخور كلسية ثم من صخور رملية ذات لون أسود الا أننا لم نجد البازلت مطلقا وأننى اعتقد أن بيانات دوفيرية هى الأصح ان جميع الجبال ذات طبيعة بركانية الا أنها مختلطة كثيرا بتكونات كلسية وأحجار رملية .

ان المظهر الخارجى لجبال السودا غريب مثلما يتصور المرء جبالا صحراوية وهى وعرة موحشة قفراء ، لقد عقد فوغل مقارنة تبين هذه الجبال ومافيها من صخور مبعثرة على شكل شوائب مع طبيعة القمر كما يشبهها هورنمان بمغارة فى شق جبلى ضيق مظلم ذات مدخل إلى العالم السفلى ، ويزيد من وطأة الانطباع المظلم الذى ينشره اللون الاسود المسيطر على الصخور الكبيرة والصغيرة أنه يقوم بين صخور السفوح الجبلية المغطاة بالصخور السوداء صخور رملية بيضاء وعلى الرغم من ذلك ليست هذه الجبال عديمة النبات كما يصفها معظم الرحالين ، ففى الوديان تنبت نسبيا كثير من الاعشاب كما توجد شجيرات الأكاسيا فى جميع الوديان تقريبا .

حوالى الساعة 12 وصلت قافلتنا بعد مسيرة ست ساعات بأتجاه الجنوب وادى الحد الهام وحسب رواية المشاشية يصب فى وادى البى ويقول المقارحة أنه

يغيب فى الرمل بعد مسيرة عدة أيام ولما كانت قافلتان قد ضربت خيامها بالقرب من حفرات المياه كان علينا أن نضرب خيامنا إلى الجنوب من الوادى وأن نأخذ احدى الحفرات لصالحنا ، فبدأ القوم يحفرون فورا فى الرمل وبالاحرى يحفرون الرمل بأيديهم ولا أفهم لماذا لا تحمل القوافل رفشا معها لمثل هذه الحالات ونادرا ما يحملون فأسا يحفرون به الرمل ثم يوضع فى سلة ويرمى وأن اصحابنا لم يكن لديهم لا رفش ولا فأس ولذلك سار العمل ببطء وصعوبة ولم نتمكن من ملء بعض القرب حتى بعد الظهر ، ان الماء عذب ولكنه غير نظيف وليس من النادر أن ينزل احدهم بقدميه القذرتين فى الماء ، ولكن ما هو الشىء الذى لا يشربه الانسان فى الصحراء ؟ . ان جمالنا كانت فى وضع أسوأ فقد تعرضوا للجفاف الذى يسببه القبلى وينتظرون عدة أيام قبل أن يطفئوا ظمأهم .

حوالى الساعة الرابعة بعد الظهر غادرنا الموضع وهو يبعد 6 الى 7 ساعات من نبة الجردق وتوجهنا جنوبا ولكننا كنا ندخل دوما فى الجبال، ومن على هضبة دخلنا خرم عفريش حوالى الساعة السابعة ثم وادى عفريش عند الثامنة حيث جهز مضرب الخيام للمبيت وقد بات على مقربة من موضعنا قافلتان قادمتان من فزان تحملان التمر . ان ـ تناول التمر الطازج الذى يضر من لم يعتد عليه عادة، كان ذا أثر شاف علىَّ هذه المرة وكان بوسعى منذ هذا اليوم أن أستغنى عن تناول الافيون اذ استمريت فى تناول جرعة يومية من هذا العقار الخطير وهكذا توقفت آلامى .

لقد استرحنا بالقرب من قافلتى التمر حتى ظهر اليوم التالى ووصلنا حوالى الساعة الثالثة باتجاه شرقى وادى المغير وعبرنا حوالى لسادسة وادى الشراب الذى يأتى من الغرب ويجرى بخط مستقيم الى جبل نبة الجردق الذى نقترب منه ويبعد عنا الآن حوالى أربع ساعات غربا، وحوالى الساعة السابعة ضربنا خيامنا فى وادى الدلوم الذى يجرى نحو الغرب أيضا .

فى 17 أكتوبر انطلقنا مبكرا حوالى الخامسة صباحا وبعد ساعة مررنا بقبر المرابط سيدى بو العقل وكانت تحف بضريحه مئات الحبال، فكلمة عقل تعنى حبل وفى الليل كانت تربط مقادم الجمال وهذا أمر هام خلال السفر. ان سيدى بو[1] العقل يقدس على وجه الخصوص لدى الجمالين العرب ولكى

1 ـ ورد فى الأصل : سيدى بو العقول

يجوزوا على رضائه فأنهم يضحون ـ بالقطعة الهامة لديهم ، وبعد فترة قصيرة دخلنا وادى المساودة الذى يجرى من الشرق ولا تبعد عنه الجبال التى تحمل أسمه ، ويسير باتجاه وادى الحد ، وحوالى الساعة الثامنة كان الى الغرب من موضعنا جبل الحوفة وحوالى الساعة العاشرة وبنفس الاتجاه وجدنا جبل القصة وكلاهما يبعد عن الطريق مسافة 3 الى 4 ساعات .

وبعد بضعة ساعات غابت رؤية البروزات الجبلية عنا وعلى الرغم من أنها تقف لوحدها فأنها تبدو من الشرق مرتفعة ولما كانت الهضبة تتدرج نحو الجنوب فقد غابت عن ناظرينا وهذا هو السبب الذى جعل رحالين أوروبيين سابقين لا يرونها، اذ أن طريقهم كان يمر اما الى الشرق او الى الغرب من طريقى ويظهر جبل نبة الجردق من على مسافة 15 ميل المانى .

الوصول الى فزان تاريخ المنطقة ووصفها

تساوة ـ أربعة مشايخ عرب ـ عبد آبق ـ واحتا الزلاف وسبها ـ السرير ـ غدوة ـ الوصول الى مرزق ـ تاريخ فزان ـ معلومات جغرافية ـ الحرارة ـ المناخ ـ موطن النخيل ـ الحيوان ـ تجارة الرقيق ـ الادارة ـ هجناء ـ السكان ـ اللغة ـ الزى الشعبى ـ الغذاء ـ الطباع والعادات .

فى 18 اكتوبر وبعد مسيرة ست ساعات فوق صخور رملية متموجة، وصلنا هضبة وادى الشاطىء المزروعة وهى أول منطقة مأهولة فى فزان وضربنا خيامنا حوالى الحادية عشرة تحت أشجار النخيل بين بساتين الذرة فى بلدة مساوة أو كما يكتبها بارت تامزاوه .

وما أن نصبت خيامنا حتى أتانى أربعة من العرب وبعد السلام التقليدى قدموا أنفسهم على أنهم شيخ المقارحة وحطمان وأولاد حسن وزويلة ـ وهذه القبائل الاربعة تمتلك وادى زمزم ووادى البى ويأتون فى كل خريف الى هنا كى يقايضوا التمر مع الاهالى الا أنهم يملكون فى وادى الشاطى مجموعة من أشجار النخيل اشتروها منذ وقت بعيد، ولم يدفعوا حتى الآن رسوما عن نخيلهم[1] اذ أن سلاطين فزان لم تكن لديهم سلطة كبيرة على المقاطعات التى تفصلهم عنها صحارى شاسعة، وفى هذه السنة أرسل أفندى تركى بحيث

1ـ يروى دنهام أن المقارحة معفون من جميع الرسوم .

يجمع عن كل نخلة ثلاثين بارة ولم يستثن نخيلهم، وأن المشايخ الذين اعتبرونى بمثابة بك أتوا ليرفعوا أمامى شكواهم ضد الحكومة العثمانية وقالوا لى أننا ـ سنحضر اليك حسن أفندى مكتوفا كى يخجل أمامك، فأن السلطان لا يرضى أن ندفع نحن جنوده الضرائب لم ندفع الضرائب مطلقا وسألتهم فيما اذا كانت لديهم وثائق تثبت ـ ذلك فأجابوا ليس لدينا ما يثبت ذلك كتابيا الا أنه جرى العرف على ذلك، وقد بينت لهم أنه لا علاقة لى بالامر وأنه يجدر بهم أن يخضعوا للقانون ويدفعوا الضرائب مثل الآخرين وبخاصة أن الضريبة ليست ذات بال ومن المؤكد أن حسن أفندى سيبين للمتمردين وجهة النظر اذ ليس هناك من يعرف طريقة التفاهم مع العرب أكثر من الاتراك .

قضينا ليلة واحدة فى مساوة وسرنا بأتجاه براك التى تبعد عنا ساعتين، وبراك قاعدة الشاطىء وفيها مقر المدير، وأثناء الطريق لاحظت شخصا ينظر الى من حين الى آخر بحياء ويسير على مسافة الى جانب قافلتنا، وقلت لاحد المشاشية أن يسأله عن غرضه فاعترف بأنه مملوك آبق من سيده العربى، الذى ضربه وهرب منه وغرضه أن يصل مخيمنا ليلا بحيث يضع نفسه تحت حمايتى اعتقاداً منه أننى بك تركى. ان الرجل المسن لم يستطع التفاهم معنا الا بصعوبة، فقد أتى مؤخرا من باجرمى ولا يتكلم سوى بعض الكلمات العربية الا أنه رمى بنفسه على الاقدام وأخذ يتململ بطريقة تثير الشفقة بحيث أننى قبلته مؤقتا ولكى لا يكشف أمره قلت للقافلة أن تمر أمام براك دون توقف وحوالى الساعة الخامسة بعد الظهر ضربنا خيامنا على الكثبان الرملية التى تمتد بعرض ساعة ويبلغ طولها عدة درجات من الشرق نحو الغرب ويتراوح ارتفاعها النسبى بين 20 و 30 م .

وفى اليوم التالى وصلنا بعد مسيرة ساعتين بأتجاه جنوبى شرقى الى واحة الزلاف ـ غير المأهولة ويبلغ عرضها ساعتين وطولها 15 ساعة، ويقوم أهالى الشاطىء بقطف ثمار نخيلها المشاع ويطمرون ما يقطفونه فى الرمل ثم يأخذون منه على دفعات ما يحتاجون ـ اليه، ويسمح لكل عابر سبيل أن يقطف من هذا التمر ويأكل منه ما يشاء ولكن لا يسمح أن ـ يتزود منه بمؤنته، لقد وجدنا أن جميع الاشجار قد قطفت ماعدا نخلة واحدة ذات ثمار رائعة ولا أعلم لماذا تركت دون أن تمس تماما وبالطبع نهبناها بأكملها، ولما كانت الاشجار مهملة لا تجد من يقطع جريدها فقد كانت الاغصان متدلية

حتى الارض وهذا ما يمنحها منظرا خاصا من مناظر الاحراش، لقد لاحظت فى الواحة كثيرا من التلال التى تتكون من أرض طينية وهى شواهد، وحوالى الساعة الثانية بعد الظهر ونحن نسير بأتجاه جنوبى شرقى عبرنا ثانية أحد الكثبان الرملية ويبلغ ارتفاعه 20 مترا وفى جزء منه ينحدر انحدارا شديدا وكانت جمالنا قد أجهدت من صعود هذه الكثبان فضربنا خيامنا مقابل جبل بن عريف .

وبعد أن سرنا خلال اليوم التالى عبر جدار من النخيل لمدة خمس ساعات وصلنا الجديد قاعدة واحة سبها فأرسلت أمامى أحد المشاشية يحمل البيورلدى بحيث يبلغ عن وصولى وفى أثر ذلك وجدت استقبالا وديا، ان المدير وهو رجل غاية فى الاحسان عرض على أن يرافقنى حتى السودان، وقال لى ان حكومتى تعطينى راتبا شهريا قدره ـ خمسة محابيب فقط وبلغنى انك تعطى اتباعك مثل هذا المبلغ اضافة الى الطعام والكساء الا أننى وجدت أنه ليس من الانصاف أن اغافص الحكومة التركية على موظيفها ولذلك رفضت خدماته .

حتى العام 1866 كانت الواحة مديرية والآن يشكل الجزء الجنوبى مديرية سبها وأما الجزء الشمالى فهو مديرية عبانة وتتبع المديرية الاولى وقاعدتها الجديد بلدتا الحجارة والقرضة وأما المديرية الثانية وقاعدتها تمنهنت فتتبعها سمنو وزيغن، وفى بلدة الجديد التى تعتبر أكبر هذه القرى كان يسكن فى السابق ولد سليمان الا أنهم طردوا منها أثر ثورتهم ضد الاتراك وتشتتوا بين بوركو وكانم ووداى، وعلى وجه العموم فأن الواحة قليلة الكثافة السكانية وليس فيها فقراء بحيث يمكن قطف جميع أشجار النخيل التى بلغ عددها عدة ملايين .

وفى الجديد جاء الى خيمتى سيد المملوك الذى أخذته يرافقه المدير والقاضى وطلب منى تسليم المملوك الهارب، فسألت المدير : هل يسمح بالرق فى الدولة العثمانية أم أنه ألغى فأجاب لقد ألغى قانونيا، الا أن القانون لم يطبق مطلقا هنا فى فزان فأجبت اننى لا أسلم الرجل وهو حر مثلى ومثلك أيها المدير وينبغى أن تتولى حمايته وبالطبع لم يكن بوسعى أنا الغريب أن أفكر جديا برفض اعادة المملوك وأحرك بذلك خواطر الشعب ضدى، الا أننى حاولت أن افعل شيئا لصالحه، ولما أخفقت تصوراتى فى تحقيق أى تأثير على المالك ، فقد حاولت أن يقنعه بالعودة اليه بالحسنى فرضى بذلك ووعد أن

يؤمن للرجل الطاعن فى السن والذى لا أسنان له، زوجة من احداهن ممن يدعون فاطمة أو زبيدة، وعلى الفور رمى المملوك بنفسه على قدمى سيده واخذ يقبلها شاكرا خاضعا، الا أنه اشترط أمام المدير والقاضى أن يعفيه من العمل فترة شهر ، ان المحبة والاعفاء من العمل لمدة شهر أعادت الرجل المتقدم فى السن الى الرق عن طيبة خاطر ولا أعلم فيما اذا كانت الوعود قد تحققت .

ان المشاشية الذين أتيت معهم قد بلغوا هدف رحلتهم، فودعتهم وأستأجرت من المقارحة جمالا حتى مرزق، وفى صباح 22 من أكتوبر انطلقت مع قافلتى الجديدة .

وبعد ساعة من الجديد بلغنا طرف الغابة ودخلنا الآن هضبة رملية شاسعة وحوالى الواحدة بعد الظهر ظهرت أمامنا على مسافة ثلاثت ساعات قمم جبل الغائب الثلاثة ويوجد فى سفحه بئر وعبرنا عند الثانية ولنصف ممر الباب وضربنا خيامنا حوالى لرابعة والنصف فى ظلال أشجار الطلح .

وفى اليوم التالى عند السادسة والنصف انطبقنا فى اتجاه جنوبى (وأمامنا احدى أكثر القفار الصحراوية وحشة، أنها صحراء حصوية ذات حصى ملونة ولا يزيد حجم أكبرها عن البندق أنه السرير، ولا تجد العين المتعبة أية نقطة تستريح عليها أنها سجادة من الحجارة تلمع وتتوهج انها قطعة من الموزايك لا يحيط بها النظر، لا نبات، لا حيوان، لا شجرة لا شجيرة، وفجأة تظهر بحيرة أخذ الهواء يحرك أمواجها ويبدو أن الرياح الباردة تجمد مياهها ، انه السراب الذى يظهر انعكاسه وعندما أقتربنا عند الظهيرة حتى مسافة ساعة من الجبال تبين لنا أن هذه الجبال التى اعتقدنا أنها عالية لا تعلو عن السهل أكثر من 30 قدما وتسمى كف معلا .

والى يمين الطريق تقوم تلة، انه بئر المكنى على كومة رمل تعلو ثلاثة الى أربعة أقدام وحوالى الساعة الرابعة بعد الظهر ظهرت على الافق الجنوبى الشرقى واحة نشوى وحوالى الخامسة بلغنا الغابة وحوالى الساعة السادسة توقفنا أمام غدوة مركز الواحة ان بعض الاشخاص من سبها ممن سبقونا كى يبلغوا مرزق بقدومى ويحضروا الاحتفال بدخولى المدينة، أبلغوا أهالى غدوة بذلك، فأخذونى الى منزل اعده المدير وغدوة تمثل أيضا مركز مديرية ـ لا يوجد الكثير مما يقال عن البلدة نفسها انها بقعة صغيرة فقيرة يسكنها فزانيون أصليون تعيش على زراعة النخيل والبساتين .

كنت قد أبلغت القائمقام حليم بك بقدومى منذ أن كنت فى الجديد واستلمت منه هنا فى غدوة رسالة يطلب منى أن أبلغه اليوم والساعة التى أصل فيها كى يجهز استقبالا لائقا، الا أننى ما كنت أعبا باستقبال رسمى فقد عانت بذلتى من السفر ـ الذى استغرق ثلاثين يوما عبر الصحراء وهكذا لن أكون الشخص اللامع ومن ناحية أخرى ان من يستقبل رسميا سيتعرض الى مصاريف هامة اذ عليه أن يذكر كل من شارك فى الاحتفال بشىء من البخشيش ولذلك كتبت الى حليم بكْ أننى أشكره على الشرف الذى ـ يريد أن يخصنى به الا أننى أعتقد أنه من مصلحة رحلتى أن لا أثير الانتباه الا بأقل قدر ممكن وكى لا تتخذ أية استعدادات للاستقبال أبلغته أنه ليس بوسعى أن أحدد بدقة موعد قدومى .

وفى صباح 25 اكتوبر الساعة السادسة غادرنا غدوة وكنا نسير حتى الساعة الواحدة الى يميننا وادى نشوى ثم يتعرج الوادى نحو الغرب فى حين أننا حافظنا على زاوية 195 وحوالى الساعة التاسعة صباحا كنا على نفس مستوى بئر نشوى ومن هنا أصبحت المنطقة قفراء رتيبة كما كانت قبل غدوة وأول تغيير فى المنظر وجدناه فى كومة حجارة كبيرة على الطريق عند الساعة الرابعة بعد الظهر أنه علام الفارس وتلته عند الخامسة والنصف كومة أنه «علام الشنطاط» أى الجندى وساعى البريد وهذا يعنى أن رجال البريد يسلكون هذا الطريق لانه الاقرب وبعد فترة قصيرة ضربنا خيامنا فى السرير .

وفى اليوم التالى تابعنا سيرنا ووصلنا بعد ثلاث ساعات الى الحطبة ، وهى واحة صغيرة غير مأهولة على مقربة من مرزق وتوقفنا هنا حتى بعد الظهر بحيث ندخل العاصمة بعد غروب الشمس وكانت هذه رغبتى .

ولما كان بيت القنصلية الانجليزية السابق قد أجر الى خازندار القائمقامية فقد أمر حليم بك بتنظيف بيت آخر يعتبر من أفضل بيوت البلدة يخص تاجرا غنيا من سوكنة ، وأمر بتجهيزه وما إن أعلمه حارس البرج بقدومى حتى أرسل صهره آمر الشرطة حامد آغا لاستقبالى وبعد فترة قصيرة أحضرت مجموعة من الخدم والرقيق يحرسهم قواص ضيافة ممتازة ، وإن حامد آغا الذى دعوته لتناول الطعام معى أبلغنى أن القائمقام سيقوم بضيافتى خلال الايام الثلاثة القادمة على نفس الوجه .

قبل أن أتابع حديثى عن رحلتى وما لقيته خلالها أورد هنا ملخصا لتاريخ فزان خلال ـ القرنين الاخيرين وأعتمد فى ذلك بوجه رئيسى على مخطوطة عربية[1] حصلت عليها عن طريق الصدفة .

فى سنة 1067هـ توفى السلطان محمد بن جهيم وفاة طبيعية بعد أن حكم منذ ـ 1037هـ وخلفه ابنه جهيم الا أن أخاه محمد نجيب قتله يوم ارتقائه العرش وتولى الحكم . وخلال فترة حكمه (محمد نجيب) زحف جيش من طرابلس بقيادة مراد بك وجرت معركة 1083هـ قرب دليم لم يحسم فيها الامر لصالح اى من الطرفين الا أن محمد نجيب لقى حتفه خلالها فخلفه فى الحكم أخوه الابن الثالث لمحمد بن جهيم وهو محمد الناصر بن جهيم ، أما الجيش الطرابلسى بقيادة مراد بك ، ولو أنه لم ينتصر فى معركة الدليم الا أنه لم ينهزم وبسرعة جرى تعزيزه بجيش آخر بقيادة مكنى الاول ، وتمكن الجيشان وقد انضما الى بعضهما من احتلال مرزق ، وأسر مراد بك محمد الناصر وأخذه الى طرابلس وبقى المكنى فى مرزق ليتولى حكمها الا أن أهالى الوادى حافظوا على ولائهم للسلطان القديم فأعلنوا الثورة وحاصروا مرزق واجتاحوها وقتلوا المكنى الذى وقع فى أيديهم ونظرا لعدم وجود ذكر من سلالة آل محمد فى البلاد حينئذ فقد تولت الحكم فاطمة بنت محمد بن جهيم الا أنه بعد شهر عاد خالها تمام وتولى الحكم منها ولم يتمكن لوحده من أن يسيطر على الحكم أكثر من اربعة أشهر فقد أزاحه عن دفة الحكم ابن اخيه محمد الذى استطاع ان يجمع لنفسه أنصارا فى الوادى وأن يجتاح مرزق ليلاويقصيه عن العرش ولم يستمر محمد هذا فى الحكم اكثر من سبعة أشهر ، اذ أن محمد الناصر تمكن أن يفر من الأسر فى طرابلس وأن يصل فى شهر رمضان 1110 هـ الى حدود بلاده فلاقاه سكانها بحفاوة وجمع منهم جيشا دخل به مرزق منتصرا الا أن محلة من طرابلس كانت تتبع أثر محمد الناصر ووجد نفسه مضطرا بعد مضى شهر من حكمه أن يترك عاصمته ويهرب الى أغادس ، وقد تقاسم فزان قائد الجيش الطرابلسى مكنى الثانى وخليل بك . فقد حصل خليل بك على القسم الغربى من فزان مع مرزق بينما حصل مكنى على المقاطعات الشرقية واتخذ تراغن عاصمة لها ، وثار ضد مكنى سكان المنطقة الشرقية وحاصروه فى تراغن ـ واستطاع أن يصد الثائرين ولكنه وهو

---

1 ـ يقصد بذلك مخطوطة تاريخ فزان خلال فترة حكم أولاد محمد قام بجمعها مصطفى خوجه (انظر مصطفى خوجه ، تاريخ فزان ، تحقيق حبيب وداعة الحسناوى . طرابلس . مركز جهاد الليبيين 1979 .

يتتبعهم فى الوادى ويقوم بنهب منطقة الوادى ـ اصطدم عند جرمة بواحد من سلالة أولاد محمد أسمه محمد قائد فانتصر محمد هذا على مكنى ولاحقه حتى مرزق وحاصرها شهرا كاملا ولما وجد أن المدينة محصنة بشكل لايتمكن فى أثره من اجتياحها بسرعة فقد دخل بمفاوضات مع مكنى وتوصلا الى عقد صلح تمكن بموجبه أن يحصل محمد قائد على القسم الشرقى وعاصمته تراغن ومكنى على القسم الغربى مع مرزق (وأما ماجرى لخليل بك فهذا ما لايذكره التاريخ ويعتقد أنه كان قد عاد الى طرابلس) وبعدئذ استدعى مكنى اخاه يوسف مكنى من طرابلس لمساعدته ووصل مع جيش وتوحد الجيشان الا أن محمد القائد هزم الجيشين تحت أسوار تراغن على الرغم من تفوقهما بعد معركة استمرت ثلاثة أيام وهرب يوسف مكنى الى طرابلس بينما تربص مكنى فى سبها ووضع تحت سيطرته هذه المنطقة والشاطىء والاجزاء الشمالية من فزان ـ وهكذا اصبحت الان فزان مقسمة الى ثلاثة أقسام المناطق الجنوبية الغربية ومرزق بقيت مبدئيا من غير ، حاكم بينما يسيطر محمد القائد على المناطق الشرقية وتراغن ويسيطر مكنى على الاجزاء الشمالية من الدولة وعندها كانت تتطلع البلاد التى أجهدتها الحروب ـ السرمدية الى حكومة أقوى وأثبت من حكومة أولاد محمد الضعيفة الذين وقعوا ببعضهم ـ البعض بالعداوة الدائمة والنزاع والقتل وأرسل وفد الى الباشا فى طرابلس طلب منه أن ـ يرسل جيشا الى فزان وأن يؤسس فيها حكماً قويا الا أن قرار الباشا كان مخيبا للآمال وربما قام على نصيحة المكنى الذى حاول أن يبعد السيطرة العليا لطرابلس كى يتمكن من استغلال البلاد لوحده وزعم أنه من غير المجدى بذل الجهد من أجل البقاء فى فزان وعاد الى طرابلس بعد أن أمن ارسال أخيه يوسف حاكما على مرزق .

وفى إثر ذلك عرض محمد القائد على يوسف مكنى أن يتحالفا سوية ضد أى هجوم يأتى من طرابلس فوافق هذا على العرض ونزل لمدة شهرين ضيفا على محمد القائد فى تراغن وبدت البلاد وكأنها أخذت تنعم أخيرا بالسلم والهدوء وفجأة ظهر محمد الناصر على رأس ـ جيش من الطوارق قادما من اغاديس ونصب خيام جيشه قرب معافن وطلب من هناك من تامر بن حمزة كبير مرابطى تراغن أن يتوسط بينه وبين محمد القائد الا أن هذا الاخير لم يشأ أن يعرف شيئا عن التوسط ونازل المطالب بالعرش وعند المساء أتى بعض الطوارق ـ من المعسكر المعادى الى محمد القائد وقالوا له تعال معنا الى خالك

وقبل رأسه واعقد الصلح معه ولن يعرف بذلك لارجالك ولاجيشنا ، فلتأتى معنا الى خيمة خالك . وقد اقتنع وذهب معهم وما إن دخل خيمة خاله حتى قيدوه وضربوه وأرسل أسيرا الى مرزق (هنا ايضا لاتذكر المخطوطة أين بقى يوسف المكنى حاكم مرزق) ومن هناك ابعد الى السودان ـ

وفى إثر ذلك سيطر محمد الناصر على بلاد فزان بكاملها توفى فى 24 جمادى الاول سنة 1122هـ تاركا العرش لابنه أحمد .

وخلال حكم احمد أرسل حامد باشا جيشا من طرابلس وصل حتى مرزق الا أنه ـــ انسحب بغد ثمانية أيام من محاصرتها وبعد تسعة أشهر قدم جيش آخر بقيادة حسن الصغير الى مرزق واضطر ان ينسحب ايضا بعد محاصرتها ثمانية عشر يوما وبعدئذ وقع حامد باشا والسلطان احمد هدنة لمدة خمس وأربعين عاما[1] وبعد مضى هذه الفترة أرسل حامد باشا مرات الجيش ضد فزان بقيادة ابنه محمد بك وقائد جيشه ابن درفو الذى كان ـ سابقا مخازنيا لدى سلطان فزان وبعد هروبه من هناك دخل فى خدمة باشا طرابلس وتوصل الى هذا المنصب وقد تقدم الجيش حتى مرزق واحاطوا بها من كل الجهات ومنعوا عنها وصول اى نوع من المواد واستمر الحصار ستة أشهر وزاد الجوع فى المدينة ازديادا بالغا حتى قرر السلطان احمد فى إثر معاناة السكان الدخول فى مفاوضات العدو وعرض ان ـ يذهب الى طرابلس فى حالة تأمينه على حياته وأن ينسحب الجيش المحاصر ووافق محمد بك على العرض وترك السلطان احمد الحكم لابنه خلال غيابه وقد استقبل السلطان احمد بكل ـ حفاوة وطبقا لمكانته من قبل محمد بك وأرسل مع الجيش بسلام الى طرابلس حيث استقبله حامد بك بكل حفاوة واكره وأرسل الباشا بشكل سرى قائد جيشه حامد البيرى الى فزان وأمره بتخريب أسوار مرزق وعندما وصل الخبر الى طرابلس ان المهمة قد تمت بحذافيرها اطلق الباشا سراح ضيفه وزوده بالهدايا الثمينة .

وبعد غياب تسعة أشهر عاد السلطان احمد الى فزان وكما يبدو فان وضعه أصبح منذ ذلك الوقت تابعا لطرابلس وهذا مانلاحظه من السكوت على تخريب أسوار مرزق وعدم اقدامه على اية خطوات ضد حامد باشا وعلى العكس من ذلك يرد فى التاريخ وبعد حين من وصول السلطان احمد الى

1- ربما الصحيح هو 45 يوما والا لايستقيم المعنى

مرزق قرر الحج الى بيت الله الحرام على الرغم من أنه كان شبه اعمى فأخبر باشا طرابلس بنيته فرحب بالقرار ترحيبا بالغا وأرسل اليه هدايا قيمة من أجل الرحلة منها خيمة كبيرة وحمل جمل من حدوات الخيل الحديدية ، وعندما وصلت الخيمة الى مرزق أقيمت حفلة استمرت ثلاثة أيام بلياليها والناس يرقصون ويلعبون حولها ، وبدأ ـ السلطان الاعمى رحلة الحج ووصل الى مكة بسلام وبعد أن طاف بالحرم الابراهيمى وحيث أعتاد سيدنا ابراهيم أن يضحى وزار قبر الرسول عليه السلام عاد عن طريق القاهرة وهناك تعرف على طبيب من المغرب استطاع ان يعيد النور الى عينيه[1] الا أنه لم يتمتع طويلا ببصره وعندما تابع طريق العودة وبعد أن شاهد حدود بلاده توفى فى سنة 1181 ـ فى أوجله ودفن هناك وكانت الوفاة أثر تقدمه فى السن .

وقد خلفه ابنه الطاهر وحكم سبع سنوات (ولم يذكر فيما اذا كان قد توفى أوقتل ـ وبعده اعتلى العرش فى سنة 1188 أبنه احمد بن محمد المنصور وحكم 16 عاما واستمر فى الحكم حتى وفاته فى 1204 وخلفه محمد الحاكم (وهو جد محمد البصيكرى الذى أدين له بهذه الوثيقة[2] الذى ترك الحكم طوعيا فى 1219 بعد خمسة عشر عاما من الحكم وتنازل بسبب المرض لصالح أخيه محمد المتزر ومع محمد المتزر أنتهى حكم أولاد محمد فقد أتى من طرابلس قائد يوسف باشا المكنى الثالث مع جيشه الى فزان بسرعة مدهشة أستغرق سبعة عشرُ يوما فقط (يحتاج البريد عن طريق بنى وليد وسوكنه الى فزان 22 يوما) وتغلب على ـ السلطان وقتله بعد أن تحالف مع ابن أخيه كما أعتقل ابن أخ السلطان بعد سبعة أيام من الحكم الشكلى وقتله بعد أن اعتقله لسبعة أيام وأعلن المكنى نفسه سلطانا على فزان .

وحكم المكنى سنة كاملة دون أزعاجات (ان المخطوطة لاتتعرض الى العنف والاعمال ـ البشعة التى ارتكبها هذا الرجل والتى يرويها معاصروه برعب) وبعدها هجم أولاد ـــ سليمان من مصر وحاصروا مرزق فأرسل يوسف باشا الذى علم فى وقت مناسب بهذا الهجوم جيشاً لمساعدة المكنى وعندما وصل الى غدوة انسحبوا (أولاد سليمان) الى الشاطىء وتتبع المكنى

1ـ = فى أطلس دوتس يذكر أنه فى رأس وادى درعة تعيش أسرة من الشرفاء تمارس قدح ـــ الساد وتتوارث هذه المهنة أبا عن جد .

2ـ يقصد مخطوط تاريخ سلطنة فزان الذى يعتمد عليه فى هذه المعلومات .

أثرهم وفاجأهم وهزمهم وتسبب فى حمام دم كبير وهرب من تبقى منهم الى خلف اسوار تمساوة ، وانضم جيش المكنى الى التعزيزات عند قبور الشيوخ وسط الكثبان الرملية على مقربة من ادرى وسار نحو تمساوة ، وبعد حصار أربعين يوما هدم أسوار تمساوة .

وقتل سكانها ولم يوفر الشيوخ والنساء والحوامل والاطفال ، وهنا تنتهى المخطوطة التى أخذت منها تاريخ فزان خلال المائتى عام الاخيرة وعدا عن هذا التاريخ يوجد حسب معرفتى تاريخ آخر فى مرزق وهو بحوزة الفقيه الحاج ابراهيم يتتبع الحوادث حتى تأسيس سلطنة فزان[1] .

ان بقية تاريخ المكنى معروف اذ زار فزان فى ظل حكمه كل من ليون (Lyon)[2] وريتشيه (Ritchie) وان تاريخ عبد الجليل معروف ايضا ولم تستمر اعمال البطش والقتل فى ظل السلطان عبد الجليل فحسب بل ايضا فى ظل الباشوات الاتراك الاوائل حيث كانت على البرنامج اليومى ، واذا ماقام عبد الجليل بتعليق رؤوس مقطوعة على ابواب مرزق الثلاثة وكان يأمر يوميا بقتل ثلاثة او اربعة اشخاص وسطيا فقد قتل باكير بك وحسن باشا فى السر اكثر من العلن فقد كان يخنق الاشخاص او يطعنون فى بيتوتهم ويشاع بأنهم قد هربوا وان مصطفى باشا الذى كان قائمقام مرزق عندما زار بويرمان المدينة نفذ بنفسه الاعدام فى خمسة مساجين من بينهم مرابطان من القطرون كما ضرب بذاته احد المنفيين من الشركس بعصى من النخيل ولا تفصلنا عن هذه الفترة سوى بضع سنوات ، وبالطبع طالما كان القناصل الانجليز مستقرين فى مرزق لم يحصل مثل هذا النوع من اعمال البطش اذ ان جميع من تلاحقهم الدولة كانوا يجدون ملجأ فى مبنى القنصلية ولم يخرجوا منها اذا كانوا ابرياء . حتى يصل العفو عنهم ، ان الفزانيين راضون على القائمقام الحالى ، فقد قالوا « اننا نعيش ثنية واننا نعلم ان القناصل ليسوا بعيدين عنا (فى طرابلس) واذا ماكان الاتراك يحكموننا الان دون سفك دماء فأنما يعود الفضل فى ذلك الى النصارى »

---

(1) مازال هذا التاريخ مفقوداً ولم نقع على اية اشارة اليه .

(2) صدرت تقاريره فى كتاب
G . F . Lyon . Anarrative travels in Northern Africa . London 1821 .

ان فزان تعنى جزءا من الصحراء كانت تسيطر عليه سلطنة فزان فى السابق ويتبع حاليا باشوية طرابلس وانها تشكل جغرافيا وحدة ذات حدود طبيعية تحيط بها الحمادة وجبال السوداء من الشمال وجبال الازقر من الغرب وهذه تجمع مناطق التبو والتيدا مع مناطق الطوارق وتشكل مع بعضها حوضا

يحيط به من الشمال العرب والبربر ومن الغرب الطوارق وفى جنوبه وجنوبه الشرقى شعوب التيدا . ومن المؤكد ان هذا السهل المرتفع كان فى الازمنة القديمة مغمورا بمياه البحر فمن ناحية يدل على ذلك العمق القليل الذى يعثر فيه على الماء وانتشار الكثبان الرملية فى اطرافه الشمالية والجنوبية وثالثا السرير مع مموزاييكه حيث يسود الحصى المدور .

ان مساحة فزان اذا ماستثنينا بونجيم وسوكنة اللتين كانتا تتبعان فى السابق سلطنة فزان وتتبع الان القائمقامية تبلغ مساحة المانيا وان القسم الاعظم من هذه المساحة يتكون من حمادة وسرير وكثبان رملية وسبخات وجبال صخرية عارية ، ان سطح الارض مستو الى حد ما والوديان التى تسير فى شتى الاتجاهات اكثر انخفاضا من السرير وتتمثل هذه فى مستوى واحد تقريبا من المساحات الرملية التى تحتضن جزرا خضراء غير مأهولة فى الغالب . ان الارتفاع الوسطى للحمادة فى فزان يبلغ حوالى 500 م والقليل منها يرتفع حتى 600 م ولا يزيد انخفاض الحفارات عن الهضبة اكثر من 50 مترا ويبدو لى من الخطأ ان يطلق عليها اسم وادى والاصح ان تسمى حفرة ولا نجد هذا الاسم سوى مرة واحدة عندما يطلق على منطقة بعينها ، وفى فزان توجد ثلاث حفر هى :

اولا : وادى الشاطىء فى الشمال وهو مأهول بعرض يتراوح بين بين نصف ميل وميل ويمتد حوالى 30 ميل المانى من الغرب نحو الشرق

ثانياً : الوادى الغربى والشرقى وهو ينفصل عنه بكثبان رملية وهذان الوديان يشكلان سوية حفرة عرضها ميل واحد وطولها من الغرب الى الشرق 80 ميلا المانيا

ثالثا : الحفرة وهى تقع الى الجنوب الشرقى من المنطقة الثانية ويسمى استمرارها فى الشرق الحفرة الشرقية وهى ايضا بعرض ميل واحد وطولها من الغرب نحو الشرق بحدود 40 ميلا . ويضاف الى هذه الحفرات الرئيسية حفرات اخرى كثيرة مفردة اصغر منها مثل وادى نشوى الى الشمال الشرقى

من مرزق وطوله حوالى 20 ميلا المانيا وفى الشرق وادى واو وقد زاره بويرمان وآخرون .

فى جميع هذه الحفرات نجد المياه تحت الارض ان ماء بعض العيون والابار عذب تماما وفى بعض الآبار مالح او كلسى وفى الغالب يحصل المرء على الماء اذا مانبش الارض ولكن فى الغالب ايضا يجب ان تحفر آبار عميقة ، وفى الحمادة عرض على دوفيريه بئر يبلغ عمقه 45 مترا ، وفى وادى الرصين وجدت ان عمق بئر عمرم يبلغ 18 مترا وتندر العيون التى تتدفق مياهها بقوة واقواها هى عين تراغن وتدعى عين قندرية .

والى الشمال من الوادى الشرقى وفى وسط الكثبان الرملية التى ترتفع حوالى 500 قدم حسب رأى فوغل - توجد عشر بحيرات مالحة وعلى الاغلب يحتوى ماؤها على النطرون وينبع من قاع البحيرات ، وهى جميعا محفوفة بأشجار النخيل وفى الغالب توجد الى جانبها مباشرة بئر او عين ذات ماء عذب ، ويعيش على ضفافها سكان مستقرون ، ويذكر دوفيريه اسماءها على الوجه التالى : المندرة - ام الماء - تاصورفه - معفو- بحر الدود او قبرعون - بحر الطرونية - ام الحسن - نخنوخا - فردغة - تادمكة ، واهم بحيرة بينهما هى تلك ذات الشكل الدائرى التى يبلغ قطرها حوالى 300 م واعمق نقطة فيها حسب رأى فوغل 24 قدما وتدعى بحر الدود او قبرعون وتدعى بحر الدود بسبب الدود الذى يعيش فيها وقد دعاه بيرد (Dr . baird) من المتحف البريطانى ارتيميا اودنى (Artemia Dudnei) ويأكله الفزانيون ويقال ان طعمه مشابه للكافيار . وحسب فوغل يبلغ طول هذه الحشرة 12/37 خطوط باريسية وعرضها تحت الرأس 12/13 وذات لون احمر لماع ولها فى كل جانب 11 او 12 قدماً ، وان نسبة الملح فى الماء شديدة الى درجة انه يشبه فى شكله الشارب وعلى مسافة 2 ـ 3 امتار من الضفة تجرى عين ذات ماء عذب .

ان متوسط الحرارة فى فزان يجب ان يكون 22 د الا انها تصعد فى الصيف الى درجات اعلى بكثير وتهبط فى الشتاء هبوطا شديدا ، واعلى درجة سجلها دوفيريه فى الصيف كانت 44 د فى الظل وسجل ليون خلال شهور الصيف درجة وسطية قدرها 26 فى مرزق وفى شهور الشتاء من ديسمبر حتى نهاية فبراير تكون برودة الجو فى الغالب واضحة وذلك نتيجة للموقع المرتفع والاشعاع الارضى الذى لاتحول دون وصوله الى الارض اية طبقة من الغيوم

وليس هناك اى شك انه قد شوهد ثلج فى فزان ، ويكتب بيترمان فى مجلة اخبار بيترمان (petermanns MitheiLungen) عدد 1855 م اما مايخص درجات الحرارة فقد انخفض ميزان الحرارة فى مرزق خلال ديسمبر والنصف الاول من يناير عند شروق الشمس حتى 42 فهرنهايت . وفى المواضع المعرضة للريح تتجمد الماء ليلاً وفى سوكنة لم اجد اى شخص يتذكر انه شاهد الثلج وعلى العكس من ذلك يذكر بارت فى نفس العدد من المجلة « لقد وصلتنا اخبار من فزان ان الثلج فى سوكنة كان فى مطلع يناير على درجة من الشدة الى ان الناس كانوا يخشون انهيار بيوتهم وفى مرزق شاهد الناس صقيعا فوق سطح الماء بسمك اصبع واحدة وان اخفض درجة حرارة شهدناها كانت 30 قبل شروق الشمس ومما يثير الانتباه ان الحرارة تنخفض الى هذه الدرجة فى قلب الصحراء وعلى بعد درجتين شمالى مدار الجدى ، ويقول هورنمان ايضا فى الشتاء تسود رياح شمالية قاسية لم تكن باردة بالنسبة للاهالى بل بالنسبة لنا نحن سكان الأجزاء الشمالية ، ولدى دوفيريه نجد مجموعة من الملاحظات حيث تهبط درجات الحرارة ويتجمد الماء ، وانه لعلى حق عندما يشير الى الآثار التى تسببها فروق الحرارة والتى لاتقتصر على عالم النبات والحيوان بل وعلى الصخور . لقد وجدت شخصيا فى 20 ديسمبر 1865 ان الحرارة قد انخفضت قبل شروق الشمس حتى - 4 د وفى 30 يناير 1866 كانت -5 وخلال 24 يوما من شهرى ديسمبر ويناير انخفض ميزان الحرارة الى الصفر او تحت الصفر وكان هذا فى وسط المدينة حيث حماية البيوت والاسوار .

وعلى وجه العموم ان المناخ هنا مثله مثل المناخ الصحراوى منتظم جدا واذا ما غضضنا النظر عن مناطق مثل مرزق التى تقع قرب مستنقع ، فالمناخ صحى فى حالة التعود على جفاف الهواء وعلى ارتفاع درجات الحرارة . ونتيجة لجفاف الهواء يمكن تحمل حرارة الصيف هنا على وجه ايسر مما هو الحال على الشاطىء حيث تحول الرطوبة دون بخر الجلد اى دون التبرد .

على الرغم من ان فزان لاتقع ضمن حيز الامطار المدارية الا ان هذه تصل الى هنا تحملها الرياح الجنوبية وفى زمن حسن باشا ومصطفى باشا سقطت امطار عاصفة واستمرت بحيث ان معظم بيوت مرزق المشيدة من طين ملحى قد انهارت ، ان سكان فزان لايرغبون بالمطر مثلهم مثل اهالى توات وتافيلت ودرعة فهم يصّلون بحيث لاتسقط الامطار ، انهم لايحتاجون

مياه الامطار فى السقاية اذ ان الماء موجود على عمق بسيط من سطح الارض ولذلك فإن اشجار النخيل تنمو دون سقاية ، فجذوعها تصل الى طبقة الماء وطريقة السقاية الاصطناعية غير معروفة مثل الفجارة التى سأصفها فيما بعد وتستخدم طريقة سحب الماء المعروفة فى عموم افريقيا .

واما الحبوب فتقطف هنا خمس مرات وسطيا فى السنة . ويزرع القمح والشعير خلال اشهر الشتاء وفى الربيع والصيف والخريف تزرع الذرة البيضاء وانواع الذرة وعلى وجه التحديد القصب والقافولى . ويزرع القصب فى مارس وهو يعطى اربعة مواسم يكون آخرها فى ديسمبر ولا ينضج تماما فى اثر البرودة وبالطبع تشكل عيدانه وثمره علفا ممتازا للحيوانات ، ان جميع انواع الخضار وحتى الاوربية منها يمكن ان تنمو فى ظل هذا المناخ ومن المؤسف انه لاتزرع هنا سوى الخضار المعروفة فى المنطقة فمثلا فى الصيف يزرع البطيخ والخيار وفى الخريف اللفت والجزر وفى الشتاء الفاصوليا وفى الربيع الملوخية ، وبعض الخضار الاخرى وطالما كان يقيم فى مرزق وكلاء القناصل كانت تزرع البطاطا والبازيليا والقرنبيض الخ . . وكانت تقدم دخلا مناسبا ، ومن النباتات الاقتصادية الاخرى يزرع القطن والتبغ ، وان التبغ الذى يزرع من فصيلة سيئة ولا يعرف الفزانيون طريقة تصنيعه وعلى العكس من ذلك فأن شجرة القطن تعيش سبع سنوات وتعطى قطنا كثيرا ولو ان ملمسه غير ناعم وجمته ليست طويلة ، وقد تنمو هنا ايضا كثير من اشجار الفواكه التى تنتشر فى المناطق المعتدلة والحارة لقد شاهدت زيتونا من وادى الشاطىء وهو لايقل فى الحجم او الجودة عن زيتون غريان والزنتان وحتى الآن يقتصر على زراعة التين واللوز .

وتشكل شجرة النخيل ثروة البلاد مثلها مثل المناطق الصحراوية الاخرى ويبدو ان فزان تمثل حدود انتشار هذه الشجرة ، واذا ماكانت قد ادخلت فى الواحات الواقعة غربا مقل غدامس ودرج وتوات ووادى الصاورة وتافيلت ودرعة الخ . . فأنه من المؤكد الاعتقاد ان مجموعات صغيرة نشأت صدفة حيث تنبت نوى التمر بسرعة فائقة فى الارض المناسبة ونحن لانجد فى الواحات الغربية غابات من النخيل على درجة من الاتساع والكثافة مثل تلك الموجودة حول غدوة التى تشبه الى حد بعيد الغابة العذراء ويعتبر الفزانيون منطقة تراغن بمثابة الوطن الام لشجرة النخيل اذ توجد هناك اغلب الانواع وافضلها ، وربما كان موطنها الى الشرق قليلا ، وفى فزان يزعم المرء انه يوجد

ثلاثمائة نوع من التمر وفى مرزق وحدها يوجد ثلاثون نوعا من افضلها
التليسى والتواتى واورغ ، وعلاوة على ذلك سمعت ايضا ان البلبيل والتغيات
والنفوسى ، واللدوى والاشقير والتنشكيل والقرباوى ، والتقداف والخضار ،
والرغيل ، والعدوى ، والماصرى والصلاولو والبورنى والقرطاوى ،
والفرتكاو ، والاصابة ، والتاسويت ، والحمار كل هذه تعتبر انواعا جيدة .
واما الحيوانات الاليفة فهى الجمل ، والدجاج والحمار ، واما الحيوانات
الاخرى فهى قليلة مثل الحصان لايوجد فى عموم فزان اكثر من خمسين جوادا
والبقر والغنم والماعز كل هذه الحيوانات تتضاءل هنا ولا تتأقلم ولذلك
تستورد من خارج المنطقة واما الحيوانات الثدية البرية فهى معدومة الوجود فى
فزان تقريبا ولا نجد مثلا ضباعا او ثعالب فى فزان وعلى الرغم من ان بعض
الرحالين يذكرون انهم لم يستطيعوا النوم بسبب عواء مثل هذه الحيوانات ،
وفى الواحات المهجورة او فروع الوديان قد توجد غزلان ولم اجد فى السوق
غزلانا تعرض للبيع ومن الطيور رأيت الدورى والسنونو والغراب وبعض
نسور الاسوار والرخم ، وفى الصيف تكثر طيور الحمام البرى والبط وترحل
مع مطلع الشتاء نحو الجنوب كى تفتش عن مناخ دافىء . وأما الحشرات
والديدان والافاعى فهى مثل تلك الموجودة فى الواحات الشمالية .
ان تجارة فزان غير مهمة ـ اذا ماحذفنا منها تجارة الرقيق ـ ولم تكن ذات
اهمية فى اى وقت من الاوقات . ان المنطقة ليست سوى محطة عبور البضائع
من الشمال من طرابلس

ومصر الى الجنوب الى برنو والبلدان السمراء المتاخمة لها كما أنها نقطة عبور
للمنتجات القادمة من وسط افريقيا وعلى العكس من ذلك فقد زادت تجارة
الرقيق ولم تقل ومن هنا يباع الرقيق نحو تونس وطرابلس ذاتها ويؤخذ اغلب
الرقيق الى السوق فى مصر وكما ذكرت فى اغلب الاحيان فان الدوائر التركية
تشجع تجارة الرقيق عوضا عن منعها حيث تجد أنها لا تخضع لرقابة القناصل
الاوربيين ومن المؤسف أن قوى نصرانية مثل فرنسا وانجلترا التى سعت فى
البداية لالغاء الرق تتخذ على ما يظهر موقفا غير حازم فى هذا المجال تجاه
تركيا ، لقد سمعت بذاتى من القائمقام أن رجلا وحيدا فى مرزق هو الحاج
عامرى قد صدَّر فى العام 1864 ـ 1865 ما يزيد عن 1100 من الرقيق
ولديه حاليا فى بيته مالايقل عن خمسين من الرقيق فى البداية قدم لى الحاج

عامرى على أنه وكيل انجليزى وعندما وجدت فى التقويم الانجليزى
(Royal Almanac) أنه لم يعد لانجلترا ممثل فى فزان فقد زعم أنه
وكيل القنصل الانجليزى السابق قاقليوفى (Gagliuffi) واذا ما صحت
رواية الرجل فأن السيد قاقليوفى لم يكن سوى رفيق له فى تحقيق أعمال مجدية
بالاتجار بالانسان .

ان منطقة فزان كانت تتشكل فى السابق من اثنى عشر مديرية هى ،
بونجيم ـ سوكنه الشاطى ـ تمنهنت ـ سبها ـ الوادى الشرقى ـ الوادى الغربى ـ
الحفرة ـ الشرقية ـ زلة ـ غدوة ـ القطرون ان هذه المديريات مازالت قائمة
بأسمائها الا ان الدولة لا تدفع راتبا الا لسبعة منهم ويبلغ راتب كل منهم
حسبما روى لى 500 قرش ـ 20 تالر (بوطير) بيد أنه شرع الان فى رفع
رواتب المدراء الاثنى عشر وفى تحديد نواحيهم بدقة أن اهم المدن فيما عدا
مرزق التى سنتكلم عنها فى فصل لاحق هى تراغن فى وادى الحفرة وزويلة
التى تقع الى الشرق وكانت العاصمة سابقا والقطرون مدينة المرابطين وتقع
جنوبى مرزق والجديد فى سبها وجرمة وأوبارى فى الوادى الغربى وبراك وادرى
فى وادى الشاطىء وسوكنه وبونجيم فى الشمال وتقعان على الطريق نحو
طرابلس ، وما من بلدة بينها يزيد عدد سكانها عن 1000 نسمة ويعين
القائمقام جميع المدراء ويقبلهم حسب تقديراته دون أن يحتاج فى ذلك الى
تلقى أوامر المشير فى طرابلس ومن المؤكد ان الحكومة هنا مطلقة الصلاحيات
مثلها مثل بقية المناطق الخاضعة للاتراك فارادة القائمقام والمدير تعتبر بمثابة
قانون ولو أنه من الناحية الشكلية ستورى اذ يوجد مجلس الى جانب القائمقام
والمدير وهذا المجلس يجب ان لا يقدم المشورة فقط بل يقرر ويصدر
التشريعات الا انه فى الحقيقة لا يستشار ، وعلى الرغم من الخصوبة الزائدة
للارض والمناخ المناسب الا ان الدولة العثمانية لا تعرف كيف تستفيد من
ذلك ، ان الدخل المباشر طبقا للمعلومات التى قدمها لى حامد بك وكاتب
المال تبلغ فى أفضل الاحوال 80000 قرش اى حوالى 200000 فرنك ولا
تدخل فى هذه البيانات المبالغ الهامة التى تستخلص من مبيعات تمر البكوية
(القائمقام) والتى لا تدخل فى الحسابات على ما يظهر ، ان عدد اشجار
النخيل التابعة للحكومة حول مرزق يبلغ مليون شجرة وفى بعض المناطق
الاخرى يزيد العدد عن ذلك .

ان الدخل المباشر يصرف فى رواتب الموظفين ومنهم القائمقام وفى دفع رواتب القوات ولا يتم ذلك بصورة منتظمة ولا يرسل الى طرابلس والاستانة شيء سوى هدايا من الارقاء والامات وما يعتبره القائمقام مناسبا للارسال معها وعلى العكس من ذلك فان لباس العساكر وتسليحهم وموادهم الغذائية ، يجب ان ترسل من طرابلس أو الاستانة الى فزان ولا يمكن القول أن السكان يعانون من الضرائب ، وفى اثر خمول السكان وجهلهم وقصور جميع منشآتهم لا يستطيعون أن يتحملوا حتى أقل الضرائب وعلى الاخص أن الحكومة لا تفعل أقل شيء من أجل رفع المستوى المعنوى والمادى لرعيتها وتخليص البلاد من الوضع المتدنى .

ان اهالى فزان هم بدون شك من تطلق عليهم المصادر القديمة أسم فزانى (Phazanii) وعاصمة بلادهم جرمة . وقد دعيت لدى الشعوب الافريقية لمدة طويلة بأسم زلة أو زويلة وفى مطلع القرن الحادى عشر يذكر الادريسى فزان ويقرن معها مدن جرمة وتساوه وقد لا تكون هناك فروق بين الفزانيين والقبائل التى تجاورهم ويرد ذكرهم فى المصادر مثل النسامون والتروغلوديت والجرمنت وفى كل الاحوال منهم خليط من بربر شمال افريقيا البيض والسود والاثوبيين فى وسط افريقيا .

ان عملية الاختلاط هذه التى بدأت منذ أقدم العصور وفى كل مكان يلتقى فيه العنصر الأبيض مع الأسود ، نشاهدها حاليا قائمة فى توات ودرعة وتافيلت وغدامس وسوكنه وأوجله وسيوه الخ . . وهكذا يروى بارت : « ان الوادى الغربى سى السمعة نظرا للحرية التى قدمها العنصر النسائى من السكان لقوافل الحجاج من والى مكة » ولا تقدمن أنفسهن للحجاج فقط بل لمسافرين آخرين وللطوارق المقيمين هناك ، ويضاف الى ذلك أنه منذ قرون عديدة يسود الدم العربى فى فزان وهكذا فان الاهالى عبارة عن عرق خليط من سكان الجبال والطوارق والعرب مع الشعوب السوداء وعلى التحديد شعوب الهاوسا وكنورى وباجرمى وزنوج المايا واذا كان الطوارق لا يتزوجون مبدئيا من الملونين فقد ساهموا فى الاختلاط اذ انهم عندما لايأخذون دما أسودا فى أسرهم الا أنهم يشاركون غيرهم فى الدم .

وينتج عن الاختلاط الابيض والاسود أفراد تكون اجزاء من جسمهم

بيضاء وفى اجزاء اخرى ذات لون غامق ، ونجد مثل هذه الحالات على جميع خطوط الحدود بين الشعوب السوداء والبيضاء وليست هذه الحالات كثيرة ولكنها ليست نادرة وان ظهورهم فى البلاد يثير الاهتمام ، ان شيخ زاوية تماغرت بوبكر على سبيل المثال كان يتسم بهذه البشرة ، وفى حالة شكل اللون الابيض الاساسى وقد توزعت عليه بقع سوداء كبيرة وصغيرة وعلى العكس من ذلك شاهدت رجلا ذا بشرة سوداء وعليها بقع بيضاء وان وضع شعر الرأس مماثل فنجد بعض الشعرات السوداء الطويلة السابلة وبعض الشعرات البيض المجعدة .

يتأكد هنا قانون الاتافية ، ان اخا الحاج بن علوه [8] كان ابيض البشرة وليست لديه أية علامات تبين أنه ذو اصل أسود سوى لون الشبكية الذى يميل الى الصفرة أكثر مما لدى البيض فقد كان والده وكذلك والدته أسودين يحملان جميع صفات هذا العرق ان والدته أمة من الهاوسا ـ ولما كانت هذه الحالة قد اثارت اهتمامى فقد دققت فى الامر ووجدت أن جدته لابيه كانت ايطالية اخذها رياس البحر وباعوها فى فزان وهكذا فإن دم الجدة ظهر نقيا عند حفيدها ، ان سيدى الحاج حامد بن الشريف الشهير سيدى محمد بن اعجير وهو شريف فى وزان ذو لون اسود غامق على الرغم من أن والديه بيض اللون مامن شخص يبدى استغرابه من ذلك لانه من المعروف فى وزان ان الاب سيدى محمد بن اقجبر ولد من أمه سوداء ، وليست قليلة هى تلك الحالات واستطيع أن اورد أمثلة لا تقل وضوحا عما ذكرت ، هناك اطفال من زواج مختلط وفى الغالب يرجح اثر طرف الى درجة ان الطفل يظهر وكأنه من هذا العرق دون الاخر وهكذا فان لون الشعب يتراوح من الأسمر الغامق حتى الابيض الفاتح على انه يسيطر اللون الاصفر الملاوى مقترنا بشعر السود وملامح وجوههم .

وأما عن عدد سكان فزان فلست قادرا على تقديم بيانات دقيقة بصورة تقريبية فالدولة ذاتها لا تمتلك مثل هذه المعلومات وفى سبيل التوصل الى تقدير صحيح كان عليَّ ان اجوب البلاد فى جميع الاتجاهات . هورنمان يعتقد ان عدد السكان يتراوح بين 70000 و 75000 ، كلوون وريشادسون يقدرونهم ب 25000 فقط ـ دانيل 54000 ، وحسب قناعتى ان هذه

الارقام ضئيلة جدا واذا ما حسبت القبائل العربية والطارقية التى تقيم فى فزان فقد يبلغ عدد السكان 200000 نسمة .

واذا ما قيض للمرء ان يتحدث عن لغة قومية لدى هذا الشعب المختلط فان الكنورية (لغة بورنو) هى الاعم ويتكلم بها الاطفال وبعد هذه اللغة تأتى العربية وكثير من الناس يفهمون الطارقية ولغة التيدا والهاوسا زوعدا عن ذلك يتكلم اهالى اوجلة وسوكنة وهما لا يتبعان حاليا الى فزان ، لهجة محلية لها شبه يلفت النظر باللهجة الغدامسية وأتيحت امامى فرصة للاهتمام بلهجة سوكنة ووجدت ان اكثر من ثلثى الكلمات تتطابق تماما مع الغدامسية .

وأما طباع الفزانيين فتبين أنهم شعب طيب ومستقيم وداخل منطقة فزان يشعر المرء بالامان من قطاع الطرق واللصوص ، وفى وسع المرء أن يدع فى وسط منطقة آهله اغراضه دون حراسة ودون ان يكترث أنها قد تسرق على الرغم من أن كثيرا من التبو يقيمون فى فزان وتنسب اليهم ميول الى السرقة وفى يناير 1870 يكتب الدكتور ناختيغال وهو آخر أوروبى زار فزان الى الدكتور باستيان فى مجلة الجمعية الجغرافية فى السابق كانت تعتبر السرقة فى فزان أمرا مشينا كان على الان ان احضر الجمال الى المدينة فى سبيل توفير قسط اكبر من الامان .

وأما الزى المحلى فهو يتكون فى حالة الرجال من الحايك او البرقان ومن السورية (قميص واسع) وسروال قصير وطربوش وصندل احمر او اصفر الا انه تشاهد هنا غالبا اثواب السودان وبورنو البيضاء أو الزرقاء الغامقة كما يشاهد هنا لثام التبو والطوارق والثياب المأخوذة من الجلود وأما لباس النساء فهو بسيط فالشابات منهن ذات الاشكال المكتنزة والقصيرة القوام فانها تتخذ شكلا كرويا وان لباسهم الوحيد هو البرقان وبلفونة حول الجسم ويربطونه ، عوضا عن الاحذية تلبس اكثرهن صنادل جدلت من جريد النخيل ويثقل الذراعان والقدمان سوارات وخلاخل من النحاس الاصفر وفى الغالب تبلغ قيمة الواحدة منها 200 فرنك ووزنه الصافى نصف رطل ان الشعر كثيف ويدهن بالسمن ويتحول فى اثر الغبار الذى يسقط عليه الى قشرة من الوسخ يلتصق على الرأس على شكل جدائل لا تحصى وأما الاطفال فانهم يدورون

اما عراة تماما أو نصف عراة حتى سن البلوغ وهو يبدأ هنا فى الغالب مبكرا جدا وليس من النادر ان يرى المرء أمهات مرضعات عمرهن اثنى عشر عاما لابل عشر سنوات لايوجد فى مكان اتصال جنسى دون حدود مثلما هو الامر فى فزان ، ان الشاب الصغير يعيش مع فتاة الى ان يملها ولا يهتم بعدئذ بشأنها ولا بالطفل الذى نجم عن ذلك وان المعاشرة تبلغ نسبة مساوية للزواج الشرعى ، ويسود تعدد الزوجات ويسمح القانون بطلاق الزوجة الشرعية التى تتبع فى العادة طريق الخطيئة ، ويولد عدد كبير من الاولاد غير الشرعيين ونظرا لعدم توفر بيوت لرعايتهم يتركون بعد الولادة مباشرة يموتون جوعا وفى احسن الاحوال يوضع هؤلاء القصر امام عتبة جامع اوزاوية بحيث يرأف بهم احد المارة ويأخذه اليه ، ان الشعب يعيش يومه دون اكتراث وفى المساء يجلس الكبير والصغير فى حلقة يتفرجون على رقص الفتيات التعبيرى ويشرب عندها كثير من اللقبى والبوسة ان اللقبى هو عصير النخيل المتخمر وهو لا يسكر بشدة مثل البوسة الذى يستخرج من حبوب القافول والتمر انه كثيف ذو لون ابيض ويقوم شركسى نصرانى وزطى من المنفيين بتقطير العرق من التمر لصالح الاتراك الذين يعيشون هنا ، وهو على درجة فائقة من السوء ويشكل التمر الى جانب الزميطة والبازين والخبز من القمح والشعير والقصب الغذاء الرئيسى للفزانيين ، أما اللحم فلا يؤكل الا نادرا وفى المدن ، ففى مرزق يذبح يوميا ثلاثة جمال وشاه وجدى ويجب ان يكفى لحمهم لسكان المدينة ولاولئك الذين يعيشون فى اكواخ النخيل خارجها ويبلغ العدد 8000 نسمة ، لم الاحظ تقليد خلال حفلات الاعراس الا ان اعراس العرب تختلف عن غيرها وكذلك طريقة الدفن ما ان يبرد جثمان الميت حتى يحمل دون نعش ، ويلف بكفن ابيض ويوارى فى حفرة مستطيلة .

الاقامة فى مرزق

الدندل ـ القصبة ـ القشلة ـ القبور ـ عدد السكان ـ الدوائر ـ مراسم الزيارة ـ آخر أمير من سلالة آل محمد ـ الجيش ـ الموظفون العثمانيون ـ تجارة الرقيق ـ عبد صغير أجراً للمعانيه الطبية ـ السفر الى تراغن ـ متابعة الرحلة مع الامير مينا آدم من كوار .

يقول دوفيريه أن أولاد محمد قد أسسوا مدينة مرزق وتبلغ درجة طولها 10 , 14ْ شرقى غرينيتش ودرجة عرضها 25,52د شمالا وذلك طبقا للحسابات التى قمت بها وقام بها ـ أيضا الدكتور هان (Dr. Hann) [1] وهى مطابقة لبيانات الرحالين الاخرين ويبلغ ارتفاعها عن سطح البحر حوالى 1650 قدم وتقع فى حفرة ليست عميقة ولكن أرضها ذات طبيعة ـ مستنقعية ، ولذلك فان عاصمة المنطقة ذات مناخ غير صحى وخطير على الغرباء ، ويقول هورنمان ، أنه نتيجة لهذا المناخ كان الاوروبيون يغادرون المدينة صيفا وحتى فى زمن السلاطين القدماء .

ويقول بارت أن المدينة تشكل مربعا يبلغ محيطه حوالى ميلين وأن ضلعيه الشمالى والجنوبى أطول من الضلعين الغربى والشرقى ويحيط بمرزق سور بنى فى بعض نواحيه من الطين المجفف تحت أشعة الشمس يتراوح ارتفاعه بين 20 و30 قدما وسمك قاعدته 10 أقدام وسمكه فى الاعلى قدمان ـ كما تتخلله أبراج مربعة طول ضلعها حوالى 30 قدما وتقوم فى زوايا الناحية الشرقية مرابض تعلوها بعض المدافع ويمتد شارع الدندل من الغرب الى الشرق بخط مستقيم يعبر المدينة ، وفى بدايته يقوم مركز الجمارك عند الباب حيث يتولى محرسان حراسته واثناء وجودى فى مرزق لم تكن تتقاضى رسوم على البضاعة الواردة والصادرة باستثناء الرقيق ولهذا السبب لم يكن مركز الجمارك مستغلا واذا ماتتبعنا الشارع فأننا نجد الى اليمين المخفر الرئيسى والى جانبه منزل القائمقام وهو حاكم القلعة وأمامه مقر القنصلية الانكليزية سابقا ويسكن فيه حاليا كاتب المال ، وبعد هذين البنائين تحف بالشارع حوانيت صغيرة بنيت من الخشب أو الطين وهى تمثل سوق مرزق ، ويستمر الشارع الى أن يصل ميدانا مكشوفا تقع فى ركنه الشمالى الغربى القصبة والقشلة .

وكانت القصبة مقر سلاطين فزان السابقين ثم أصبحت المقر الرسمى للقائمقام العثمانى الا أن حليم بك قد هجرها ويشاع أن السبب فى ذلك يعود الى أنها مسكونة من الجن وفى الواقع لان الرياح تسرح فيها نتيجة الفتحات الموجودة فى نوافذها وأبوابها ، وعلى الرغم من حالة التداعى التى تركتها الحكومة العثمانية تعترى القصبة الا أن هذا القصر يبقى ذا مظهر يثير العجب لارتفاع جدرانه التى لاتقل عن ثمانين قدما وسمكها الذى يبلغ حوالى عشرين

1 ـ بوليوس فرديناند هان 1839 ـ 1921 مختص بالارصاد الجوية ونشر العديد من المؤلفات فى هذا المجال .

قدما ومن الداخل يثير الانطباع بأنه كتلة من التراب بسبب أروقته الهائلة التى يتوه فيها المرء ، وحجراته الصغيرة ، وقاعة العرش هى وحدها التى تحظى بقياسات معقولة وكانت تجرى فيها الاستقبالات وأما بقية الغرف الاخرى وحتى تلك المخصصة للحريم صغيرة وواطئة ويلتصق بالقصر من ناحية القشلة ، وقد بناها العثمانيون وهى متسعة بالنسبة للظروف السائدة فى مرزق ومن الناحية الاخرى للقصر يقوم الجامع حيث كان يؤدى السلاطين الصلاة وفى ـ رقى الميدان يقوم الجامع الكبير وفيما عدا ذلك توجد فقط بيوت مبنية من الطين وذات طابق واحد وقليلة ، هى البيوت ذات الطابقين وهى فى أغلبها منازل تجار من جالو أو سوكنة أو غات أو كوار أو غدامس والدندل هو أعرض شارع فى المدينة وأن الشوارع الاخرى ليست ضيقة كثيرا كما هو الحال فى المدن الافريقية عادة .

وفى شرقى المدينة تقع المقابر حيث قبر الرحالة الانكليزى ريتشى (Ritchie) [1] الذى ذهب ضحية مناخ مرزق وما من شىء يميز القبور سوى كسرات فخارية وبيض النعام لقد شاهدت على احد القبور بين كسرات الفخار وعاء فخاريا مكسورا واذا كنا نستعمله فى أغراض اخرى يستعمل هنا للشرب وعلى قبر آخر ربما كان صاحبه غنيا وضعت زجاجتان ــ وليس ماييز قبور السلاطين عن غيرها الا بأتساع حيزها ويوضع عدد أكبر من كسرات الفخار وبيض النعام عليها .

واذا ما أخذنا بعين الاعتبار السكان الذين يعيشون خارج السور فى بساتين النخيل فأن عدد سكان مرزق يبلغ حوالى 8000 نسمة وثلاثة آلاف يعيشون داخل أسوار المدينة ويقدر فوغل عددهم بحوالى 2800 وهو يعتمد على نفس المصدر الذى استند اليه بارت وأما دوفيريه فأنه لم يعط أى تقدير للسكان ويقدر ريتشار دسون عددهم بحوالى 2000 ويقول أن عدد سكان المدينة فى تزايد فى حين يعتقد أن سكان المنطقة يتناقص على أن ــ بياناته متناقصة كثيرا اذ أنه يقدر عدد سكان فزان بحوالى 26000 نسمة فى حين نجده ــ يقول عن سكان كل منطقة على حدة ، أنها مأهولة أو مأهولة جدا وأننى أيضا أعتقد أن سكان مرزق حاليا لايتناقصون وأنما يتزايدون ومهما كان سوء الادارة العثمانية فأنها قضت على وضع عدم الاستقرار الذى بلغته المنطقة

1ـ توفى ريتشى فى مرزق فى 20 نوفمبر 1819 (انظر موري المصدر السابق . ص 26)

فى ظل سلاطين فزان . اذ أنهم كانوا ـ يقومون بذاتهم بأعمال السلب والحرق وكانت تحط النزاعات المناطق لابل المدن والقرى وتحدث نزاعات دامية وكان يتسابق الطوارق والتبو والعرب فى الغزو وسلب القوافل لقد عاد آلان الهدؤ والأمان على الممتلكات وأننى أويد ريتشارد سون فى رأيه .

عندما يقول : مامن بيت له قفل أو درباس فأبناء فزان لايسرقون مطلقا . ولايستطيع المرء ـ الانطلاق من حقيقة كثرة البيوت المهجورة فى المدينة ليقول أن المدينة تنهار وسيتراجع عدد السكان فأن هذه البيوت المبنية من طين مالح تتصدع اذا ماسقطت أمطار شديدة ـ ولذلك يهجرها أصحابها ليبنوا فورا بيتا آخر فى مكان جديد وعلى هذا الاساس تهجر قرى كاملة وتشيد أخرى عوضا عنها .

تتخذ الادارة العثمانية من مرزق مقرا لها ويقوم على رأسها قائمقام وفى بداية فرض السيطرة العثمانية كانت سلطة قائمقام فزان أكبر من ذلك بكثير اذ أنه كان مستقلا الى حد بعيد فقد كان مطلق الصلاحية فى أمور الاهالى وأوضاع الحرب والسلم مع الشعوب المجاورة ومنذ مطلع الستينات حددت صلاحيته بالقائمقامية العثمانية وأصبح يعين بفرمان من الاستانة وكذا الحال فى مناطق أخرى يقال هنا السماء عالية والاستانة بعيدة ولكنه الان ليس فى وسعه أن يجبى الضرائب كما يشاء ويمس حياة المواطنين ويبدأ حربا بموجب قرار صادر عنه ولو أنه فى جميع الامور المختلف فيها ذو الرأى الحاسم نجد أنه مضطر للعودة الى طرابلس حيث الدوائر العليا ليتفاهم معها فى المسائل الاساسية . =

وأن الشخص الثانى بعد القائمقام هو القول أغاسى وهو أعلى موظف عسكرى تحت أمرته عادة 500 جندى من المشاة وعدد من الخيالة وأربع مدافع ميدان ومعظم العساكر يؤخذون من أهالى فزان . . . فى حين أن الضباط وضباط الصف من الاتراك .ـ

وأما الموظف الثالث فى التسلسل فهو كاتب المال وهو مسؤول على جميع الضرائب وجميع الامور المالية والموظف الرابع هو قواص باشا رئيس الشرطة الذى ينفذ أوامر القائمقام والى جانب الموظفين العثمانين الاربعة المذكورين يقوم أبناء البلد بأعباء وظائف أخرى فمثلا القاضى مايزال يرث هذه الوظيفة مثلما كان عليه الامر فى ظل السلاطين ـــ وأصبحت وراثة هذه الوظيفة فى

تلك الاسرة معترفا عليها قانونيا ويقول ليون [1] . . ان وظيفة القاضى وراثية وهى فى أسرة واحدة منذ 150 عاما وبعد مضى 50 عاما على ماقاله ليون وجدت قاضيا أسمر أسمه محمد الحبيب وهو حفيد القاضى الذى يذكره ليون .

وأن وظيفة شيخ البلد محصورة هى الاخرى منذ وقت طويل فى أسرة علوة وان اسم أسرة علوة ذو أثر طيب لدى ارحالين الاوربيين فقد كان بارت وبويرمان وأنا شخصيا وناختيغال من بعدى على علاقات ودية مع هذه الاسرة .

وأخيرا يجدربنا أن نذكر أن وظيفة الامام يقوم بها أحد أبناء البلاد وفى مرزق كنت أنتظر وصول نقود من أوربا حوالى 1500تالر (بوطير) ومن غوتا[2] حوالى 100 وهذا ماتدفعه لى الجمعية الجغرافية فى لندن منحة من أجل الرحلة ولما كانت عدتى للسفر تحتاج الى تجديد زائد كان على أن أفكر بطول أقامتى فالبيت الذى وضع تحت تصرفى للسكنى يقع شمالى شرقى المدينة وهو ملك تاجر من سوكنه ، كان مريحا وتركت فيه الطابق السفلى والباحة للخدم وأخذت الطابق العلوى الذى يتكون من غرفة وشرفة واسعة هى سطح احدى الغرف .

وبعد ذلك قمت بزيارة أعيان المدينة وبالطبع بدأت الزيارة بالقائمقام وكما أسلفت فأن حليم بك لايسكن القصبة وأنما يعيش فى بيت كبير يقع على الدندل ولم يستقبلنى فقط بالمراسيم القنصلية وانما العسكرية أيضا وودعنى بأجمل الامور ، ولربما كان للمسدس ـــ الحديث الصنع الذى أهديته اليه الفضل فى ربط علاقات متينة بيننا الا أننى علمت فيما بعد أن مايلمع ليس دائما من الذهب ومن المعلوم أنه يتوجب خلال الزيارات الرسمية أن لايكتفى بأهداء صاحب البيت وانما أيضا جميع خدمه وأرقائه الاساسيين وهو يفعل نفس الشىء عندما يأتى ليرد الزيارة ويتفاهم مسبقا حول المبلغ واذا لم أخطىء فقد ـ تفاهمت مع حليم بك أن يهدى كل عشرة محابيب وانها لضريبة خاصة هذه التى يقسط بها المرء نفسه ألم يكن من الافضل لوبادر كل منا بأعطاء خدمه نفس المبلغ .

---

1 - زار جورج فرانسيس ليون مرزق برفقه ريتشى فى 1819 (انظر مورى المصدر السابق ص 26)

2ـ مدينة ألمانية كان يعيش فيها عالم الخرائط الدكتور بترمان ومحرر مجلة أخبار بيترمان التى تنشر تقارير الرحالة الاوربيين وتنشر الخرائط وكان بيترمان يساعد رولفس ومازالت هذه المؤسسة قائمة حتى الان فى المانيا الديمقراطية .

ثم زرت بعدئذ القول أغاسى وشيخ البلد وكاتب المال وتعرفت لديه على
شخص يدعى محمد البصيركى أحد أبناء السلالة التى حكمت فزان .
وبعد أن احتل العثمانيون فزان ، لم يتوخوا أى هدف أخر سوى تثبيت
دعائم حكمهم فى المنطقة قدر المستطاع وأعتقدوا أن أفضل وسيلة لذلك هو
القضاء التام على أسرة السلاطين وهكذا قطعت رؤوس 200 شخص من
هذه السلالة أو أنهم خنقوا أو قتلوا بطريقة أخرى ولم ينج محمد البصيركى من
هذا المصير الا عن طريق مربيته التى هربت به الى منطقة التبوولا تتحمله
الحكومة العثمانية الا لانها تعلم أنه لايمكن أن يشكل خطرا عليها وبخاصة أن
هؤلاء ـــ السلاطين لم يحوزوا أبدا على محبة واحترام أهالى فزان بسبب
تصرفاتهم وقد منح مائتا شجرة نخيل وهى كثيرة من أجل الانقاذ من الموت
وقليلة من أجل العيش ، ونتيجة لكسله وربما محافظة على كرامته لم يطلب من
القائمقام أن يمنحه أكثر من ذلك ، وقال لى «جميع نخيل البلاد هى ملكى
الشرعى فكيف أسمح لنفسى أن أتوسل لدى الاتراك من أجل بضعة مئات
من النخيل : كلا فان الفاقة أفضل وفى بعض الحالات وعندما كان يقع تحت
تأثير الافوين أو الحشيش نراه يتجرأ ويقول أنه ينوى الذهاب الى الاستانة وأن
يطالب بحكم البلاد بأعتباره من أولاد محمد . وفى أحد الايام وعندما أخذ
كمية كبيرة من الافيون قال لى لدى أبنة وحيدة فقط ، ليست جميلة وليست
بشعة وتبلغ من العمر 15 عاما فلتتزوجها ياصديقى وتصبح صهرى وقد
ابديت أستغرابى من ذلك وقلت له بأنه ابن سلطان ومن سلالة النبى ، وأنه
يريد أن يزوج ابنته من نصرانى فأجاب «ياللعجب ، وهل يجب أن أزوج
أبنتى لاحد أولاد الكلب الاتراك أو لرجل من فزان كان من رعايا والدى ،
الافضل لى أن أموت الا أننى أريد أن أزوجك اياها يامصطفى بك وبذلك
أمنحك حقوقى بالمطالبة بحكم فزان . أذهب معها الى أوربا وستدعمك
القوى النصرانية وستؤيد مطالبتك المشروعة وسيضطر سلطان الاستانة من
اعادة البلاد السليبة وبذلك تعود وتحكم بلاد فزان وأنت سعيد» فسألته «وماذا
تريد من أجل ابنتك ومقابل احالة حقوقك الى ، فأجاب وعيناه تلمعان
لاأريد شيئا سوى بضعة آلاف من النخيل وهى ملكى دون ذلك والمقدار
الذى أحتاجه من الافيون والحشيش .» .
واجتمعت كثيرا مع محمد البصيركى ، وكان انسانا لطيفا طالما أنه لم يتناول
المخدرات ويعيش حياة متواضعة من الريع القليل الذى توفره له 200 شجرة

نخيل وكان يؤمن لنفسه دخلا بسيطا من جراء مايكتبه من الاحجبة ، وعدا
عن كونه سليل الاسرة الحاكمة كان أيضا فقيها وكل هذا يؤمن له احتراما
لدى الشعب وبخاصة لدى التبو حيث شب .
وعندما زارنى القول اغاسى بحيث أشاهد قواته وقد كان ينظر الى فى فزان
على أننى عسكرى من رتبة عالية لان الفرمان الذى كنت أحمله يذكر أننى بك
وقد وضع ضابط لمرافقتى وعندما كنت امر من قرب الحرس كانت .

تؤدى لى التحية : سلام در ويقدمون السلاح ، وتفاديا لحرجه قبلت الدعوة
شاكرا فقد لاحظت كم يرغب أن يشاهد أوروبى قوته وهى فى حالة
الاستعراض ، فقد أمضى القول آغاسى فترة من الزمن فى فرنسا حيث كان فى
دورة فى المدرسة العسكرية فى سانت سير وهو يعتبر سريته على أنها ذات أفضل
ثيات وأفضل تدريب وأفضل نظام فى عموم الدولة العثمانية وقد يكون على حق
وعلى كل حال لم أر قوات عثمانية أفضل من ذلك ، وقد حضر بعض الضباط إلى
الاجتماع يرتدون صنادل ولا أعلم فيما اذا كان ذلك بسبب الحرارة أو أنه لم تكن
فى حوزتهم أحذية عسكرية الا أن الحامية كانت ترتدى زيا عسكريا نظيفا
وتمسك بالسلاح بدقة وتسير دون أخطاء حتى اذا ما طبقنا عليها المقاييس
البروسية .

وفى احدى المرات كان على أن أرافق القول آغاسى إلى القشلة ، لا توجد
أسرة هنا ولم ترصف أرض الحجرات ، الا أن المهاجع كانت نظيفة وكل جندى
عرض بطانيته وجعبة الخبز وجرابه وحذاءه . وكانت البنادق ذات الفوهة
الواحدة قد رتبت بصورة جيدة ولا يرى المرء على العساكر ومعظمهم من ذوى
البشرة الغامقة ما يوحى بالعوز . لقد أحضر الآن طعامهم انها قصعة كبيرة
مليئة بالرز مع لحم جمل لستة أشخاص ، ويذكر بارت حول ذلك « اذا
ما قورنت . الوجبات التى يتناولها هؤلاء يوميا مع طعام بقية الشعب ، فأنه
يجد هوة كبيرة ، وعلى الرغم من ذلك يفضل كل فزانى أن يموت جوعا على أن
يأكل طوعيا خبز الجيش ، وفى الحقيقة يحب الفزانى حريته وهذا يعنى القعود
وحرية الحركة ويفضل هذا على جودة طعام العساكر وعلى الالزام بالخدمة .

ومن القشلة أخذونى إلى المستشفى العسكرى وأطلعنى ، طبيب الحامية

العثمانى على تجهيزاته بكل طيبة خاطر ، أنه يحتوى على اثنى عشر سريرا مع فراشات وبطانيات صوفية ولوازم أخرى ويفوق فى النظافة والنظام كل توقعاتى لمستشفى عثمانى ، وعند الوداع طلب الطبيب العثمانى أن أسمح له بزيارتى فى منزلى ، اذ أنه يريد أن يتكلم معى على انفراد فى موضوع هام .

وفى احد الأيام التالية دخل إلى بيتى وبعد أن تأكد أننا على انفراد وما من أحد يمكنه أن يسمعنا بدأ حديثه مضيفا على وجهه سرية أقواله ، يبدو أنك يا مصطفى بك لا تفتح عيونك ولا تلاحظ عدد الرقيق الذى يؤتى به إلى هنا ويباع تحت حماية القائمقام ، لقد قال لى القول آغاسى أن العدد قد بلغ خلال الاثنى عشر شهرا - أى منذ قدومه إلى مرزق - 4084 رأس ، أنه يعرف العدد الدقيق لأن جميع عمليات النقل تجرى ليلا وأن عريف الحرس الذى يفتح الباب ، قد كلف أن يبلغ القول اغاسى فى الصباح كم كان عدد المجموعة التى نقلت ليلا ، ولنتصور أن حليم بك يأخذ عن كل رأس يدخل المدينة محبوبين ويأخذ صهره عن كل رأس يخرج من مرزق 2½ قرش ، وفيما عدا النقليات التى تمر عبر مرزق يمر مثل هذا العدد من مدن فزان الاخرى وفى كل المناطق يأخذ القائمقام نفس المبلغ عن كل رأس ويجبى ذلك وكلاؤه فى مختلف المناطق وأن دخله من ذلك يصل سنويا إلى 20000 محبوب وهذا ما تستطيع حسابه بسهولة ، عدا عن راتبه ، وبالطبع كنت فضوليا أن أعلم السبب الذى يجعل موظفا عثمانياً يدلى بجميع هذه الحقائق إلى رجل أجنبى دون أن يطلب منه ذلك هل جرى ذلك فى اطار محبة الانسان ، أو الرأفة بمصير الارقاء التعساء ؟ أو أراد أن يعبر عن سخطه على اقدام الحاكم العثمانى على خرق القانون الذى يمنع تجارة الرقيق فى جميع الولايات العثمانية ، خرقا صارخا . ولم أرجح هذين الاحتمالين ، على أن اللغز بدا واضحا عندما استمر فى حديثه قائلا : « وأنك لن تصدق أن حليم بك لا يعطى أحدا من كل هذه المبالغ بسبب شحه المشين ، فهو لا يعطى بارة واحدة لا للقول آغاسى ولا لحامد بك ولا لى شخصيا والآن اننى على قناعة تامة أنك اذا ما أطلعت المشير فى طرابلس على هذه الحقيقة فأنه سيبادر إلى اقصاء حليم بك فورا ، على الرغم من أنه يهدى المشير بأستمرار هدايا ثمينة ، اذ أرسل اليه قبل قدومك اثنى عشر أمة ، والمشير يخشى أن تبلغ القناصل فى طرابلس بهذا الموضوع أو أن تشكوه فى الاستانة :

ان الحسد والطمع وحدهما دفعا بالرجل أن يفشى بأعمال القائمقام البشعة والخارقة للقانون ، وكانت هذه المعلومات الدقيقة مرغوبة لدى وانتهزت الفرصة لجمع معلومات أخرى وكثيرة قدر الامكان حول تجارة الرقيق فى فزان وحول الاشخاص الذين يمارسونها بحيث أقدمها فى تقرير مفصل إلى المشير فى طرابلس وإلى السيد دروموند هاى (Drummond Hay) القنصل الانجليزى بطرابلس - الا أن مثل هذا لن يتحقق الا بعد مغادرتى مرزق اذا ما أردت أن لا ألغى محاولتى فى التوغل حتى وسط أفريقيا وإلا فاننى سالقى فى كل مكان معاملة عدائية ، وعدا عن ذلك فلم اكن اتوقع من خطواتى نجاحا جوهريا ، ماذا تعنى جميع قوانين الحظر من جانب الحكومة التركية فى الاستانة اذا ماكان موظفوها فى الولايات النائية من أعلاهم إلى أضألهم شأنا لا يسهرون على هذه القوانين لا بل يشجعون دائما تجارة الرقيق ويجعلون منها مصدرا لدخلهم ، وحسب قناعتى هناك وسيلة فقط تستطيع أن تدفع بهذا الفساد فى مسار آخر : يجب أن تضع قوة أوروبية سواء كانت انجلترا أو فرنسا أو المانيا وكلاء دائمين لها فى فزان وغدامس وأن تدفع لهم بصورة مجزية بحيث يؤثرون على الادارات المحلية بما يتمتعون به من احترام ، ان وكيل القنصلية الانجليزية السابق فى مرزق كان يتلقى سنويا 40 ليرة وعاقبة ذلك تمثلت فى أن السيد قاقليوفى الذى شغل هذا المنصب لمدة اثنى عشر عاما ، كان يتلقى هدايا من كبار تجار الرقيق ومن مشايخ بورنو ووداى والتبو الخ . لا بل كان يشارك فى أعمال تجارة الرقيق ، وفى ظل رعاية قنصل نافذ الكلمة يمكن أن ترسل الجمعيات التبشيرية ورابطة غوستاف أدولف ، عوضا عن الارساليات المكلفة إلى الاقطار الاسلامية أو إلى دواخل افريقيا من يشترى أطفال الرقيق القادمين إلى فزان ويعلمهم ويربيهم وبهذه الطريقة يمكن أن تنشأ هنا مجموعة مسيحية [1] .

وبعد وصولى إلى مرزق بفترة قصيرة ضربت خيامها قافلة حجاج قادمة من توات أمام المدينة لمدة ثلاثة أيام ، ووجدت فى صفوف الحجاج أحد معارفى القدماء أنه مولاى اسماعيل شيخ زاوية كنتة ، لقد دهش لمقابلتى هنا وعندما كنا نسير سوية عبر الطرق وكان العساكر يقفون أمامى باستعداد وتقدم مجموعة الحراسة السلاح قال لى : آه ، أنك الآن فى خدمة العثمانيين ، لماذا تركت

1 - مثل هذه الآراء تبين حقيقة الأهداف التى كان يتوخاها الرحالة

شيخنا الحاج عبد السلام [1] وكيف تركك عبد العزيز [2] أن تبعد عن الاستانة وأنت طبيب ممتاز ، ان رأى مولاى اسماعيل حول براعتى الطبية تعود إلى أننى خلال اقامتى فى توات قد عالجته بالاعشاب الحارة وبالكى وحجر جهنم ، انها تشكل جميع وسائل المعالجة التى يؤمن بفعاليتها أبناء الشمال الافريقى .

فى توات كنت ضيف مولاى اسماعيل ولذلك عملت هنا على استضافته وكنت أرسل له كل صباح ومساء قصعة بازين كبيرة وعليها لحم جمل وعند الظهر كنت أرسل له طبقا مليئا بأنواع منتخبة من التمر مع وعاء من اللبن ، وعلاوة على ذلك أحضر اليه خادمى نصف رطل شاى وثلاث قبعات سكر بمثابة هدية من طرفى ، ولو أهديته أقل من ذلك لكان هذا بمثابة خرق للتقاليد ، وأن القبعات الثلاثة من السكر هى الكمية اللازمة لنصف رطل شاى وعند الوداع أعرب عن شكره على قبعتى السكر التى أرسلتها له ، وعندما أبديت الملاحظة أنه ربما أخطأ اذ أننى أرسلت له ثلاث قبعات أقسم الايمان أنه لم يستلم سوى قبعتين ، وهكذا سألت الخادم عن الامر فكذب ذلك بعناد وعرض أن يقسم على قبر المرابط سلمى والقرآن فى يده أنه سلم الارسالية كاملة ، وأنا وحدى لم أصدق ولم أود التصديق أن مولاى اسماعيل أحد أكثر رجال توات ثراء ووجاهة أن يقسم يمينا كاذبا من أجل قبعة سكر وبخاصة انه فى طريقه إلى مكة وخلال هذه الفترة يتفادى أى أثم مقصود ، وعلى كل حال فقد ضبطت خادمى مرتين فى حالة أختلاس وهكذا تخليت عنه فورا وبعد حين سأؤمن من يحل مكانه .

ان تاجر رقيق من كردفان وصل إلى مرزق مع صفقة رقيق أصيب بمرض خطير وطلب منى مشورة طبية وعلاجا ، وحسب الوصف وجدت أنه مصاب بالمرض الكبير وأعطيته محلول القالى مع هيدرويود ، وبعد يومين زارنى صديقه ليسلمنى محبوبين لقاء العلاج الا أننى لم أقبلهما فقال : اذا كنت لا تريد النقود فأن صديقى وابن بلدى ـ أعدك باسمه ـ سيترك لك مملوكا شابا دون مقابل اذا ما استطعت معالجته بحيث ينهض ويمشى . ان هذا العرض مغر جدا للافارقة الذين لم يتعودوا أن يدفعوا سوى القليل للطبيب ، أن مملوكا شابا كان يباع فى

1 ـ أنه شيخ الزاوية فى وزان وقد استقبلنى عند قدومى لأول مرة .
2 ـ يقصد السلطان عبد العزيز 1861 ـ 1876 (البستانى ، دائرة المعارف 11/594 وما بعدها) .

ذلك الوقت فى فزان بحوالى 50 تالر (بوطير) على الاقل وأن الامل بتحرير شخص من الرق حدابى أن أهتم بالمريض ، أن تخمينى حول طبيعة مرضه تأكد وهكذا شرعت بالمعالجة الخارجية المناسبة وبعد مضى خمسة عشر يوما شفى المريض تماما ، وعندما خرج لاول مرة أحضر لى معه الصبى الاسود الذى وعدنى به وقد سماه عبد الفرج وقال لى أن أصله ابن ملك من باجرمى ، ولم ينسى أن يؤكد أنه قد عرض عليه مبلغ سبعين ريالا (حوالى 80 تالر) أن الصبى التعيس يبلغ من العمر 7 إلى 8 سنوات وقد نحف بحيث برزت عظامه وخارت قواه إلى درجة أنه ماكان يقوى على الوقوف وقد دب على يديه ورجليه بحيث يقبل يد سيده الجديد وكانت كلمته الاولى "أننى جائع" لقد فرض عليه أن يقطع الطريق من بحيرة تشاد خلال أربعة شهور وتحمل خلال ذلك اجهادات فظيعة وسار حافى الرجلين وعانى بأستمرار من الجوع والعطش والتعب . ونتيجة لما عاناه من آلام لا توصف غابت ذاكرته تماما ، ولم يستطع أن يقول شيئا عن أصله وماضيه لا بل نسى لغته الام وتعلم خلال الرحلة ووجوده مع أرقاء آخرين من وداى وبورنو والهاوسا لغة خليطا من هذه اللغات وفى البداية لم أكن أعرف فيما اذا كنت سأبقى الصبى عندى وأحمله معى فى أسفارى البعيدة الا أن الذى رجح هو أن ترك الولد التعيس دون عناية سيؤدى به إلى الموت وهذا الأمر كان فوق كل تردد ولما كان الوقت قد اقترب من عيد الميلاد علمته الكلمة الالمانية الاولى "عيد الميلاد" الا أن الكلمة بدت لى طويلة فعلمته "نويل" وقام جماعتى بتنظيفه بصورة جيدة ، وأشتريت له ملابسا واعتنيت بتأمين طعام مناسب له ، وعلى وجه الخصوص وجبات لحم ، وبعد وقت قصير فرحت وأنا أشاهد كيف عادت اليه قواه على أكمل وجه وهكذا أصبح نويل الصغير خلال عدة سنوات مرافقا مخلصا يضحى فى سبيلى أنه الآن فى برلين يربى على نفقة الامبرطور الالمانى .

لقد زاد عدد مرافقى بأنضمام خادم بارت السابق اليهم . أن محمد القطرونى الكبير السن ، عاش فى بلدة صغيرة ففى فزان بعد أن انتهت رحلة بارت وما أن سمع أن أوربيا ابن عم عبد الكريم (هكذا كان يدعى بارت) قد وصل إلى مرزق حتى توجه اليها ليسأل عن صحة سيده السابق ، وعلى الرغم من أنه أقسم لزوجته أنه لن يذهب فى رحلات بعيدة قبل عرضى أن يدخل فى خدمتى ويرافقنى إلى كوكة دون تودد ، على أنه كان يريد أن يبقى أطول مدة ممكنة مع

أسرته فأذنت له أن يحضر إلى مرزق زوجته من التبو وأبنه ومملوكه وجمله وعنزته وبالاحرى أن يسكنوا فى بيتى .

لقد نظم القائمقام احتفالا تاما على شرف مشير طرابلس [1] الذى حصل على وسام جديد من السلطان وطلب منى الاشتراك فى هذا الاحتفال ، لقد قال لى كل شيء سيرتب على نسق أفرنجى ، ستضاء الانوار ، وستعزف الموسيقى ، وستشاهد رقصا وسترتدى ألبسة التقنع ، بعد الظهر أمر بقراءة فرمان يضاء بموجبه الدندل وفى المساء استقدم ستة فوانيس زيت من منزله وضع أمام كل بيت وحانوت فانوس كبير أو صغير وقد وضعت أمام بيتى فانوسا شديد الاضاءة وفى ظل هذه الاضاءة البراقة بدأ سير الحفل يتقدمه جوقتان موسيقيتان مع مصابيح ورقية ملونة وتتبعهما راقصات سفور ، وتمثلت ذروة الاحتفال فى جمل مصنوع من العيدان وخرق صفراء يحركه رجلان يسيران على نسق خطوات الجمل وكان هذا المنظر لوحده مضحكا بما فيه الكفاية ، وأن حليم بك الوقور نزل من بيته إلى الشارع بحيث يرى هذا العمل العجيب عن قرب ، وسار الناس عبر الشارع حتى وقت متأخر من الليل يغنون ويصخبون ، أنه يوم حقيقى من أفراح رمضان .

ان مثل هذه التغيرات فى حياتى الرتيبة فى مرزق كانت أمرا نادرا ، كنت أنهض فى السابعة صباحا بعد أن أتناول قهوتى أدرس لمدة ساعات اللغة الكنورية مستعينا

بمفردات بارت ، ويتكلم اهل بورنو الكنورية كما انها منتشرة نسبيا فى فزان وبعد ذلك اقوم بزيارات او استقبل زائرين ، وبعد الظهر اقوم بنزهة امام باب المدينة او اتوجه بعد الظهر الى انشط جزء من الدندل واجلس على شرفة مخفر الشرطة وانظر الى حركة السوق ويتبادل هنا الفزانيون والتبو والطوارق منتجات السودان من عاج الفيل وريش النعام وقرون الكركدن مع اهالى واحات غات وغدامس وجالو وتوات وتافيلت ويأخذون مقابل ذلك بضائع اوروبية واما الرقيق فلا يباع مقابل ذلك بضائع اوربية واما الرقيق فلا يباع هنا بل يتفاوض بشأنه خلف ابواب مغلقة ، وبين هؤلاء تبيع فتيات من فزان ذات لون ذهبى

1 - يقصد بذلك محمود نديم باشا (1860 - 1867) .

مائل الى الحمرة منتجات المنطقة من حبوب وبطيخ وعشب وحليب وبيض الدجاج ، وكنت اتناول وجبتى الرئيسية حوالى الساعة السادسة مساء وغالبا مايشاركنى فى ذلك البصيركى اخر سليل من سلالة فزان ، وفى العادة كان يبقى حتى شرب الشاى على الرغم من انه لايحب ذلك مثلما يحب العرق والحشيش والافيون ومع مطلع العام قمت برحلة قصيرة الى تراغن وتقع على مسافة يومين شرقى مرزق ، وفى اليوم السابق للرحلة ضربت الخيام خارج السور ونمت فيها مع اتباعى بحيث نستطيع الانطلاق فى موعد مبكر صباحا وعند الصباح بلغت البرودة حدا من الانخفاض (- 5) بحيث علا الصقيع فوهات القرب واضطررنا الى العودة الى المدينة ثانية بحيث نتلقى شيئا من الدفء ثم انطلقنا فى اليوم التالى ، وقد تركت امر تجهيز الرحلة الى خادمى الجديد القطرونى الخبير، - وباعتباره مسلما وكان الوقت رمضان فكان يصوم وهكذا فاته ان يهتم بالزاد وبذلك كان وضع تموينا هذه المرة سيئا ، اذ اننا لم نجد فى حاج خليل حيث بتنا سوى ثلاث بيضات لنا جميعا، ولو كان لدينا قافولى لما استطعنا ان نحضر منها حساء لانه قد هب ريح قبلى عات حمل الينا الرمل، واضطررنا ان نبات على الارض .

وخلال هذه الرحلة القصيرة تعرفت على مزايا محمد القطرونى التى لاتقدر بثمن ، فلم يشارك مزاح وهرج الاخرين وكان يسير بجدية وتؤدة، ولم يشبهه احد فى معاملة الجمال فى مهارته وسرعته عند تحميل الاغراض وتنزيلها وفى التنظيم العملى للسير وفى اختيار مضارب جيدة ، ان امانته واخلاصه واستقامته كانت تسمو فوق كل شك ، قال لى عند بدء عمله لدى ، انتم فى دينكم ونحن فى ديننا ولكن عندما تريد ان اذهب معك على اسم الله مثلما خاطرت بحياتى فى سبيل ابن عمك ، فاننى ايضا مستعد للموت فى سبيلك ولم تكن هذه مجرد كلمات فارغة وفى كثير من المناسبات اثبت تضحيته فى سبيلى وان حسن ظن بارت فيه كان مبررا على الدوام .

ان بلدة وقلعة تراغن ليستا سوى كومة كبيرة من الخراب وتقوم بينهما حوالى ثلاثين بيتا مأهولا ، وان الجزء الاكبر من السكان يعيشون فى خيام مبنية من النخيل خارج اسوار المدينة كما هو الحال فى مرزق وعلى تلة صغيرة فى الجنوب الغربى توجد قبور من يدعون بحكام برنو وهى عبارة عن ثلاثين الى اربعين اكمة واطئة مثل تلك الاكوام التى يعملها الخلد لقد اراد بويرمان ان يفتح بعضها الا انه وجد ان الارض المكونة من طبيعة سبخية اصلب من ان تحفر

بالفاس التى احضرها معه وخلال زيارته الثانية لم يتمكن من تحقيق ذلك وفى وقت متأخر فتحت بناء على طلبه بعض هذه الاكوام وقد تبين ان الكتب الغرانيتية كانت ترتخى عندما يصب عليها الماء ، وقد حاز على اعجابى الطريق الى تراغن اكثر من البلدة ذاتها اذ تحف به من اليمين واليسار اشجار النخيل مسيرة ساعات ، وان الحكومة تستطيع ان تحصل من هذه الاشجار على دخل اكثر مما تأخذ من عموم فزان بما فيها الضرائب الا ان الاشجار قد يبست نتيجة التقصير فى الاهتمام بها وان بقية الاشجار ستموت نتيجة لاخذ عصيرها لتحضير اللقبى .

وفى خيمتى امام تراغن بلغنى يوم الاول من فبراير النبأ المفجع بوفاة بارت وقبل عدة اسابيع تسلمت منه رسائل بالاضافة الى جهازين لقياس ضغط الهواء وبعض موازين الحرارة وكنا نتراسل باستمرار وعلى وجه الخصوص حول لغات دواخل افريقيا ، وان بارت كان بالغ المجاملة فى تقدير جهودى بان احذو حذوه فى دراسة هذه اللغات ، وفجأة وصلت رسالة اخى يبلغنى فيها وفاة هذا الرجل الجليل «انه فى الجنة ، رحمه الله ، قال القطرونى عندما ابلغه النبأ المحزن .

لقد تكرم حليم بك ان ارسل الى البريد فى نفس اليوم الذى وصل به الشنطاط من طرابلس الى مرزق ووصلت الرسائل مخيمنا فى وقت متأخر من الليل ، ولما اهتدى الشنطاط بنور خيمتى اتى الى دون ان يصرخ ، وعلى مسافة خمسين خطوة هاجمه كلبى اليقظ ولما انتبهنا اثر نباح الكلب الهائج وهرعنا اليه وجدناه مستلقيا على الارض وقد خزق الكلب برنسه باسنانه ، فخلصناه من الكلب ووضعت عددا من التالرات فوق البرنس الخرق وقدمنا له وجبة كافية وقضى الليل فى خيمة خدمى وفى الصباح كان قد تغلب تماما على الخوف .

بعد العودة من تراغن شرعت فى الاستعداد لمتابعة رحلتى ، ولم ينقطع املى فى التوجه الى تبستى ولو ان الامل فى التوغل نحو وداى عبر بوركو قد تضاءل .

فى تلك الاثناء كان فى مرزق امير من التبو اسمه مينا آدم هو شقيق الملك الحاكم فى كوار وقد خلف لدى انطباعا جيدا وعندما عرض على ان انضم الى قافلته نحو كوار ، رحبت بالاقتراح لانه كان يصعب فى ذلك الوقت التجاسر على السفر الى بيلما دون الانضمام الى قافلة كبيرة وعندما زرت مينا آدم لاول مرة قدم لى جوز الجورا (الكولا) الطازج وهى تأخذ لدى الشعوب السمراء مكان الشاى والقهوة وان جوز الجورا المجففة وتسمى الكولا كانت تورد بكميات كبيرة الى فزان واما الكولا الطازجة فهى نادرة هنا وتعتبر طعاما للرفاهية .

وفى مرزق مازالت توجد حقيبة تحتوى على قطع ثياب وكتب تركها بويرمان

هناك وعلى الرغم من ان الاغراض ليست قيمة بذاتها فقد انتهزت احدى الفرص لارسالها الى طرابلس بحيث ترسل من هناك الى والديه المفجوعين ، وقد توجه الى احد خدم بويرمان ان اخلصه من السجن حيث كان مودعا بسبب تزوير العملة ، وعندما تقصيت الاخبار حول وضعه وجدت ان الرجل متهم بالمروق واتبع جميع العادات السيئة وعلى الرغم من ذلك لم يعامل بقسوة فى سجنه لقد سمح له ان يتزوج خلال سجنه ولذلك لم اجد سببا للسعى فى سبيل اخلاء سبيله .

وفى منتصف مارس وصل خادمى حامد الذي طال انتظارى له يحمل معه النقود كما احضر معه جمالا وبضائع ومواد غذائية من طرابلس ، وبعد ان تجهز مينا آدم وحاشيته الاميرية للسفر حدد يوم الرابع والعشرين من مارس للانطلاق ، وقد امضيت هذا اليوم ايضا فى المخيم الذى ضربناه امام المدينة اذ ان دوائر مرزق ستخرج من المدينة فى اليوم التالى لحضور وداعى فى الساعة المحددة حضر جميع الاعيان القائمقام وخلفه جميع اتباعه حتى حامل الغليون والقهوجى وايضا القول اغاسى والخازندار والقاضى وهو رجل يبلغ من العمر 126 عاما يرافقه ابنه المفتى ويبلغ من العمر سبعين عاما وله ابن يبلغ عمره خمس او ست سنوات وهذا مثال على استمرارية المقدرة على الانجاب لدى الشرقيين واما شيخ البلد ورئيس المجلس فهما من اسرة علوة التى تربطنى بها علاقة صداقة ، وجرى الوداع بصورة احتفائية وتبادلت الكلمات الودية مع الشخصين من اسرة بن علوة وفى نفس الوقت ودع خدمى سمراوات من مرزق كانوا قد كسبوا محبتهم ، وان زوجة محمد القطرونى الظريفة التى وضعت قطعة مرجان كبيرة فى الفتحة اليمنى من انفها اخذت تبكى ألما على فراق زوجها دون ان يظهر اية ليونة فاذا ماظهر فان هذا يتنافى مع وقاره وان سليل الاسرة الحاكمة سابقا فى فزان بقى عندى اطول مدة ثم ركب حماره اخيرا وعاد الى المدينة .

عبر فزان

مطر - أغرار وشهور - واحة مستوتة - عبر القرن الكبير الى دكير - القطرون - عيد الاحتفال بعودة القمر - قريتا بخى ومدروسة - كساروه - تجرهى - وادى القطرون - الارتحال من تجرهى الى كوار .

فى ظهيرة يوم 25 مارس غادرت مرزق والطقس بديع وكان لدى سبعة خدم وخمسة جمال اثنان من غريان مع جمالهم أرادوا فى نفس المساء أن يأتوا

الينا وتواعدنا مع مينا آدم أن تتبعنا قافلته الكبيرة فى اليوم التالى بحيث تندمج مع قافلتنا وبقدر ما كان لطقس جميلا خلال النهار، انتهى بصورة سيئة، ومع غروب الشمس هبت عاصفة رملية من الشرق وجعلت الجو مظلما تماما، ولحسن الحظ كنا على مقربة من القرية الصغيرة حاج حجيل واستطعنا أن نصلها وبالطبع لم نكن لنفكر بنصب الخيام، وبعد أن طبخنا طعامنا فى بيت وأكلناه استلقينا على الارض بين الاغراض وعندما نهضنا صباحا كانت تغطينا طبقة من الرمل يبلغ سمكها بوصة .

وبقيت العاصفة تنفخ طوال النهار بنفس الشدة وعند المساء جاء المطر وأنزل على الاقل غبار الرمل بحيث تمكنا من متابعة سيرنا، وعلى كل حال فأن استمرار المطر فى فزان ظاهرة غير معتادة، الا أن ندرته لا تعنى انعدامه التام اذ يتكلم رحالون آخرون فى البداية خضنا فى رمل عميق ووصلنا الى غابة نخيل برى حيث ضربنا خيامنا بعد مسيرة ساعتين وعدم انقطاع المطر، وهنا التقينا مع قافلة مينا آدم وباتت بالقرب منا وأما هو شخصيا فمازال فى مرزق .

وأثناء الليل استمر المطر وهكذا تبلل خدمى حتى الجسد اذ لم ينصبوا خيمتهم وبعد أن نشطوا فى اثر النار القوية وتناول فنجان من الشاى انطلقنا حوالى الساعة الثامنة دون انتظار قافلة التبو وبعد ساعة ونصف وصلنا البيضان وهى قرية صغيرة تتشكل من بعض اكواخ النخيل والبساتين وتوقفت لاشترى تمرا من الاهالى أقدمه علفا للجمال اذ لم يتح لهم ما يأكلونه خلال سيرنا عبر غابة النخيل وعندما كنا متوقفين مرت بنا قافلة التبو، وقد تبعناها بعد الظهر واندمجنا معها عند بير البرانين على طرف الكثبان وعلى مسافة ساعة عن البيضان مازالت الرياح الشرقية تهب عاتبة وقد ازعجتنا كثيرا إذ أنها كانت تحمل معها رمالا من المناطق التى لم يسقط عليها المطر . ان المنطقة التى تحيط بنا تسيطر عليها أشياء جديدة أنها تلال صغيرة يتراوح ارتفاعها بين عشرين وثلاثين قدما نشأت من خليط من الرمل ومواد النباتات وعلى وجه التحديد الاثل ويرتفع فوق ـ البعض منها حرش من الاثل، انها توجد فى جميع أرجاء الصحراء وتميز من الشواهد التى ترى من الخارج فورا، وهذه لم تنشأ من التكويم بل على العكس أن الريح حملت الرمال المفككة المنتشرة على جزء صلب من الارض أو أن الماء قد جرفتها وهكذا نحمت تلة وحيدة تشهد

على شكل الارض إن وجود الشواهد أندر من الجدد حيث لا توجد جذور نبات أو أجزاء نباتية .

وما أن ضربنا خياما عند بير البرانين حتى أتى مينا آدم راكبا جوادا جميلا ونزل أمام خيمتى، وعلى الاغلب فقد كنت مدينا فى هذا الشرف لشهية الامير على سيجارة وفنجان قهوة اذ أنه كما لاحظت فى مرزق كان أبخل من أن يشترى تبغا أو قهوة أو شايا على الرغم ـ من أنه على ضؤ الضريبة التى سددها للقائمقام فى العام 1865 عن الرقيق الذين باعهم (عن كل رأس 10 فرنكات) كان يحمل معه حوالى 10000 تالر ـ وفى موطنه كوار يطمر النقود وربما لا يراها الا عندما يريد أن يمتع نظره بلمعان القطع الفضية، وأما الجواد الجميل الذى يمتطيه فهو مخصص كهدية لصهره مستقبلا، أذ أن حسب تقاليد التبو تقتضى الوجاهة أن يهدى أبنته جوادا بمثابة جهاز عرسها .

وظللنا نسير عبر كثبان رملية يبلغ ارتفاعها فى الغالب 100 قدما حتى وصلنا بعد سير مرهق الواحة الصغيرة مستوتة التى تمتد مسافة ساعتين طولا ونصف ساعة عرضا من الشمال نحو الجنوب، وفى مستوتة عدة آبار ذات مياه أقل جودة وفى شمالها خرائب قلعة قديمة تعود الى عهد سلاطين فزان وفى ظل أشجار النخيل البرية تنمو طبقة عشبية عادة ما تشكل علفا جيدا للجمال وتعيش فيها أعداد من الارانب والجرذان، وفى الجو يطير بعض من الحمام والدورى والسنونو وخلال الرحلة لاحظت الفرق بين جمل التبو وجمل العربى فالجمل العربى الذى أحضره العرب أو البربر الى الشمال الافريقى ذو أرجل غليظة، ورقبة نحيفة وجسم ثقيل وكثيف الشعر، وأما جمل وبوركو فهو ذو رقبة طويلة رفيعة وأرجل أرشق ويكبر أكثر ولا نجد الجمل العربى فى المنطقة الواقعة جنوبى كوار، وأن الجمال التى تأتى من الشمال الى بورنو أو بلاد السودان تموت بعد فترة قصيرة ربما بسبب تغير العلف أو لاسباب أخرى وعلى العكس من ذلك لا يستطيع الجمل الافريقى ان يتحمل مناخ الشمال، ولما ثبت تاريخيا أنه لا يوجد فى الاصل جمل افريقى، فأننى أرى فى التباين الواضح بين جمل الوسط الافريقى وجمل الشمال الافريقى تأكيداً لنظرية داروين حول نشأة الاجناس، ان جمل التبو الذى يعيش فى وسط الصحراء تأقلم مع ظروف المنطقة خلال فترة قصيرة نسبيا تبلغ حوالى الف عام وشكل عرقا مغايرا تماما وربما لم تنته بعد عملية التغيير هذه ، بحيث سيجد الخلف بعد عدة آلاف من السنوات فروقا أوضح بين الجنسين، لقد ذكرت فى موضع

آخر كيف أن الغنم تغير عند انتقاله من الشمال البارد الى الصحراء .

لقد غادرنا مستوتة عند السابعة صباحا بأتجاه 150 د وحافظنا على هذا الاتجاه طيلة النهار، وعلى الجانب الآخر من الواحة يمتد سرير حتى سفوح القرط الكبير وقد وصلناه حوالى الحادية عشرة صباحا والقرط الكبير هو بروز للكثبان الرملية التى تسير ـ بالاتجاه الجنوبى الغربى ويشكل قوسا كبيرا نحو الجنوب يدور من الشرق نحو الشمال وبعد أن صعدناه وجدنا أمامنا هضبة رملية شاسعة منخفضة وحوالى الساعة الرابعة لمحنا فى الشرق أم العدم وحوالى الساعة الخامسة ظهرت فى نفس الجهة جفارة وحوالى الساعة السابعة والربع بلغنا الدكير وفى البداية كان لابد من حفر بئر هنا وقام بذلك التبو بسرعة اذ أنهم بارعون فى هذه الاعمال .

ان الماء الذى عثرنا عليه لم يكن عذبا ، وفى المساء وتحت نور القمر كان رائعا منظر أشجار النخيل التى تدلت أغصانها اليابسة الى الارض ، ما من أحد يهتم بهذه الاشجار ويقطف ثمارها المارة وان ما يسقط من تمر على الارض يأكله الارانب والغزلان والثعالب .

وفى 31 مارس انطلقنا حوالى الساعة السابعة والنصف صباحا من الدكير وفى اتجاه جنوبى وفى واد عبر النخيل وصلت مع اتباعى الساعة الثانية عشر والنصف القطرون وضربنا الخيام فى موضع تظلله أشجار النخيل ويقع شمال البلدة، وفى هذا خالفنا الاعراف المتبعة لدى القوافل، فالقافلة المتوجهة جنوبا يجب أن تبقى فى الجهة الجنوبية للبلدة أو العين والقافلة المتوجهة شمالا تبقى فى الطرف الشمالى، وعندما وصل مينا آدم الى القطرون مع قافلة التبو التى تركت جمالها ترعى خلال الطريق، ضرب خيامه فى المنطقة الجنوبية وأبدى استهجانه الشديد لما فعلناه ، وعلى وجه العموم أخذ يبدى لى غروره الاميرى منذ أن أخذنا نخرج من المنطقة التابعة للعثمانيين، وعندما كنا فى مرزق كان يأخذ تجاه القائمقام وتجاهى دورا ثانويا، ولم يخصه المرء هناك بالشرف العسكرى .

لقد وجدت لدى المرابطين فى القطرون ولدى رئيسهم الحاج جعفر ويشغل منصب مدير وادى القطرون، استقبالا وديا وضيافة وأستمتع طباخى بالاستراحة التامة لقد سرهم أن يجدوا محمد القطرونى بين خدمى فهم يعتبرونه من ذويهم ولو أنه لم يولد فى القطرون ـ وبالطبع قابلت الاستضافة التى أتيحت لنا بهدايا مناسبة من السكر، ان الحاج جعفر وهو رجل يزيد

عمره عن مائة عام ـ وأبنه الحاج محمد عجوز أبيض الرأس ـ هو نفس الشخص الذى يشيد بضيافته ليون وجميع الرحالين الذين جاوؤا بعده .

يبلغ عدد سكان القطرون حوالى 1000 نسمة جميعهم سود وهم ليسوا من التبو بل ذوى أصل خليط، وحتى المرابطين الذين يشكلون أقلية بين السكان لا يجرى فى عروقهم دم عربى نقى دون أن يمتزج، وهم يتكلمون التيدا والكنورى ويفهمون العربية، ومساكنهم فى جزء منها من الطين والنخيل وما بين هذه الاكواخ جامع قديم وقصبة مهجورة حاليا وكانت فى السابق مقر الحاكم الفزانى ويزرع المرء شيئا من الخضار والذرة والقمح والشعير والبشنة والقافولى والقصب وينتج تمرا فاخرا وتصنع النساء من جريد النخيل سلالاً جميلة وأطباقا وهى مرغوبة جدا فى جميع أرجاء طرابلس الغرب ولا يختلف أهالى القطرون عن فزان الا أنه يؤخذ لكسوة النساء الكتان من بلاد السودان أكثر مما تستخدم الاقمشة الاوروبية لقد سمعت الكثير عن جمال القطرونيات السوادوات منهن والسمراوات وعن ـ جاذبيتهن الا أننى لم أر وجهاً جميلاً على الرغم من أننى فتشت عن ذلك وربما أنه لم يحالفنى الحظ فى ذلك وأن الجاذبية قد اختفت من الجبل الحالى .

وفى يوم وصولنا نظم فى المساء حفل موسيقى ورقص احتفاء بظهور القمر، اذ عرفت الليلة الماضية خسوف القمر، وهكذا يجب أن يحتفل باللحظة التى يعود فيها القمر للبروز ولما كان معظم الناس نائمين عندما وقع الخسوف فقد أجل الاحتفال حتى هذا المساء وقامت مجموعة من الرجال يحملون العصى بتأدية رقصة الزنوج المعروفة وقد شكلت الفتيات حلقة متراصة وكن يحملن فى أيديهن أجزاء من جريد النخيل يلوحن بها ويغنين على أنغام الموسيقى وهذا يعنى على دقات الطبل والصنوج التى تضرب على بعضها البعض ـ :ودخل داخل الدائرة أربعة صبيان وبناء على إشارة كانوا يشرعون بالرقص والقفز ومد الايدى بكل قوة وتقوم الفتيات بمتابعة الايقاع بأرجلهن واستمر الضجيج الى ما بعد ـ منتصف الليل .

وخلال اليوم التالى أتى الحاج جعفر وأبنه وعدد من المرابطين لزيارتى وقد سلمتهم أحد خدمى وقد أصبح لا يقوى على السير ورجوتهم أن يرسلوه فى أول فرصة الى مرزق ثم جاء بعض التبو وعرضوا على تأجير بعض جمالهم للرحلة ، عندما قلت لهم أننى أريد الذهاب الى التبستى انسحبوا على الرغم من أن موطنهم هناك بحجة أنهم لا يعرفون الطريق المؤدية الى هناك بصورة

كافية ولاحظت فيما بعد أن لمينا آدم أصبعا فى ذلك، وأن القضية كانت على
الوجه التالى : حسب المخطط الذى اتفقنا عليه فى مرزق يكون خط الرحلة
أن ـ ننفصل عن بعض فى تجرهى اذا أردت أن أتوجه من هناك الى تاو فى
تبستى ومن ثم الى بيلما ويرافقنى فى ذلك اتباعى ويقودنا مجموعة من التبو وأما
هو فيتابع طريقه الى كوار على الطريق المباشر ومعه أغراضى يتولى حراستها
محمد القطرونى وأحد خدمى ـ وفى القطرون بلغه خبر مفاده ـ أن الطوارق
الذين أتوا الى كوار طلبا لتجارة الملح ، ـ وقعوا فى شجار مع الاهالى
وانسحبوا مع كامل بضاعتهم حانقين وتوجهوا الى واحة تقع بين القطرون
وكوار ، وعلى الرغم من أنه لم يؤد الامر الى نزاع مفتوح كان يخشى أن
يهاجموه ، اذا ما سافر دون رفقتى ، ولذلك أوحى الى تبو التبستى أننى
جاسوس تركى بحيث يمتنعون عن اصطحابى الى بلادهم وهكذا الغيت
مخططى للانطلاق من القطرون نحو تبستى وتابعت سفرى مع مينا آدم نحو
تجرهى وكلى أمل أن أتمكن من تحقيق مشروعى انطلاقا من تجرهى .

وفى الثانى من أبريل الساعة السادسة صباحا غادرنا القطرون بعد أن
أرسل لى الحاج محمود فطورا رائعا سرنا مدة ساعتين بأتجاه الجنوب عبر
طريق تحف به أشجار النخيل ووصلنا بخى، ثم سرنا ساعتين أخريتين
ووصلنا مدروسة، وأن بيوت القريتين عبارة عن خيام صنعت من جريد
النخيل ومنظرها أجمل وألطف من البيوت التى تصنع من ـ الطين، ولا يزيد
عدد سكان القريتين عن بضع مئات وهم سود وليس لديهم قسط من الجمال
مثلما هو الحال فى القطرون ، وقدم لى مينا آدم شخصين من التبو من تاو من
ذوى الاجسام الضخمة ولون وجههما فاتح الى درجة تلفت النظر، وكانا
مسلحين برمح حديدى وسيف وترس جلدى كبير وخنجر يدوى ومجرى (رمح
طويل) وعلى الرغم من هذا التسلح المعدنى يبدو أن شجاعتهم ليست وفيرة اذ
أننى عندما تعهدت أن أصيب نخلة على مسافة 500 خطوة ببندقيتى القصيرة
هربوا بسرعة وكذلك مينا آدم لم يرغب بأنتظار النتيجة .

على مقربة من بخى ، على الجهة اليسرى من الطريق تقوم آثار زرنيبة
ويزعم بويرمان ان ملاطها مخلوط بالشيتا أو بهار بورنو ، ويتسع الوادى
بين بخى ومدروسة وتشاهد مجموعة من التلال تعلوها أحراش الاثل ،
وفى مدروسة أقدم مينا آدم على نوع من التعسف السلطانى اذ صادر أربع
اشجار من النخيل يؤخذ منها اللقبى على الرغم من احتجاج أصحابها ،

وفى المساء عندما صعد أثر اللقبى الى رأسه أرسل خادمة الى ليقول لى انه
على أن أربط كلبى اذ أن التبو الذين سيزورونه يخافون من الكلب
العضاض ، ولما كان محمد القطرونى الذى استخدمه فى العادة كوسيط
بينى وبين التبو ، قد احتفى بالعثور على زوجة كان قد هجرها فى السابق
وتناول أيضا كمية اللقبى ، أرسلت الى الامير خادمى المغربى حامد
الريفى ليقول له أنه يجدر به ان يهتم بشؤونه الخاصة واذا كان يريد ان
يربط كلبى فليرسل احد رجاله ويحاول ربطه ، وفى الصباح الباكر زارنى
السيد الكبير بذاته فى خيمتى ولم يذكر حادث الامس بكلمة واحدة على
الرغم من أن الكلب لم يستقبله بلطف وقد انطلق مع قافلته حوالى
العاشرة وتبعته عند الحادية عشرة لان محمد القطرونى كان عليه ان
يتحدث مع زوجته السابقة حول كثير من الامور .

وبعد أن خلفنا على الجانب الايسر خرائب قرية وصلنا الى نهاية غابة
النخيل ومن هنا أصبحت النباتات عبارة عن شجيرات وبخاصة أحراش
الاتل ، وقد مرى بنا مجموعة من التبو شاكية السلاح تمتطى المهارى وهم
يأملون أن أستاجر منهم جمالا فى تجرهى ، وظهر أمامنا الآن على مسافة
ست الى ثمانى ساعات جبل بن غنيمة وهو ليس مرتفعا كثيرا ولكنه ذو
مساحة واسعة كما يظهر ، وحوالى الساعة الثانية والنصف بلغنا فى اتجاه
جنوبى ببر صفرة تيدسما ـ ووجدنا هنا قافلة مينا آدم ومرعى جيداً للجمال
، والى الشرق منه وفى نفس الوادى يوجد بير طوال .

وفى الرابع من أبريل سارت القافلة المدموجه حوالى 6 صباحا وجلس
الامير على حصانه يحيط به التبو الذين جاؤوا للترحيب به ، وقد مس
كبرياؤه عندما فتحت مظلتى الحريرية ففى بورنو وبلاد السودان لايحق
لغير السلطان حمل المظلة ، وحتى فى فزان وقبل عشرين عاما الزم تاجر
من المجابرة بدفع غرامة قدرها مائتا تالر ـ الى حسنى باشا ـ القائمقام
السابق لانه سار فى مرزق وقد فتح مظلة ، الا ان المنع قد ألغى فى جميع
أرجاء الدولة العثمانية ، ان ميناآدم كان يرغب لو أشترى مظلتى لابل
كان يفضل أن يحصل عليها هدية ، الا أننى أردت أن أبين له عمدا
وبهذه المناسبة أننى لست تابعا له بأى حال من الاحوال ، أن تعاملنا ظل
ظاهريا فى غاية الود الا أن كل واحد منا كان يبغض الآخر وأما من
ناحيتى فلانه أحبط مشروعى بالذهاب الى كوار عبر تبستى ، وأما من
ناحيته فلأننى لا أخضع لاوامره .

وبعد أن انطلقنا مررنا بخرائب ـ وهنا كنا نلاحظ بخاصة تشكل التلال الناجمة عن الجذور والارض المنبته وفى رأسها الاثل وتصل هذه فى القرية الى ارتفاع حوالى 30 قدما وحسب رواية محمد القطرونى فأن عمرها حوالى 40 عاما وبعد ساعة ونصف كانت على يسار الطريق قصراوه وهى الآن ثلاثة الى أربعة أكواخ ، وأن القصور ذاتهاهى الآن خرائب ولم يبق من النخيل سوى القليل ، وفى اتجاه شرقى مستقيم من قصراوة على مسافة 1½ ساعة يقع على طرف الوادى جبل اكمه وهو المحطة الاولى على الطريق من مدروسة نحو التبستى ، وتابعنا سيرنا بأتجاه 200 د عبر الوادى الذى يصبح جنوبى قصراوه خاليا من النخيل ، وحوالى الساعة الثانية عشر وثلاثة أرباع ظهرت أطلال تقوى فراما ـ الى اليسار وفى الساعة الواحدة والنصف كنا عند رأس تجرهى وهو مرتفع على أطراف الوادى المسطح عادة وهو يدخل فى عمق الوادى بأتجاه شرقى وبعد أن عبرنا سبخة تجر هى وصلنا البلدة ذاتها حوالى الساعة الثالثة بعد سير سريع بلغ ثمانى ساعات .

تشكل تجرهى الحدود الجنوبية لفزان وتتبع الى مدير القطرون مثلها مثل بخى ومدروسة قصراوة ، ويترواح عدد سكانها بين 500 و 600 نسمة وأما بيوتها فهى خيام طينية منخفضة بنيت حول قلعة مهجورة فى الاحوال العادية ، وفى الازمات تعتبر ملجأ ولذلك فان كل صاحب بيت له بيت ثان فيها ، وفى ظل الحكومة العثمانية قلما يحدث أن تقع غزوة من جانب قبائل الطوارق ضد تجرهى ، وتقع البلدة على الطرف الجنوبى للسبخة الواسعة وفى المنطقة القريبة منها توجد عين ذات ماء عذب .

ان وادى القطرون كما يمكن تدعى الحفرة الواقعة بين مجول وتجرهى يجرى من الشمال الشرقى نحو الجنوب الغربى بطول قدره 15 ميلا ألمانيا ، وعرض يترواح بين كيلو متر واحد وكيلو مترين ، ان الجزء الغربى ذو تشكيلات رملية وأما الجزء الغربى فذو طبيعة من نوع الحمادة ، لقد حاولت أن أبحث دون نتيجة فيما اذا كان الرأس يمثل بجملته حوض نهر ، ويرى بعض السكان أن تجرهى هى رأس الوادى بينما يعتقد البعض الآخر أن مجول هى النقطة الاعلى ، وان ميزان الضغط لم يقدم لى معلومات أكيدة ، ويبدو أنه من الذكير لا يوجد مرتفع أو منخفض ويجب أن نفترض أن هذا المنخفض هو جزء من منخفض فزان الكبير اذ أن اطراف الوادى بأستثناء بعض المواقع مثل رأس تجرهى لايزيد ارتفاعها عن بضعة أقدام وهنا فى أطراف فزان لايفكر بالمطر

وهذا يتضح من أن الاهالى هنا لايطمرون مؤونة التمر فى الارض مثلما يفعلون فى مرزق والشاطىء ، بل يجعلونها اكواما على سطوح البيوت .

وفى المساء جاء خادمى عبد القادر السوكنى الى الخيمة مسرورا ، ويحمل ديكا فى يده فساله رفاقه من أين أتيت بالديك فاجاب : لقد حصلت عليه أجرا على عملى ، فقد شفيت مجنونا من الشيطان وأين بقى الشيطان ؟ لم أستطع الامساك به ، لقد نزل فى الماء ان مثل هذه العجائب ليست نادرة بين الشعوب المتخلفة ، وكان عبد القادر يتمتع لديهم بمنزلة خاصة لانه كان يتكلم الكنوريه أثر اقاماته الطويلة فى بورنو ولانه يتبع الطريقة العيساوية التى يعتقد الشعب أن أتباعها يؤتون العجائب ولكى يثبتوا مقدرتهم على الاتيان بالعجائب يقوم العيساويون خلال الاحتفالات العامة بابتلاع الضفادع أو الافاعى أو العقارب أو الزجاج المسحوق أو المسامير .

فى تجرهى تفاوضت لمدة أربعة أيام مع تبو الرشاده من أجل استئجار جمال نحو التبستى ، الا أن جميع جهودى ذهبت سدى ولم يبق أمامى سوى أن أتابع سفرى مع ميناآدم ، ولم أجد جمالا نحو كوار ذاتها وهكذا ظلت جمالى الخمسة محملة فوق طاقتها وعلاوة على الاغراض العادية كان علينا أن نحمل علفا لخمسة جمال وتمرا وخشبا لايقاد النار لان الصحراء التى سنقطعها الان لاتقدم شيئا لاورقة ولاعودا ، فى التاسع من أبريل حوالى الساعة 7¾ انطلقنا وكنا على طرف الواحة التى مازالت تمتد فى الاتجاه الجنوبى الشرقى ، حوالى الساعة العاشرة كنا الى الشرق من بير أومه وقبل أن ندخل هذه الصحراء الفقراء ، أتوقف كى أرسم صورة لهذه الصحراء .

الصحراء

المساحة ـ معلومات تاريخية ـ نظريات حول نشاة الطبقة الرملية ـ تجمع الرمال وتطايرها ـ الجبال الصحراوية ـ هضاب ومنخفضات ـ الواحات ـ أنهار وبحيرات ـ الرياح ـ السراب ـ الحرارة .

فى افضل المراجع الجغرافية تقدر مساحة الصحراء بحوالى 114600 ميل المانى مربع انها منطقة تبلغ ثلاثة امثال مساحة البحر المتوسط او عشرة امثال مساحة المانيا واذا ما استبعدنا تلك المناطق التى مازالت تتلقى المطر بانتظام اى الطرف المتاخم للمحيط والالسنة التى تتوغل فى الصحراء جنوبا يصبح عدد الاميال المذكورة عاليا جدا وقبل كل شىء يجب ان نؤكد ان ما يفهم تحت

اسم صحراء وأعتبره تعريفاً صحيحا هو الصحراء هى المنطقة حيث لا يسقط فيها مطر بانتظام ، ولا تنمو نباتات تتطلب المطر وحيث لا تعيش حيوانات مفترسة ذات اربعة اقدام ، وهكذا فان الاسبين لا علاقة لها بالصحراء اذ ان بارت يقول ان منطقة ظهور الاسد وغيره من الحيوانات المفترسة لا تبدأ الا جنوب خط عرض 18 فى الكتل الجبلية المشكلة فى جبال أوديرس واى ان الجزء الجنوبى من الآير يعتبر من بلاد السودان ومن يعلم فيها اذا كانت بوركو وعلى الاقل فى جزئها الجنوبى تعرف نفس النباتات والحيوانات ولكن اذا ما استبعدنا هذه المناطق القادرة على الانبات والتى تمثل شبه جزر تبقى مناطق شاسعة اطلق عليها اسم (ايريموس) بالاغريقية واطلق عليه الرومان اسم ديزرتوم desertum وما يسميه العرب ونحن حاليا الصحراء ، وهذه المنطقة تقع بين البحر للتوسط وبلاد السودان وبين المحيط الاطلسى والبحر الاحمر او ما بين درجتى عرض 33 د و 16 د شمال وبين درجتى الطول 1 و 50 شرقا وهى جزء من الحزام الصحراوى الذى يختط دون انقطاع تقريبا آسيا فى الاتجاه الشمالى الشرقى وحتى خط طول 140 د ولا تتوقف الا فى شرق منغوليا على اننا سنركز هنا على الصحراء الافريقية او الصحراء الكبرى .

ان معلومات الاغريق عن الصحراء كانت ضحلة جدا ، وفى الازمنة القديمة كان ينكر وجودها ، وقد علم هيرودوت من اتبارخوس الحبر الاعلى فى معبد امون ان خمسة من فتيان النسامونيين قد اخترقوا الصحراء ، وقد تكون هذه اول قافلة تذكرها المصادر - التاريخية وصلت بلاد السودان او ربما النيجر ، وعلى الاغلب كان للقرطاجنيين علاقات تجارية ناشطة مع الاثيوبيين وكان يشترك فيها ايضا الجرمنت .

وعندما اخضع الرومان الشاطىء الشمالى لافريقيا طمحوا فى توسيع سلطتهم فى دواخل هذا الجزء من العالم وان ما تبقى من آثار فى شمال الصحراء توضح هذا التوغل ، واما انهم قد وصلوا الى اناى حسب اعتقاد دوفيريه وفيفيان دى سانت مارتين وان هذه المنطقة هى اجيسبما ريجيو هذا ما يصعب اثباته ، ويعتمد دوفيريه فى فرضيته على ان حملة رومانية بقيادة سبتيموس فلاكوس ويوليوسى ماتيرنوس قد خرجت من جرمة نحو اناى ، وحسب روايات الاهالى ما يزال طريق سالك من تيلى زاراهن الى اناى على الحدود الشمالية لواحة كوار (بيلما) ولا يعرف لا محمد القطرونى ولا مولاى البصيركى ولا الحاج مصطفى الغاق ، وهم موثوقون فى ذلك - منطقة اخرى

تحمل هذا الاسم ، وحسب جداول بويتنغر فان للرومان طريقاً قوافل كانت تصل بعيدا فى اتجاه الجنوب وتبلغ اغادس - الحالية . وفيها اذا كانوا يسلكون هذا الطريق بانتظام ، فمن الصعب الاعتقاد بذلك لان - الجمل الذى لا يستغنى عنه فى الرحلات الصحراوية الطويلة ، لم يكن متوفرا لديهم وعلى الأرجح انهم كانوا يحضرون بضائعهم الى الجرمنت ويدعون لهؤلاء التجارة مع الاثيوبيين السود ، واذا ما وجدنا فى تلك المناطق صور عربات تجرها ثيران فان هذا لا يعنى اكثر من رسوم سفن وجدتها فى تافيلت وتوات واعتقد ان الحجاج المسلمين قد رسموها ليشرحوا لابناء بلادهم شكل السفينة التجارية ، وعدا عن ذلك فان دوفيرية يعتمد على حقيقة ان بارت قد شاهد فى تيليزاغن مثل هذه التماثيل ، ويقول بارت حرفيا : ان هذه الاشكال تماثيل تيليصاجى (تيليزاغن) ليست من اصل رومانى وليس لها علاقة بالطابع الرومانى ، واذا ما كنت اعارض دوفيريه تماما فى زعمه فانه لا يفوتنى ان استثنى الفصل الخاص بالجغرافية القديمة من كتابه اكتشاف الصحراء ، واعتباره افضل ما يتوفر لدينا حتى الان . . . حول الصحراء .

ما من شك ان جميع ارجاء الصحراء كانت فى السابق مغطاة بمياه البحر ، ان التصخرات الزائدة والقواقع التى تعرف حيوانات مازالت تعيش حتى الان فى بحار مجاورة وتفيد الكثبان الرملية الهائلة على طوفان قديم عم الارض ، ونظرا لكثرة الكثبان الرملية كان المرء ينظر الى الصحراء حتى وقت قريب على انها بحر كبير من الرمال وهذا التصور جرى التراجع عنه حاليا .

ويتبنى فاتون النظرية القائلة ان الكثبان لم تنجم عن طوفان ولم تحملها الرمال بل نشأت فى نفس الموضع حيث توجد عملية كيميائية لتفتت الصخور مازالت قائمة ويؤيد هذه - النظرية دوفيريه وآخرون ، وعلى كل حال فان الرياح لا تحدث سوى تغييرات ضئيلة فى الشكل الخارجى للكثبان وثانيا تقوم على سهول عالية جبال كبيرة من الرمال وثالثا فان الرمل يتشكل من نفس المواد التى تتكون منها البيئة المحيطة او الصخور التى توجد تحتها وعلى ما يبدو هناك تناقض قائم بين نظرية فاتون واثبات هذه النظرية ، لان الرمل حسب رايه لم يتبق من زمن البحر بل تكون نتيجة لتاثيرات الهواء فى الجو وهكذا ينبغى ان يكون الريح هو العامل الرئيسى فى تجمع الكثبان وكذلك فى تشكل الشواهد ، التى تنتصب مثل فطور صخرية عملاقة وهذا لا يمكن ان يفسر الا على اساس قوة الماء او الريح وان التفتيت الكيميائى للصخور بالنور

والكهرباء والحرارة والبرودة قد يكون ساهم فى التاثير ، الا انه لم يكن بوسعها
وحدها خلال الفترة القصيرة منذ وجود الصحراء ان توجد هذه الاكوام الهائلة
من الرمل الواسعة الانتشار ، ان هذا غير ممكن لان جفاف الهواء الصحراوى
الدائم لا يسمح بتبدل مؤثر فى المواد ، ان الحديد لا يتأكسد الا قليلا فى
الصحراء ، وهكذا لا يحتاج المسافر الى تزييت الاسلحة او الادوات الحديدية
للحيلولة دون الصدأ ، وان اللحم الذى يتعرض للهواء لا يفسد ، ان
الاجساد تجف خلال فترة بسيطة وتصبح مثل المومياء . فى مارس 1866م
شاهدت المطر فى فزان الا ان هذا كان بمثابة حالة نادرة ـ تماما اذ ان الاهالى
قالوا لى هناك مثلما قيل لى فى تافيلت وتوات وغدامس واوجله وسيوه انه قد
تمطر كل عشرين سنة مرة واحدة وفى كوار مركز الصحراء لا تمطر مطلقا ،
وعندما يتحدث دوفيريه عن هطول امطار شديدة شاهدها فى العام 1861م
على سفوح جبل الهقار فانه يجدر بالمرء ان لا ينكر ان جبال الهقار العالية فيها
ايضا قمم اعلى ، من يعرف مثلا ما هو ارتفاع وتللن ، انه يمثل جزيرة فى
الصحراء ذات مناخ خاص ، وعلى الرغم من ذلك يقول دوفيريه فى عين
صالح الواقعة على سفح الهقار قيل لى انه تمضى عشرون عاما دون ان تسقط
اقل كمية من الامطار .

ان السبب الثانى الذى يورده فاتون لصالح رايه لا يقوى على الصمود
للحجة ، نعم توجد فى الهضاب ، تلال رملية تشبه الكثبان الا ان نشاتها
تفسر ببساطة انه يمكن ان يفكر هنا بصخرة بارزة او بمجموعة صخور تصلب
حولها الرمل تلقائيا وانقلب الى كتلة كبيرة وان ما يبغى هذا الراى التوصل
اليه ان الكثبان تحتوى على نواة من الصخر او تقوم على الصخر وعلى العكس
من ذلك وقد لا يكون ذلك واردا فى معظم الحالات وحيث يصح هذا يكون
الرمل قد وجد بجانب الصخر او فوقه مكانا صالحا للتوقف ، وقد يؤيد المرء
راى ديزور ـ الذى يقول ان لدى جميع الكثبان نواة من الرمل الصلب اذ انه
حسب قانون الثقل فان الطبقات العليا تضغط على السفلى وكلما ارتفعت كتلة
الرمل كلما ضغطت على ما دونها وكلما كانت طبقات الرمل اعلى كلما زاد
ضغطها وكثافتها .

وعلى كل حال فان الفرضية القائلة ان رمل الصحراء من انتاج البحر تعتبر
الفرضية الطبيعية اذا كنا نرى كيف ان البحر يحت الصخور ويفتتها الى رمال
وينقله الى البر وهذا ما نراه على شاطىء بروسيا الشرقية والبحر المتوسط فى

طرابلس الغرب وكذلك على شاطى الاطلسى فى الشمال الغربى من افريقيا ،
وقد تكلم بحاثة آخرون تأييداً لهذه الفرضية ويكتب برويرمان من كوكه الى
بارت فى 7 سبتمبر 1862 واصفا رحلته عبر فزان ، جميع هذه الكتل الرملية
تكومت نتيجة طوفان مائى وليس نتيجة الرياح .

ومهما كان اكيدا ان الماءقد اوجد الكثبان فى الصحراء ، فانه اكيد ايضا ان
الرياح هى التى منحتها شكلها الخارجى ، انها تشبه الامواج وقد توقفت فى
بحر الرمال وعادة ما يكون اتجاهها من الجنوب الشرقى نحو الشمال الغربى
وعلى العموم فان مسار الرمل فى الصحراء من الشرق نحو الغرب او العكس
ولا نعرف فى اى مكان ان اتجاه الرمال من الشمال نحو الجنوب وبعض
الكثبان ترتفع من 300 حتى 400 قدم ، وفى العادة تمثل الجهة المعاكسة
للرياح السائدة وتكون عمودية 35 ـ 40 د وهكذا يحتاج المرء الى عمل درج
كى يستطيع الجمال الصعود على مثل هذه الكثبان ويكون ظهر الكثبان مستويا
مثل موجة البحر وهى تتلاشى واما الجهة المواجهة للرياح تتدرج تدريجا ، لم
نعثر على تغير لموضع الكثبان من الشمال نحو الجنوب واذا ما وجدت مثل هذه
الحركة نحو الامام فان طريق القوافل العميقة مثل الطريق من عين صالح الى
غدامس ستؤدى الى الكثبان الرملية التى تسير باتجاه الجدران ـ الجنوبية
وستختفى تحت الرمل او ان البحيرات فى واحة امون سيوة ستطمر بالرمل
وعلى العكس من ذلك نتاكد من وجود تقدم الكثبان من الشرق نحو الغرب
(حسب دوفيريه من الجنوب الشرقى نحو الشمال الغربى فمثلا نجد ان جزءا
من النخيل فى سبخة عين صالح قد غاص فى الرمال وتغطى الرمال تدريجيا
سطح السبخة ، وفى يومياتى من العام 1864 توجد الملاحظة التالية : حول
عقلى فى وادى الصاورة ويسكن هذا القصر حاليا حوالى 1500 نسمة وكان
عدد سكانه فى السابق اكثر من ذلك الا ان تضاؤل المواد الغذائية اثر زحف
الرمال على الاراضى دعا الكثير من السكان الى الهجرة ، ويكتب دوفيريه
ايضا حول هجر مناطق منزهة فى الشمال الغربى من ورقلة والشود غربى
غدامس ويقول ان هذا الوضع نجم عن زحف الرمال . ومهما كانت
التغيرات متنوعة وهامة ، ومهما كان اثر الريح فى تشكيل كميات الرمل
وتخزينها فأنه من الخرافة القول ان عاصفة رملية فى الصحراء ، ومهما كانت
عاتية ـ تستطيع ان تقبر قوافل فى الصحراء فاذا ماكان لدى الانسان والحيوان
مايكفى للحياة من الماء والطعام سيحافظون على المقدرة على استبعاد الرمل

عنهم وان يقاوموا دخوله الى الانف او الفم او العينين بلف الراس بكوفية او بقطع من الثياب ، وعلى كل حال لا يوجد فى الصحراء هياكل عظمية لافراد بل لمجموعات كاملة الى جانب بعضها البعض ولم يقتل هؤلاء بسبب العاصفة الرملية بل بسبب العطش لنفاذ الماء والاجهاد ومن الثابت تاريخيا ان جيشا ارسله قمبيز ملك الميديين والفرس فى العام 525 لاحتلال واحة سيوه ، قضى عليه خلال سيره عبر الصحراء ولكن عندما يروى ان الجيش قد قضى عليه بعد اليوم الثامن من انطلاقه من طيبة نتيجة تعرضه لعاصفة رملية عاتية قادمة من الجنوب فاننى اشك فى هذه الرواية على الرغم من ان ديزور وريتر يعتبران هذه الرواية واقعية ، ان السبب فى فناء الجيش يعود على الاغلب الى نقص المواد الغذائية وربما ضل الجيش طريقه او انه ضلل عن طريقه ويفسر بلزونى Belzoni كومة عظام عثر عليها بأنها بقايا جيش قمبيز . كيف يمكن أن تشاهد كومة العظام على وجه الأرض إذا ما طمرت العاصفة الرملية الجيش ، ويروى ريترعن قضاء الرمل على قافلة تتالف من 2000 انسان فى العام 1805 ويكتب مينوتولى ضد هذه الرواية ان جيش قمبيز او القافلة التى يبلغ عدد افرادها 2000 انسان التى يزعم بان الرمل قد غمرها ربما تعرضت للخماسين او العطش ثم غطيت الاشلاء بالرمال مثلما يحدث هذا فى الشمال حيث الرمل ولم ألاحظ فى حالة العواصف العاتية اكثر من مرور الرمل وتطايره عنى ، وقد تعرضت شخصيا مع قافلتى خلال ايام الى عاصفة رملية عاتية ولم نتعرض مطلقا الى خطر ان يغمرنا الرمل .

فى الجزء الغربى من الصحراء تسود تكومات رملية اكبر بكثير مما هى فى الشرق وهذا يعود الى سيطرة الرياح الشرقية وهكذا تتكون كثبان ذات سطح مستو باتجاه المحيط .

ومنها كميات كبيرة من الغبار تاتى باستمرار من الشرق وليس من المستبعد ان يكون الشاطىء الغربى لافريقيا قد اكتسب مع الوقت ارضا كبيرة نتيجة لتراكم الرمال على مدى الاف السنين .

وتبدو الكثبان للنظار اما انها فاتحة بيضاء او غامقة اكثر مائلة إلى الحمرة مثل جميع الكثبان الواقعة الى الشمال من طريق القوافل بين توات وغدامس ، وحسب راى فاتون فان اللون الاحمر ينجم عن جزئيات او أكسيد الحديد المخلوط بالرمل ، ولم يتوصل فاتون خلال تحليلاته لرمل الصحراء الى العثور على ذهب .

تختلف الاسماء التى تطلق على كثبان الرمل من لغة الى اخرى ، فى الغرب تدعى العقدة قيدى الجدى وفى الوسط عرق وفى الشرق رمل او رملة .

وتسمى تبعا لشكلها الخارجى قرد او كلب او خشم الكلب او خشم الكبش وسيف يطلق على الظهر واما رملة او خيط فيطلق على كثبان تمتد طولا .

واما الصخور والكتل الجبلية فهى ذات لون اسود الا انه من الخطأ القول ان اصلها بركانى انطلاقا من لونها ، وحسب معرفتنا الحالية للصحراء فان الطبيعة البركانية تغلب عيها الا انه توجد فى كل مكان تقريبا تشكلات كلسية ورملية ، واما التشكلات الغرانيتية فانها اول ما تظهر جنوبى خط عرض 17 شمالا ولاتظهر شمالى هذا الخط إلا فى المرتفعات الشاهقة للأطلس ، ان اللون الاسود الغامق الغالب على الصخور والشكل الغريب والنادر للصخور والخلو التام من النبات فى جميع الجدران الجبلية كل هذا يقدم منظرا مخيفا للرحالة ويحذره اكثر بكثير من الكثبان الرملية الممتدة انه الان فى وسط الصحراء .

وحسب معرفتنا فان ارتفاع الجبال الصحراوية لايفوق المرتفعات الاوروبية الا ان امتدادها لايقل عنها ان جبل الهروج او جبل السوداء الذى يعتبر امتداداً غربيا له قد لايقل طوله عن امتداد سلسلة الابنين التى تخط ايطاليا وان جبال الهقار بالارتباط مع الادرار وتاسيلى وموبدر تبلغ فى مساحتها جبال الالب فى سويسرا وان اعلى جبل نعرفه فى الصحراء وهو قمة توسيدى فى جبال تبستى وان ناختيغال الذى بلغ الممر الرئيسى فيه قاس الارتفاع وكان 6600 قدم ويقدر ان توسيدى اعلى من هذه النقطة بحوالى الف قدم وعدا عن الكثير من تحجرات الحيوانات البحرية وانضغاطها وقشراتها التى نراها ايضا فى الاجزاء الجنوبية من الصحراء نجد هنا اثنين من الاشكال المتحجرة ذات الطابع الخاص انها جوزات حجرية وعيدان حجرية ، ان حجم الجوزات يتراوح بين بوصة وحجم الكف وهى رصاصية اللون مائلة للسواد ذات رنين زجاجى وداخلها مجوف او مملوءة بالرمل الابيض على الرغم من انه لاترى اية فتحة فيها واما العيدان فذات لون ازرق ويصل طولها الى قدم وقطرها نصف بوصة او يزيد من الخارج خشنة ومن الداخل ذات جدران مصقولة وفى الطرفين او طرف واحد معوجة نحو الخارج تشبه تيجان الاعمدة الكورنتية .

ان التسميات المعتادة التى تطلق على الجبال هى كلمة جبل بالعربية وادرار بالبربرية وايمى بلهجة التيدا كما يطلق اسم راس على جبل منفرد قائم لوحده وعلى البروزات الجبلية ايضا واما اسماء كدية خور وقور فتطلق على هضاب مفردة وتطلق اسماء فج وتنية وتيهى وقارا على الشواهد كما تطلق اسماء كان على الصخور وعرقوب وعقبة ومنزل على جدار صخرى وخارب على ظهر الجبل وشنق او شنيق على الممر الجبلى .

وتشغل الهضاب المسطحة الجزء الاكبر من الصحراء وان الهضبة ذات الصخور الحادة الاطراف تدعى الحمادة او تانزروفت واما الهضبة المغطاة بحصى صغيرة ملساء فتدعى سرير ونتيجة لوجود الصخور ذات الاطراف الحادة يمكن ان تظهر الحمادة وكانها لم تغمر بماء البحر وان المستحجرات التى نجدها هنا لاتدع مجالا للشك في ذلك .

ان الحمادة والسرير تعرف أرضاً طينية وفى بعض المواضع تقسو بحيث تصبح حجرا وتتلون بالاحمر نتيجة لاختلاطها باوكسيد الحديد ولذلك يطلق على كثير منها اسم حمراء وهى عديمة النبات ، ان السهول على طرف الصحراء حيث تظهر بدايات النبات الضعيفة تسمى الساحل .

وعلى عكس الهضاب توجد المنخفضات التى تدعى حفرة او جوف ان ارضها تتكون من طين او رمل وهى عادة الخزان الحقيقى لرمل الكثبان وان حفرة حقيقية ينخفض مستواها عن سطح المحيط لم يعثر عليها الا فى جنوب ما يدعى بحر الرمال الليبى ويمتد هنا باتجاه غربى وشمالى وجنوبى ولا نعرف مداه نحو الشرق ان منطقة شط الملاخير هى عبارة عن منخفض ربما كانت تصل فى السابق حتى السرت الصغير بواسطة شط غرم والشط الكبير وعلى الارجح تقوم فيها منخفضات اخرى مثل ذلك الذى يقع غرب الصحراء ويدعى فى الخرائط الجوف وهو دون سطح البحر وان الكثير من سكان الصحراء يطلقون اسم حفرة على المناطق المنخفضة نسبيا عما يحيط بها وان نشأة هذه الحفر تعود الى أن مناطق قد عرفت ارتفاعا لم تشترك فيه بعض المواضع وأننا نجد الارتفاعات والانخفاضات على شاطىء الشمال الافريقى ، ان الشاطىء الحبشى وشاطىء البحر الاحمر بجانبية والى أن يبلغ السويس يتدرج ارتفاعاً بينما ينخفض شاطىء الشمال الافريقى حتى تونس ، قديما كانت بحيرة المنزلة برا ، أن حمامات كليوباترا غاصت تحت الماء وأن آثار برقة تنزل أكثر فأكثر فى البحر ، وأن لبدة تغوص فى جزء منها فى البحر وأما

الجزء آلاخر فتغمره الرمال ، ان مدينة طرابلس كانت تمتلك فى السابق شاطئا اعرض على البحر ويتذكر بعض الجيل الذى مازال على قيد الحياة أنه كان يذهب من الميناء الى باب القصبة ، والان تلامسها الامواج وقد انخفضت الارض هناك بحدود قدم واحد خلال ثلاثين عاما ، ويقع جزء من آثار صبراتة أيضا تحت الماء وأن هذا الغمر التدريجي يمتد حتى خليج قابس ، وفى تلك الاثناء نلاحظ ارتفاعا فى الشاطىء التونسى واذا ما حدثت فى طرف الشمال الافريقى حركة مختلفة فى سطح الارض فانه يجدر بنا ان نفترض مثل ذلك فى دواخل القارة ان ديزور يعتبر منخفض وادى الغير بمثابة تجويف الا انه لايتجاسر مبدئيا على البرهان على نظريته واننى اعتقد انه اذا كان الراين استطاع تجويف بحيرة كونستانس والرون بحيرة ليمان وجوفت انهار اخرى أحواض بحيرات خلال جريانها فما المانع من ان يكون وادى الغير وشط الملاخير فى السابق عبارة عن بحيرات كان يجرى عبرها الغرغار ان دراسات دوفيرة ورحلات بودربة قد اثبتت ان الغرغار يصب فى وادى الغير ، وان ظروفا مناخية وطوبوغرافية مناسبة ربما جلبت الغرغار كميات ماء هامة وانّ حت الغير كان مثل بحيرة كونستانس فى هذا النهر .

ان الواحات تشكل عضوا وسطاً بين العرق والجبل والحمادة والسرير والجوف والوادى والغرغار والسبخة ، حيث يسقى الماء الارض فى الصحراء ولو انه ماء مالح تظهر الخضرة وتنمو النباتات ويؤكد بارت انه حتى فى الرمال التى تبدو قاحلة يوجد الرى حياة نباتية متنوعة .

ويميز بين أنواع مختلفة من الواحات التى تسقى طبيعيا تنقسم الى نوعين تلك التى تسقى من مياه جارية فوق سطح الارض وتلك التى تروى من مياه جارية تحت الارض ، ومن النوع الاول واحة وادى ـ درعة التى تدين بوجودها الى نهر درعة ، وواحات تافيلت العليا حيث يجرى سيس وتتبع لهذه الواحات واحة تافيلت الواقعة جنوبى أرتب ومعظم واحات توات الشمالية وكثير من الواحات الواقعة جنوبى الاطلس وأما الواحات المروية اصطناعيا فهى أما التى تروى من عيون تتدفق من الارض مثل غدامس وسيوه أو تلك حيث لا يوجد ماء جار بل يعثر عليه على عمق قدم أو قدمين من سطح الارض مثل واحة كوار وجزء من واحات فزان أو يوجد على عمق 12 ـ 30 قدما وينبغى أن يرفع الماء من هذه الابار مثل واحات فزان الاخرى ووادى .

سوف يضاف الى ذلك تلك الواحات التى ينقل اليها الماء بقناة اصطناعية من منطقة بعيدة مثل تدكليت وعدة واحات تقع جنوبى الاطلس .

وأما الواحات ذات الماء الذى ينساب فوق الارض فتوجد فقط قرب البروزات الجبلية الكبيرة وعلى وجه التحديد على السفح الجنوبى للاطلس وهى أفضل وضعا من الجميع . لان النهر لا يقدم فقط كميات كافية من الماء للسقاية فى كل فصل من فصول السنة بل يبرد الهواء شيئا ما ويعطيه كثيرا من الرطوبة بحيث تنمو فيها ثمار منطقة المتوسط على السكان أن يهتموا فقط بالمنشآت والانابيب وهى ترتب على أساس تأمين الماء الكافى لرى الأراضى المزروعة ، وبالطبع يتأثر مجرى النهر نتيجة للتبخر الشديد . الذى سببه جو الصحراء الجاف وبذلك يقل الماء تدريجيا، وحتى درعه ذاته لا يبلغ المحيط الاطلسى الا فى فصل الربيع وفى تلك السنوات التى تعرف كميات غير عادية من المطر وعند ذوبان الثلوج عن الجبال الامر الذى يؤدى الى زيادة تدفقه وأما الانهار الاخرى التى تتجاوز ضفافها تشكل سبخات ومستنقعات وبحيرات .

ان الواحات ذات المياه الجارية تحت الارض تعتبر فى وضع أقل جودة من هذه فاذا ـ لم يجف الماء فى الوديان تماما، فان الارض لا تعرف الرطوبة الكافية الا فى الربيع بحيث تسهل العمل فى الارض بواسطة الفأس .

وحيث يؤخذ الماء اللازم للانسياب من عين متدفقة أو أكثر ينبغى أن تعمق الارض بنقل التربة، والعمل يجب أن يعاد كل مرة من جديد، اذ أن السماد والرمل الذى يحمله الهواء يملأ الارض التى جرى تعميقها وأن مثل هذه الواحات تمتلك أكبر كثافة سكانية ولهذا فمن الضرورى توزيع الماء بنظام دقيق ومراعاة التوفير بالماء اذا ما أريد له أن يكفى جميع الاراضى .

وفى الواحات التى يقترب فيها الماء من سطح الارض تنمو عادة أشجار النخيل. واذا ما رغب المرء فى زراعة الارض فيبقى أن تعمل حفرات فى الارض يؤخذ منها الماء واذا ما كان الماء على عمق لا تصله جذور النخيل فمن الواجب حفر آبار كثيرة أو قليلة العمق . فى الصحراء الجزائرية قام الفرنسيون بحفر آبار اصطناعية يخرج منها الماء من عمق 500 قدم كما يخرج من عين طبيعية . وفى حالة الآبار التى بلغ عمقها 20ـ50 قدما يلجأ الى وسائل مختلفة لرفع الماء، وأن ابسط طريقة هى تلك التى تستعمل اليد الانسانية فى سحب دلو من الجلد أو الخشب بعد ملئه من البئر، واعقد من ذلك هى طريقة الناعورة التى اخترعها العرب فى الاندلس وهو عبارة عن

دولاب افقى يتعشق بأسنان دولاب عمودى ويلف حول الاخير حبل طويل تثبت فى نهايته أوعية تسقط فى الماء فتملأ وتسحب وتدور الدواليب جمال أو حمير، أو ثيران، أو خيول، أو بغال كما أوجد العرب أيضا طريقة نقل الماء بالقرب وهى فى طرفها واسعة وفى مقدمتها مائلة وذات فتحة ضيقة، وتدلى القرب من الطرف المائل للبئر، ويرميها انسان أو يساعده حيوان وبعد أن تمتلىء من الجهة الواسعة يميلونها بحذر بحيث تصبح عمودية ويسحبونها نحو الاعلى، وبعد أن تصل الى الاعلى تجعل فى وضع تنخفض الجهة ذات الفتحة الضيقة بحيث يصب منها الماء، أن سحب القرب عمل مجهد جدا لان سعة بعضها يصل الى 200 ليتر ويجب أن يستمر العمل ليلا نهارا للحصول على الماء الكافى لسد حاجة الاراضى، وأن أكثر الطرق اصطناعية واتساما بالبراعة هى تلك المتبعة فى توات وتدعى الفجارة وهى عبارة عن أقنية تجرى تحت الماء يبلغ قطرها حوالى قدمين وطولها عدة آلاف من الخطوات وتنقل الماء اللازم، فاذا ما وجد المرء ماء فى مواضع صخرية غير مزروعة من الصحراء ينقل هذا الماء الى المكان الذى تسمح به الارض بنشوء واحة ولكى لا يتبخر بسبب الهواء الجاف، عملت أقنية تحت الارض وغالبا ما كان الماء الذى يعثر عليه غير كاف لحاجيات واحة لذلك يفتش فى المناطق المجاورة ـ عن آبار أخرى وتربط هذه الاقنية الفرعية بالقناة الرئيسية وكذا تتشكل الفجارة من شبكة كاملة من الاقنية تحت الارض وهى تشبه شجرة بفروعها وأغصانها وبالطبع توضع أحجار كبيرة فوق الفتحات بحيث تمنع دخول الهواء الذى يسبب التبخر .

ان العين تعنى بالبربرية تيت وبلهجة التيدا قلة والحاسى هو عبارة عن سانية جهزت اصطناعيا لرفع القرب، وأما القناة تحت الارض فهى فجارة واذا كانت فوق الارض فتدعى ساقية، أن كلمة واحة غير معروفة لدى سكان الصحراء وحسب ريتر قد تكون أخذت عن المصريين أو الاغريق وربما تربط كلمة واح الشائعة فى الشرق مع الكلمة القبطية التى تعنى بيت أو مسكن ، وأن الواحات الكبيرة مثل تافيلت وفزان وغيرها تدعى بلاد والواحات الأصغر تدعى غابة أو غوط كما تستخدم كلمة ود ووادى ، ـ لتدل على الواحة .

فى جميع أرجاء الصحراء لا يوجد نهر واحد ذو ماء دائم الجريان على وجه الارض ـ وحتى نهر درعة ذاته اذا ما اعتبرناه من الصحراء نلاحظ أن ماءه لا

يبلع البحر الا فى ظل أوضاع استثنائية وفى العادة يجرى الى نقطة حيث يتحول فيها مجراه الجنوبى نحو الغرب وعلى العكس من ذلك لا ينصب ماؤه تحت الارض فى أى فصل من الفصول ، ان وادى النهر ـ الذى يتشكل فى الشمال من عدة فروع تكون واحة توات ويتسع حوضه فى مواضع قليلة مثل الميه والغرغار حيث يبلغ عرضه مسيرة عدة ساعات وليس فيها أى مكان ماء فوق الارض ـ ومن المؤكد أن مثل هذا الحوض النهرى العريض والعميق لا يمكن أن ينشأ الا فى إثر كميات هائلة من المياه وبذلك نصل الى النتيجة أن الصحراء قديما كانت تعرف ظروفا طبوغرافية مغايرة ومناخا مغايرا كان يسمح بسقوط الامطار فامتلأت الانهار بالمياه، ونجم عن ذلك غطاء نباتى تشير اليه التحجرات التى نراها لغابات كاملة جميع أنهار الصحراء كانت فى البداية شديدة الجريان ثم تحولت الى نظام انتشار الفروع والمجرى الطويل دون فروع ـ جانبية : إ هذه الخواص المشتركة لهذه الانهار أصبحت ضرورية بسبب طبيعة البلاد وهذه الانهار اذ تنبع من مناطق ذات امطار هامة سواء كان ذلك على الاطلس أو الهقار أو عندما ينظر المرء الى النيل على أنه نهر صحراوى يجرى عبر وسط افريقيا الرطب ويعبر خلال سيره منطقة سهول تفتقر الى المطر ولا تستطيع أن تقدم له فروعا جانبية، أن اطلاق أسم واد أو وادى على مجرى الغرغار يعنى بالطارقية حسب دوفيرية أعزر أى نهرا أو حوض النهر وفى التيدا يرى حند حوض النهر وفوق نهر .

ومما يثير الانتباه هو كثرة أحواض البحيرات فى الصحراء ولا تنتشر البحيرات فى المنخفضات فقط بل فى مناطق عالية من الصحراء، مثلا فى فزان ، كم يجب أن يكون تيار الماء تحت الارض قويا حتى يحافظ على مستوى الماء فى هذه البحيرات التى تتعرض لبخر شديد ؟

ان ارض البحيرات الجافة والتى تحولت الى سبخات ذات ارض قاسية مالحة، تتكون فى بعض الحالات من ملح فقط كما هو الحال فى بيلما، ان الارض الملحية تتشقق الى اشكال منتظمة واحيانا سداسية، واحيانا تكون هذه الاشكال غير منتظمة مثل تامنتى وفى الغالب تصعد كتل مثل قطع الجليد وتترتب فوق بعضها البعض، وتوجد سبخات ذات امتداد هائل تتكون فى داخلها واحات على شكل جزر وهذه السبخات تصل حتى الشمال فى مناطق هضاب الاطلسى وتسمى شطوطا .

ان احواض المياه الكبيرة، تدعى «بحار» وفى الطارقية «اجتهان» وغدير تدعى فى الطارقية «ابنكور» واما المستنقع المالح فيدعى فى الطارقية «قرة» واما المستنقع والمياه العذبة فهو حالة نادرة جدا ويدعى «دايا» ولم يعثر المرء حتى الآن فى الصحراء على بحيرات ذات مياه عذبة .

ان الظروف المناخية الحالية فى الصحراء تختلف بالطبع نتيجة طبيعتها عن مناخ كل المناطق على الارض التى تماثلها فى درجة العرض اختلافا بالغا وليست الارض المجدبة هى وحدها التى تسبب الجفاف الهائل فى الهواء، بل الرياح المسيطرة وكما لاحظنا فى شرح شكل وموقع الكثبان الرملية تهب تقريبا على الدوام رياح شرقية فى الصحراء ولما كانت هذه الرياح لاتأتى من البحر بل من اعماق القارة الآسيوية لاتحمل معها رطوبة بحيث تشكل غيوما، وحتى اذا ماحملت الرياح الغربية فى حالات استثنائية غيوما من الميحط الاطلسى الا ان الحرارة التى تصدر عن الارض تفككها وتبعثرها قبل ان تتكثف وتسقط مطرا .

واذا ماوصلت الرياح الشرقية التى تهب فوق الصحراء الى شاطىء الشمال الافريقى فانه يهب باعتباره قبلى او خماسين وينتقل حتى اوروبا عبر البحر المتوسط، واما كثافة الهواء التى ينسبها المرء هنا الى ضباب رطب، فانما تأتى من الغبار الذى يحمله معه القبلى من الصحراء وفى مالطا اشار ميزان الرطوبة خلال هبوب رياح القبلى وتعكر الجو، ان الجولم يكن رطبا بل جافا اكثر من المعتاد وقد اطلعت السيد روزنبوش (Rosenbusch) مراقب محطة التلغراف فى مالطا على انخفاض ميزان الرطوبة وان ـ الملاحظات التى جرت فى نفس الوقت اثبتت انه عندما يهب فى قارتنا ريح حار دون ـ سقوط الغبار فان هذا يعنى انه قد هبت قبل ذلك رياح القبلى فى الصحراء، ان غبار القبلى الذى وصفه اهرنبرغ (Ehrenberg) فى 23 و24 مارس 1869م لاحظته شخصيا عند هبوب رياح شرقية وجنوبية شرقية عند قيقب، وكانت الريح تدور بسرعة نحو الجنوب والجنوب الغربى وفى يوم 24 مارس اصبح غربيا ثم غالبا غربيا فى 25 ـ مارس بعد الظهر، ان سرعة دوران الريح تفسر ان الغبار الذى حمل نحو الاعلى يوم 24 مارس عند الدردنيل كان يسقط فى الشمال الشرقى، وان لون الريح المائل الى الحمرة يؤكد على ان مصدره من الصحراء ذات الارض الحمراء، وعندما سقط الغبار الاحمر فى 10 مارس 1869 فى سربياكو وايزولا دى سورا على مقربة من نابولى عشت فى نفس الوقت فى طلمية عاصفة رملية عاتية قادمة من الجنوبى الشرقى وحتى الثلج الاحمر الذى يسقط فى بعض الاجزاء الشمالية قد

يكون مصدره من الغبار الصحراوى والاحمر، والى اى حد يستطيع الهواء ان يحمل جزئيات عضوية ولاعضوية يمكن ان يفسر على ضوء الملاحظات التى جرت فى يوليو 1869 فى نابولى اذ وصلت رائحة المستنقعات من شمال المانيا، ويروى برستل prestae ان رائحة مستنقعات شمال المانيا وصلت خلال الفترة من 10 ـ 19 مايو 1857 الى كراكوف وانتشرت فى روسيا، وبصورة رئيسية فان الرياح التى تهب فى وسط الصحراء مابين خط عرض 18 و25 شمالا تلف الريح وتحمل معها فى احر الايام تلك الكميات من الغبار واذا ماغيرت الرياح فجأة وجهتها وهى عادة شرقية او جنوبية شرقية، فوق واد جانقة وارتفعت فان بوسعها ان تهب فوق فزان من الجنوب وفوق طرابلس من الجنوب الغربى وفوق البحر المتوسط من الشمال الغربى وفوق تركيا من الشمال او الشمال الشرقى دون ان تفقد الغبار خلال الطريق نتيجة لسرعتها الهائلة وخفة ذرات الرمل.

فى جبال الالب السويسرية تهب الرياح الشرقية القادمة من الصحراء باعتبارها ـ رياحا دافئة جنوبية وهى السبب فى طراوة او انصهار المجارى الجليدية ويزعم كون (kuhn) ان اثر الرياح الصحراوية يصل حتى المنطقة القطبية، لماذا لايجدر بنا ان نوافق على كلمة ديزور الجميلة «ان الصحراء هى المنظم العظيم لمناخنا».

فى الغالب يعلن القبلى عن قدومه قبل فترة تبلغ عدة ساعات قبل هبوبه، اذ تبدو الشمس وهى على الافق عند شروقها حمراء متوهجة، وكلما اقتربت السحابة الرهيبة كلما اظلمت السماء وتنطلق العاصفة ومامن شىء يقاوم قوتها الخيام المنصوبة تقتلع مهما كانت مثبتة بالاوتاد وتتدحرج احجار بحجم الكف على الارض مثل قصاصات الورق ـ وتصطدم ذرات الرمل بجسم الانسان بقوة بحيث يشعر المرء بالم فى مكانها وغريزيا يدير الانسان والحيوان ظهره لجهة الريح، وتخر الجمال على ركبتيها وتبحث الخيول خائفة عن ملجأ لدى الانسان وعادة ماتمر العاصفة بسرعة قدرها 30 مترا فى الثانية وتستغرق عدة ساعات او نصف نهار وفى حالات استثنائية تستمر عدة ساعات بنفس القوة، وان اطول واشد عاصفة شهدتها كانت قرب اوجلة واستمرت اربعة ايام بلياليها من 17 ـ 20 ابريل 1860 وقد دارت جميع جهات الريح عدة مرات الى ان حافظت خلال اليومين الاخيرين فى الغالب على الاتجاه الشمالى الغربى، وفى مذكراتى بالاحوال الجوية كتبت الملاحظة التالية: كل شىء عبارة عن بحر من الغبار ان غبار الرمل اخترق صناديق غلفت مرتين وعطل جميع ساعاتى، واذا لم يشعر المرء

فى اوروبا بهذه العاصفة، عليه تكون عاصفة دوارة محلية ضخمة غالبا ماتحدث فى الصحراء واما العواصف الاصغر والتى يبلغ ارتفاعها بين 20 و 30 قدما فكنا نشاهدها يوميا تقريبا، ولها شكل زجاجة مقلوبة وتعرف حركتين: حركة دائرية حول ذاتها وحركة اخرى سريعة الى الامام وتصل العواصف الاشد الى ارتفاع يبلغ عدة مئات من الامتار.

ان الظواهر الكهربائية التى تعقب الرياح الجنوبية والجنوبية الشرقية سبق ان تعرضت لذكرها، وقد لاحظها ليون ودوفيريه ايضا، وطبقا لثلاث ملاحظات قام بها دوفيريه اثنين منها كانت مباشرة بعد عواصف عنيفة واما الثالثة بعد يوم ولاحظ فى الحالات الثلاثة انه يعقبها ريح غربى، ومثلما لاحظت ان شرارة تتطاير عندما كنت امر بيدى على شعر كلبى رأى دوفيريه مساء ان شرارة تتطاير عندما يضرب حصانه بذيله.

ان البرق والرعد نادرا جدا فى الصحراء، واما على الاطراف الجنوبية للصحراء فيقع اكثر، وعندما يهدأ الهواء تماما وهذا لايحدث الا خلال ايام قليلة جدا تزيد القدرة على الرؤية، بحيث يستطيع المرء ان يرى الاشياء البعيدة اوضح مما يراه فى مناطق اخرى، وعادة مايكون الافق ازرقا مغبرا، وفى غالب الاحيان تحيط بالقمر دائرة وليلا تدخل الرياح المحملة بالرطوبة من الشمال والغرب فى الفراغ الذى تركته الرياح الساخنة، الا ان الرطوبة لاتتجمع بكمية تسمح بسقوطها مطراً او ندى وفى وسط الصحراء لاتمطر مطلقاً.

اذا ماشرقت الشمس عدة ساعات فانها تسبب هواء حاراً ينتج بالانسجام مع انعكاس اشعة الشمس تلك الصور المضللة وهو مايدعى بالسراب، وان خيال بعض الرحالين جعل منها قصورا رائعة وبساتين من الاشجار والورود ومجموعات من الفرسان ومايشابه ذلك، ولم اجد فيها سوى صورة امواج كبيرة، وكثيرا مايعتقد ان الظواهر لاتتعلق بامكنة معينة، وعلى كل حال لاتقترن فقط بالسهل حسبما يعتقد دوفيريه بل تشاهد ايضا فى المناطق الجبلية.

ومهما كانت تغيرات مؤشرات ميزان الضغط الجوى فى الصحراء بالغة، كلما كانت تغيرات ميزان الحرارة زائدة، ان هبوط وصعود الحرارة حوالى 20 درجة يوميا امر عادى ففى الشتاء يمكن ان تهبط درجة الحرارة فى فزان الى 30 لترتفع فى نفس اليوم بعد الظهر الى 20 فى الظل، وتتراوح حرارة ابرد الايام التى تعرفها الصحراء بين 3 و +4 وعلى العكس من ذلك تصعد الحراراة فى الظل خلال الفصل الحار فى كوار الى مايزيد عن 50 د وفى الليل لايبرد الهواء كثيرا

بحيث ان درجة ميزان الحرارة تشير قبل شروق الشمس الى +20 د لحد الآن ليس هناك مايبين متوسط درجة الحرارة فى الصحراء ولم يجر تحديدها الا فى بعض المناطق، وعلى الرغم من الحرارة الزائدة التى تسيطر على بعض المناطق وهى اعلى دوجة حرارة على وجه الارض الا ان المناخ صحى على وجه العموم ان جفاف الهواء مطلق تقريبا، اذ يشير ميزان الرطوبة الذى احمله من نوع يكتران بباريس فى الغالب عند احر العواصف الرملية اقل من 30٪ رطوبة وهذا لايؤثر سلبياً على صحة الانسان ويبدو انها صحية وجيدة للرئة ويمكن ان يكون لهذا الهواء اثر شاف فى حالات السل، وحتى المتطورة منها.

واذا مالاحظنا ان انتشار النباتات يتقدم من الجنوب نحو الشمال، فانه لن يكون غريبا ان الارض الرملية فى الصحراء يمكن ان تغطى يوما بالغابات كما كانت فى السابق، واذا ماتقدم سقوط الامطار فى وسط افريقيا باتجاه الشمال فان الصحراء لن تحافظ على صحراويتها خلال الآف السنوات، وان الانسان بذاته سيساهم فى ذلك اذا ماظهرت حاجة اليه ولنختتم حديثنا بكلمات ديزور: فان الصحراء ستصبح بعدئذ مالم تكن عليه فى السابق ستصبح مغطاة بالاعشاب، وسهلا مغطى بالسافانا أو أراضياً زراعية عندئذ ستعود جبال الالب لدينا الى مناخها الحقيقى وهو ابرد مما هو عليه الآن واخف برودة من العصر الجليدى.

بين فزان وكوار

نهر جورى - العقبة بوئيا والعقبة كونو - جبال تومو - نهر لاكاكينو - منخفض مافرس - على مقربة من تيج غرونتو - واحتا يات واعقيبه - الوصول الى حدود كوار.

منذ ان ادرنا ظهرنا لواحة تجرهى الحدود الجنوبية لفزان لم نشاهد حولنا سوى الرمل والحصى وبعض الحجارة الرملية وتابعنا سيرنا باتجاه 175 د ووصلنا الساعة $2\frac{1}{2}$ بعد الظهر من يوم 9 ابريل الى وادى الجورى.

ان الجورى (الحاد) يأتى من الاطراف الجنوبية لجبل بن غنيمة ثم ينحنى غربا ثم يغور فى الرمل على مسافة ست ساعات عند بلدة جورى صورما، ويطلق عليه العرب اسم وادى الحاد نسبة الى عشب الحاد (دليلة) الذى ينبت فى المنطقة بعد سقوط المطر وبالطبع لم اتمكن من رؤية شىء منه الآن لانه

لم تمطر منذ وقت طويل، وهو نبات ذو اشواك كثيرة وهو لايشبه الدمرحن الذى يبلغ مع بقيل فزان حدوده الجنوبية القصوى..

ولما كنا الآن قد بلغنا منطقة التبو لن اكتب من الآن فصاعدا اسماء المواضع بالعربية بل بلغة التيدا وذلك كى اتفادى كثيرا من الخلط، فالعرب يسمون المناطق التى يحلون بها بأسماء مثل محمد، على، وفاطمة، وهذه الاسماء يجدها المرء فى كل مكان مثلهم فى ذلك مثل الانكيز الذى يطلقون اسماءهم على البلدان والجبال والانهار والبحيرات الخ.. مثل اسم فيكتوريا، والبرت، وجورج.

على مسافة نصف ساعة شرقا وبعد ان سرنا على طول جورى ضربنا خيامنا حوالى الثالثة بعد الظهر وقد اتفقت هنا مع التبو الذين تبعونا من تجرهى على استئجار احد جمالهم، وبناء على تدخل مينا آدم خفضوا شيئا ما من الاجرة المبالغ فيها وعلى الرغم من ذلك بقيت الاجرة عالية، الا اننى كنت بحاجة الى الجمل والا سيترتب على ان اسير الطريق على اقدامى نتيجة لزيادة حمولة جمالى. فى تجرهى وجدت خادما جديدا عوضا عن خادمى الاسود الذى صرفته من خدمتى فى القطرون، ان الخادم الجديد هو مملوك اسود اصبح حرا اثر وفاة سيده وقد رغب فى الانضمام الى خدمتى لانه بهذه الوسيلة يعود الى وطنه، ولما كان قد اتى وهو صبى الى فزان لم يكن يتذكر او يعرف فيما اذا كان من بورنو او الهاوسا او باجرمى او من بلد من بلاد السودان.

وحوالى الساعة السادسة من صباح اليوم التالى انطلقنا وقد امتلأ الجو بالغبار اثر ريح جنوب شرقية عاتية حرمتنا من الرؤية بعيدا، ولذلك لم يكن بوسعى ان ارى جبل دباسية على مسافة 6 ـ 8 ساعات شرقى جورى وبعد صعود سلسلة من الهضاب وصلنا حوالى الساعة الثانية بعد الظهر الى وادى دندل قلاديمه وحوالى الساعة الرابعة الى وادى مشروهما ينطلقان من الدباسية وحوالى الساعة السادسة بلغنا بئر مشرو عند السفح الشمالى لمرتفع منخفض، وفى هذه الوديان يوجد العديد من التلال المفردة الناتجة عن جذور النباتات وبخاصة الاتل ويبلغ ارتفاعها الوسطى حوالى 50 قدما وهذا يدل على ان الارض التى تتشكل الآن من رمل وحصى فقط كانت فى السابق قادرة على تقديم الغذاء لنباتات غير قليلة الشأن، والى جانب طريقنا وجدنا اطلال عمود من المرمر، وان اتباعى والتبو يعتقدون ان هذه عبارة عن عظام اناس

تحجرت قطعا قطعا وفى تقاريرى التى وجهتها الى الدكتور بيترمان عبرت عن اعتقادى ان الامر يتعلق هنا ببقايا بلدة كان يسكنها الجرمنت الا اننى تراجعت عن رأيى وارجح ان مثل هذا العمود ذا المقاييس الجميلة والارتفاع الذى يبلغ حوالى 20 قدما يوحى انه عمل رومانى على انه نظرا لعدم وجود تشكلات كلسية او مرمر فى المنطقة يمكن ان يكون قد احضر من منطقة بعيدة ، وربما انشأ الرومان هنا محطة لمرحلة بعد منطقة اغيسيمبا (Agisimba) وفى هذا يتطابق رايى مع فرضية سانت مارتين او ان الرومان انشأوا هنا تمثالا لتخليد المنطقة التى بلغوها ، الا ان هذا لاينفى ان يكون الجرمنت قد انشأوا بلدة فى المنطقة ويؤكد هذه الفرضية البئر التى عمل جدارها من حجار منحوتة ، ومن المحتمل ان تكون قد اجريت حفريات فى المنطقة حسب رأى اغات (Agat) وخالكيدون (Chalceden) .

ان العاصفة الرملية التى سيطرت هذا اليوم واليوم الفائت رمت كميات من الرمل فى البئر بحيث اصبحت تطفو على سطحه طبقة جافة ، وتوجب على بعض رجالنا ان ينزلوا فى البئر الى عمق ثلاثين قدما بحيث يجمعون الرمل بأيديهم ويضعونه فى اوعية بحيث يرفعه الآخرون الى الاعلى وبعد ساعتين من العمل المضنى حصلنا على الماء وكان معكرا الا انه كاف وعذب وحولنا كانت تنتشر عظام جمال وبشر وتشكل حقلا واسعا من العظام وحتى فى خيمتى عثرت على جمجمة لم يقع ناظر اتباعى عليها وهم يحفرون مكان الخيمة فى الظلمة ، ان الهياكل البشرية هى بقايا رقيق ماتوا ظمأ ولم يكلف المرء نفسه عناء دفنهم فى قبور بل تركهم حيث ماتوا .

وبعد ان ملأنا قربنا فى اليوم التالى وسقينا جمالنا مرة اخرى سرنا حوالى الساعة التاسعة والنصف بأتجاه 175 د ، وعلى يمننا ويسارنا سلاسل جبلية وهى تبعد عن طريقنا 10 ـ 12 ساعة شرقا و6 ساعات غربا ، فى كل مكان على الطريق يجد المرء عظاما بشرية ابيض لونها ، وفى بعض الامكنة توجد خرق من القماش الازرق الذى يلبسه الرقيق السود ، وما على المرء الا ان يتتبع هذه الهياكل حتى لايضل طريقه الى بورنو وحوالى الساعة السابعة كنا نعبر الممر عند جبل العقبة بويا (التنية الكبيرة) لقد ساد الظلام واخذت جمالنا تسير . بحذر وعلى مهل ووصلنا مضرب الخيام حوالى الساعة الثامنة بعد ان اعيانا الهواء الحار الذى كان يهب منذ يومين ، ان السفر عبر الصحراء قد اخذ يسيطر على باجهاداته وان مناظر الهياكل العظيمة البشرية ممن لقوا

حتفهم اخذت تظهر لى مخاطر الرحلة ، وان الطريق الى الواحة القادمة المسكونة مازال بعيدا .

وفى الساعة $6\frac{3}{4}$ من صباح 12 ابريل انطلقنا ولم يكن هذا الوقت مبكرا تجاه حرارة النهار السريعة ، وقد سرنا باتجاه جنوبى ووصلنا حوالى التاسعة الى نهاية العقبة بويا ثم سرنا مدة ساعتين عبر هضاب لنصل الى العقبة كونو (التنية الصغيرة) والى جانبى الطريق مسافة 12 ساعة كنا نشاهد سلاسل ذات اتجاه شمالى جنوبى وحوالى الساعة الحادية عشرة وصلنا الطرف الشمالى لهضاب الوطى كيو وهى ترتفع ارتفاعا حثيثا باتجاه الجنوب ، لم تكن الحرارة قاسية مثل اليومين السابقين الا ان الانسان والحيوان عانا من أشعة الشمس عند الظهيرة ، لقد احترقت قدما كلبى الصغيرة من الارض التى تبلغ حرارتها حوالى 70 درجة ولم يستطع متابعة السير فوضعته على جمل ، واما انا فقد ارهقت ولم اتناول الطعام الا اننى كنت اشرب كل خمس دقائق كوبا من الماء خلط بشىء من التمر هندى ذى الطعم الحامض وان مينا آدم ابن الصحراء كان يرى ان الصباح بارد جدا للسير على الرغم من ان ميزان الحرارة لم ينخفض عن 20 د قبل شروق الشمس وكان يود ان نسير مساء الى مابعد الساعة السابعة الا اننى توقفت وبذلك تعين على قافلته ان تتوقف ايضا .

وفى صباح اليوم التالى انطلقت مع اتباعى حوالى الرابعة والنصف ، وكان ميناآدم وجماعته مازالوا يغطون فى نوم عميق وبعد مضى ساعة بلغنا الوطى كيو ودخلنا حوالى التاسعة جبال تمو ويطلق عليها العرب « الوعر » بسبب وعورتها وهى تتشكل من صخور رملية نوبية سوداء او مسودة السطح مثلها مثل الجبال السوداء فى الحاد وسوكنة وتضم مجموعة من الاودية على شكل مراحل ، وفى هذه الاودية تقوم آبار او فتحات مياه « تمو » وان اللون الاسود سيطر على هذه الصخور نتيجة للمناخ من ناحية ونتيجة للاختلاط بخامات الحديد ، وربما تتشكل اجزاء من هذه الصخور من البازلت ، ان المياه التى تنبع هنا تجرى فى الغالب نحو الغرب او الجنوب الغربى وعلى الاغلب تعزز بذلك مجارى المياه الجوفية التى تغذى جبادو ، وفى مجملها تأخذ هذه الجبال شكل مربع وتبدو بذلك وكأنها « شاهد » ضخم عملته الامطار والرياح ، وان ظهر الجبل مسطح وان جميع القمم ذات ارتفاع واحد هذا مايدعو الى الاعتقاد انها كانت تشكل سهلا مرتفعا واحدا ويكتب دنهام فى تقارير رحلته

عن جبال تمو انها ترتبط فى الشرق بتبستى ونعرف من رحلة ناختيغال الى تبستى انه لاعلاقة لها مع جبال تبو الرشادة .

لقد صعدت جبلا يقع شرقى الطريق وقد بدا لى ، انه أعلى قمة . ووجدت ان ارتفاعه 900 م ويبلغ ممر جبل تمو فى اعلى ارتفاعه 715 م ، وحوالى الساعة الواحدة التحقت بقافلتى الا اننى ذهبت خلال سير القافلة الى عين تبعد ساعتين باتجاه جنوبى شرقى كى انتعش بمائها الجبلى البارد الرائع ، ان هذه العين معروفة لدى القوافل منذ اقدم الازمنة . سواء اكتشفت صدفة او ان احد التبو قد دل العرب على وجودها ، وفى السابق كان الطريق يسير بعد ان يضع جبل الوعر شرقا ، وعند جبل الابرق فى جنوب غرب الوطى كيو يأخذ الطريق الى بئر احمر الغربى عبد جبل تجى قرنتو ، ان آثاراً طرية لاقدام غزال واكوام من روث الطيور تبين انه تزور العين يومياً مئات من المخلوقات ، الا اننى لم ارى اى اثر للنبات ولم اعثر على عود ، وفى بعض الوديان فقط ينبت بعض العشب بعد سقوط المطر وقد قرفت من منظر الهياكل العظمية المبعثرة ومن بينها نصف جثمان صبى اسود انقلب الى موميا ، قبل ان تصل الضباع القادمة من بعيد لافتراسه ، فقد كان التعيس قد تسلل ايضا من احدى القوافل بحيث يصل هذه العين ويطفىء ظمأه المتأجج ومات هنا جوعا ، لقد سألت محمد القطرونى لماذا تربط القرب على ظهر الجمل بحيث تكون الفوهة نحو الامام ، لقد اخذت هذا عن قوافل الرقيق فقد كانت افواه القرب الى الامام كى لايشرب الرقيق سرا ، وعندما يقترب المرء من القربة عندئذ يقف الجمل هادئا ويصدر صوتا يشير الى ان احدا يفتح القربة ، ولم اشاهد فى اى مكان رعب واهوال تجارة الرقيق مثلما وقعت عليه على الطريق بين فزان ، وبورنو .

وفى الساعة السادسة والنصف من صباح 14 ابريل غادرنا الجبال باتجاه جنوبى وعبرنا عددا من المجارى الجافة التى تسير نحو الجنوب الغربى ، وبدءاً من الساعة التاسعة كنا نسير باتجاه 200 د وحوالى الساعة 12 اقتربنا من جبل قره حتى مسافة ساعة غربا وعلى مسافة ست ساعات كان الطرف الشمالى الشرقى لسلسلة جبال تجى قرنتون مادما ويبلغ طولها من الجنوب نحو الغرب حوالى 12 ساعة ، وفى الجهة الشرقية تقوم هضبة صخرية عالية ، وعبرنا ايضا عضبتين تشكلان مايسمى باب ، ولو ان مرافقينا من التبو لايعرفون جزءا من الجبل يدعى بهذا الاسم وبعد ان صعدنا صخورا منخفضة بلغنا

حوالى الساعة الثالثة سهل ام مادما ، وقد ضربنا خيامنا فى هذا السهل حوالى الساعة الواحدة ، وكان النهار اقل حرارة ولو انها بلغت 40 د فى الظل على اننى بلغت حدا من الاجهاد اثر صعودى الجبل ورحلتى الى العين فى اليوم السابق بحيث كان يصعب على السير او الركوب ، وفى المساء دخلت الى خيمتى ثلاث عناكب تزيد فى حجمها على عناكب الاجراش ويبلغ طول احداها من الرأس وحتى طرف جسمها 3 سم ومن مقدمة ارجلها الامامية الى مؤخرة الارجل الخلفية 8,6 سم وجميع ارجلها ذات شعر كثيف والرجلان الاماميتان سوداء ومجمل الجسم ذو لون اصفر رصاصى . وسماها محمد القطرونى عقرب الريح وقال ان مثل هذا النوع وجد ايضا فى خيمة بارت ويكثر وجوده فى هذا الجزء من الصحراء وان لدغتها سامة .

وفى اليوم التالى بدأنا سيرنا حوالى السادسة والنصف وكان اتجاهنا جنوبيا وكان جبل تجى قرنتو الى اليسار والى يمننا هضبة بارزة ، وحوالى الحادية عشرة وصلنا الى وادى لاكاكينو ويجرى من الشرق نحو الغرب وانتظرنا هنا تحت اشجار الطلح حتى الثانية والنصف وكانت هذه الاشجار الاولى التى شاهدتها منذ ان غادرنا فزان ، وحوالى الساعة الرابعة والنصف بزر جبل ام مادما امامنا على مسافة ساعة الى الغرب وحوالى الساعة السادسة بلغنا المجرى العلوى للكاكينو الذى يأتى من ام مادما ويجرى شرقا شرقا وشمالا ثم يحرف مجراه غربا وجنوب غرب نحو بير أحمر الغربى ، وضربنا خيامنا حوالى الساعة السادسة والنصف عند بيرأم مادما وتسميه العرب بير أحمر الشرقى وعلى الرغم من أن آبار هذه المنطقة ليست عميقة الا انها فى وضع سيء وتطفى عليها الرمال فى الغالب ، وطالما كان السلاطين يحكمون هذه المنطقة كانوا يحرصون على صيانة هذه الآبار حتى يات .

الا آن الباشوات الاتراك لا يهتمون بالابار جنوبى بجرهى ويدعون حتى آبار فزان تؤول الى الخراب ، وفى منطقة الآبار تقوم على وجه الخصوص معظم الهياكل العظمية البشرية ، واذا ما وصلت قافلة بمالديها من رقيق أرهقوا من أجهادات الطريق والجوع الى بئر كانت تجده امتلأ رملا ويجب ان يجرى الحفر عدة ايام حتى يصل المرء الى الماء وفى تلك الاثناء يكون البعض قد مات من العطش ، وفى المساء أتت بعض عقارب الريح الى خيمتى وعلى الغالب نتيجة لنور شمعتى .

وفى 16 آبريل الساعة السادسة والنصف انطلقنا جنوبا وكانت الرياح هادئة تماما وسرنا عبر سهل مغطى بالحصى وحوالى الساعة الثامنة اصبحت الحرارة غير محتملة بالنسبة لى وحوالى الساعة $12\frac{1}{2}$ ظهرا على مسافة حوالى 8 ساعات جبل مخروطى الشكل ذى قمتين هو جبل فزان وهو ما يدعوه على الاغلب فوغل « بيزا » اذ لم يعرف مينا آدم أو محمد القطرونى جبلا بهذا الاسم الاخير ، وحوالى الساعة الثامنة عبرنا وادى صفرازنتل ويجرى من الغرب نحو الشرق ويرفد لاكاكينو بعد ان يرفده فرع قادم من فزان وحوالى الثالثة والنصف وصلنا بوديمه وهى منطقة خضراء غنية بالنباتات وقد ضربنا خيامنا بحيث ترعى الجمال وأما مينا آدم فقد تابع سيره مع قافلته وحوالى الساعة الثانية صباحا تبعناه وانضمت القافلتان الى بعضهما حوالى السادسة صباحا .

وتابعنا سيرنا جنوبا لنصل حوالى الساعة الرابعة الى منخفض مافرس الواسع ووصلنا حوالى الساعة الرابعة الى بئر تظلله اشجار الطلح والاثل وقد اعيانا التعب من طول الطريق والحرارة الزائدة ، وعلى مقربة من البئر كانت توجد اعشاب الزبيط والحاد بما يكفى حاجة الجمال ولما كان الناس بحاجة ماسة للراحة لم نتابع سيرنا ونشاهد هنا احجارا كلسية وجبساً ومرمرا والرخام الابيض على الرغم من أن تشكيلات الصخور الرملية هى السيطرة .

وتفاديا لقيظ النهار فقد انطلقت هذه المرة حوالى الساعة الواحدة والنصف صباحا وأقنعت مينا آدم هذه المرة بالسير فى نفس الوقت وما أن سرنا ساعة واحدة تقريبا وكنا نسير جنوبا فوق حمادة صخرية ، الا وانحل الرباط الامامى لجملى فسقطت على ظهرى مع الحمولة البالغة صندوقين ، ولحسن الحظ أن رأسى قد وقع على فراشى الذى سقط ايضا والا كان يمكن ان يحدث كسر فى رقبتى وهكذا نجوت منها وقد اصبت ببعض الرضوض لقد مضى وقت طويل حتى تمكنا من اعادة تحميل الصناديق وتثبيتها ، وفى تلك الاثناء كانت القافلة قد تابعت سيرها ، وفى وسط الظلام لم أتمكن من تعقب أثرهم فأطلقت بعض الطلقات النارية بحيث يتوقفون وتبين أنى جنحت عن طريقهم حوالى الساعة غربا وعندما انبلج ضوء النهار كنا عند نهاية المافرس ، وقد قضينا عند الثامنة ، فترة القيلولة وتأكدت هنا اننى لم افقد خلال سقوطى

ميزان ضغط ومنظارا زجاجيا ذا عينتين فحسب ، بل وجدت ان عدة اغراض داخل الصندوقين قد كسرت او تعرضت للاذى ولحسن الحظ ان الموازين الاخرى الموجودة فيها لم يمسها الضرر وعند الساعة الثانية والنصف تابعنا سيرنا على الرغم من أن الشمس مازالت حارقة ، أن طريقنا مازال يسير على طرف جبال قرونتو عبر أرض ممسوجة ولذلك فهى صعبة على الجمال ، لقد كان الافق محدودا فى اتجاه الشرق بكثبان رملية تقع على مسافة 6 الى 8 ساعات وكلما تقدمنا كانت الارض تصبح هضبية وعبرنا عدة ممرات ضيقة ، ولما كانت أطرافى تؤلمنى نتيجة للسقوط من على ظهر الجمل فقد ضربنا خيامنا عند التاسعة والنصف مساء .

وما انتهى الطبخ حتى انتصف الليل ولجأ الناس للسكينة ولذلك لم ننطلق فى صباح الليل التالى قبل $5\frac{1}{2}$ صباحا ، وبعد مسيرة ساعتين وصلنا الى مرتفع لمحنا منه اشجار النخيل الخضراء فى واحة يات ووصلناها عند العاشرة وتوقفنا عند العاشرة والنصف قرب فتحات ماء لا يزيد عمقها عن بضعة اقدام ، وأن أحد جمالى الذى أخذنا عنه الحمولة لم يصل الواحة الا بصعوبة فائقة ، ما عاد يأكل وبكلمة واحدة اصبح عديم النفع أو كما يقول العرب باطل[1] وهذا يعنى لا يستطيع السير أو الحمولة ، وعرض على أحد التبو الرشادية مبلغ 5 ريالات فزانية أو 20 فرنك وأزعجنى جدا أن أبيعه بهذا السعر اذ ان القنصل روسى[2] قد أشتراه لى بسعر غال فى طرابلس ودفع ثمنه 250 فرنك فهو لا يساوى بالتأكيد أكثر من 50 فرنك بسبب عمره وعندما وصل الى مرزق كانت قد خارت قواه ، وبعد تردد زائد فضلت أن اذبحه وأعطيه للقافلة ، لقد كان الابتهاج زائداً بالوجبة الكبيرة المأمولة ، لقد تقاسموا الجلد كى يصنعوا منه صنادل على الرغم من ان جلد الجمل لا يقاوم كثيرا ، وقد قطع جزء قليل من اللحم الى قطع رقيقة وجففت بحيث يحملونه معهم ، وما تبقى يجب ان يؤكل على عين المكان ، وبالطبع لم يكن بمقدور طاقم القافلة الذى يبلغ ثلاثين شخصا أن يأكلوا دفعة واحدة هذه الكمية من اللحم ولهذا فهم يحتاجون الى يوم راحة ووافقت على الفكرة مخالفا فى ذلك رغبة مينا آدم ، لقد كان هذا على عجلة من أمره اذ أنه يريد أن يصل كوار قبل حلول العيد الكبير . الذى سيكون خلال بضعة ايام ، وفى مساء اليوم التالى كان كل شىء قد أكل من اللحم البالغ عدة قناطير بما فى ذلك المعدة

والرئتين وكان كلبى يصارع حول العظام طيلة الليل ، وحسب زعم اتباعى انه كان يقارع ضبعا الا اننى لا اعتقد ذلك ولا يخرج الامر ان يكون اكثر من ثعلب اذ ان الكلب صمد له ، وخلال هذا النهار كنت منشغلا بالكتابة عندما ضرب ريح جنوبى الخيمة وهدمها فوق رأسى مسببا فيها بعض الفتحات ، كما تعرض أصحابى للازعاج وهم يتناولون فطورهم اذ ان الريح العاتية صبت فوقهم غيوما من الرمال والغبار وارتفعت درجة الحرارة الى 45° فى الظل وبعد ساعة خفت شدة الريح وكان بوسعى أن أنصب خيمتى .

تمتد واحة يات من الشرق نحو الغرب ، وتؤمن للمسافر عبر الصحراء استراحة مرغوبة فى ظل اشجار النخيل والطلح والزبيط ، وبالنسبة لى بأعتبارى إبلغ لأول مرة هذه المنطقة الجنوبية كان منظر هذا النوع من اشجار النخيل بمثابة تغيير شكل ظريف وهذه الشجرة تختلف عن اشجار النخيل التى اعرفها والتى تتكون من ساق تتوجها الاغصان ، ان هذه النخلة تتفرع الى فروع وفى رأس كل فرع تنمو الاغصان ويبلغ تمرها حجم بيض الدجاج ولا يزيد طول النواة عن نصف سنتيمتر ، وحسب ذوقى فان طعمها ليس لذيذا سواء كانت طرية أم مجففة ولا يأكلها ابناء البلاد الا خلال فترات الجوع ، وأما الماء فهو يمتاز ويوجد عادة على عمق يتراوح بين 4و5 أقدام ويمتلك البئر تبو الرشادة وهم يجبرون القوافل الصغيرة الضئيلة التسليح على دفع ريال فزانى مقابل استخدام البير اى ما يعادل تالرا واحدا على كل جمل ، وبالطبع لم يستطيعوا ان يأخذوا من مينا آدم هذا السعر ولما كنت أسافر بمعيته كان عليهم أن يسمحوا لى بالاستفادة من البئر مجانا .

حوالى الساعة الواحدة من صباح يوم 22 أبريل غادرنا يات ، ومن هنا يسير الطريق بأتجاه جنوبى غربى عبر واحة سيقديم التى يدعوها العرب المعرة ، الا ان التبو أخذوا طريقا اقصر بأتجاه 200° وهو يعبر أرضا صخرية ذات هضاب ، وهنا اصبح احد جمال الغريانيين الذين سافروا معنا من مرزق « باطلا » وفيما عدا هذا الجمل الذى يمتلكانه كان لديهم جمل آخر مستأجر وضعت عليه حمولة كاملة اذ لم يعرفوا طريقة ينقلون بها حمولتهم ، وقد تألمت لهؤلاء . وطلبت من ميناآدم أن يسمح بتوزيع حمولة الجمل المريض على جماله وأبدى استعداده لذلك ، وأما التبو الرشادية فلم يبد أى منهم أستعداده

للحمولة الا مقابل سعر مبالغ فيه وبعد أن انزل الحمل عن الجمل تابعت القافلة سيرها وبقى أحد الغريانيين وأحد اتباعى مع الجمل وحاولوا أن يدفعوا به الى الامام ببطء ، ولم يكن هناك متسع من الوقت لذبحه ولم يكن بوسع اصحابه أن يتحملوا هذه الخسارة بسهولة ، عند الساعة الرابعة طفنا حول جبل واقع أمامنا بأتجاه 290° ثم عدنا بعد ساعة الى نفس الاتجاه وحوالى الساعة التاسعة اضطرتنا الحرارة التى أصبحت غير محتملة الى القيلولة وسط هضبة جرداء وقبل ان نتابع سيرنا بقليل حوالى الساعة الثالثة بعد الظهر وصل الجمل الباطل مع الشخصين اللذين يسوقانه ، ويخترق الطريق الان رملة عميقة مسطحة ليس فيها أى شىء ، مغاير وبقى الامر كذلك حتى ظهرت حوالى الساعة السابعة مساء هضبة يسميها التبو قرقيبر تمار أو قريت ديتوا ، وتقع هذه الهضبة غربا بقرب الطريق وتعتبر بمثابة دليل للقوافل وعادة ما تستعمل ايضا كمضرب للخيام ، لقد توقفنا كى نجمع قسما من بعر الجمال اليابس مثلما هى العادة فى جميع استراحات القوافل ، اذ ان هذا البعر يشكل مادة تشتعل بصورة جيدة بسبب الدهن المتوفر فيها وتابعنا سيرنا لمدة ساعة وضربنا خيامنا بجانب الطريق ، وفى اليوم التالى بدأت الرحلة عند الخامسة صباحا قبل شروق الشمس وعبرنا بأتجاه 205° سهلا ذا حجارة كبيرة الا ان الحرارة ضغطت علينا وزادت شدتها نتيجة للهواء الحار ، وأخيرا حوالى الساعة الثالثة بعد الظهر وصلنا نحن ، وهذا يعنى المجموعة التى تمتطى الدواب واحة العقيبة ـ وأما الذين كانوا يسيرون على اقدامهم كانوا مازالوا بعيدين ولا استطيع الجزم فيما اذا كان المعبر الذى يهبط من سقيديم هو ممر نفاسة ، فمثل هذا الاسم غير معروف لدى التبو وربما يدعوه العرب هكذا .

ان مينا آدم الذى يرغب كما ذكرت ان يصل موطنه فى تقى مامى ـ قبل العيد الكبير أراد أن نتابع سيرنا فى ذات المساء ، وفى اثر الاجهاد الذى كان يعانى منه اتباعى والجمال بينت له اننى لن اتابع السير قبل بعد ظهيرة اليوم التالى ، عندئذ اقسم بجميع الايمان التى تعلمها من العرب ان انطلق معه فى نفس الوقت ، اذ انه سيكون هنا عارا بالنسبة له ، ولن يسامحه أخوه السلطان اذا ما تركنى فى الصحراء . الا اننى اصررت على رأيى ونتيجة لذلك ارسل جماعته التبو الرشادية أمامه وبقى وحده معى ، وأخيرا الغى ايضا هذا القرار

وأمر ان تبقى القافلة بأجمعها فى العقيبة حتى بعد ظهر اليوم التالى ، ان العقيبة تتبع لسلطان كوار ، ان عرض الواحة لا يزيد عن نصف ساعة وليس فيها ما يثير النظر فأشجار النخيل ذات الاغصان لا تكبر كثيرا هنا ، لذلك لا يوجد ظل الا انه يوجد فى كل مكان ماء عذب صافى على عمق حوالى قدمين .

وعلى الرغم من الحرارة المضنية تابعنا سيرنا فى اليوم التالى حوالى الواحدة والنصف بعد الظهر ، ان الارض التى نعبرها باتجاه جنوبى حصوية وليس فيها اية تلال وفى المساء ومع ضوء القمر اتحدت السماء التى جعلها الغبار رمادية مع سطح الارض الرمادية وكان المنظر يوحى وكأنه ليس هناك افق ، انها ظاهرة غريبة جدا تثير الرعب وبعد ثمانى ساعات من السير المتواصل توقفنا عند الساعة التاسعة .

وحوالى الساعة 1 1/4 من صباح 25 ابريل تابعنا سيرنا واصبحت الارض بدءاً من هذه المنطقة ذات تلال ، وعند الخامسة صباحا شاهدنا من على هضبة واحة كوار أمامنا فوضع مينا آدم ثوبا اميريا فوق ثباب السفر ومنذ يوم وضع على الحصان الذى يمتطيه زينة ذهبية وسرجا ذا مطية محلاة بالذهب وعندما وصلنا الى بلدة اناى نزل من على ظهر جواده ليتقبل مبايعة سكانها وأرسل اتباعه الى انى كيمى حيث يجب ان يستريحوا ويتوجهوا من هنا الى موطنهم واما انا فقد ضربت خيامى تحت نخيل اناى وقد سررت ان امكث اخيرا فى منطقة مسكونة .

كوار أو حنديرى تقى

أناى ـ مرحاض نساء التبو ـ العلاقات الزوجية ـ صخور غوما ـ غانومة ـ أنيكمي وأشنوما ـ العاصمة السابقة كيسبي ـ بلدتا رابوسى وشمدرو ـ بلدة وجل أم مادية ـ كلالة بالقرب من العاصمة بيلما ـ سلطان كوار ـ مناجم الملح ـ السكان .

ان كوار هى الصيغة الشائعة لاسم البلاد التى تدعى حنديرى تقى ومازال هذا الاسم شائعا لدى التبو الذين يقطنون الشرق ، ويقول ناختيغال

أنه لم يسمع مطلقا بأسم حنديرى وعلى العكس من ذلك فأن الاسم ذاته يذكره بارت هنا وفى مناطق أخرى ، وهكذا لا يمكن افتراض وقوع خطأ ، ان حدود كوار الشمالية تتمثل فى بئر بات التابع لكوار .

وأما أناى وهى أقصى بلدة فى المنطقة الشمالية فتقع على سفح جبل ويقع جزء منها على ظهر الجبل ويتراوح عدد بيوتها وأكواخها من 100ـ150 ويزيد عدد سكانها عن 500 نسمة ، ان البيوت منخفضة ولها باب واحد وهو المدخل الا أنها مقسمة عدة اقسام وان السقوف المسطحة تتكون من جريد النخيل أو الديس الذى ينبت هناك بكميات .

وكى أحسن الصنع مع أتباعى فقد خصصت يوم العيد للاستراحة فى أناى ، وكانوا جميعا بحاجة الى قسط من الراحة ، فقد ثبطت عزائمنا اثر الاسفار الطويلة والحرارة المريعة وكهربة الهواء وقلما ينخفض ميزان الحرارة نهارا عن 40 د و 50 وكانت أشعة الشمس على درجة من شدة الحرارة بحيث أن الشمعة كانت تذوب تحت تأثيرها ، وكنت أرغب بشراء عنزة أو خروف لأتباعى يضحونها بمناسبة العيد الا أن الاسعار التى طلبوها كانت عالية جدا ولم تجد السكاكين والابر والمرايا والقبعات التى أحملها سوقاً هنا ولحسن الحظ أننى احضرت معى من فزان كمية هامة من المدرة (نوع من التبغ يمضغ) ـ اذ أننى كنت أحصل مقابله ومقابل الدواء على كل شيء أريده بالمقايضة وكانت التجارة تجرى مع النساء ولم أجد بينهن واحدة تعلوها مسحة جمال ، ان لونهن أسود داكن وكانت واحدة منهن ذات لون فاتح اذ أن أباها طارقى ، ولما كان يوم عيد فقد ظهرن مرتدين أفضل الملابس وكثيرات منهن كن قد جدلن شعرهن حديثا وطلينه بالسمن ـ ان مثل هذه التسريحة لا تستغرق وقتا قليلا من 60 الى 80 جدلة والشعر ليس طويلا ولكنه اشعث وتتدلى الجدائل حول الرأس على جانبى الفرق وتسير باتجاه أرق الجدائل على قفا الرأس ، وبعض النساء وربما كن لعوبات يجعلن من الجدائل الامامية جديلة غليظة تأخذ شكل قرن ، وأما الذراعان فكانت تحليهما ثمان أو 10 ساور عرضها نصف بوصة ، بعضها من ناب الفيل والبعض الآخر من خشب أسود أو من العظم وأما الاقدام فتزين بسوارة أو سوارتين من النحاس الاصفر أو الفضة ، ويلبس الاعيان فى الاصابع خواتم من الرصاص أو الفضة ويتخذ الجميع فى جانب الانف قطعة صغيرة من المرجان أو العظم وهم يلحون على ذلك ، ويلف الجسم شول طويل ذو لون أزرق

غامق وتعرف بعضهن كيف تلفه برشاقة ويلبس الاغنياء قميصا من بفت السودان الازرق، وقد أستغربت لماذا لا يصنع هذا القماش فى المصانع الاوروبية فهو يأتى عبر مراكش والجزائر وتونس وطرابلس الى دواخل افريقيا وقد علمت هنا عندما أخذت أبدى اعجابى بالحايك الجميل الذى تلبسه أمرأة من التبو وبجودة صنعه إنه مصرى أى أنه مستورد .

أن هوة عميقة فصلت صخرة عن الجبل الذى تقع عليه أناى وهذه الصخرة تعتبر بمثابة ملاذ يلجأ اليه أوقات الضيق وقد سورت هذه الصخرة فى أعلاها بسوريضم عددا من الحجرات الكافية لايواء الاهالى والدواب ولا يمكن الوصول اليه الا بواسطة سلم، لقد ذهبت كى أصعد الصخرة الا أن حارسين منعانى من ذلك عندئذ ناديت حامد أن يحضر لى بندقية ومسدسا وهكذا عزفا عن المتابعة لابل أتى شيخ البلدة (أموبوى نيماى) ـ بذاته وشرّح لى كل شىء ولم أجد ما يلفت النظر ولم أعثر على كتابات وقال لى أبناء البلد أن أناى بلدة جديدة أذ أن آباءهم كانوا يسكنون كسبى .

ان ماء الواحة ممتاز ويوجد على مقربة من سطح الارض فى كثير من المواضع وتكثر ـ أشجار النخيل الا انها لا تبلغ الارتفاع الذى يبلغه نخيل الواحات الشمالية وثماره هى بدورها دون جودة تمر الشمال، ويمنع طوارق الاير اهل كوار من زراعة الخضار والحبوب اذ أنهم يحملون اليهم الحبوب من بلاد السودان ويبادلونها بالملح وبذلك فمن مصلحتهم أن لا يشغل الاهالى فى زراعة الارض بحيث يتولون استغلال الملح المتوفر فى سبخاتهم، والبرسيم هو الشىء الوحيد الذى يسمح سادة الصحراء بزراعته اذ أنه عندما يجفف يصبح علفا ممتازاً للخيول والابل والماعز وحصلت على رزمتين مقابل حفنة من التبغ ودواء التقيؤ ، وتكفى 24 رزمة منه لعلف أربع جمال يوما كاملا .

ويصف البعض التبو بقلة الضيافة مثلهم مثل النصارى ، الا أننا وجدنا ضيافة فى أناى واستمتع أتباعى بعدة أطباق من القافولى مع مرق الملوخية وتمثل ـ هذه الوجبة الوطنية للسود فى وسط افريقيا، وفى وقت متأخر من المساء أرسل لى أموبوى نماى (شيخ البلد) طبقا من اللحم ولم نعلم من أرسل لنا الاطباق الاخرى وربما وصلت من بعض النساء اللواتى حظيت برضائهن خلال التجارة، اذ أن نساء التبو يسيطرون على رجالهن، وعلى الرغم من أن الشعب يدين بالاسلام الا انه حافظ على تقاليده التبوية القديمة

ولو انهم فى ذلك ليسوا مثل الطوارق، وقد يتزوج التبو اكثر من زوجة وقد تطلق النساء نتيجة للعقم أو لاسباب أخرى، على أن هذه النساء تعرفن كيف تأخذن ـ الرجال بالحيلة، لقد أتتنى احداهن وطلبت منى علاجا بحيث تلد ولدا فى جسمها منذ أربع سنوات .

أن دنهام واصحابه دخل كوار فى المنطقة الغربية منها وسار عبر تلك الهضاب ـ المخروطية التى يدعوها فى تقارير رحلته غمغنومة لقد زرت هذه الصخور فى شمال غرب اناى، وهى تمثل اكثر النقاط جاذبية فى واحة كوار وكانت فى السابق مسكونة الا أن ـ الطوارق فرضوا على سكانها الجوع وبذلك هجرت وأن حامية صغيرة تستطيع أن تسيطر على جميع كوار من هذه النقطة .

وبعد أن استضافنا أهل أناى مرة أخرى فى اليوم التالى انطلقنا ونحن نحمل ذكرى طيبة فى نفوسنا، وبعد مسيرة نصف ساعة باتجاه 150 د وصلنا أنى كمى، وهى بلدة صغيرة تبلغ نصف أناى وتقع أيضا على سطح جبل يحد الواحة من الشرق، وحوالى منتصف الطريق بين أناى وأنى كمى يقوم حاجز صخرى على جانب الطريق كتبت عليه أسماء عربية ورموز مختلفة يبدو أنها لا تحمل معنى مترابطا، وفى قمة الجبل المطل على أنى كمى يقوم حصن يلجأ اليه الاهالى فى أوقات الحرب، وضربنا خيامنا غربى البلدة تحت بعض أشجار من النخيل قليلة الظل، وقايضت ثانية البرسيم الجاف مقابل التبغ والدواء ثم أرسلت محمد القطرونى مع القافلة الى أشنومة وقمت وحيدا بزيارة كسبى وهى أقدم مدينة فى كوار وكانت فى زمن بعثة دونهام كلابرتون عاصمة وهى الآن منهارة تماما، وخلال ساعتين بأتجاه 240 د وصلت الموضع وتقوم كسبى على هضبة منخفضة على الطرف الغربى من الواحة وهى لا ترتفع مثل الجانب الغربى بحيث تصبح جبلا، وربما كان عدد سكانها 1000 نسمة أو يزيد ولم تبن بيوتها من الحجارة بل من التراب أو الطين، ومازال بعض هذه البيوت قائما ويمكن تفسير عدم وجود جامع فيها بحقيقة أن الاسلام لم ينتشر فى صفوف التبو الا فى وقت حديث ومازال قسم كبير منهم لم يعتنقوه وليس هناك ما يلفت النظر فى كسبى وقد يكون حقا ما يزعمه اهالى كوار من أن كنزوا مخبأة تحت الارض ولم أغادرها الا بعد أن أظلمت وتوجهت الى أشنومة حيث القافلة، كنت أعلم أن البلدة تقع بأتجاه شرقى، ولكن لما كان عرض كوار الوسطى ثلاث ساعات ضللت طريقى

عدة مرات دون أن أتمكن من العثور على الطريق المؤدى اليها، عندئذ سمعت طلقتين أطلقهما القطرونى كأشارة لى وبذلك وصلت الى الطريق الصحيح بعد فترة قصيرة، وأتى أحد رجالى يحمل قربة ماء بللت بها حلقى الجاف تماما وبعد مسيرة ساعة وصلت عند التاسعة أشنومة، وقد أخبرنا هنا أن الطوارق قد وصلوا الى بيلما ودركى يريدون أن يأخذوا الملح وقررت أن نتفادى الالتقاء بهم قدر الامكان، لاشك أن المسافر آمن داخل حدود كوار من هجماتهم الا أن القوافل الصغيرة التى تنطلق نحو الجنوب تتعرض لخطر هجمات قبائل الطوارق وسلبهم ، وكى لا يعلموا عن وجودنا فى البلاد بقينا اليوم التالى فى أشمنومة وفيما بعد أقنعت نفسى بعقم هذا الاسلوب من الحذر اذ أن خبر وصول أوروبى يعم هذه البلاد بسرعة البرق .

أن أشنومة مثلها مثل بقية المراكز السكنية الواقعة على السفح الغربى لسلسلة ـ جبال مقدوم ـ لا يزيد عدد سكانها عن 200 نسمة اذا ما أعتمدنا على عدد الاكواخ ـ ويتحدث بارت عن 150 كوخ وهذا ما يفترض عددا من السكان أكثر بكثير، أن الساكن الحجرية والاكواخ المشيدة من النخيل وتفوق فى نظامها مساكن العرب والطوارق، وهى تنم عن شىء من اليسر، ومن المؤسف أن هذا اليسر ناجم عن أن رجال القرية ويوجد منهم ثلاثة فقط يعملون كوسطاء نشطين فى تجارة الرقيق بين بورنو وغات وفزان وتتصرف النساء هنا بجسارة وقد استخدمت احداهن وعاء لشرب خدمى مملوءاً بالماء واتخذته دون ـ خجل وعاء للغسيل على الرغم من أنه كان أمام خيمتى .

وعند الساعة الخامسة والربع صباحا تابعنا سيرنا على طول سفح جبل مقدوم ووصلنا بعد ساعتين الى اليجا وهى لا تبعد سوى مقدلر رمية بندقية عن تقى مامى مقر سكن مينا آدم وبعدها تأتى رابوس حيث قضينا الليلة، وين هذه البلدة التى يبلغ عدد سكانها حوالى 100 نسمة وتقوم فوقها قلعة حصينة قلما يمكن السيطرة عليها وعلى مسافة ثلاث ـ ساعات منها بأتجاه 235د تقع ديركى وهى العاصمة الثانية لكوار .

وفى اليوم الآخر وصلنا شمدور الثالثة فى عدد سكانها بين قرى واحة كوار اذ يبلغون 800 نسمة وفيها زاوية أسسها السنوسيون وقد احاط بنا هنا حشد من النساء والاولاد ودعونا بلطف زائد للنزول، ولكى نتخلص من اللطف الزائد الذى قوبلنا به توجهنا فى مساء اليوم ذاته الى البلدة المزدوجة

أمى مادمة ـ ذات المكانة الرفيعة والتى تقع على بعد نصف ساعة وهنا أيضا قوبلنا بحس الضيافة ، فقد وضع شيخ البلدة تحت تصرفنا بصورة خاصة بيتا كانت تسكنه حتى وقت قريب احدى مطلقات سلطان كوار الحالى ، وبموجب ذلك استقبلتنى السيدة ببالغ الاحترام وسمحت لى دون أعتراض أن ـ نستخدم نصف البيت وبالطبع أعلنت أنها لا ترغب بالمبيت مع هذا العدد من الرجال تحت سقف واحد ، وربما كان ذلك لانها تتوقع أن تتزوج ثانية، الا أنها بقيت على الرغم من ذلك فى البيت وأرسلت لنا وجبة طعام مع لحم غزال مقدد ، وقد أرسل لنا الطعام من جهات مختلفة بصورة كافية وأرسل شيخ البلد المنادى فى المساء ليطوف البلدة تحت ضؤ القمر ويعلن الاهالى أن ترسل كل عائلة رزمتين من البرسيم لجمال الضيف، كيف أطلقت على التبو سمعة قلة الضيافة .

وفى الاول من مايو وصل قادماً من ديركى أخ آخر للسلطان قادما أخته ليستقبلنى وحمل لى عنزة هدية من الضيف ، لقد طلبت منى الاميرة دواء بحيث تلد صبيا ، ـ وسألتها فيما اذا كانت متزوجة فأجابت ببساطة ، الآن كلا الا أنها ستتزوج قريبا وعندئذ ستتناول الدواء .

وفى مساء اليوم السابق صعدت جبل أمى مادمة (ومعناه الحرفى الصخرة الحمراء) ـ ويبلغ ارتفاعه حسب قياسى 114 م وعن سطح البحر 632 م ، وهذا يمثل الارتفاع الوسطى لمجمل سلسلة جبال مقدوم، وفى الاعلى انفتحت أمامى فرصة الاطلال والنظر بعيدا ـ فى اتجاه الشرق حمادة لانهاية لها وفى الغرب يتلو الوادى سهل رملى ذو كثبان منخفضة وأمامى فى الغرب جبل قائم لوحده ذو ارتفاع لا يزيد عن متوسط ارتفاع الجبال الصحراوية وفى الجنوب الغربى سلسلة جبلية متساوية الارتفاع تسير من الشمال نحو الجنوب بطول مسيرة وتبعد حوالى 8 الى 10 ساعات، ويبدو أن التبو لا يعيرون اهمية للتسميات الجغرافية فى حين أن العرب والطوارق لايدعون موضعا فى مناطقهم دون تسمية ، وفيما بعد علمت أن السلسلة الجبلية هذه تسمى انعصومى ، وهى على الاغلب تلك التى رآها مرافق بارت الانجليزى بمنظاره .

وبدءاً من شمدور تتخذ البيوت فى جزء منها طريقة بناء مغايرة ، فهى تتكون من جدار حجرى مدور قطره 10 ، 15 حتى 20 قدما يعقد عليه سطح على شكل غطاء بحيث تشبه من بعيد العلب الجلدية التى يصنعها

الطوارق ، ويفصل جدار حجرى البيت من الداخل الى حجرتين ، ان جميع المساكن نظيفة وهذا مايميز التبو عن جميع سكان الصحراء ، وماان نصل الى بئر الاوقد أخذ التبو الرشادية بغسل اجسامهم فى حين أن الآخرين ومنهم خدمى لم يستعملوا الماء الا فى الشرب وحول البيت تقوم عدة افنية مدورة تتضمن المطبخ والاصطبلات وبيت الخلاء . . . الخ .

ولأول مرة شاهدت هنا الثيران المحدبة ذات القرون الطويلة الملوية ـ وهى تستورد من بورنو وتتحمل تغير الجو بسهولة على مايبدو .

وفى الثانى من مايو غادرنا أمى مادمه وذهبنا مسافة نصف ساعة الى قرية مشاى وضربنا خيامنا هناك عند بئر عربى القرية ، ويشاع عن سكانها وهم من الرشاده انهم لصوص وفى الليل اقترب اثنان منهما من مخيمنا بغية السرقة الا أن كلبى اليقظ شعر بهما وأطلق نباحه وعندما سمعا تجهيز البنادق للاطلاق أسرعا بمناداتنا بكلمة«العافية» وهى كلمة السلام عندهم ، وقد اعتذروا عن اقترابهم من خيامنا بأنهم شربوا كثيرا من اللقبى فضلوا طريقهم .

وفى اليوم التالى غادرنا مخيمنا باتجاه جنوبى غربى 165د عند الساعة 5¼ ـ ووصلنا عند السابعة الى غابة كثيفة بأشجار النخيل من الدوم والانواع الاخرى وتقع فى هذه الغابة عدة قرى يسكنها التبو ومررنا عند الثامنة بقرية عقّر وهى تقع فى الجنوب الشرقى وتعتبر اهمها ، وعند التاسعة حللنا للقيلولة عند بئر وبعد الظهر كان ميزان الحرارة وقد وضع فى الرمل يشير الى 63د وفى الشمس الى 74د وفى الظل الى 43د وبعد الظهر سرنا ساعة واحدة وضربنا خيامنا على مقربة من بيلما (قارو) عاصمة البلاد وقد أبلغت أثناء الطريق أن السلطان غير موجود حاليا فى بيلما ذاتها ويقيم فى كلالة .

على مسافة نصف ساعة من المدينة ، وعند انبلاج ضوء النهار تابعنا طريقنا وبعد مسيرة قصيرة توقفت القافلة وأطلق أتباعى نيران بنادقهم فى الهواء أمام قصر السلطان فى كوار .

وقام خدمه بأعطائى كوخا تعيسا قرب القصر الملكى كى أنزل فيه وبعد فترة قصيرة ظهر السلطان بذاته ، وبدأنا بتبادل كلمات الترحيب المعتادة بعضها بالعربية وبعضها بالتيدا والسلطان لايتكلم العربية بطلاقة ثم مضى .

ان الكوخ الذى كان يجب أن ننزل فيه كان أقل بكثير مما نحتاج ومن المستحيل أن أضع فيه جماعتى وأغراضى ، ولذلك سعيت كى أطلب من

السلطان أن يؤمن لنا بيتا أفضل واستقبلنى جلالته أمام بيته وقد جثا على الرمل ، وعندما تحدثت معه عن طلبى سلمته رسالة التوصية الموجهة اليه من القائمقام ، وقد نظر السلطان الى الرسالة معكوسة وألقى نظرة اليها وقال أنه لايفهم التركية ، ثم نبهته الى أن الرسالة بالعربية ، فطواها وقد نظر نظرة جدية وقال أنه سيولى الرسالة الاهتمام المناسب وسيقرأها مع طالبه وقد علمت أن هذا الطالب لايستطيع القراءة ، بعدئذ نهض وسار معى عبر القرية الى أن وجد لنا بيتا شيد من الكتل الملحية ، وقد انتظرنا هنا حتى المساء وجبة الطعام ولكن دون جدوى وهكذا اضطررنا أن نجهز طعامنا ، ولكى أغير مزاج السلطان توجهت فورا لاسلمه الهدايا على الرغم من أن ذلك أمر غير معتاد ، وفى صباح اليوم التالى قدمت له قبعتين سكر وموسين للحلاقة وعمامة وخنجر ، وزيت الورد وست مناديل صغيرة وهارمونيكا وعشر قطع نقود تالر وهذا مايعادل عشرين تالر وأبلغنى محمد القطرونى أن بارت قدم له ثوب من بورنو قيمته 3 الى 4 تالرات وقيل لى فى مرزق أن قبعتين من السكر كافية كهدية لأمير التبو ، ومثل هذه الهدية قد تكون كافية اذا ماوصل المرء مع قافلة عربية يتراوح ـ عدد بنادقها بين 40 و50 بندقية فتفرض على السلطان الاحترام اللازم ، ولما كنت مع قليل من الاتباع شعر أننى فى ظل سيطرته ولذلك سخر من الخدم الذين حملوا اليه هديتى ورماها وأمرهم أن يقولوا لى اذا لم أعطه 100 تالر وبرنس من القماش فأنه لايمكننى أن أبقى فى بلاده وسيمنع أيا من التبو أن يرافقنى الى برنو ، وزعم أن كلا من فوغل وبويرمان قد أعطياه مائة تالر ، ماذا يجب أن نفعل مع هذا اللص الجبان ؟ فليس من المؤمل أن أصل وسط افريقيا عن طريق آخر غير كوار ، ولذلك يجب أن أرضى بحاكم البلد فأضفت الى الهدية برنساً قماشياً أزرقاً داكن اللون طرز بالذهب بقيمة ثلاثين تالراً فقبل الهدية الآن ومنحنى رخصة بالبقاء فى كوار المدة التى أريدها ووعد بترتيب قافلة نحو برنو أو أن يؤجرنى على الاقل دليلا الى تلك البلاد .

حسب تقديرى فان السلطان رجل يبلغ من العمر خمسا وأربعين عاما وأسمه مينا عبجى وأن ملامح وجهه ووجه أخيه مينا آم بعيدة عن العرق الاوربى أن لون البشرة أسود بنى الا أن سطح كفه غامق تماما وهذا من علامات الوجاهة اذ أن اللون يصبح فاتحا عند العامة نتيجة للشغل بالكف والرجلين ، ان لقب السلطنة فى كوار متوارث فى أسرتين مختلفتين وهكذا

لايورث الاب أبنه بل يسلم العرش الحاكم من هذه الاسرة لأكبر أمير سنا فى الاسرة الاخرى وعندما يبدأ الحكم ينبغى على الامير أن يتخلى عن جميع ممتلكاته كى لايمتلك الوسائل الكفيلة بشراء الرقيق وممارسة القهر على الشعب ، وفى الواقع ليس السلطان سوى الحكم الاعلى فى المنازعات الداخلية والقائد فى الحرب ضد الاعداء الخارجيين ولايحق له أن يأخذ الرسوم من رعاياه ولايمتلك رقابهم وهذه الظروف تسود فى جميع دول التبو فى حين أن الشعوب السوداء تخضع نفسها وممتلكاتها للامير .

بقيت فى كلالة كى أحدد مؤونتى اذ أن القافولى والسمن هنا أرخص من الواحات الشمالية وكنت آمل أن أبيع فى بيلما المجاورة بعض الاشياء من بضاعتى ، ان بيلما هى المنطقة الاخيرة الآهلة بالسكان فى جنوب كوار ويزيد عدد سكانها عن 1000 نسمة وهى هامة ومشهورة ، بسبب قربها من مناجم الملح ، ويحيط بالمدينة سور تقوم فى داخله بلدة من أوسخ المناطق التى شاهدتها ، ان البيوت المنخفضة غير منتظمة الشكل والمشيدة من الكتل الملحية تثير القرف لدى المسافر الذى شاهد القرى النظيفة الواقعة على سفح جبل مقدوم .

ويجدر بى هنا أن أصحح خطأ صادفنى مثلما صادف العديد من الرحالين السابقين ان البلدة تدعى قارو وليس بيلما انها تقع فقط فى ولاية بيلما ، والسبب فى الخطأ هم العرب لانهم ليسوا دقيقين فى تسمياتهم الجغرافية ، وغالبا مايطلقون مثلا أسم مرزق عى فزان واستانبول على تركيا ، وفاس على مراكش والعكس ، اذ يطلقون أسم البلاد أو الولاية على المدينة ، ويمكن أن تسمع منهم السؤال كم تبعد ألمانيا عن تركيا فسكان الصحراء يعتقدون أن كل بلاد يجب أن تنفصل عن البلاد الاخرى بصحراء أو بحر ولايمكنهم أن يتصوروا أن نقطة فى ألمانيا قريبة نسبيا من الحدود التركية وأن نقطة أخرى تبعد عنها مسافة أيام كثيرة .

ان مناجم الملح الواقعة بين قارو وكلالة والى الشمال من المنطقة الثانية تتكون من حفر واسعة تقوم فيها أكوام من الملح والتراب ارتفاعها من 20 الى 30 قدما ، وفى أعماقها ماء يطفو على الغالب فوق خزان الملح الصخرى ويجرى من الشرق نحو الغرب .

ان هذا الماء يحتوى على الملح ويتعرض الى بخر شديد فى وسط الصحراء بحيث تتكون خلال عدة أيام قشرة ملحية فوق الماء وتقطع بعدئذ وتسحب ،

وفى الوقت الذى يستغل ملح البحر فى رأس استريا بأن يتبخر جزء من الماء وينزح ماتبقى منه ، تظهر هنا القشرة الملحية مثل الجليد فوق الماء وتستطيع بسبب سرعة الحصول على بلورات الملح تزويد وسط افريقيا بمثل هذه الكميات من الملح ، أن طوارق آلاير يأخذونه من هنا الى بلاد السودان ويأخذه التبو والعرب الى بورنو وباجرمى ، وتمكن طوارق كلوى تدريجيا أن يخضعوا سكان كوار الى سيطرتهم أثر تفوقهم العددى ، ولايسمحون لهم أن يمارسوا الزراعة أو أى عمل مثمر آخر فيما عدا تجارة الرقيق بحيث يجبرون على استغلال مناجم الملح ، وبالمقابل يزودهم الطوارق بالحبوب والثياب والرقيق من السودان وينبغى عليهم أن يدفعوا السعر الذى يفرضه سادتهم من الطوارق ، وتأتى الى هنا أكبر القوافل التى تعبر الصحراء ، ويتحدث الاهالى عن قوافل يتراوح عددها بين 3000 و 4000 جمل واذا كان هؤلاء لايميزون كثيرا بين المئات والالآف فأنه يبدو لى أن قوافل من 1000 جمل تطابق الواقع ، وفى سبيل التجارة يُدَقّ قسم من الملح بحيث يصبح ناعما ويصب قسم منه على شكل صحون أو تيجان اعمدة وان الملح الذى يتخذ شكل الصحون غير نقى ويعتريه كثير من التراب .

وفيما عدا الملح لاتقدم كوار أية منتجات ، ان نوعية التمر سيئة اذ أن أشجار النخيل تحتاج لنموها متوسط حراره حوالى 21 د وهذه تزيد فى كوار عن هذا الحد ببضع درجات ، وأما الخضار فيستعمل السكان القرع والبطيخ الاحمر وكذلك خليط من أوراق ـ البرسيم والملوخية . والى جانب الجمل الافريقى تربى هنا أغنام صغيرة دون صوف وماعز وأبقار مستوردة من بورنو ولايربى الخيول سوى بعض من الاعيان ويفضل المرء خيول الشمال على تلك التى تأتى من بورنو .

أن عدد السكان فى كوار لايزيد عن 3000 نسمة ونجد بينهم مجموعتين رئيستين ويعود أصل الفئة الاولى الى الكنوريين وأما الفئة الاخرى فتزعم أن أصلها من التدا أى من شعب التبستى ويقول أهالى قارو وكلالة وديركى أنهم كنوريون ، وأما التبو فهم سكان القرى الواقعة على سفح مقدوم ، وأن هؤلاء آلاخرين ينسبون أنفسهم الى أسر من التدا سكنت فى بيلما وديركى نتيجة لتجارة الملح وهم من تمارة وتماغيره وأما سكان أشنومة فينتسبون الى ايتهاده وأما سكان أنى كيمى وأناى فينتسبون الى غنة (غندة أوغونده) وطاوية ، وأن أتباع الكنوريين يسكنون البيوت الوسخة المشيدة من كتل

التراب والملح وأما أتباع التيدا فيسكنون بيوتا نظيفة نسبيا مشيدة من الحجارة وعلى وجه العموم هما عرقان مندمجان مع بعضهما البعض ، وكلاهما يتكلم لغة تيدا وبورنو السائدتين .

وعندما كنت فى كلالة توجه السلطان الى الشمال كى يأخذ قسطه من أعضاء القافلة - التى أتيت معها ووقع فى نزاع حاد مع أخيه مينا آدم وعلى الاغلب أن السبب هو النقود وتوجب على كل من الغريانيين أن يدفعوا له خمس تالرات ، وقد جاء أحدهما خلال العام الماضى مع قافلة قوية ولم يدفع له سوى - بشيك أى مايعادل حوالى 1/3 تالر عند مرور القافلة من كوار ، ولم يهتم السلطان بأمرى مطلقا وأبلغنى فقط موعد سفره وعودته ، وقد أضطررت لمغادرة كلالة قريبا لان العلف فى بيلما سيء وغال ، وعدت الى شمدرو حيث ينبت فى منطقتها وبالاحرى فى حطية - نبات العقول الذى تحبه الجمال كثيرا .

التبو

الاسم - الاصل - قسمات الوجه - مناطق سكناهم - اعتناقهم الاسلام - الطبقات - الصناعة - المساكن - اللباس - أصول السلام - الدولة - الاقاليم وأسماء القبائل - مستقبل الشعب .

ولو أن عدد التبو الذين يعيشون فى فزان لايستهان به ، فأن هذه المنطقة لايمكن أن تعتبر بمثابة موطنهم ، ومع كوار دخلت موطن التبو وبالاحرى أقصى الحدود الغربية لموطنهم ، وقد يكون من المناسب هنا أن نتحدث بشيء من التفصيل عن مزايا هذا الشعب .

أن الاسم تبو (Tebu) بالطريقة التى يكتبه بها بارت وساد لدينا (فى المانيا) ليس صحيحا وقد تكون طريقة كتابة ناختيغال تبّو (Tibbu) هى الاصح من حيث مطابقتها للفظ وإن أبناء هذا الشعب لايسمون أنفسهم لا تبّو ولا تبـو بل تيدا (Teda) ويقول بيم (Behm) حول ذلك فى مقاله بلاد وشعب التبو التى نشرت فى مجلة (petermanns MitteiLungen Erganzungsheft Nr.8) ماهذه سوى ألفاظ مختلفة لنفس الكلمة تنطقها قبائل مختلفة وأنه غير مهم تماما فيما اذا كانت كلمة تِبّو أو تبو مشتقة من تيدا كما يرى بارت أو أنها

مشتقة من تو (Tu) حسب رأى ناختيغال الذى يكتب الاسم بناء على ذلك تُبّو (Tubu) .

نستطيع أن نفترض بشيء من التأكيد أن الجرمنت الذين يذكرهم هيرودوت وبلينوس كانوا يعيشون فى منطقة فزان الحالية ، على أنه لاهذان المؤلفان ولاسترابو أو تاسيتوس الذى يذكر وفدا من الجرمنت فى الكتاب الرابع من حولياته وجميع هؤلاء يقولون لنا فيما اذا كان هذا الشعب من العرق الأبيض أو الأسود ، وإن المعلومات الواردة لدى جغرافيى القرون الوسطى مثل الادريسى وليون الافريقى حول هذا الموضوع قليلة وليست أكيدة وفى التقارير التى أرسلتها من أفريقيا ونشرت فى مجلة (Petermanns Mitteilungen, Erganzungsheft, Nr. 25) تحدثت عن أن التبو يعتبرون من العرق الاسود وهم اقرباء من الكنوريين ، وقد توصلت الى هذه النتيجة أثر مقارنتى للغتى هذين الشعبين وملاحظتى لعاداتهم وتقاليدهم حيث وجدتها قريبة الى بعضها البعض أكثر من القرابة بين البربر والتبو، وعلاوة على ذلك فقد شاهدت تبو من ذوى البشرة السوداء أكثر مما وجدت من ذوى البشرة الفاتحة اللون ، وحتى أولئك الذين شاهدتهم من ذوى البشرة الفاتحة كانوا يحملون سمات العرق الاسود مثل الشعر المجعد وأصفرار فى لون الشبكية ، وفى الوقت ذاته أجدنى مضطرا الى تعديل الرأى الذى أعلنته ، أن ناختيغال الذى يعرف التبو بدقة فائقة وكان فى قلب بلادهم ، يعتبرهم أميل للبربر أكثر من السود ، وعلى مايظهر فقد صادف فى التبستى عددا أكبر من اصحاب البشرة الفاتحة وأصحاب الملامح القوقازية فى الوجه وربما كان رأى مانرت (Mannert) هو الاصح[1] عندما يقول : «أن الجرمنت فى السابق والحاضر خليط من السود الليبيين ولذلك فأن لون بشرتهم سمراء تميل الى السواد ، كما أن العالم فايتز[2] يعتبر التبو شعباً خليطاً ويميل دوفيريه الى نفس الرأى ، وأن هذا الباحث فى شئون الصحراء قد يكون مصيبا عندما يقول أن السكان السود كانوا فى السابق أكثر توغلا فى الشمال الافريقى مما هم عليه الآن .

ان الوضع الحالى للدراسات والملاحظات حول التبو يمكن أن يجمل فى النقاط التالية : «1 - ما من شك أن التبو هم نفس الشعب الذى كان يطلق

---

1 - Mannert. Geographie der Griechen und Romer, X, 573

2 - Waitz, Antropologie der Naturvolker, II, 14 - 15

عليه المؤلفون القدماء أسم الجرمنت . 2 ـ لانعلم فيما اذا كان الجرمنت من ذوى البشرة السوداء او البيضاء . 3 ـ أن التبو الحاليين هم فى جزء منهم من ذوى البشرة البيضاء المائلة الى الصفرة ، وأغلبهم من ذوى البشرة السمراء المائلة الى الحمرة أو السوداء تماما ويصل السواد لدى البعض منهم بحيث يغطى الكف . 4 ـ لدى جميع التبو نجد الشعر المجعد ولون الشبكية الاصفر . 5 ـ أن لغة التيدا قريبة قرابة صميمية من الكنورية . 6 ـ أن التبو الحاليين اذا ما أراد المرء أن يعتبرهم عرقا مستقلا هم عبارة عن شعب خليط ناجم عن الامتزاج بين سكان الشمال الافريقى البيض مع سود وسط افريقيا .

ان طابع الاختلاط يتطابق مع تشكل الوجه عند التبو ، وليس من النادر ان يلاحظ المرء ملامح أوروبية قوقازية ناعمة وقد اتحدت مع لون بشرة أسود داكن ، ويتحدث ليون عن الآنف المعقوف (أنف العقاب) والاسنان والشفاة الجميلة كما هى عند الاوروبيين بالاضافة الى لون اسود لماع ، ويقول هورنمان «أن التبو ليسوا سودا تماما . وان اجسامهم نحيفة ، وتكوين اعضائهم لطيف وسيرهم رشيق وسريع ، إن عيونهم تعج بالحيوية شفاههم فيها شيء من القوة ، وأنوفهم صغيرة وليست غليظة ، وشعرهم قصير لكنه ليس مجعدا كما هو لدى السود ، وفى الكتاب الذى يتضمن رحلة دنهام وكلابرتون توجد أوصاف مختلفة ، ففى الوقت الذى يقال عن تبوكسبى «أن الآنف يشبه كتلة من اللحم تلتصق فيه فى الوجه وان فتحات الانف على درجة من الاتساع بحيث تدخل الاصبع محملة بالتبغ الى المدى الذى يراد لها» وحول تبو بيلما يرد فى الصفحة 94 مايلى : أن شكلهم أجمل من سكان المدن الصغيرة ويمكن أن يطلق على البعض منهم صفة الجمال ؛ أسنانهم متناسقة ـ بيضاء مثل اللؤلؤ وهى ناصعة تجاه هذه البشرة الداكنة السواد ان الجدائل الثلاثة فى شعرهم التى تتدلى على جانبى الوجه والمدهونة بالزيت والحلق فى الخشم وعقود الكهرمان كل هذا يعطيهن منظرا مغريا . . ويلاحظ لدى تبو الغندة أن بعض الفتيات كن فاتنات حقا تجاه بشاعة الشباب وترى مباشرة بعد ذلك الملاحظة . أنه ما من أحد من تبو الغندة يزيد طوله عن المتوسط وهم نحاف الجسم يتسمون بالرشاقة ، وجوههم نحاسية اللون تتسم بالخفة والذكاء ، عيونهم كبيرة جاحظة وأنوفهم مسطحة وأفواهم وأسنانهم كبيرة الا أنها متناسقة حمراء غامقة اللون نتيجة لتناول التبغ ويؤكد ناختيغال على رجحان اللون البرونزى لدى تبو الرشادة ويمضى قائلا : أن تكوين الانف حسن وهو على الاغلب مستقيم ، طوله معتدل واذا كانت توجد

انوف فطساء توجد ايضا معقوفة ، ومثل هذه الاشكال من الانوف ليست نادرة ، أن شعر الدقن ضعيف وسواء كان طويلا او قصيرا فهو على شكل الصوف وقاس كما هو الحال لدى السود ، ولذلك فهو يعتقد انه من الاجدر أن يعتبر هؤلاء من البربر أكثر مما هم من الكنوريين وحسب آراء الرحالين الآخرين الذين دخلوا فى تماس مع التبو فأنهم يعتبرون هؤلاء من حيث الملامح الجسدية من العناصر السوداء ، أكثر مما هم من العناصر البربرية وكذلك تتطابق عاداتهم وتقاليدهم مع تلك لدى السود أكثر من تطابقها مع عادات وتقاليد البربر ، أنهم لايشمون أنفسهم وشما ملونا مثل هؤلاء بل يشطبون انفسهم مثل جميع الشعوب السوداء وسبق ان ذكرنا آعلاه ان لغتهم قريبة من لغة الكنورى .

أن منطقة سكنى التبو تمتد من جنوب فزان حتى شمالى بحيرة تشاد والى الشرق من كوار وتدخل واحة كوار فى اطارهم الى الغرب مايدعى بالصحراء الليبية ، ولم يتأكد بعد فيما اذا كانوا يسيطرون أيضا على واحة الكفرة التى غدت آهلة بالسكان ثانية منذ بضعة سنوات ، كيف يمكن التوصل الى معلومات موثوقة من خلال مشاهدات الرحالين الاوربيين ذاتهم فى الوقت الذى ينظر الاهالى الى جميع الاستفسارات بتحفظ ناجم عن سؤ الظن ، وبالاضافة الى ذلك فان التبو أقل فهما للامور الجغرافية من العرب والبربر فهم لايعرفون أسماء كثير من الجبال التى يمرون فيها سنويا ولايطلقون اسماء محددة للوديان والجبال والسهول الواقعة فى المنطقة المحيطة بهم مباشرة ، والاصعب من ذلك التوصل الى معلومات أكيدة حول مواطن قبائل التبو فى السابق فهم لايمتلكون روايات تاريخية سواء كانت مكتوبة أو شفوية ، وفى أثر الاصل المشترك للغتى التيدا والكنورى يمكن أن نتتبع بدقة أكبر دراسة قبيلة الكنوريين ، أن كلمة "يالا" تعنى الشمال لدى التبو والكنوريين وأما الجنوب فتعنى "انوم" فى الكنورية ، أو انوم أو إنوم فى التيدا ، وحسب شرح بارت للكلمات فأن "يالا" تعنى لدى التيدا غرب ومن المؤكد أن هذا خطأ اذ أن الغرب يعنى لدى التبو "دي" على العكس من ذلك فأن الكنوريين يطلقون على الشرق "قيدى" وأما التبو فيستخدمون كلمة "فوتو" للشرق بينما يستخدم الكنوريون نفس الكلمة للغرب ، ومن المعلوم أن بعض الشعوب التى غادرت مواطنها القديمة ، تحافظ على ماكان يطلق من اسماء على المواقع السابقة فمثلا أن سكان تدكلت اذا ما توجهوا نحو تمبكتو فأنهم يقولون أنهم يذهبون نحو الشرق على الرغم من أن

تمبكتو تقع فى جنوب تدلكت وأن أبحاثا مقارنة فى هذا الاتجاه قد تلقى ضوءا على هذه المسألة .

أن جميع التيدا فى تبستى (تو) يدينون حاليا بالاسلام فى الظاهر الا أنهم لم يتخذوا سوى القليل من جوهر الاسلام أوحتى لاشىء ، أن مايتلونه ويقولونه أثناء الصلاة غير مفهوم لديهم وليس هناك عشر بين التيدا ممن يعرفون العربية معرفة كافية لفهم القرآن وحتى الطالب أى الفقيه لايعرف أكثر من أن يتلو الصلوات التى تعلمها وبعض سور القرآن دون أن يعرف معناها ، أنهم ليسوا قادرين على كتابة رسالة أو قراءتها وعلى العكس من ذلك يستفيد السنوسيون بذكاء من مكانة المرأة لدى التبوفى نشر الاسلام ، فهم يوجهون فى البداية نشاطهم بحيث يدخلن الاسلام لتستخدمن بعدئذ نفوذهن فى التأثير على الرجال ، ويتعلمن القراءة والكتابة ، ولذلك فأننا مازلنا نلاحظ أن الفتيات يذهبن الى المدرسة أكثر من الصبيان ، وبالطبع لايخرج التعليم عن الاساسيات الاولى الميكانيكية ، الا أن نساء التبوفخورات بأن تكن فقيهات وتحملن باستمرار لوح الكتابة الخاص بهن بمثابة رمز على ذلك ، على الرغم من انهن عندما ينطقن العربية يقعن بأخطاء مضحكة جدا وهكذا كانت صاحبة بيتنا فى شمدرو التى كانت تعتبر نفسها اعلم امرأة فى المنطقة تنطق عوضا عن كلمة "بسم الله" "بسمن الله" وهذا ماكان يضحك خدمى العرب ، ان تعدد الزوجات المعروف لدى المسلمين يعتبر هنا امرا نادرا ، وعادة ما يتم الزواج فى وقت مبكر ويتولى عقده شفويا فقيه يسمى هنا معلما ولايكتب عقد الزواج كما لايقوم احتفال خاص بمناسبة العرس او الولادة او الدفن .

وينقسم الشعب حسب المكانة الاجتماعية الى ثلاث طبقات ، وتشكل الطبقة الاولى "المينا" وهذا يعنى النبلاء ومن هؤلاء يختار السلاطين وأن للمينا نفس المكانة التى للشرفاء والمرابطين لدى العرب الا أنهم لايتمتعون بنفوذ واسع مثل هؤلاء اذ ترتبط لدى هؤلاء النبلاء من الولادة هالة دينية ، واما الطبقة الثانية فتتشكل من بقية الشعب فيما عدا عصيبة طوبى ودونى (ويلفظها بارت عاصى ودوتى) وهذا يعنى الحداد دون الذين يصنعون الاسلحة ، وهؤلاء يشكلون لانفسهم طبقة ثالثة ، انهم مثل اليهود فى مراكش يعيشون منفصلين تماما عن بقية الشعب ولايرتبطون معهم مطلقا بعلاقات الزواج ، ومن ناحية يتمتعون بشىء من النفوذ ولو انهم محتقرون فى الاعماق ، وفى حالات المرض اذا أعيت الحيل لدى المعلم (الفقيه) فأنه يلجأ الى صقال السيوف كما يلجأ الى

زوجته فى قراءة الطالع (وتدعى حسب بارت عسيلو) ان ضرب الحداد أو قتله يعتبر جريمة كبرى او دليلا على اعلى أنواع الجبن ، الا أنه ما من تبو يسمح لنفسه ان يأكل مع حداد السلاح من وعاء واحد او ان ينام معه تحت سقف واحد او يتزوج اخته واذا ما أطلق على أحد التبو اسم عصينة طوبى يعتبر هذا اهانة لاتغتفر ولايمكن أن يعاقب عليها الا بالدم لقد بحثت دون جدوى عن هذا الوضع الخاص ، ولو كان الحدادون غرباء أتوا او استوطنوا منذ زمن بعيد او يهودا نسوا علاقتهم بدينهم ، كان ينبغى ان يختلفوا ظاهريا عن التبو على الاقل ، وهذا غير واضح ولايعتقدون هم ذاتهم ولا الاهالى أنهم من أصل غريب .

ان هؤلاء الحدادين لايصنعون السلاح فقط ، من نبال ، ورماح ، وأقواس ، وتروس ، بل يصنعون حليا من الفضة والذهب وبالطبع فان مايصنعونه خال من الزخرفة الفنية ، وليس هناك لدى التبو أية صناعات أخرى ، ان النساء يصنعن الحصر من جريد النخيل وأما الرجال

فانهم يصنعون أشياء من العظام ونوى التمر ، وقربا من قشر الأكاسيا كما تصنع الجلود ملابسا وقرب ماء ، وتصنع سروج الخيل والجمال ويتسم التبو بنظافة بيوتهن تجاه العرب والبربر ، أن أرضية البيت تفرش برمل طرى ولا يدخلها الماعز أو الغنم على الاطلاق ، وحسب ناختيغال توجد فى تبستى ثلاثة أنماط سكنية ، مغائر فى الصخور الرملية وهى مصممة بحيث يدخلها النور والهواء بيوت مدورة بنيت جدرانها من الحجارة وتسقف بسقف النخيل وأغصان الميموز وهى سائدة فى كوار والنوع الثالث هو مايدعى قبى وهى أنواع طولها 10 أقدام وعرضها 4 ـ 5 أقدام تقام على أوتاد الطلح وتوضع حولها حصر مصنوعة من جريد النخيل .

أن ملابس الرجال والنساء بسيطة للغاية ، فيرتدى أغنى الرجال سروالا مصنوعا من الكتان السودانى وفوقه الثوب أو قميص من الكتان أيضا وعلى الرأس قبعة حمراء أو يلفون رأسهم ووجههم بعمامة بحيث لا يظهر من الرأس سوى حيز ضيق أمام العينين ، وهكذا فأن التبو من الشعوب التى كان يدعوها العرب القدماء "الملثمين" أن الملثمين هم جميع سكان الصحراء الكبرى وهم : الطوارق وسكان غدامس وعين صالح وغات وكذلك البدو العرب فى توات وأما العرب والبربر الذين لا يقيمون هناك بصورة دائمة لا يلبسون لثاما

أمام الوجه وربما أستخدم فى البداية بأعتباره وسيلة ضرورية للحماية من العواصف الرملية العاتية ثم انقلب الى عادة مستمرة . وربما يجدر بنا أن نفتش فى أصل هذه العادة لماذا تدع نساء التبو اللواتى لا يرافقن أزواجهن على الاطلاق تقريبا فى اسفارهم عبر الصحراء وجوههن دون حجاب . وأما الفقراء من السكان فيتخذ الرجال منهم جلد ماعز أو غنم يسترون به عورتهم ، وأما الصبيان حتى سن العاشرة أى البلوغ يسيرون عراة ، وعلى وجه العموم تحمل حجب مكتوبة من آيات قرآنية وموضوعة فى محافظ جلدية صغيرة وتعلق بالعمامة أو القبعة وعلى الذراع أو الرجل وحول الرقبة أو على السيف والرمح أو السهم وبالاحرى حيث يمكن تعليقها ، كما تعلق على الجمال والخيول بحيث تحمى من عين السوء أو أية أضرار أخرى .

وأما اللباس الرئيسى للنساء فهو عبارة عن قطعة قماش كتانية طويلة ذات لون أزرق فى الغالب وأحيانا مزركشة ، وتلف على الجسم بحيث تستر الرأس والذراعين والساقين على أنه يبقى الجزء الايمن من الصدر عاريا وتحمل مشبكين إلى ثلاثة مشابك من العاج أو العظم ، وتزين الذراع بالعقيق اليمانى أو الاصداف الكنورية كما توضع خلال من الفضة فى كعبى القدمين ويحيط بالعنق عقد من اللؤلؤ الزجاجى الاوروبى وفى الجانب الايمن من الانف تتدلى قطعة مرجان قطرها حوالى سنتمتر واحد وطولها 5 ـ 6 سم وفى حالة عدم وجود المرجان تؤخذ قطعة من العاج أو العظم ، وحسب رواية ناختيغال فأن زوجة سلطان تبستى كانت قنوعة بأن أخذتها من نواة التمر .

ويتخذ أسلوب التحية سمة خاصة لدى التبو ، واذا ما التقى أثنان من المعارف على الطريق فأنهما يجلسان على مسافة عشر خطوات عن بعضها البعض ممسكا كل منهما بالقضيب ويصرخ أحدهما "لحين كناهو" ويجيب الآخر "قَطَّع عنادنيا" ويجيب كلاهما بعدئذ "لها ، لها ، لها" وكلما أراد أحدهما الافراط فى التأدب كلما زاد فى تكرارها ، ثم يتقدمان من بعضهما ويتصافحان بالشد على الايدى دون تبادل القبل كما هى العادة عند العرب ، وفى هذا الاثناء يردد الشخص الموجه اليه الكلام قبل ذلك قَطِّع عنادنيا "ويجيب الآخر" لحين كناهو ويتبع الاثنان عددا كبيرا من "لها ولها وأما تحية الوداع "تمشس" مأخوذة عن العربية وأما الجواب فهو "كله هادى" وفى البيت يحيى الداخل اليه بقوله :

"البركو" (من العربية) ويجاب عليها "العبرة لها" وفى كثير من الحالات تكرر كلمات مجاملة مثل "كلها ، كله هنى" كله اللها الخ . . .

ومما يجدر ذكره على وجه الخصوص بين الاسلحة الماجرى أو الشنقر منقر الذى عرفناه لدى العرب فى البدء ، أنه يشبه سكين اللحم بطول قدم وتبرزمنها نصله أو أكثر بطول شبر ، وتستخدم بمثابة سلاح للقذف أو بلطة ، وحسب رواية ناختيغال فأنه يصنع فى بوركو ووداى واندى ، ويستخدم لدى شعوب شرق أفريقيا فقط ، وهكذا فقد وجده شفاينفورت لدى المنبوتو ، والبونغو ، والهوقلين ، كما وجده هارتمان وآخرون لدى قبائل شرق النيجر ، وهو يندر فى المناطق الواقعة غربا وينعدم وجوده تماما لدى الهاوسا ويبين استخدام هذا السلاح لدى البتو أنهم كانوا فى السابق يسكنون المناطق الواقعة شرقى بحيرة تشاد ، ويشترك التبو مع الطوارق وشعوب الصحراء الاخرين بالخنجر والذى يبلغ طوله 3 ـ 4 بوصات فيما عدا القبضة وتميل قبضته بأتجاه اليد ويحمل فى مقدمة الذراع وفيما خلا ذلك يوجد لدى التبو سيف ذو نصلة مستقيمة وقبضة متصالبة صنعت فى الغالب فى زولنجن [1] ، كما يوجد لديهم رمح طوله 8 ـ 9 أقدام من خشب الاكاسيا وقد وضعت فى رأسه نصلة حديدية يتراوح طولها بين $\frac{1}{2}$ قدم وقدم واحد وحربة للرمى طولها 5 ـ 6 أقدام وترس مدور أو بيضاوى مصنوع من الجلد وبالطبع فان الأثرياء يمتلكون أسلحة نارية .

نتيجة لفقدان أية قوانين مكتوبة يقوم النظام الاجتماعى والحياة القانونية على الاعراف والتقاليد ، ومنذ انتشار الاسلام بذلت الجهود لاقامة احكام الشريعة الى جانب القضاة الدنيويين ، الا أن الامر تطلب وقتا طويلا قبل أن تفرض الشريعة أحكامها التى تسود الأقطار الاسلامية الاخرى ، ان السلاطين يختارون من طبقة المينا ويحملون لقب دردة (جمع دردا وحسب بارت دردة بوى) ان سلطتهم محدودة وهى تتناسب مع الصفات الشخصية للحاكم فأما أن تزيد قوتها أو تقل ، لا يحق لهم أن يملكوا ثروات وليس لديهم من دخل سوى حصتهم من غنيمة الغزوات وما يأخذونه من رسوم من القوافل التى تعبر أراضيهم وما يحصلون عليه من هدايا الرحالين ، لا تجبى ضرائب فى البلاد ،

1 ـ مدينة المانية اشتهرت بالصناعات الفولاذية وعلى وجه الخصوص الادوات الحادة .

وحسب رواية ناختيغال يهدى الشعب الى الدردة الذى اختير مجددا خيمة وسجادة وبرنسا وطربوشا .

ويقول هيرودوت الجرمنت انهم يفرون أمام كل انسان ، ويتفادون الاجتماع بأحد ، ولما كانوا لا يمتلكون أسلحة حربية لا يعرفون كيف يدافعون عن أنفسهم ، وأما التبو الذين يعتقد أنهم أخلاف الجرمنت فقد رأينا أنهم لا يفتقرون إلى السلاح الا أنهم يتهمون بالجبن على وجه العموم ، وكما هم جبناء وأمام الاعداء فأنهم يتسمون بالعنف تجاه أولئك الذين لا يمتلكون سلاحا ، ويروى أن الارقاء الذين بيعوا الى التبو يفضلون الموت على أن يؤولوا الى مثل هؤلاء السادة ، ويبرز محمد التونسى وهورنمان وليون وغيرهم من الرحالين ميولهم إلى السرقة .

ان ناختيغال الذى يعرفهم معرفة عميقة يورد الصورة التالية لطباعهم أنهم نشيطون ، يتحملون الاعباء ، معتدلون ، خبراء بالسلاح ، يسافرون دون أستراحة ، يسلبون ، يمكن التفاهم معهم يحتشون ، أنانيون بخلاء جشعون ، كذابون ، غدارون ، قساة ، لا يتعاطفون ، مغرورون ، متكبرون ، غضبون ، أرستقراطيون ، سيئو الظن ، متعصبون ، ويضاف الى هذه الخصال الجميلة صفة الجبن التى تبرز لديهم .

وأما تاريخ التبو فأننا نجد حوله فى كتاب الدكتور بيم (Behm) الممتاز بعنوان "بلاد وشعب التبو" (2) الذى صدر فى سلسلة بترمان (Petermanns Mitteilungen Ergänzungsheft, Nr.8) معلومات مستقصاة ، وأما ما يخص طبوغرافية المنطقة التى يسكنونها فأننى أشير الى تقريرى الذى نشرته فى سلسلة بيرمان رقم 25 (. Petemanns Mitteilunfer. Erg. 25) والى اضافات ناختيغال وتصحيحاته وأورد هنا بعض أسماء المناطق والشعوب التى ترد فى لغة التبو ، فهم يطلقون على فزان اسم "جيلة" وعلى الاغلب أخذوه من زويلة كما كانت تسمى عاصمة فزان فى السابق ويطلقون اسم "كيكنة" على أهالى فزان وأموتقوى على البربر "وعيبوردة" على الطوارق ويقوده على العرب

2 ـ العنوان بالألمانية . Behm, Land und Volk der Tebu

وتركو على الاتراك أو "أردى" وهذا يعنى (كافر أوعدو "والنصارى هم أيضا أردى" ولكن قد يطلقون عليهم الاسم العربى نصارى (جمع نصرانى) وأما الشعوب التى تسكن إلى الشمال من التبو وهم على وجه التحديد سكان الواحات جالو أوجلة فيسمونهم "أموموقطنة" كوار حند يرى تقوى (حسب باختيغال أنرى تقوى) وسكان ، أموتقى ، وجنقة ، أنرى ، وسكان أموانو ، وسكان كانم ، أموكونم ، وسكان بوركو ، أموبوروقوى ، وحسب ناختيغال أموأنو ، وأهالى الهاوسا "أموعفونو" أن كلمة أفونو بربرية على الاغلب وهى سائدة فى سوكنة وجميع أرجاء فزان تأصلت فى العربية وتلفظ "ناس عفنين" أى أهل السوء وهذا الاسم يستعمل فى جميع منطقة طرابلس ، وأما أهالى وداى فيدعونهم "أمومورقة" وحسب ناختيغال فأن أهالى بورنو يسمون البربر "أموتقوى" وكذلك تقبه ، أو أناقنى .

وحتى الآن لم يثبت التبو أنهم قادرون على تكوين دولة أو أمة أنهم يسكنون ولا شك مناطق متجاورة الا أنه لم تنشأ لديهم دولة تنظم شؤونهم وحيث تسود سلطة حاكم عدة مناطق كما هو الحال فى كوار لم تنجم رابطة وعلى العكس فالكيان فيه من الثغرات بحيث لا يستطيع المرء أن يطلق على هذا الوضع أسم منظمة حكومية ، وأصبحت الاوضاع أكثر ترديا فى الاونة الأخيرة .

نهاية الصحراء الكبرى

مغادرة كوار ـ نبع مسكتنو ـ هضبة تنقرتنقر ـ صارغانا وصار كورا ـ بداية المنطقة النباتية ـ واحة دبلة ـ التحجر ـ واحة أغادم ـ بادية تينتوما ـ صيد الغزال ـ خيانة بولقده ـ على منبع بلكا شيفرى .

فى شميدرو أنتظرت دون جدوى انطلاق أحدى القوافل منذ خمسة شهور لم يصل أى خبر أو أى انسان من بورنو الى كوار ، وقررت أخيرا أن أستأجر دليلا الى كوكه وأن اوافق على دفع مبلغ رفيع قدره خمسون ماريا تيريزيا تالر (أبوطير) للشخص الذى أبدى استعداده لذلك وأسمه مينايوسكو ، وفى 21 يونيو كان كل شىء جاهزا للرحلة وعلاوة على خدمى الاربعة الذين أصطحبهم معى من فزان كان لدى عبد معتوق عمره 17 عاما وهو الذى رجانى أن أسمح له بمرافقتى الى موطنه الاصلى ولم أسمح له الا بشرط أن

يحمل بأستمرار بندقية ذات فوهتين والمنفى التركى علىّ الذى حررته من
أسره فى مرزق، وعلاوة على ذلك أنضم الى مرابط وتاجر رقيق من
القطرون واثنان من الخدم وأحد أعيان التبو أسم كللى وهو أيضا تاجر رقيق
ومعه خادمان وبذلك أصبح مجموع أفراد القافلة معى والمرشد 13 رأسا .

ان الانطلاق كان يمكن أن يجرى فى وقت متأخر من النهار ولذلك لم تبلغ
سوى قوبودوتو وهى قرية صغيرة تابعة لتبو الدسا فى الاقر وضربنا خيامنا
بين أشجار الطلح والقرض ونخيل الدوم وفى احدى الليالى المقمرة الجميلة
انفلتت ليلا عاصفة رملية اجتثت الخيام من فوق روؤسنا .

وتابعنا سيرنا فى اليوم التالى والغبار مازال يغطينا تماما وبلغنا بعد أربع
ساعات كلالة، حيث عدت الى مسكنى السابق، وما ان حططنا رحالنا حتى
فاجأنى السلطان بزيارته، واعتذر لقدومه فى وقت مبكر وزعم أن خادمى
عبدالقادر قد وشى به لدى ، وأعرب لى أنه مستعد للاستمرار فى تقديم
خدماته لى الا أن عبدالقادر لم يسكت على التهمة بل رد بعنف واتهم
السلطان بأنه كذاب خائن للعهد وأطلق هذه التهم أمام رعاياه الذين نظروا
الى هذا المشهد المهين بعدم اكتراث بالغ، وأخيراً طلب منى السلطان أن
أكتب له وثيقة تبين أننى لم أتعرض لسوء فى بلاده، وكتبت شهادة بالالمانية
بينت فيها أنه لم توضع فى طريق رحلتى أية عوائق من جانب الاهالى وأما هو
فقد تصرف تجاهى ـ بخشونة وفظاظة وخبأ الورقة وعلامات الرضى تعلو
وجهه معتقدا بالطبع أنها ملأى بالمديح وهو ينبغى أن يرسلها الى طرابلس
مع أبنه عندما يسافر قريبا الى هناك لبيع الرقيق .

وأستفدت من بقية النهار فى القيام ببعض المشتريات وعلى وجه الخصوص
أمرت بشراء احتياطى كاف من الملح اذ أنه غير موجود على الاطلاق فى
المناطق الواقعة جنوبا، وفى اليوم التالى ظهر السلطان امام مسكنى لعدة
مرات بحيث يشحذ منى شيئا من زيت الاشتعال والمرايا والابر الخ . . .
وطبقا لتعليماتى لم يسمح له الخدم بدخول البيت وسخروا منه عندما اضطر
أن ينسحب خالى الوفاض واشتركوا فى ذلك الا القطرونى الذى يقابل الملك
بالاحترام حتى ولو أنه دون سلطة .

وعند الساعة الرابعة بعد الظهر انطلقنا وبعد فترة قصيرة كانت كوار
الخضراء وراء ـ ظهورنا وفى الشرق على الطرف الجنوبى لمقدوم لمحنا قرو
القديمة التى تتكون الآن من بئر قيسدى وعلى مسافة ست ساعات الى الشرق

تقوم صخور براون حيث يوجد فى سفحها الغربى البئر الذى يحمل الاسم
ذاته وبعد أن صعدنا قبل مكتنو ثلاثة كثبان رملية تمتد من الشرق نحو
الغرب وصلنا عند السابعة والنصف هذا البئر وضربنا خيامنا قربه ويبلغ
عمق مياهه 2 ـ 3 اقدام تحت سطح الارض .

وحوالى الساعة الثالثة صباحا من يوم 24 يونية سرنا بأتجاه 160 د
وأصبح سير الجمال متعسراً أثر كميات هائلة من الرمال وكثبان رملية عمودية
الميل يصل ارتفاعها الى مائة قدم وتسير بأتجاة مشرقى غربى على أنه يجدر
بالمرء أن لا يبالغ بتصوراته حول رمل الصحراء كما يفعل بعض الرحالة،
وقد جاء فى رحلة كلابرتون ودنهام ص 93 واذا مامر المرء بالهضبة التى
تحجب عمق الرؤية، يسير على قدميه، وهكذا على المرء أن يوجه نظره الى
البقعة حيث غابت الرؤية بحيث لا يغدر به الرمل ويطمره، أن هذا الرأى
عبارة عن محض خيال، فى أرض سبخية يمكن أن يغرق المرء ويطمر وأما فى
الرمل فقد يغوص حتى الركبة .

ان الحجارة الرملية هنا غنية بالمتحجرات والمنضغطات وبكميات من
الحجارة الزجاجية المسودة من حجم حبة البازيليا، حتى حجم الكف
وبعضها فارغ والبعض الآخر ملىء بالرمل الابيض وحوالى الساعة السادسة
ظهر جبل كرد وفوسو للعيان على مسافة ساعتين الى ـ ثلاث ساعات شرقا
وعند السابعة والنصف دخلنا سهل تنقر تنقر وهى أرض مسطحة مكسرة فى
الغالب الى مخمسات ومسدسات وعندما تجاوزناها نادانا المرشد الذى يتقدم
القافلة قال لنا أنه يرى قافلة وعندما اقتربت تبين لنا أنها قافلة صغيرة قادمة
من كوكة تابعة لتبو الدسا وليست أكبر من قافلتنا ومحملة بالحبوب والأسماك
واللحم والسمن الى سوق كوار، ورغبت أن أتفاوض معهم على شراء بعض
الاشياء الا أنهم طلبوا أسعارا هائلة وعلاوة عن ذلك فأن أسماك البحيرة
المجففة شبه الفاسدة لا تغرى معدة الاوروبيين الا أن التبو يحبونها كثيرا كما
يقول بارت، ونتيجة لحرارة النهار قد أضطررنا الى القيلولة من الساعة
9 ـ 3 بعد الظهر وكان على الآن أن أخوض الرمال على قدمى اذ أن جملى ما
كان يستطيع أن يصعد وينزل الكثبان العمودية وعلى ظهره أحد، وحوالى
الساعة السادسة ظهر على مسافة سبع ساعات جبل تشو البارز لوحده
ووصلنا عند السابعة من خلال وديانه الضيقة الى منطقة سارقنا الغنية بنباتاتها
والتى تقوم القوافل بارتياد آبارها البعيدة عن الطريق الا أننا تابعنا سيرنا

مسافة ساعتين أخريين وبلغنا عند التاسعة والنصف ساوكوره حيث ضربنا خيامنا على مقربة من البئر وهنا أيضا كان الماء على عمق 2 ـ 3 أقدام تحت سطح الارض، وليلا كانت تطوف بخيامنا ضباع ذات عواء سريع، وأن كلبى الجسور بقى بعيدا عنهم ينبح ويقفز وان وجود الضباع كان بالنسبة لى أشارة محببة على أننا خرجنا من منطقة الصحراء العديمة النبات والحيوانات ودخلنا الى منطقة أكثر حياة، وهكذا فأنه يمكن أن تميز ثلاثة مناطق تقع فى جنوب كوار، منطقة الكثبان الغنية بالمستحجرات والواقعة شمالى الى جبال مقدم الى الشرق من الحمادة المرتفعة 2 ـ السهول الواسعة ذات النباتات والواقعة شرقى الصحراء وأكبرها هى التنتوما 3 ـ غابة الميموز العظيمة التى تصل حتى بحيرة تشاد ومما يثير الانتباه أنه لا توجد حصاة صغيرة فى أرضها .

ان النباتات التى تبدأ هنا ذات طابع مغاير تماما لتلك التى شاهدها الرحالة وهو قادم من الشمال وتستمتع العين برؤية اشجار السواك الكثيفة بالاوراق الخضراء وتدعى بالكنورية تقى وبالتيدا ، أمى وأن ثمارها ذات طعم حامض حلو مقبول وحسب رواية دوفيرية فأن المسلمين يرون أن السواك المستخرجة من خضبها ذات تأثير شاف وأن أوراقها تدخل التجارة تحت أسم رأس الحانوت وهو يستعمل ضد الزهرى ـ

فى 25 يونية غادرنا مضرب خيامنا عند الثالثة بعد الظهر واتخذنا اتجاهاً شرقيا وسرنا بزاوية قدرها 150 د وكان علينا أن نقطع ثانية كثبانا رملية وقد انهار خلال ذلك جمل التبو كللى، وفى وسط هذا البحر من الرمال تظهر هنا وهناك مجموعة من الاعشاب كى تبرهن أن هذا الجزء من الصحراء كان فى السابق يعرف المطر ، أن الجزء العديم المطر تماما أو تقريبا يقع بين سوكنة وساو ولا نرى هناك أى أثر للنبات بأستثناء الواحات .

وفى اليوم التالى سرنا عند الرابعة والنصف بزاوية 210 د عبر رمال وكثبان رملية عديدة وعند الثامنة شاهدنا جبل أشتداوه أمامنا على مسافة $1\frac{1}{2}$ الساعة وعند التاسعة والنصف توقفنا عند صخور ايتوكوى الواقفة فى وسط بحر الرمال الشاسع وهذا الجبل يتكون مثل بقية الجبال من حجارة رملية مسودة وتستخدم لدى المسافرين بمثابة دليل للطريق اذ ـ أنها تمثل نصف المسافة بين بللة وساو وعندما مضت ساعات النهار القائظة تابعنا سيرنا عند الساعة الثالثة والنصف بأتجاه جنوبى واخذنا نلاحظ ازديادا بالنباتات وأخذنا

نرى عن بعد مناطق كاملة وكأنها مغطاة بالعشب الاخضر، وأن الرمل والكثبان لم تقل وعند الساعة $7\frac{1}{4}$ كانت الناس والحيوانات قد أجهدوا الى درجة أنه أصبح لابد من التوقف بضع ساعات للاستراحة فأسترحنا عند جبل اتيوكوى تيلو القائم لوحده وعند الساعة الواحدة ليلا تابعنا سيرنا بأتجاه قدره 190 د وأخيرا أخذت تخف الكثبان شيئا فشيئا ووصلنا الى سهل ندلاده الرملى ولكنه ليس خاليا من النبات وبعد أربعة أيام من الخوض فى الرمل كان بوسعى أن أمتطى ظهر جملى عند السابعة صباحا انها نعمة أذ أن قواى لم تكن قادرة أن تتحمل اكثر من ذلك، ومنذ الساعة الثامنة شاهدنا الى الشرق جبل قيسيقر تينتى ويسميه دنهام قيسيقى حيث اعتادت القوافل القادمة من دبلة أن تستريح وبعد حين أضطرتنا الحرارة الزائدة الى القيلولة .

أن التبو كللى والمرابط القطرونى قد تقدما القافلة ومضيا ليحددا موقع بئر دبلة الذى لم يعد بعيدا وأما نحن فقد تبعناهما عند الثانية والثلث وبعد أن ألتففنا حول صخور تتراسكا بلغنا واحة دبلة وضربنا خيامنا حوالى الساعة $5\frac{1}{4}$ عند فتحات الماء وأن الماء الذى يقع على عمق 2 = 3 أقدام عن سطح الارض ذو طعم مالح الا أنه يصبح عذبا فى الفتحات الواقعة غربا، ان النبات الموجود فى دبلة يشبه نباتات منطقة ساو الا أنه تكثر هنا أشجار نخيل الدوم وتوجد أعشاب عالية تصلح لرعى الجمال أن جميع الجبال المفردة التى نجدها حاليا يفصل بينها الرمل كانت تشكل فى السابق سلسلة واحدة يطلق عليها اسم جماعى ، جبال قيزيقر لقد رأيت هنا أول صخور الغرانيت الا أن الصخور الرملية والتشكلات الكلسية تبقى هى المسيطرة وهما لفت نظرى بين التشكلات العديدة تشكلات حوتها انابيب زجاجية بيضاء ورمادية وسوداء بطول (1 ـ 2 ديسمتر ـ وهى من الخارج خام ومحببة ومن الداخل ملساء وفى طرفها ذات انتفاخ مثل تاج عمود كورنتى واوراق محببة بعرض 4 ـ 5 سم وطول 6 ـ 7 سم وفى وسطها عود بحيث كنت اعتقد أنها مستحجرات ويقول دنهام فى رحلته لقد وجدنا فى الرمال بعض التشكلات الفارغة على شكل انابيب ومرجان وقد ظهرت وكأنها تشكلت مؤخرا وعلى ما يبدو انها نشأت تحت تأثير الرياح والامطار فى الرمل الا أننى لا أريد رأيه واعتقد أن مثل هذه التشكلات لا تحدث الا تحت تأثير قوى الماء والنار وأما زيتل (Zittel) فأنه يرى أن مثل هذه التشكلات التى تشاهد فى جميع ارجاء الصحراء ليست سوى أنابيب مشكلة بصورة ـ سريعة .

وفى صباح اليوم التالى تحممت فى احدى فتحات الماء الكثيرة التى لا يزيد حجمها عن حجم برميل وسطى على الرغم من أعداد الناموس التى لا تحص وتطفو عليها نهارا فى الوقت الذى يختفى فيه الذباب تماما بين كوار وبلكشيفرى، ولا يكثر فى كوار كما هو الحال فى - واحات فزان الشمالية وتوات وتافيلت ودرعة حيث يجتذبه التمر الحلو. ويوجد الناموس - فى جميع الآبار جنوبى كوار وهذه تنطلق ليلا لتحرم بلسعاتها الانسان والحيوان من النوم وكى أحمى نفسى منها صنعت ناموسية من عمامة تبلغ حوالى 40 ذراعا من قماش رقيق ألف بها جسدى طوال الليل .

وحوالى الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر انطلقنا بأتجاه جنوبى الى صخور تيقرين وهذه تمثل البروزات الاخيرة لجبال قيزيقر وقد سرنا عند سهل مموج ليس خاليا من النباتات وخيمنا عند الساعة التاسعة والنصف مساء .

وفى اليوم التالى انطلقنا عند الرابعة والنصف وسرنا باتجاه جنوبى ان الارض المموجة ذات غطاء عشبى كثيف ويكثر نبات الحاد وليس الغطاء النباتى وحده الذى يزداد بل - تكثر أثار الغزال والضباع بعض الغربان والرخم وكذلك العصافير وكل هذا يؤكد أننا على أطراف الصحراء الكبرى وبعد أن استرحنا من التاسعة حتى الثالثة بعد الظهر سرنا حتى التاسعة مساء وضربنا خيامنا مقابل جبل أعقدم ، وفى الطريق شاهدت ثانية العديد من المستحجرات والصدف وكذلك قرون غزلان بطول 2 — 2½ قدم .

ان التبو الذين يصطادون فى المنطقة والطوارق الذين يقومون باعمال السلب جعلوا المنطقة غير آمنة ولذلك بدا لخادمى عبد القادر ان الحراسة الليلية المعتادة غير كافية وبدأ يتلو صلواته ويحوق حول المخيم بعود وهذا مايدعى بالعربية « يحلقو » ويعتقد المرء ان هذا لايبعد قطاع الطرق واللصوص بل ايضا الارواح الشريرة والحيوانات المفترسة ، وعلى كل حال لم يكشفنا هنا قطاع الطرق واللصوص والارواح بل الحيوانات ويبدو ان السحر لم يكن ذا أثر عليها ، وعلى الرغم من الحلقة الأسطورية اقتربت الضباع من المخيم وازعجتنا بعوائها المريع الذى لم ينقطع وفى الجنوب كانت تظهر علامات واضحة على الفصل المطير فى المنطقة المدارية .

وفى 30 يونيو وصلنا بعد مسيرة اربع ساعات بأتجاه الجنوب الى سفوح الجبال التى تحد واحة اعقدم من الشمال الشرقى والشرق وقد عبرنا الممر ومررنا

دون توقف بالبئر الشمالى وضربنا خيامنا بعد مسيرة ساعتين حوالى العاشرة عند البئر الجنوبى بين اشجار السواك الكثيفة ، ونظرا لوجود آثار اقدام انسان وجمل طرية ارسلنا من باب الحذر دليلنا مينا يوسكو على حصان كللى للاستكشاف وعاد بعد عدة ساعات مع مجموعة من التبو ويسمون انفسهم بولقده وافادوا ان ثمانية رجال قد نصبوا خيمة عند بئر الجبل كى يصطادوا فى الواحة لفترة من الوقت بحيث يبيعون اللحم الطازج الى القوافل العابرة وقد ارادوا ان يزودونا بالمقدار الذى نرغبه من اللحم ، اذا ماأقمنا يوما او يومين وفى الواقع شاهدنا عدة قطعان كبيرة من الغزلان ذات الاقدام البيضاء .

ان اعقدم تعتبر محطة مغربة لاستراحة القوافل بسبب غناها بالنباتات الا ان الاقامة فيها خطرة بسبب الطوارق والتبو الذين يجوبون المنطقة ، ويكتب دنهام ايضا ان اعقدم من المناطق المطروقة الا ان القوافل الصغيرة ومجموعات المسافرين يخشون هذا الوادى اذ يحط فى هذه المنطقة كثير من رواد الغنائم ، ويوجد الحاد بكثرة الى جانب انواع من الاعشاب من بينها العكرش وتوفر مرعى ممتازا للجمال وعلاوة على ذلك تنمو هنا اشجار القرض والدوم والسواك ومن الحيوانات ذات الاقدام الاربعة توجد الغربان والرخمة والنسر ، ولما كانت القوافل تستريح منذ قرون فى المواضع ذاتها فقد تجمعت هناك كميات كبيرة من روث الحيوانات والجمال ونتيجة لذلك تكثر الحشرات التى ازعجتنا ايضا ، ان مجموعات من النمل الابيض دخلت جميع اغراضنا وحتى مؤونتنا ولم نستطع طرد الجعلان من الخيام . ويبلغ عمق البئر الجنوبى 12 قدما مثله مثل بقية الآبار فى واحة اعقدم وماؤه عذب جدا ولكنه عكر ، وقد روى لى انه فى فصل الشتاء السابق قد اسرع اثنان من الارقاء وقد اعياهم الظمأ الى البئر ورميا بأنفسهما فيه ووجدا ميتين فى البئر والى الشمال من البئر توجد حفرة نطرون ولاتمر قافلة تبو دون ان تعرج عليها وتأخذ حاجتها من النطرون ، اذ ان التبو يمضغون التبغ والنطرون ، ان ليالى اعقدم كانت بالنسبة لى اجمل الليالى التى امضيتها فى الصحراء ، ان الجبال بانهداماتها العمودية تبدو عند العنق اكثر ارتفاعا مماهى فى الواقع وفى المقدمة تبرز من احراش السواك مجموعات من نخيل الدوم فى الوقت الذى تغطى الارض سجادة خضراء من نبات الحاد والبسيط ويتنفس المرء هنا هواء نقيا فيه شيء من الرطوبة القادمة من السودان ويرى عوضا عن الافق الرمادى الاغبر سماء زرقاء تلمع فيها النجوم ، وما ان تميل الشمس نحو الغروب حتى تصدح زقزقة العصافير من الحرش من شجرة الاكاسيا او نخيل

الدوم ويبدو ان العصافير تنشط مع طراوة المساء ، ونحن ايضا نشطنا مع نزول الشمس خلف الكثبان الرملية ، عندئذ كنا نحضر سجادة من الخيمة وتبدأ آلة الشاي بالعمل ويخلط العدس بالبازيلياء واللحم والخبز لتحضير طعام العشاء وكان اللحم يؤخذ من الارنب او الغزال وهكذا اخذنا نستمتع بالملذات التي استغنينا عنها طويلا ونلجأ الى النوم في وقت متأخر .

وفي 2 يوليو انطلقنا عند الرابعة بعد الظهر بأتجاه 160 د وقد ابديت استغرابي والمرابط لان هذا قد تذكر انه في سفراته السابقة نحو تنتومة كان يتخذ اتجاها جنوبيا واما انا فلأن خريطتي تشير الى ذلك ، ان كللي يرى ايضا اننا قد ابتعدنا شرقا الا انه يعتقد ان مينا يوسكو الشيخ يحوز على الثقة لانه يقطع الطريق بين كوار وبورنو للمرة السادسة عشرة في حياته وقد سرنا عبر سهل مموج وغابت عنا جبال اعقدم وضربنا خيامنا عند العاشرة .

وفي اليوم التالي تابعنا سيرنا عند الرابعة صباحا بأتجاه شرقي وحسب كلام الناس ستكون تنتومة امامنا ، ان المنطقة لاتختلف عن تلك التي كنا فيها لامن حيث بنية الارض ولا من حيث النبات ، وعندما توقفنا عند التاسعة صباحا اعترف يوسكو علنا انه ضل الطريق وبناء على الحاحنا كان عليه ان يمتطي حصان كللي ويسير غربا ليستطلع الطريق ، وفي هذه المنطقة لايمكن ان يتحدث المرء عن طريق بل تدل عليه روث الجمال وعظام الحيوانات الميتة وشظايا الاوعية المكسورة اذ انها بادية ليس فيها جبل او شجر او مايدل على الطريق ، ولما لم يعد يوسكو بعد مضى عدة ساعات ركب كللي على جواد المرابط ومضى في اثره على ان الاثنين عادا دون ان يجدا الطريق ، وهكذا فقد توصلت الى ان الشيخ يوسكو غير قادر على العمل كمرشد في مثل هذه المناطق التي تنعدم فيها الطرق وتشاورنا فيما يجب ان نفعل ، وعرضت ان اقود القافلة بالبوصلة عبر البادية واننا اذا اتجهنا نحو الغرب سنصل بلكشيفري ، وما من احد كان يثق بالالة وحدها وحتى خدمي وامتنع القطروني عن السير ، وتقرر ان نعود الى اعقدم بحيث نفتش عن مرشدين من البولقدة الذين يصطادون هناك ، وفي اليوم ذاته سرنا سبع ساعات على طريق العودة وفي اليوم التالي وصلنا بعد مسيرة سبع ساعات اخرى الى البئر الجنوبي .

وما ان سمع البولقدة بعودتنا حتى اتوا الى مخيمنا واحضروا لنا لحما هدية للضيف ووضعوا ثلاثة من قطع لحم متساوية امام خيمتي وخيمة المرابط وخيمة كللي ، وعندما اعلنت احتجاجي على عدم صحة التوزيع اذ ان كللي شخص

واحد وكذلك المرابط ولدى سبعة اشخاص اخذوا اللحم ثانية وقسموه حسب عدد الاشخاص ، وعلاوة على ذلك اشتريت منهم حوالي خمسين رطلا من لحم الغزال المجفف الفاخر مقابل تالرين - وان البولقدة مثلهم مثل التبو يمارسون الصيد بكلاب من نوع كلاب الصيد التي تهاجم الحيوان وتمسك به الى ان يأتي الصياد ويقتله بحربة ، ويستخدم اربع من هذه الكلاب لصيد غزال ، وكان لدى البولقدة اثنا عشر كلبا ، وغالبا ما يأخذ التبو الرحل مثل هذه الكلاب في ترحالهم ونجمت عن ذلك اسطورة لدى العرب تقول ان زوج نساء التبو هم الكلاب اذ يتخذون ليلا شكل انسان وفي النهار يجرون خلف الحيوانات بحيث يزودون العائلة باللحم .

دون ان نتفاوض قبل احد البولقدة ان يقود القافلة حتى بلكشيغري مقابل خمس تالرات استأجر كللي والمرابط جمله لحمل الماء اللازم لجواديهم .

ومنذ عدة ايام لاحظت تغيرا في اتجاه الرياح وعوضا عن الرياح الشرقية او الشمالية الشرقية او الجنوبية الشرقية اخذت تسيطر الآن رياح جنوبية غربية تنقلب مساء الى رياح جنوبية او غربية وبقيت هكذا حتى بورنو ، وحتى في المنطقة المطيرة التي أقمت فيها في وقت لاحق وجدت ان الرياح الجنوبية الغربية هي المسيطرة وكانت الغيوم مطيرة تأتي من الجنوب الشرقي اي كما اعتاد المرء على القول انها تسير عكس الرياح .

ان بارت يسمى تنتومة « صحراء مريعة شاسعة لاحياة فيها » كما يتحدث فوغل عن صحراء تنتومة وعلى العكس من ذلك يقارن دنهام في رحلته بين المنطقة شمالي بلكشيغري مع منطقة الهايد في انكلترا وان ناختيغال الذي راقب الظروف بدقة يقول ان بادية تنتومة الكبيرة تشكل المعبر الاخير الى المناطق الخصبة ، انها سهل واسع متموج هنا بكثرة ويقل هذا التموج في مناطق اخرى وينبت هنا عشب ونباتات اخرى وقلما ينعدم في اية بقعة النبات ويفسر ناختيغال كلمة تنتومة على الوجه التالي : من يبقى من (القافلة) فيها لايرى امه ثانية ومن الناحية اللغوية لايمكن ان يفسر الاسم على هذا الشكل الا عندما يعترف ان الكلمة قد نشأت من دمج الطارقية مع العربية ، ففي الطارقية تعني كلمة تن « عين ، وفي العربية ام » وما للنفي وهكذا فأن معناها الحرفي « عين ام ما » وبالاحرى كأنك لن ترى امك ثانية اذا مابقيت » .

في 5 يولية سرنا تحت قيادة المرشد الجديد عند الساعة الرابعة والنصف وسرنا تقريبا بنفس الاتجاه الذي قدمنا منه في اليوم السابق ومن الصباح اخذنا

بالسير حوالى 8 ساعات بأتجاه جنوبى تقريبا دون تغيير واسترحنا تحت بعض اشجار التمتم القائمة لوحدها بسبب حرارة الجو وان ارتفاع هذه الشجرة يبلغ ارتفاع اشجار الفاكهة ذات النواة وعوضا عن الورق تحمل اشواكا خضراء طويلة وان فواكهها لذيذة حسبما يقال وفيما عدا تنتوما تنتشر هذه الشجرة فى كانم وتندر فى بورنو ، وان الارض تحت الاشجار كانت مغطاة بروث الجمال والاوعية المكسورة وقرون الغزال وهياكل عظمية كثيرة وهذا مايعنى انها كانت تستعمل فى الغالب كمضرب خيام ، وعندما تابعنا سيرنا عند الساعة الثانية بعد الظهر سار البولقدة حوالى ست ساعات اخرى باتجاه الجنوب وكانت مجموعات الغزلان والطواويس تسير فوق الارض المغطاة بالعشب وكنا نجد هنا وهناك صخورا رملية فوق الارض وكانت الصخور الاخيرة التى جابهتنى فى توجهى نحو الجنوب اذ غاب من هنا وحتى بحيرة تشادای اثر للصخور .

ثم تابعنا سيرنا عند الساعة الثانية صباحا وقد استغربت اننا كنا نسير احيانا بأتجاه جنوبى غربى الى أن توقفنا حوالى الساعة التاسعة صباحا فى منخفض مثل المرجل تحت اشجار التمتم وهنا اعلن البولقدى انه لايعرف هذه الاشجار اى اننا ضللنا طريقنا وانه سيسير مع جمله كى يفتش عن الطريق الصحيح الذى يجب ان لايبعد كثيرا عن المنطقة وعندما يجده سيعود ليأخذنا من هنا ، وبدا لى انه غير المحتمل ان يضل طريقه رجل قطع الفيافى والقفار خلال الصيد فى جميع الانحاء ، ان تصرف البولقدة زاد من شكى انه قد ابعدنا عمداً عن الطريق بحيث نموت عطشا ثم تقع القافلة فى يديه ويد زملائه ولذلك رفضت ابتعاده وقلت ان عليه ان يدع جمله على الاقل عربونا ، ولما كنا متأكدين من وصول بلكشيغرى عند المساء فقد اخذنا كميات اقل من الماء وعندما انتهى ذلك اليوم لم يبق لدينا سوى قربة واحدة من الماء وهكذا فأن وضعنا كان خطيرا وللمرة الثانية ارادنا ان نعود الى اعقدم التى تفصلنا عنها مسيرة 28 ـ 30 ساعة واذا ما بقينا نضل طريقنا فأن هذا يعنى الموت الاكيد .

اتى الليل ولم يعد البولقدة وكان علينا ان نقطع الامل من عودته ، وان نحاول ان نكشف الطريق بوسائلنا ولهذا الغرض امتطى كللى ظهر حصانه يرافقه خادمه على مهارى وسار باتجاه غربى ، وركب القطرونى ومينا يوسكو على جمليهما وسارا باتجاه شرقى وعاد الاخيران بعد حين دون ان يؤديا الغرض وفى الصباح عند التاسعة وزعت كوب ماء على كل واحد ومنذ يوم لم نأكل شيئا حتى لايزيد العطش وحاولنا ان نحصل على الماء من الارض ولكن دون نتيجة ان

الارض كانت رطبة ولكن هذا من المطر وحتى يصل المرء الى الماء يجب ان يحفر 15 ـ 20 قدما وعندما اتت الظهيرة زاد العطش نتيجة الحرارة وناديت جميع الرجال ووزعت ماتبقى من الماء بعد ان وضعت فيه حامض الليمون ، واعطيت نويل الصغير شيئا من حصتى ووضعت له فيه شيئا من الدقيق بناء على طلبه ، وقد وجدت انه من اللطف ان يحرص المسلمون ان اعطى كلبى الطريح فى خيمتى شبه ميت الماء ويتقاسمون الجرعة الاخيرة معه .

لقد مضت ساعات أخرى مريعة ، وأخذت أحشائى تؤلمنى وكنت أشعر كما لو أن عينىّ تبتعدان عن رأسى ، وعلى كل حال فقد كان خطأ كبيراً أننا فى أقصى جنوب الصحراء ولانبعد عن بحيرة تشاد أكثر من 18 ميل ألمانى بخط مستقيم ، اذ ان الرطوبة تظهر هنا فى الهواء ولو كنا بين فزان وكوار لقضينا نحبنا عطشاً وفى الوقت الذى يئسنا من أية مساعدة لاحظنا عند المساء فى الجنوب الشرقى تصاعد غيوم سوداء وبعد رعد شديد سقطت قطرات مفردة كبيرة وكانت الاوعية والكؤوس الموجودة قد جهزت لالتقاط النعمة التى تسقط من السماء وكنا قد استلقينا على الارض لنستحوذ على كل نقطة بحيث ندخل فى رهان مع الجمال التى مزقت قيودها وذهبت تنتعش بالرطوبة النفيسة وبعد أن روينا ظمأنا استطعنا أن نملاء قربتين كبيرتين ، ومما يثير الانتباه أن المطر بقى متمركزا على المنخفض الذى كنا فيه اذ لم تسقط نقطة واحدة حول المنخفض وقبل ان يسود الظلام سمعنا طلقة من الغرب انها اشارة من كللى وقد نادى من بعيد أنه قد وجد الطريق وأحضر لنا ماء وبعد حين تبعه خادمه على المهارى محملا بأربعة قرب من الماء فقد سارا الى بلكشيفرى بعد ان وجدا الطريق وتوجها الى البئر ولذلك استغرقا وقتا طويلا ، وقد تتبعنا لفترة قصيرة أثار البولقده الا ان اثر طريقة يتوجه بعدئذ نحو الشمال وهذا ماأكد اعتقادى من أنه غادر المخيم لكى يعود الى أعقدم بحيث يقوم مع رفاقه فى السلب بالاتفاق على الغنيمة من يتصور مقدار فرحتنا عندما أنقذنا من خطر الموت المحدق ـ بنا ولما كان الحطب متوفراً أشعلنا ناراً كبيرة وطبخنا عليها وجبة لحم غزال أسكتنا به معدتنا الخاوية .

وفى صباح يوم 9 يوليه انطلقنا عند التاسعة وبلغنا تحت قيادة كللى الطريق الذى يسير جنوبا وكانت السهول المموجة والمغطاة بالاعشاب مرتعاً لأعداد كبيرة من الغزلان واالنعام وفى السماء كان يطير نوع من الرخمة بحجم النسر

أى أنه يبلغ فى حجمه ثلاثة أمثال حجم الرخمة المعتادة وقد مرت بنا بسرعة مجموعة من كلاب الصيد البرية أو المتبررة مطلقة نباحاً عالياً وهى تكثر فى كوار ومن النباتات التى تظهر هنا لاحظت شجرة الهجليج وكجين بلتو (عشب الضباع) والربة وهو نبات شائك والرتم الذى لايظهر فى المناطق الوسطى من الصحراء الا أنه ينمو من هنا بكميات كبيرة ، وبعد مسيرة أربع ساعات على طريق مطروق جيدا وصلنا عند الثانية بعد الظهر الى بئر بلكشيفرى وظربنا خيامنا على مقربة منه وقد هنأنا أنفسنا اذ أن الصحراء أصبحت وراءنا وبرزت أخيرا أمامنا بوجهها المخيف وكأنها أرادت أن تحفر فى ذاكرتنا ملامحها التى لاتنسى على أننا فقدنا رجلا من القافلة أنه خادم كللى الذى رافقه أثناء تقصية للطريق وقد أرسلنا اثنين للتفتيش عن الرجل الضائع الا أنهما عادا دون أن يعثر عليه .

وقد أمضينا اليوم التالي عند بئر بلكشيفرى الذى يبلغ عمقه 25 قدما ويسميه التبو بدوارام أن بئرا آخر يقع على مسافة ساعة ونصف شرقا من هذا البئر ويدعى بدوارام أصبح الان جافا . ان جميع الشجيرات والاعشاب فى المنطقة كانت سوداء من أفراخ الجراد الصغيرة التى تقضى طفولتها هنا عند أطراف الصحراء وما أن تكبر حتى تنطلق فى غزواتها المدمرة ، لقد طالبت مينا يوسكو أن يعيد نصف الأجر الذى ـ دفعته اليه مقابل عمله كمرشد فقد ثبتت عدم كفايته وكدنا نفقد الحياة بسببه ، ولم يكن بوسعى أن أفعل شيئا ضده لوحدى لانه كان يعلم أننى سأطالبه أثر ظهور قصوره وهكذا فقد طمر النقود قرب اعقدم .

الى كوكة عاصمة بورنو

عند الساعة $5\frac{1}{4}$ غادرنا بلكشفيرى يوم 11 يوليه ، أن الطريق مطروق بكثرة ويسير بأتجاه الجنوب ، وازداد تنوع النبات فى الارض ذات التموجات . فى البداية تظهر أعشاب جديدة منها مايحمل بذورا لذيذة مثل العنبر ، وتزين شجيرات حرشية المروج وفيما بعد تنقلب الاحراش الى غابات صغيرة ، وبعد ذلك تأتى غابة الميموز العظيمة وتنقلب فى بعض المناطق الى شريط يبلغ عرضه مسيرة أربعة الى خمسة أيام ويطوق القارة الافريقية من الشاطىء الغربى حتى البحر الاحمر ، وبالطبع يجدر بنا أن لانتصور أن هذه الغابة موحشة كثيفة

لايمكن اختراقها مثل تلك التى تعرفت عليها فى شاطىء غينيا ، إن غابة الميموز تشبه الى حد بعيد حديقة يتخللها النور والهواء ذات مناطق عشبية واسعة بين الأحراش ومجموعات الأشجار حيث تقوم بالاضافة الى أشجار الميموز الاكاسيا والهجليج وهى تشبه أشجار الريحان لدينا وكذلك شجرة الشرة أو انقصيرى الخالية من الشوك ، وتظهر عند جذوع أشجار الميموز وبخاصة اشجار الطلح والقرض شجيرات او فروع صغيرة . فشجرة البورنغو التى ينتقل بذرها بالهواء أو يحمله الطير ترى فى الموضع الذى يخرج الصمغ من الميموز . ولم أجد الورونغو لوحده أبدا ، وحتى وقت قريب كانت تسكن هنا عدة قبائل من التبو الا أن الطوارق طردوهم دون أن يسكنوا المساكن التى هجرت وعلى العكس من ذلك فأن عالم الحيوان قد امتلك الغابة بمقدار كبير .

وحتى الزرافة التى لم تكن فى السابق موجودة هنا فدخلت هذه المنطقة . أن أسرابا هائلة من العصافير اتخذت هذه المنطقة موطناً للتفريخ وفى شجرة واحدة كنا نجد عشرين حتى ثلاثين عشاً لابل خمسين عشاً وعلى الاغصان النخلية يعلق العصفور عشه المتأرجح .

وعند الساعة الثانية نبهنى كلبى الى أن شخصا يتبع القافلة من بعيد وسرنا ببطء كى يلحق بنا وتأكدنا عند اقترابه منا أنه الخادم المفقود ، لقد خارت قواه اذ أنه لم يأكل خلال الايام الثلاثة سوى الجراد والحشرات ومايشبه ذلك ولحسن الحظ كان يجد من حين لآخر حفرة ماء يطفىء بها عطشه ، وعندما سألناه كيف ضاع من القافلة أجاب بجدية أن الشيطان قد اختطفه ، وعلى الارجح أنه نام ولكى يلحق بنا أخذ طريقا مختصراً الامر الذى أدى به الى أن يضل طريقه مما أضطره أن يعود الى بئر بلكشيغرى بعد أن كنا قد غادرناه . ومن هناك استطاع أن يتتبع آثر سير قافلتنا الطري ومن أجله ضربنا خيامنا عند الساعة الثالثة بعد الظهر فى وسط الغابة . وفى المساء ليلا سقط مطر شديد حال دون أن نشعل النار حول المخيم كى نحمى أنفسنا من الحيوانات الكاسرة .

كان علينا أن نحجم هنا عن السير ليلا اذ أن وجود أعداد من الافاعى السامة جعل السفر تحت جناح الظلام خطيرا ، وخلال النهار كان الجماعة قد قتلوا عددا من هذه الافاعى بالعصى فانطلقنا حوالى السادسة صباحا وكلما تقدمنا كانت تزداد كثافة الحيوانات وكنا نظن أننا فى حديقة حيوان وشاهدنا أمامنا قطعانا من القرقوم وهى نوع من الغزلان المرقطة بالاحمر والابيض كما كانت أعداد لاتحصى من الفراشات الملونة بأزهى الألوان وتنتقل من حرش الى

حرش وتلتف حول الاشجار نباتات متسلقة من جميع الانواع وفى شجرة الدقدقى وجدنا ثمارا ناضجة لذيذة ذات لون أحمر وتتكون الارض من رمال ناعمة بيضاء ولم نعثر على أية حجرة مهما صغرت ، وهذا يسمح بالاعتقاد أن هذه الارض المموجة من هنا حتى بحيرة تشاد كانت مغمورة بالماء ثم غدت لفترة طويلة كثبانا رملية ثم أصبحت خصبة نتيجة للامطار المداريه ونبتت فيها الاعشاب والشجيرات والاشجار فتحولت بذلك الى ارض خصيبة ، وضربنا خيامنا عند الخامسة مساء بعد أن لاحظنا آثار أقدام اسد طرية وفى 13 يوليه انطلقنا استثنائيا عند الساعة الواحدة ليلا عبر الغابة المظلمة لاننا كنا نريد أن نمر عند بئر الكفى فى وقت مبكر من النهار ومع انبلاج ضؤ النهار فرت أمامنا خمس زرافات ذات الرأس المرتفع وكان كلبى يريد ان يتبعهم الا أنه جاء متأخرا ، أن آثار اقدامهن تشبه الآثار التى تخلفها خف الجمال وبالاضافة الى ذلك خرجت عدة خنازير برية من الحرش اذن يجب ان توجد مياه راكدة على مقربة منا وأن الاعداد الكثيرة من الآبار الموزعة على يمين الطريق ويساره تشير الى أن الغابة كانت مسكونة فى السابق ، فسكنتها قبائل الدسا والبولقده ورحلت القبائل الاولى الى شمال بورنو بينما استقرت المجموعة الثانية فى كانم ، ان المنطقة تحافظ على طابع الغابات الا أن الارض تصبح شيئا فشيئا مستوية ، وعندما بلغنا بئر كفى حوالى السابعة والنصف فاجأنا أسدا وهو يتناول فطوره المكون من غزال القرقوم وأن وصولنا جعله يغادر مكانه وما أن ابتعد حتى وصلت على الفور مئات من الغربان والعقبان وانقضت على الحيوان المغدور ، وحول البئر الذى يبلغ عمقه حوالى 25 قدما وضعت احواض ماء كبيرة صنعت من الخشب شربت منها جمالنا ، ودون أن ننصب خيامنا استلقينا تحت أشجار الطلح وفى لاثناء كانت العصافير والحمام البرى تتابع تغريدها دون أن يزعجها وجودنا ، فى الاشجار الثلاثة التى تظلل البئر بنى نوع من مالك الحزين أعشاشا كبيرة ، فى كثير من المواضع كنا نرى نبات الذرة (القصب) ويطلق عليها أبناء بورنو عرقوم مورو وهى بقايا الموسم السابق ، ومما يثير الانتباه ان ناختيغال الذى زار ئر كفى بعد أربع سنوات من زيارتى وجد أن البئر مردوم منذ سنوات ولما كنت د وجدته فى وضع جيد خلال زيارتى فقد يكون تعرض لتخريب شديد ، كنت أرغب أن أتناول قطعة طرية من لحم الغزال الا أن المسلمين يعتبرون مثل ذا اللحم جيفة ، ولما كنت لا أريد ازعاجهم عزفت عن الاستمتاع بذلك .

من بئر كفى سرنا أربع ساعات ونصف بأتجاه الجنوب الى أن وصلنا بئر آزى

ووجدت أن طعم مائه لذيذ ، وبصورة عامة لم نعد نفتقد الماء كثيرا ولم نضطر الى أخذ أحتياطى كبير منه اذ أن الاحواض وحفر مياه المطر تنتشر فى كل مكان وفى هذا اليوم واليوم التالى كانت تنطلق اعداد لاتحصى من اليساريع من حجرها وفى كل خطوة كانت الجمال تدوس على بعضها ، ان هذه الحيوانات بنية اللون ولها من الجانبين حوالى 130 رجل وتقترب من النبات وان لدغتها غير سامة وبذلك أناقض بالدليل القطعى رأى الكثير من علماء الطبيعة ، وحسب رواية ناختيغال فأن هذه ذات الالف رجل ، تدعى فى الكنورية ـ ونقلى ـ ويستخدمها الاهالى كدواء ضد لدغات العقرب والافاعى .

وفى الساعة $5\frac{1}{4}$ من يوم 14 يوليه تابعنا سيرنا على الطريق ذاته وهو يقود بصورة مستقيمة الى نقيقمى ويتفرع عنه يمينا ويسارا طريق شرقى عبر كيو وغربى عبر بير الحمام وعند الساعة التاسعة قابلتنا قافلة يشك بأمرها يرافقها تسعة فرسان وعندما أصبحت على مدى نظرنا دخلت الحرش ، فتوقفنا وجهزنا أسلحتنا ولم نعد نرى شيئا منهم ولذلك تابعنا سيرنا بعد أن حضرنا فطورنا ، أن مروجا خضراء تفصل فى الغالب بين مجموعات الغابة وقد وجدت فى هذه المروج آثار أقدام فرس النهر وروثه وعظامه وهذا يدل على قرب بحيرة تشاد ، وهنا وهناك كنا نرى نخيل الدوم الذى يحب الماء وبالاضافة الى ذلك ينتشر شجر السواك وينشر رائحة مخدرة كما يقول دنهام ، أن أوراقها وثمارها الناضجة تشبه فى حجمها حب عنب الذئب وهى تشبه فى طعمها الخردل واذا ما جففت حبيباتها تتخذ حلاوة فى طعمها ، وحتى المساء سرنا خمس ساعات وضربنا خيامنا على سفح هضبة وعند غروب الشمس صعدت قمة الهضبة ووجدت أمامى فجأة واديا على شكل مرجل كثيف الاشجار وظهرت من الحرش شجرتا نخيل اعتقدت انى أرى ثمارهما ، وعندما عدت الى المخيم أرسلت اثنين من خدمى الى النخلتين الا أنه ظهر أنه من المحال الدخول فى الحرش دون بلطة ، وربما كان الموضع الذى نزلنا فيه ، مسكونا فى السابق اذ أن طريقا ضيقا كان مطروقا يؤدى من هنا الى الطريق .

وبعد مسيرة ساعتين ونصف وصلنا فى الصباح اليوم التالى الى نقيقمى وهى البلدة الاولى المسكونة فى شمال بورنو ومن يتصور أن بحيرة تشاد تقدم سطح ماء لامع فأنه سيتفاجأ عند رؤيتها اذ أن المرء لايرى الا فى مواضع ماء مفتوحا اذ أن فيها اعدادا كبيرة من المواضع التى يغطيها القصب والغاب وكان خواء البقر الذى يمر بنا قطعانا بمثابة موسيقى محببة الى النفس كم مضى من الزمن منذ أن لم

يتطرق مثل هذا الصوت الى أذنى التى اعتادت عليه فى الوطن ، وقد ضربنا خيامنا قرب القرية وبعد حين اتى الاهالى الذين يسمون كانيمبو ليرضوا فضولهم ، وقد اعتبرونا طليعة قافلة كبيرة ، واستغربوا عندما قلنا لهم ان مامن احد يتبعنا وابلغونا ان الطوارق يتجولون فى جميع الاتجاهات فى كانم يسلبون وينهبون وهم مرتبطون فى ذلك مع اولاد سليمان لقد عرضت علىَّ النساء من مواد الطعام السمك الطازج والمجفف والسمن والتبغ وعرقوم المورو ، ودقيق عرقوم المرور وشيئا من الشعير والقمح وارادوا ان يشتروا أو يقايضوا مقابل اللؤلؤ الزجاجى والإبر ، ان الاسعار التى طلبوها لم تكن متواضعة اذا ماقورنت بوضع الاسعار فى وقت لاحق اشتريت بأسعار أرخص بكثيرفى العاصمة كوكه ، ودفعت لهن مقابل أسماك طرية وحمل عشرين رطل من السمن وشىء من الطحين تالرين (بوطير) وفى المساء تحممت فى موضع مفتوح حيث تسقى الابقار فى بحيرة تشاد بعد أن أكد لى الأهالى أنه من النادر ان يهاجم التمساح انسانا ، وفى موضع غير بعيد من المكان الذى كنت استحم فيه شاهدت اربعاً من فرس النهر تظهر رأسها ولما كان كلبى والمرابط قد طلبا منى ان أطلق امام اهالى نقيقمى مايشير الى قوتنا ، انتهزت هذه المناسبة لأظهر مدى فعالية سلاحنا فاطلقت اربع طلقات متتالية نحو فرس النهر ، ولحسن الحظ اصابت طلقتان منها الهدف اصابة قاتلة ، وان صدور مثل هذا العدد من الطلقات فى الوقت ذاته ومن نصلة واحدة واصابة الهدف والتأثير القاتل على الرغم من بعد المسافة لم يتمخض بالتأكيد عن ادنى احترام ضئيل لدى الاهالى الا ان مثل هذا التخويف للاهالى كان أمراً ضروريا لسلامتنا ، ففى اليوم السابق أقدم عشرون شخصا من بودمه على نهب قافلة صغيرة تابعة للتبو واخذوا ثلاثة جمال وهكذا كان ينبغى ان نبعد عنهم الرغبة فى مثل ذلك .

تتكون نقيقمى من اكواخ من القصب مدببة الرؤس وسكانها كانيمبو اى سكان كانم ويبلغ عددهم حوالى (1500) نسمة وهم لايختلفون عن التبو او الكنوريين ظاهريا ويتكلمون مثلهم لغة برنو ، ويقول ناختيغال انهم يسمون انفسهم تومغيرى وبذلك ينسبون الى قبيلة تومغيرى فى تبستى ويعيشون على تربية المواشى وصيد السمك والزراعة الا انهم يتعرضون لغزوات الطوارق وغيرهم من القبائل الرحل ، ويقوم على شؤونهم شيخ يقدم فدية سنوية الى سلطان بورنو تتكون من اسماك مجففة وخلال فصل المطر فقط تحيط البحيرة بالبلدة وفيما عدا ذلك تكون بعيدة عن الضفة بمسافة طلقة بارودة ووجدها

بارت فى موقع اقرب الى البحيرة وقد تراجعت منذ ذلك الوقت نتيجة الطوفان ويفصل نقيقمى عن الغابة سلسلة من الكثبان والرمال المنخفضة التى تكتظ بالاعشاب والشجيرات .

وفى المساء فاجأتنا عاصفة محملة بالمطر فتخلخلت خيمتى واخذ الماء يدخل من الخارج بكميات اعتقدت فى اخرها ان البحيرة قد خرجت من حوضها وناديت جماعتى طلبا للمساعدة، الا انهم لم يسمعونى فقد اخذت الرياح خيمتهم الا اننى تمكنت بوسائلى الخاصة ان ارفع الاكياس المعبأة بالسكر والشاى والتى يمكن ان تفسد اذا ماتطرق اليها البلل ، وحيث حل المرء فى المناطق المدارية فان العاصفة تمضى سريعا هكذا فان الجو قد راق عند منتصف الليل وصفت السماء تماما، وعلى الرغم من ان مخيمنا كان على مقربة من المنطقة المأهولة ، فقد هاجمتنا الضباع طوال الليل وهى ذات حجم اكبر من ضباع الصحراء ولم يعبأ مطلقا بنباح كلبى ولم يبتعد الا بعد اطلاق النار . . وعندما انطلقنا حوالى الساعة السادسة والنصف من صباح اليوم التالى انضم الى قافلتنا التبو الذين تعرضوا للسلب هنا وبعض سكان نقيقمى وقد اتخذوا الثيران للحمولة يعبرون برفقة مجموعة قوية منطقة بودمه حيث تقوم اعمال سلب وكنا نسير على طول شاطىء بحيرة تشاد وكنا نميزها بالقصب العالى حيث تتحرك اعداد كبيرة من الطيور المائية وعند الساعة العاشرة مررنا باكواخ سيلولو وفى العاشرة والنصف وصلنا اكواخ اودى وفى تلك الفترة كانت هذه الاكواخ مهجورة وهم يأتون الى هنا على فترات بحيث يعملون فى استخراج الملح من رماد شجرة السواك ومثلما تنعدم الحجارة هنا ينعدم الملح ايضا وان النباتات التى تنمو هنا فقيرة بالملح الى درجة ان السكان يزعمون انهم يعطون الجمال والبقر والغنم والماعز ملحا من وقت الى اخر واما انا شخصيا فقد شاهدت عدة مرات كيف يعطى النطرون للجمال، ولهذا السبب فان الملح من البضائع المرغوبة هنا لدى المواطنين واذا مااردت ان اشترى شيئا من السكان كانوا يطلبون ملحا بالمقابل واذا مااستغرق قدوم القوافل من بيلما وقتا طويلا فان المرء يحاول ان يحصل من رماد السواك على بديل ضعيف عن طريق التبخير.

على مسافة نصف ساعة من اودى التى غادرناها عند الثانية بعد الظهر تتخذ بحيرة تشاد اتجاها جنوبيا بدلا من الجنوب الغربى وعلى وجه التحديد عند خيام بردوا الى الجنوب الشرقى وعند الساعة الرابعة والنصف عبرنا كنسانقالى وهى بلدة يقطنها سكان يقومون بتبخير الرماد وعند المساء نشطت حياة الحيوان فى

المنطقة ، فراشات كانت تنتقل من زهرة الى اخرى ، والعصافير كانت تطير من الحرش الكثيف الذى يحيط بالمروج التى تمتد على ضفاف بحيرة تشاد وتعلو فوق رؤوسنا واما الطيور المائية فهى لقلق ابيض واسود وبجع ووز وبط الخ . وكانت تفتش بين المرج عن طعامها دون خوف ، واما قطعان الغزلان كانت تسرع الى البحيرة طلبا للماء والخنازير البرية كانت تنكش الارض بحثا عن الجذور وما ان تقترب منها حتى ترمى بنفسها فى الغابة تسير بطريق مستقيم او تختبىء بين القصب العالى وهنا كان فرس النهر يلتهم علفه دون ان يكترث بنا ، وهناك غاب تمساح طوله 4 ـ 5 اقدام ودخل المستنقع او قصب الضفة خوفا ، كل شىء كان غريبا وجديدا ، وفى كل خطوة كان يظهر امامى شىء لم اره مطلقا من قبل ، وللاسف فان جمالنا تعرضت للسع الذباب حتى الادماء ، وبلغ ازعاج الذباب ان الجمال فقدت هدوءها واخذت تحاول رمى حمولتها بحيث تستلقى على الارض وتمرغ نفسها ، وعند الساعة السادسة وصلنا بلدة كنجيكاليا وهى قرية كبيرة يعمل فيها كثير من العبيد فى تبخير الرماد وقد قدموا الينا فورا بصورة خالية من الحياء وكان علىّ ان اطلق النار فوق رؤوسهم كى ابعدهم عنا ، وفى وقت لاحق وبعد ان ضربنا خيامنا ابتعنا لديهم سمكا لذيذا مقابل الملح .

وفى اليوم التالى 17 يولية سرنا على طريق بعيدة من ضفاف البحيرة ويمر بغابة اقل كثافة ولكنها تعج بالحيوانات وعند 4¾ بلغنا قرية باروه وقررنا ان نمكث هناك وباروه تبلغ حجم نقيقمى ويحيط بها سور من الطين ووجدت حولها اراضى قد زرعت عرقوم ، وفاصوليا وقطن وتبغ وباعنا السكان مواداً غذائية مقابل الملح ولحسن الحظ انى احضرت معى احتياطيا كبيرا منه .

عند الخامسة والربع من صباح اليوم التالى سرنا ثانية باتجاه 170° وعبرنا غابة مضيئة فى اشجارها اعشاش العصافير ويتدلى منها الاجاص ووصلنا بعد بضع ساعات الى مستنقعات نهر الفوبة ومياهه الخلفية ، واستغرق عبور النهر وقتا طويلا واقترن بكثير من المصاعب وهكذا اضطررنا ان نلف حول المستنقعات بطريق بعيد وان نعبر احواض المياه على ظهور الجمال العنيدة ، وان المناظر الطبيعية الخلابة كانت هى العوض عن الصعوبات ، فالشمس المدارية وتأثير الماء على هذه الارض العذراء ينتج مناظر جميلة متنوعة وعلى مروج النهر الخضراء النضرة تتنزه الغزلان والكرقوم واللقلق والبجع وغيره من الطيور المائية ذات الارجل الطويلة وحولها نجد رفوف البط والاوز البرى وفجأة ضج الحجل وطار مقوقئا الى اعشاشه المخبأة فى الاعماق وفى المواضع الجافة يبنى النمل اوكاره

ويجعل فوقها اكواما من التراب يصل ارتفاعها حتى 3 اقدام وتشبه اكواخ الاهالى ، وهنا ايضا تنمو اشجار الدوم باغصانها الكثيرة وتظهر اشجار التموكو والتمر هندى الرائعة مشيرة الى النهر كما يظهر التفيلا ، مجموعات مع حباتها اللذيذة التى كانت فى فترة نضجها .

واخيرا بلغنا عند الثالثة ضفة كومادوغو فوبة واذا كان ناختيغال قد قال ان اسم فوبة غير شائع فان هذا يدل على مقدار سرعة تغيير الاسماء الجغرافية فى بلاد النيجر وهكذا لم يجد بارت قريتى الاربى وودى وكان قد زارهما دنهام وكلابرتون وبعد عدة سنوات لم يعرف موضعهما الا بعد جهد جهيد لان اسمهما قد نسى وعلى الضفة الاخرى وتحت ظلال اشجار التمر هندى شاهدنا قرية يو، وقد اتى الينا سباحة عدد من سكانها يلبسون التوب الازرق حتى رأسهم وقالوا لنا ان مختار القرية يجب ان يبلغ السلطات عن كل قافلة تمر من هنا بواسطة رسول ويمكننا ان نسلم المراسل رسائل الى كوكة وكتبت عدة سطور الى السلطان ابلغه فيها زيارتى المرتقبة ورجوته ان يخصنى باستقبال طيب وارفقت معها رسائل التوصية التى وجهها له قائممقام فزان وفى تلك الاثناء كانت تتقدم بسرعة فائقة كتلة من الغيوم الداكنة وما ان تمكن خدمى من نصب خيمتى وتثبيتها الا وقد انهمر المطر ولم يكن وقتئذ كللى والمرابط قد نصبا خيمتهما فالتجأ الى خيمتى من المطر العاصف ولم تصح السماء قبل المساء وهكذا لم يكن بوسعنا التفكير بعبور النهر ولحسن الحظ قطعت النهر سباحة بعض النساء يحملن الدقيق وبعض المواد الغذائية وقد اشترينا منهن مقابل الملح .

وعند الصباح صنع من ثمانى قطع قرع فارغة ربطت مع بعضها قاطع امين وضعت عليه اغراضنا ونقلت على ثلاث واربع دفعات الى الضفة الاخرى وركب بعض من المجموعة على الجمال وعبروا النهر الذى كان فى الوسط على درجة من العمق مما اضطر الحيوانات الى السباحة واما انا ففضلت السباحة واخذت معى كلبى الذى يخاف الماء مثل العرب ووضعت حوله طوق نجاة واما المرابط فقعد فى وسط القطع السبعة التابعة له على القاطع الذى لايزيد طوله عن ستة اقدام وعرضه عن ثلاثة اقدام وهكذا وصل الينا مثل بطة فى وسط عشها ولما كان قد تأخر الوقت لمتابعة السير ضربنا خيامنا على مقربة من ضفة النهر وسط ارض يحيط بها سور طينى وفى هذا الموضع يخيم السلطان عندما يأتى الى هنا ولهذا يسمى قصر السلطان ومنذ اربعين يوما امطرت هنا ومنذ 27 يوما يجرى نهر الفوبة .

وعلى الضفة اليمنى للنهر تقع بلدة يو ويحيط بها سور ويعيش سكانها الذين يبلغ عددهم حوالى (800) نسمة على الزراعة والرعى وعندما يمتلىء الكومادقو اى النهر بالماء وهذا الوضع لايستمر اكثر من اربعة شهور فى السنة يصطادون السمك وخلال هذه الفترة يتم الاتصال مع الضفة الاخرى سباحة ومن لايعرف السباحة مثل اولئك الذين يأتون من دواخل البلاد يستخدمون عند العبور قرعة فارغة او قطعتين من القرع الفارغ ويجلس الشخص عليها ويضرب بيديه ورجله .

لقد حملت الينا مواد غذائية كافية بينها خبز مع حبيبات الكورنا وهو يشبه فى طعمه كعك العسل لدينا الا انه جاف لدرجة اننى لم ابلعه الا وانا اغص، بالاضافة الى ذلك كولتشه وهى الان مادة تصدير هامة من سنغى غامبيا ومن شاطىء غينيا واما الفاكهة فتزرع هنا مثلما هو الحال فى جميع ارجاء بورنو للاستهلاك المحلى.

ويبدو انهم يعرفون صنع زيت العركيز الذى اصبح يزاحم زيت الزيتون فى اوروبا ومقابل ذلك يفيض لديهم السمن، وفى السابق اشتريت 20 رطل سمن مقابل 140 رطلا من الصدف الصغير وهو مايدعى العوضة ويعادل قيمة لتر واحد .

وفى الساعة السابعة والنصف من صباح 20 يولية غادرنا ضفة الفوبة وتوجهنا غربا بسبب المستنقعات والمياه الخلفية ووصلنا عند العاشرة الى بقيل وهى تتكشل من قريتين قلما تظهر اكواخهما من حقول العرقوم، وعلى العموم فان المنطقة ضئيلة الكثافة السكانية وبعد ان استرحنا منذ الساعة العاشرة والنصف انطلقنا عند الواحدة والنصف وتابعنا سيرنا باتجاه جنوبى من الخامسة وثلاثة ارباع الساعة وتندر الحيوانات المفترسة كلما استقر الانسان فى المنطقة، الا ان الطيور وعلى وجه التحديد الطيور المائية كثيرة هنا مثل البط والبجع واللقلق ومن جديد رأيت شجيرات الكلبا ذات حبيبات حمراء صالحة للاكل وتسمى ندورنو وهى اذا ماأكلت طازجة فانها مثل الصبار لذيذة الطعم وتصلح كدواء ضد الزحار، كما وجدنا شجيرات ملبورتا دون شوك وشجيرات نقانقاوها فاكهة ذات نواة بحجم التفاح الا انها لاتؤكل بسبب طعمها المر.

وفى صباح اليوم التالى انطلقنا عند الخامسة والنصف باتجاه قدره 160 د .

وكلما اقتربنا من المدينة كلما زادت كثافة السكان وبالطبع لاتوجد فى هذا المجال مقاييس الكثافة الاوروبية وعند الثامنة شاهدنا على مسافة نصف ساعة غربى

الطريق قرية بسقى وحوالى الساعة العاشرة كوماقندوم اى بلدة الفيلة وربما العسل لان كوماقن تعنى فى الكنورية عسل بينما يعنى الفيل كوميون، وفى اللغة الدارجة فقط يعنى كوماقن وعند العاشرة والنصف عبرنا حقول قولارو وهى قرية واقعة غربى الطريق ايضا وقد ضربنا خيامنا عند الحادية عشرة وهنا انفصل عنى كللى والمرابط لانهما كان يريدان ان يصلا المدينة فى نفس اليوم واما انا فلم ارغب بدخول كوكة مساء فلم اكن اعرف فيما اذا كان قد جهز لى مسكن فيها وفيما اذا كانت التقاليد تسمح ان يصل الغرباء فى الصباح ولكى نقترب من المدينة قدر الامكان فقد امرت بتجهيز الفطور فورا وبتناول الطعام وانطلقنا عند الثانية بعد الظهر وسرنا باتجاه 100° وعبرنا عند الساعة 3½ حقول العرقوم التابعة للالبهيرو وعند الرابعة والنصف كنا على مسافة ثلاث ساعات الى الشرق من نقروطو (قرية فرس النهر) وهى على مقربة من بحيرة تشاد وعند الساعة 5¾ كان على يمين طريقنا بحيرة نقلجم التى لاتجف مطلقا ويطلق هذا الاسم بالكنورية على كل بحيرة صغيرة، وعند الساعة السادسة ضربنا خيامنا بين قريتى داورغو وهى تقع على مسافة اربع ساعات الى الجنوب الشرقى فى العاصمة وذلك لقضاء الليل.

وفى الصباح الباكر لبس خدمى ملابس جديدة كنت قد اشتريتها لهذا الغرض ثم انطلقنا وتوقفت قافلتى عند الساعة التاسعة امام الباب الشمالى لكوكة .

الاستقبال والاقامة فى كوكه

الدخول - هدايا الضيف - الزيارات - اول استقبال لدى السلطان بيت النصارى - الامير بوبكر - استقبال يوم عيد المولد - عرض عسكرى - ارسال موفد الى سلطان وداى رسالة من الحكومة الانجليزية - الاقتراض

على الرغم من اننى لم اكن اول اوربى يزور عاصمة بورنو فقد اجتذب خبر قدومى مجموعة كبيرة من الفضوليين الذين تجمعوا امام الباب ليروا النصرانى والرجل الابيض ذا العيون الفاتحة والشعر الاشقر ويتأملوننى عن قرب . ان حرس الشرف الذى جهز لاستقبالى وضع عند الباب الغربى الذى تدخل منه

القوافل عادة الى المدينة ، وقد تجمع هناك ايضا حشد من الناس وملأ جماعتى بنادقهم بثلاثة مقادير واطلقوها محدثة صوتاً شديداً واعتقد اهالى كوكه ان بنادق النصارى تحدث دويا مثل المدافع وان السبب الرئيسى لفضولهم يعود الى شخصى وكلبى : «انظروا النصرانى ، انظروا لباسه وحذاءه (كنت البس نصف جزمه وكانت ملابسى اوربية على وجه العموم) ان عيونه مثل عيون القطط هذا الكافر ، هذا الجاحد من اين اصله ؟ هل هو انجليزى ام المانى (انظروا الحيوان الذى يصطحبه انه ضبع صنعه ، هل خدمه من النصارى ايضا» وهكذا كانت تتعالى الاقوال بين المجتمعين ومن صفوفهم كنت اسمع من جميع النواحى (اهلا بك فى بورنو الحمد لله على السلامة هل سارت امورك على ما يرام فى الصحراء ، ان شاء الله لم تتعرض للعطش «السلام عليك» والان اتى فارس انه موظف السلطان قادم من الباب الغربى ويسوق حصانه باتجاهى فنزلت عن جملى وتوجهت اليه ان الناس المحتشدين من حولى كانوا يدفعوننى نحوه ، وقد سلمنا على بعض بالكنورية «العافية عند وتفى ، عافى العبر ، الحمد لله» وبعدئذ قال لى انه مكلف ان يرافقنى الى البيت الذى جهز لى . وقد سار خلفى جميع الحشد وكنت اسمع منهم كلمات كافر ، مشرك الا انهم لم يظهروا شيئا من العداء . ومررنا بعدة شوارع ثم دخلنا بيت شخص يدعى ططاوى وهو شقيق خازندار مرزق وملاذ جميع الاوربيين الذين يأتون الى كوكه ، واستقبلنى بلطف زائد وعلى الاغلب كان ينظر إلىَّ كغنيمة مرغوبة ، وقابلت عنده واحداً معارفى من مرزق وهو الثرى الطرابلسى شريف الحشايشى وكان قد انطلق قبل سفرى بعدة شهور الى بورنو ، وقد رافقنى الاثنان الى المسكن المخصص لى وليس فيه الكثير من الراحة ، وعندما شكوت اجاب الططاوى وموظف السلطان وهو زنجى مشطوب الوجه يلبس قبعة من القش ذات طبقتين وتجعله يظهر وكانه صينى ليس هناك مسكن اخر وعلى وجه العموم لا يمكننى ان انتظر فى كوكه بيوتا مثل طرابلس واستانبول وعندما لم أجد ما اجيب به امرت ان ينزلوا الأغراض .

ان البيت يتكون من غرفتين مساحة احداهما 10×6 اقدام وتربطهما ساحة وقد غطيت هذه الساحة بحصير وجعلت منها غرفة للخدم وخلف البيت كان يقوم فناء واسع انهار سوره وهنا وضع ططاوى خيمة من الحصر بناها على اعمدة وقبل ان يغادر موظف السلطان اكد لى ان السلطان مسرور جدا

لقدومى وانه يرحب بى ولن يدع شيئا ينقصنى باعتبارى ضيفه وامر الططاوى ان يلبى جميع رغباتى وعندما سألته متى يمكننى زيارة السلطان أجاب أنه علىَّ ان استريح اولا وسيقوم الماى (الملك او السلطان) بابلاغى عن الموعد الذى يريد ان يستقبلنى خلاله .

وخلال النهار أحضر خدم الططاوى هدية الضيافة من جانب سيدهم وهى شاة وقصعة مليئة بالرز وحوالى 20 رطل سمن وبعدئذ ارسل السلطان حمولة جمل من الرز وحمولة جمل من القمح (3 قناطير) ووعاء جلدياً مليئاً بالسمن (حوالى 100 رطل) ووعائين مليئين بعسل الغابة وقرعتين وبيض اوز (اخذ من بيض الاوز البرى فى بحيرة تشاد) وثلاثين دجاجة ، واما الوزير الاول فى بورنو الدوقما او دقما ارسل لى بقرة وارسل لى الشريف الحشائشى شاة كما أرسل الى بيتى من بعض الافراد دجاج وبعض الاطعمة وبالطبع كان يجب ان تقابل هذه الهدايا وان يدفع الى الخدم الذين احضروها بخشيشا عاليا .

وفى فزان يقوم البخشيش على اساس ان يدفع ذلك الجانبان بالمقابل ، وفى كوكه ما من احد يفكر بذلك فلم أحصل على شىء مقابل الهدايا التى ارسلتها الى السلطان وكبار موظفيه وأعيان بلاده بينما كان علىَّ أن أدفع مقابل كل وعاء أرز وكل دجاجة اهديت الىَّ مقداراً معيناً من النقود ومن المؤكد انه كان من الافضل لى ان أشترى طعاما مقابل النقود التى دفعتها .

وبعد فترة قصيرة استقبلت زائرين انهم تجار من طرابلس ومرزق ومصر ومكة وكانوا شخصيات من الاعيان بيض اللون وكل هؤلاء كانوا يرغبون ان يعرفوا من هو هذا النصرانى الذى ابلغ عن قدومه منذ وقت طويل وارادوا ان يعرفوا فيما اذا كان صحيحا كل ماروى عنه ، هل كنت حقا فى فاس ، هل قابلت عبدالعزيز اقنصل انت ؟ هل حقاً منع الاتجار بالرقيق الآن ؟ هل أرسلك ملكك إلىَّ هنا ؟ هل لديك حقا فرمان عال ؟ وهل كنت حقا فى ثوات ؟ لقد كان علىَّ ان اجيب فى كل مرة على هذه الاسئلة وما يشبهها وبقى توارد الزوار حتى المساء .

وعندما انصرف الزائرون احضر خدم السلطان اوعية مليئة بالطعام كل واحد منها يكفى لعشرة رجال ، وفى الوقت ذاته اتى ططاوى ليخبرنى ان السلطان بانتظارى فى اليوم التالى .

واثر مطر عاصف لم أتمكن من مقابلة السلطان قبل الظهيرة وعندما تحسن

الجو بعد الظهر أتى الططاوى راكبا على حصان وأحضر معه حصانا لى لان مقر السلطان يبعد عن بيتى حوالى الساعة ، ولم أكن قد اشتريت حصانا فقد توجب عليَّ أن أنتظر حتى انعقاد السوق الذى يتم مرة واحدة فى الاسبوع.

وعندما وصلت الى القصر استقبلنى امام القصر فى البداية الدوقما واسمه ابراهيم لا يتكلم العربية ثم رافقنى عبرعدة دهاليز الى مكان تحف به ساحتان وقد احتشد فيه الخصيان ورجال البلاط والموظفون كما كان بين هؤلاء عدد من ابناء السلطان ، ولما كانوا غير بالغين فقد لبسوا الثياب الزرقاء البسيطة ولم يتخذوا ملابس مصل الخصيان ، وما ان تركنا حتى بدا الخصيان والموظفون واولاد السلطان يوجهون لى اقذع الكلمات المهينة «اليس النصارى كفاراً هل لديكم فكرة عن الله ؟ هل تستطيع القراءة والكتابة ؟ على السلطان ان يأمر بقتلك مثلما يفعل سلطان وداى ؟ ولم اجب وتظاهرت اننى لا افهم الكنورية فقد قيل لى ان الخصيان لا يحظون فى اى بلاط بنفوذ مماثل لنفوذهم فى بلاط بورنو . وعلى الرغم من ان السلطان كان مستعدا لاستقبالى الا انه كان على ان انتظر اكثر من نصف ساعة فى هذه القاعة البالغة الازعاج واخيرا عاد الدقما واشار علينا ان نتبعه وكنت البس فيما عدا الطربوش لباسا اوربيا كاملا ، سروالا وصدرية وستره صيفية ونصف جزمه ، وكان الرحالة السابقون قد تستروا بانهم مسلمون ووفروا على انفسهم الاضطهاد الذى يتعرض له كل نصرانى هنا ، ووصلنا عبر ساحة اخرى الى قاعة كبيرة مدعمة باعمدة طينية ، وفى احدى زواياها وعلى دكة مفروشة بالسجاد رايت السلطان عمر جالسا وهذه المقابلة الاولى اتخذت طابع الزيارة الخاصة وهدفت الى ارضاء السلطان .

وفى اللقاء الرسمى الذى يجرى دائما فى الصباح يظهر السلطان وسط المجلس المجتمع يحيط به ابناؤه واقاربه المباشرون لقد حييت الحاكم ورحب بى بان اشار الى الارض بيده ولم تكن ممدودة لا بالسجاد ولا الحصر ، وبعد ان جلست وبالاحرى جثوت بدأت الاسئلة المعتادة حول الصحة وكيف تحملت الرحلة الخ . . . . وقد اجبت بنفس الطريقة ولم أنسَ حسب العادة العربية ان اردد هنا عبارات : ليحفظ الله السلطان ، الله يطول عمر سيدنا ، الله يبارك السلطان ويسلمه . . . ان السلطان يفهم العربية جيدا وقد جرت محادثاتنا باللغة العربية - وبعدئذ سألنى كيف حال سلطانك ؟ هل تحمل لى رسالة من طرفه وهل هو ذلك الذى يحكم النصف الشمالى من

المانيا ؟ وقد اجبته ان سلطانى بحالة جيدة (1) ولما كنت قد قمت برحلتى بصورة خاصة لم يحملنى رسالة اليك .

وكان سيفعل ذلك بالطبع لو ان حكومته بذاتها قد ارسلتنى بهذه الرحلة كيف حال عبدالكريم ، يقصد هاينريش بارت ؟ انه صديق عزيز . انه انجليزى ؟ لقد توفى للأسف وهو ليس انجليزيا بل المانياً مثلى هذا مستحيل ، لقد عرفناه جميعا هنا على انه انجليزى متى توفى ؟ رحمه الله عندما كنت فى مرزق أحضر لى المراسل رسالة منه ومع دفعة البريد الثانية كتب الى اخى خبر وفاته لقد مضى الآن ثمانى شهور على وفاته هل لديك رسالة من سلطان استانبول كيف حال عبدالعزيز هل دخل فى سلم مع النصارى؟ الم يدخل فى حرب ضد موسكو (روسيا) ان عبدالعزيز فى حالة جيدة ولدى فرمان عال من لدنه وعندما غادرت مرزق كان مازال فى سلم .

مع النصارى وموسكو ، الى اين تفكر بالذهاب ؟ هل تريد زيارة باجرمى ووداى ؟ سأوصلك الى هناك مرحبا بك ، ولكن قبل أن ينتهى فصل المطر لايمكنك السفر ولن ينقصك هنا شىء اننى ارغب فى التوجه الى وداى عبر باجرمى وبارك الله فيك ان كنت ستأمر بمرافقتى لتلك البلاد ارحب بك مرة ثانية وكل ماترغبه يجب ان يحقق بهذه الكلمات وبحركة يد ملوكية ماكان للويس الرابع عشر أن يؤدى أفضل منها ودعنى فنهضت وحييته تحية عسكرية وتركت الطربوش على راسى وغادرت القاعة مع ططاوى وبقى الدقما فى القاعة واما الثياب التى كان يرتديها السلطان فى هذه المناسبة كانت مثل تلك التى يرتديها تاجر ثرى من طرابلس وتتكون من ، برنس قماش اسود وحايك ابيض ، وقفطان من قماش احمر ، وعمامة بيضاء . ولم استطع ان أرسم سرواله الواسع لانه كان يتربع وان شبشبه الاصفر الجلدى كان امامه على الارض والى جانبه الأيمن سيف فى غمد فضى نفيس وهو هدية من ملكة انكلترا احضره له الرحالة فوغل والى اليسار مسدسان زخرفا زخرفة فائقة وعلى الحائط خلف الدكه علقت بعض الصور الى جانب صورة السلطان عبد العزيز راكباً حصانه ووضعت له صور معتاده مع العساكر ، وما من نوافذ فى

(1) وبقدر ما تنتشر راية بريمن فى جميع البحار بقدر ما يشتهر اسم المدينة الحرة لدى الشعوب التى تتعاطى التجارة ، ومن الواضح ان المرء لا يعرف فى دواخل افريقيا شيئا عن دولة بريمن ولذلك كنت اقول هناك ان بلادى هى بروسيا وفى العربية او العثمانية بروسية او النمسا وهما ليستا معروفتين فى وسط افريقيا ومن الرحالين السابقين سافر بوريمان بصفته المانيا وبارت بصفته انجليزيا وفوغل وافيرفيغ بصفتهما المانيين مرة وانجليزيين مرة اخرى .

القاعة وتتلقى النور من الباب الرئيسى وفتحة صغيرة خلف دكة السلطان وفتحة خلف دكة السلطان وفتحة فى السقف ، وفيما عدا ذلك ليست هناك اية زخارف وعلى الاغلب ان السجاد والحصر قد استبعدت كى تمرغ الرعية وجهها بالتراب عند مقابلة السلطان .

ومن القصر اخذنى ططاوى الى بيت الدقما وعلى الرغم من اننا كنا نعلم انه غير موجود الا ان المراسم تقتضي ان تؤدى له الزيارة بعد السلطان وبعدئذ زرت قائد الفرسان وآمر المشاة كلاهما كان فى البيت واستقبلانى دون كثير من المراسم وهما اسودان من ذوى الاجسام الكبيرة وليس فى لباسها مايوحى بالعسكرية وان شكلها يوحى بانهما من حراس الابواب ممن اطعموا جيدا اكثر مما يوحى بأنهما يتوليان القيادة العليا للقوات المسلحة فى البلاد ، وامام بيت قائد المشاة وضع خمسة عشر مدفعاً من مختلف السبطانات وموزر واحد وقال لى الططاوى انهم قد صنعوا فى كوكه ذاتها ولاأعتقد مثل ذلك ويمكن العثور على مكان الصنع بتأملها الدقيق .

وأخيراً زرنا المعلم محمد وهو رجل ذو نفوذ ثم توجهنا الى البيت وكما هوالحال فى اليوم السابق ارسل لى السلطان ثانية كمية من الطعام وامتلأت الغرفة الصغيرة ثانية بالزوار المزعجين وفى الليل جاء مطر عاصف ولما كان البيت لايقاوم المطر للاسف فقد تبللت أغراضى وانا ايضا .

وفى احد الايام القادمة اتى الى عبد اسمه دونكاس وقال لى بلغة عربية مكسرة ان ابن عمى عبد الواحد (ادوارد فوغل) قد اشتراه وهو صبى وعند رحيله سلمه الى موظف رفيع اسمه الأمينو ليرعاه واعتبرنى بمثابة سيده وطلب منى ان استرجعه من الأمينو وظننت فى البداية انه يريد ان يستجدى أو يفرض عليَّ أتاوة الا أننى اخطأت وعندما زرت الأمينو فى موعد لاحق قال لى ان فوغل سلمه العبد وأنه يعترف بملكيتى له الا دونكاس لايرغب أن يتبعنى باعتبارى سيده وعلى كل حال ماكنت لاخذه لاننى لا اريد ان اكسب عداوة موظف كبير مثل الامينو .

لقد آن الوقت كى أقوم بتقديم هديتى الى السلطان وتتراوح قيمتها بين 110و200 تالر وعندما عرضتها على الططاوى قبل تقديمها اعتبرها جيده ومناسبة وان القطعة الرئيسية فيها تتمثل فى البندقية الاميركية التى قتلت بها فرس النهر وكانت قد وصلت الى السلطان اخبار الطلقات العجيبة وكان يرغب برؤية البندقية اى ان يستحوذ عليها وهذا يعنى لايسعنى الا ان اقدمها

له وعوضا عنها كان لدى مسدس فى علبة من خشب الموجنة وكنت قد خصصته اصلاً لأقدمه هدية له ، وكنت امل ان تؤمن لى هذه البندقية التى تفوق جميع الاسلحة المتوفرة فى خزانة سلاح السلطان رضاه التام الا ان هذا لم يتحقق ومهما اكدت له اننى لست موفدا من ملك بروسيا ولست سوى شخص عادى لم يجد هذا أى صدى لديه ويبدو انه كان ينتظر شيئا ذا ميزة خاصة ولذلك قلما خص بقية الهدايا بنظرة وهى تتكون من : برانس، قماش حريرى بعض السكاكين التى صنعت بصورة جميلة ، سكر ارومات ، شاى وما شابه ذلك فهى أشياء يحملها اليه العرب من طرابلس والقاهرة سنويا وحتى الساعة الشمسية لم تنل سوى القليل من اهتمامه عندئذ خطرت ببالى فكرة وهو ميزان الضغط المعطوب والذى اصبح بالنسبة لى غيرصالح للاستعمال ، فقد اضفته الى الهدية بعد ان شرحت له كيفية استخدامه واخيرا ابدى الانطباع المطلوب ، اذ كان فخورا فى الاستحواذ على جهاز يتنبأ بواسطته بالطقس واذا وجد ان ابرة الميزان قد تراجعت تنبأ امام المجلس انه سيحدث مطر وعاصفة بعد الظهر فقد كانت تنبؤاته حجة دائما .

وارسلت الى الدقما هدايا بقيمة 60 تالر وكان أنفسها برنس قماش أخضر مطرز بخيوط الذهب كما أهديت ططاوى أشياء ذات قيمة أقل ، وقد وعدته ان اهديه ثلاثة أمثال ذلك عند مغادرتى اذا ماساعدنى فى كل شىء ، ووزعت مقابل الاطعمة التى اخضرت الى خلال اليومين الاولين لاقامتى فى كوكه 18 دزينة من مناديل الجيب ودزينتين من السكاكين و 5000 ابرة تقريبا ، وبعد فترة قصيرة تأكدت ان ططاوى لايريد ان يحصل على اجر رفيع لخدماته التى يقدمها لى بل كان يحاول أن يثير اهالى كوكه ضدى اذ كان يقول لهم سراً اننى قد اتيت كى اجابه تجارة الرقيق وهكذا كان ينبغى ان يجعلنى تابعا لحمايته .

لقد طلبت مقابلة الدقما ورجوته خلال المقابلة التى خصنى بها طوعيا ان يضع تحت تصرفى بيت النصارى (فتو النصارى بى) للسكنى وقد دعى بهذا الاسم لان كلا من بارت واوفرفيغ وبويرمان وكما اعتقد دنهام وكلابرتون والدكتور اودنى قد نزلوا فيه وقد استغرب الدقما ان يسمع اننى لأأسكن فى هذا البيت اذ انه ـ حسب علمه ـ أن السلطان قد امر ان يرتب هذا البيت لنزولى أيضا وبالطبع لم اجد امامى الا أن أسرع الى الانتقال بكل مالدى من بيتى الى بيت النصارى وامرت الاسرة الزنجية التى تسكن فيه دون علم السلطان ان تقطن فى خيمة مجاورة واتخذت مع خدمى من المبنى الرئيسى

الواسع مسكنا ويدخل اليه من الشارع عبر باب ثقيل صنع من أغصان الأشجار والأشواك ويصل الى غرفة أمامية او غرفة الخدم وقد وضع أمام جدرانها مقعد طيني ويؤدى الباب الثانى الى فناء تقوم فيه شجرة كوتشوك عالية تعيش فيها مئات العصافير الصغيرة وان أوراقها السميكة الخضراء تستخدم لحماية سقف الاسطبل الذى يتكون من الحصر وكنت أضع فيه الحصانين اللذين اشتريتهما فى كوكه لانه لايمكن الاستغناء عنهما ، وفى الحجرة الواقعة فى الجانب الآخر من الفناء حفظت أدوات رحلتى والخيام والدعامات وسروج الجمال والدلو والقرب الخ . . وسكن فيها خادمى حامد الطنجاوى بحيث يحرس الاغراض ويحافظ عليها ، واذا ماكان خلال السفر محمد القطرونى الشخص الرئيسى فقد كان حامد الطنجاوى خلال الاستراحات القصيرة او الطويلة رئيس الخدم انه يقدر النظافة وكان يعرف الغسيل والكوى وترتيب الخيمة والبيت . . كما كان على عكس القطرونى المتجهم مرحا رائق المزاج ، ومن غرفة العدة هذه يؤدى باب الى فناء مسقوف بالحصر وهو يمثل مركز البيت اذ تطل عليه غرفة نومى وغرفة الجلوس بالاضافة الى حجرة لوضع البضائع والاشياء الثمينة ، ويضاف الى ذلك ثلاث غرف استعملنا احداهما مطبخا واما الغرفتان الأخريان لم يستعملا نظرا لانهما كانتا فى وضع ينذر بالانهيار . والى الشرق من البيت يقع بستان مسور وضعت فيه جميع الحيوانات التى وصلتنى على سبيل الهدية ولم ترسل حيوانات للاكل فقط ، بل وصلنى دجاج اللؤلؤ . وانواعاً من الطيور المائية وغزلانا ، وقنفدا ونعامتين ، وان الاخيرتين يعتبران من أكثر الحيوانات حاجة الى العلف وكانت تدور ساعات بسرعة البرق فى البستان لانه لم يكن بوسعها ضم كميات الطعام التى تبتلعها دون هذه الحركة السريعة والمستمرة ، واذا ما اعترض طريقها خلال سيرها السريع هذا شىء مامثل كلبى فانها توجه اليه ضربة مؤلمة بمخالبها وهكذا يضطر للتراجع مرغما ولم أبلغ ططاوى قصدا بالنقل من البيت لأننى أخشى لؤمه ولذلك أصيب بدهشة بالغة كما هو المتوقع . وعندما وجد منزلى السابق خاويا أسرع الى بيت النصارى وشاهد على سطحه راية بريمن تخفق بزهو وحاول أن يخفى انزعاجه فى الإعلان عن اسفه الذى يتسم بالنفاق . لقد تخلصت من شراك جشعه ، وحاول ان يقول لى أننى الآن دون حماية وأمان فأجبت على ذلك فى عاصمة الشيخ عمر أعتقد اننى لست مضطراً الى حماية خاصة .

ان الوسخ الناجم عن توحيل الشوارع اثر المطر حال دون خروجى من البيت لعدة ايام الا ان الوحل لم يحمنى من زيارات الفضولين والشحاذين ، وعندما أصبحت الطرق سالكة الى حد ماقمت بزيارة ابن السلطان الاكبر ويدعى ابوبكر لقد استغرب اننى اتيت اليه وحيدا وهذا يعنى دون مرافقة ططاوى الذى يتولى ترتيب اتصالات الزائرين النصارى والعرب مع البلاط فى كوكه إلا أن الأمير وولى العهد المنتظر استقبلنى بلطف وان الهدايا التى فرشتها امامه زادت من طراوة مزاجه وهى تتكون من برنس قماش ازرق مطرز بخيوط ذهبية وعمامة وأداة موسيقية(هارمونيكا) وموس حلاقة ، وخنجر ، وعدة قبعات من السكر وارومات وماشابه ذلك ومما لفت انتباهى انه لم ينطق اية كلمة عربية بينما سمعته فى اللقاءات اللاحقة يتكلم العربية ولو اقل من المعتاد وكان استغراب ططاوى أكثر من الامير ان يجرؤ نصرانى على زيارة البلاط دون أن يكون فى رفقته .

وفى الوقت ذاته أظهرت له علامة اخرى على استقلاليتى بان اشتريت حصانا بواسطة الخادم الاول لدقما وليس بواسطته .

وفى عيد الميلود (المولد النبوى الشريف) تحتم علىَّ تبعا للتقاليد أن أظهر بين يدى السلطان ولما كان عدد المهنئين فى اليوم الاول كثيراً جداً ، فقد توجهت فى اليوم الثانى من العيد الى القصر وقد منحت شرف الدخول فوراً دون الاكتراث بالمئات الذين ينتظرون فى الاروقة والساحات حيث ينبغى عليهم ان يرتموا فى الرمل امام حاكمهم ويرشوا الرمل على رأسهم ، وفى هذه المرة كانت جدران قاعة الاستقبال والاعمدة الطينية التى تحمل دعائم السقف قد زينت بكتان ملون واما الدكة التى يجلس عليها السلطان فقد زينت بسجادة بيضاء واما الجدار خلف السلطان فقد علق عليه قماش مطرز بخيوط ذهبية على اطرافه وهو اسود ويتخلله حرير احمر واحمر يتخلله حرير اصفر ويصل ارتفاع الزينة حتى قامة رجل ويعطى بمجمله منظراً جميلاً وكان السلطان يرتدى ملابس مترفة من القماش والحرير ويتكون عرشه من فراش من مقاعد فلاحى وستفاليا الضخمة وفوق مكان جلوسه وسادة من الحرير الاحمر ولم استطيع تفسير الكيفية التى وصلت بها هذه الموبيليا النادرة وعقدت العزم ان استفسر فى المرة القادمة حول ذلك وبعد انتهاء حفل الاستقبال القصير عرض على السلطان مسدساته ويبلغ عددهم خمسة وهم حديثو الصنع وعلى الاغلب كان مسدس بويرمان بينهم ، وعند الوداع قال السلطان يجب ان لا تفوتنى زيارة حدائقه .

امام القصر اصطف الجنود فى وضع العرض وحشد مائة رجل فى كل جانب ودخل هذين الصفين القائد الاعلى يعلوه برنسان قماشيان طرزا بخيوط الذهب وعدة اثواب بيضاء وزرقاء ومن الجهة الخارجية كان يتحرك النقباء جيئة وذهابا وبناء على اشارة القائد اصدروا الاوامر : هس در (وتعنى بالتركية ركب سلاحك) تم سلام در : قدم سلاحك وجرى تنفيذ ذلك بدقة قليلة وكان يقف ستة من حملة الاعلام وسط الواقفين امام القصر اثنان منهما يحملان اللون الابيض واثنان اللون الاحمر واثنان اللون الاخضر وهى من الحرير ، واما لباس الجنود فانه يمثل نموذجا حقيقيا لمختلف الالبسة وكان الجميع تقريبا يلبسون قفطانا طويلا الا ان اللون كان مغايراً فهذا يلبس الازرق والاخر يلبس الاخضر والثالث يلبس الاصفر والبعض منهم كان يرتدى صدرية واخرون يلبسون الثوب والبعض يلبس سراويل ضيقة من القماش واخرون يلبسون سراويل واسعة من الكتان ويوجد اخرون لا يلبسون لا هذه ولا تلك ، واما غطاء الرأس فيتخذ البعض الطربوش ويتخذ البعض الاخر العمامة كما يتخذ اخرون القبعة البيضاء على ان الغالبية حساة الرأس واما بنادقهم فهى ذات حراب وهى عبارة عن بنادق فرنسية والمانية منسقة وبعضها بنادق عربية قديمة ، وعلى الرغم من ان القائد الاعلى والقادة كانوا يقفزون هنا وهناك مثل الاكباش ويبذلون ما فى وسعهم بحيث يلتزم الناس بالنظام الا ان اضطرابا مضحكا كان يسود الجو وعندما بدأ نوع من الرقص أمر أن يرقص جنود هذا الصف وقد نكسوا بنادقهم نحو الاسفل وخطوا نحو الصف الذى يواجههم وكنت اخشى ان لا اتمكن من حبس ضحكى لذلك ابتعدت بسرعة وقلت لمساعد القائد الاعلى (الجنرال) الذى كان يقف الى جانبى يشرح لى ما يجرى ان كل ما اراه يشبه تماما الاحتفالات لدى الاتراك ان هذا الحكم الذى اطلقه رومى وكلب نصرانى أى احد الذين يعرفون الامور العسكرية بداله وكأنه اطراء وهكذا أبلغه مباشرة الى القائد الاعلى وهذا لن يتوانى ان يبلغ السلطان المديح الذى وجه الى قواته .

ان الحديقة الملكية الواقعة امام الباب الشرقى التى زرتها اولا صغيرة وغير ذات بال وان الحديقة الواقعة فى المدينة اكبر وافضل حالا وفى الاخيرة توجد بعض الاشجار المستوردة من الشمال مثل الليمون الحامض والتين والرمان وهذه

الاشجار هى الوحيدة التى شاهدتها فى بورنو وكل واحد من البساتين يتبع لاحد الخصيان الذى يتولى الامرة على مجموعة من الارقاء والعمال .

على الرغم من ان السلطان كان يعاملنى بلطف منذ ان قدمت له هديتى الا انه لم يقدم لى الهدية المعتادة بالمقابل وهى عادة جواد ولاحظت ان الكوقناوا وهم من الاعيان الذين يتوارثون وضعهم باعتبارهم من الاسر الغنية كانوا يعتبرون هذا الاهمال بمثابة غضب وبدأوا يستهينون بى ، وكما يتهامس الخواص فى البلاط فان ذلك ينتقل الى المدينة وحسب روايات خدمى فانهم يقولون لم يعد السلطان يكرم النصرانى وسيطرده بلا شك من البلاد وربما يقتله وانتهزت فرصة عيد المولد النبوى لأثير هذا الموضوع اثناء الاستقبال بالصورة المناسبة ، فاعتذر السلطان عمر وأكد لى أنه لم يتردد فى هذا الامر الا لأنه يرغب فى اهدائى حصانا مناسبا واذا لم يجد مثل ذلك خلال الايام الثلاثة القادمة فانه سيهدينى احد جياده التى يركبها بذاته ، وفى مساء اليوم التالى أحضر لى كبير الخصيان حصاناً عربياً رائعا ، انه حصان ابيض أخذ من الاسطبل السلطانى عندئذ اخذ جميع رجال البلاط والمتطفلون يعبرون عن تهانيهم بمناسبة الهدية النفسية وتعلو وجوههم آيات النفاق ، وفى قلوبهم يقولون اوه نصرانى يمتطى صهوة جواد السلطان ماذا سيقول عن ذلك سيدنا محمد فى الجنة ، صلى الله عليه وسلم اللعنة على جميع النصارى .

لم أبق سليما من المرض الخطير الذى يعترى البيض خلال الفصل المطير (ينقرى) ولم يوقف الاسهال والحرارة التى يبدأ بها عادة التيفوئيد سوى جرعات الافيون والكينا ولما كانت جدران بيتى تتكون من طين فقط فهى تمتص الرطوبة مثل الاسفنج وعندما يشتد المطرفان السقف المسطح لا يؤمن حماية كافية ، ان مقياس الرطوبة فى الصحراء لم يسجل فى ساعات الظهيرة 35–40° ولم ينخفض فى ساعات الصباح عن 20° ولم يشر هنا وحتى فى ايام الصحو اكثر من 15° وصباحا صفر وهذا الانتقال السريع من الجو الجاف الى هذه الدرجة الى جو رطب يؤثر ولا شك على الجسم وعلى وجه الخصوص عند ارتفاع الحرارة التى تحول دون تبخر الجسم نظرا لرطوبة الجو وهكذا يصبح المرء اكثر خمولا مما هو فى الصحراء وكلما اقترب فصل الامطار من نهايته كلما اشتد المطر وزال عنه طابع العواصف المطيرة التى تسيطر بخاصة خلال منتصف الفصل ويبقى البرق فى

الافق طيلة الأيام ولاحظت فى السابق ان العواصف نادرا ما تأتى قبل الظهير بل تغلب بعد الظهر وليلاً ، وطالما استمر المطر ، كان على المرء ان يسلك طرقا بعيدة وحتى فى المدينة ذاتها كى يتفادى حفر الماء التى تبلغ احيانا ثلاثة اقدام وانقطعت المواصلات مع الطريق الرئيسى فى المنطقة الغربية منذ مطلع اغسطس نتيجة لوجود حفرتين عريضتين وعميقتين يصعب عبورهما حتى على الخيول ، وخلال هذه الفترة اشتغلت بكتابة رسائل وتقارير الى الوطن حيث اسلمها الى قافلة الرقيق الكبيرة التى تستعد للانطلاق نحو الشمال ، وهكذا سيتحتم على ما يزيد عن 4000 اربعة الاف من الارقاء ان يجابهوا اهوال الصحراء من جوع وعطش وانهاك وقيظ واذا لم يموتوا من هذه الاهوال سيرتبط وجودهم مع اعمال قاسية فى بلدان قاصية دون ان يأملوا رؤية بلادهم ثانية ومثل هذه القافلة الكبيرة التى تضم اكثر من 6000 ستة الاف انسان بالاضافة الى العدد الضرورى من الحيوانات للحمولة لا يمكن ان تنطلق فى يوم واحد بل استغرق الامر خمسة عشر يوما حتى تمكنت جميع اقسامها من مغادرة كوكه .

وفى استقبال عام وعدنى السلطان عمر ان يؤمن مراسلاً يحمل رسالة من طرفى الى سلطان وداى وكلف امامى كوقنا اسمه حامد بن ابراهيم بتجهيز البريد واصل والد حامد من وداى وتدرج فى خدمة الشيخ الكانمى الكبير والد سلطان بورنو الحالى وأضاف ايضا قائلا اننى سأدعم طلبك برسالة اكتبها بيدى سأرسلها حتى وقت العصر ، وبعد ان تقرأها سأختمها وأحضرها مع رسالتك الى حامد بن ابراهيم بعدئذ توجهت الى بيتى وكتبت رسالتى الى سلطان وداى وطلبت منه فيها ان يسمح لى بدخول عاصمته وارا وان يمنحنى أمان الله ورسوله ، وفى حالة عدم الرغبة فى الموافقة على طلبى يرجى موافاتى بأوراق وكتب ونقود عبد الواحد (ادوارد فوغل) وابراهيم بك (فون بويرمان) التى يحتفظ بها كما اعلم وذلك بتسليمها الى المراسل عند عودته وعند المساء توجهت الى حامد بن ابرهيم على الرغم من أن السلطان لم يكن قد ارسل رسالته وهو نفس الشخص الذى يذكره بارت باعتباره رسول السلام الى سلطان وداى ، وقام رجل البلاط باستقبالى استقبالا فى غاية اللطف تم تطرق الى مسألة شراء حصان للمراسل ودفع اجرته كما انه طرح فى ذات الوقت كم افكر ان أعطيه وأن طاوى أبلغه اننى لا اتوانى فى مسألة النقود ، لقد اجبت بتهرب وركبت حصانى فورا الى الدقما الذى اصبح فى تلك الاثناء صديقى الودود الذى يحمينى

اذ قمت بمعالجته طبياً ووضعت امامه ان السلطان امر الكوقنا ابراهيم ان يجهز المراسل باسمه وانه لما يتنافى مع جميع التقاليد ان يرسل السلطان رسالته الخاصة عن طريق مراسل احد رعاياه او احد الاجانب ومن ان هذا الامر سيترك انطباعا سيئا فى وداى الخ .

وبعد ان استمع الى الدقما بهدوء قال يجب ان لا اهتم بالامر انه سيتحدث مع السلطان بذاته وهو متأكد ان الامر سيحل على وجه ينال رضاى وفى اليوم التالى سلمت الى رسالة السلطان وعندما سلمتها الى حامد بن ابراهيم لم يذكر لا الحصان ولا اجر المراسل الا انه اعرب عن رغبته فى ان يرى شيئا ما من بلادى وقد اجبته ما ان يصل جواب سلطان وداى مهما كان مؤداه ايجابيا ام سلبيا فان بوسعه ان ينتظر هدية جميلة منى ولم يقنع بهذا الوعد المستقبلى اذ قال ان مثل ذلك لا يتسم بالبركة مالم اقدم له هدية قبل ذلك ولما كان يصعب ان اقاوم مدة اطول فقد ارسلت اليه قطعة ذهب (ان الليرات الذهبية تثقب هنا ويحملها الغواة حول رقبتهم بعد ان يثبتوها بخيط) كما ارسلت طربوشا تونسيا وقطعة كتان خفيفة وتبلغ القيمة الاجمالية لكل ذلك 12 تالر .

وبعد مغادرة المراسل بأيام كنت حاضراً اثناء الاستقبال العام الذى يجريه السلطان صباح كل يوم تقريباً وعندما جلست كالمعتاد ومقابل السلطان امر باحضار رسالة وجهتها اليه الحكومة الانجليزية بمناسبة انتهاء بعثة بارت ، ولما كانت الرسالة لم ترفق بترجمة عربية لم يستطيع قراءتها وطلب أن أقرأها أمامه بالعربية وقد اطلعت على محتوى الرسالة تم شرعت بترجمتها حرفيا قدر الامكان وتلاوة الترجمة بصوت عال ، وكان بين المستمعين كثير من التجار العرب واكدت على الجملة التى تقول ويجدر بالسلطان مستقبلا أن لا يصغى الى دسائس الغرباء وليتبع دائما تقديراته الخاصة ، وان هذا التحذير يعود الى حقيقة ان النية كانت تتجه الى الاحتفاظ ببارت فى برنو ، وهنا قاطعنى السلطان قائلا بالحرف (لم تكن هذه نيتى مطلقا ، لقد نصحت عبد الكريم فقط ان يبقى هنا فترة من الزمن بسبب اندلاع الحروب والاضطرابات ، واننى لا اتبع رغبات الاخرين بل اسير حسبما اريد ولو افعل وفقا لما يريده الاخرون فان بورنو لن توجد فى الغد ، وتلا ذلك فى الرسالة ذكر الهدايا التى ترسلها اليه الملكة فيكتوريا اعترافا منها بحسن استقباله للرحالين الاوربيين ريتشارسون ، فوغل ، بارت اوفرفيغ وبعد ان قرأتها وجه الى السؤال «هل سيقوم سلطانك على تقدير سخائى تجاه

ابراهيم بك (فون بويرمان) على هذا الوجه ؟ . . ولم اتردد بالاجابة على السؤال بكلمة نعم لقد أوعز الى أكثر من مرة أن أكتب الى ملك بروسيا بحسن معاملته لبويرمان ويجب أن أضيف إلى ذلك أنه يرغب أن يهديه عربة وساعة ذات منبه وكرسى عرش ولما كان حقا ان بويرمان قد لقى فى كوكه أفضل استقبال وقدم اليه على سبيل الهدية حصانين جميلين ومائة ثوب قيمة كل منها اربع تالرات كما أعطى مائة تالر نقدا على سبيل الهدية وجدت انه فى صالح جميع الرحالين الاوروبين الذين سيقصدون هذه البلاد مستقبلا ان اوجه تقارير الى السفارة البروسية فى الاستانة حول هذا الامر وان ابلغها برغبة السلطان .

وخلال استقبال اخر وضع امامى السلطان عمر جميع الساعات المكسورة وطلب منى ان اجمعها وهو يعتقد ان كل نصرانى يعرف كيف تصنع جميع المنتجات الوارده الى افريقيا من البلاد النصرانية فاعربت له عن أسفى لانه ليس بوسعى ان البى رغبته وعلاوة على ذلك عرض على منظارا من صنع شميت هاله وقال انه هدية من بويرمان كما أطلعنى على بوصلة تعمل بصورة ممتازة ومنظار فلكى وكانا فى حوزة فوغل .

وفى تلك الاثناء أخذت نقودى تميل الى النفاد ، ان تكاليف المعيشة والأجر النقدى للخدم والعمال وشراء حصان وتجهيزات حصانين واجرة أستاذ اللغة وعلى وجه الخصوص البخشيش والهدايا كل هذا كلفنى اكثر مما كنت اتوقع ويضاف الى ذلك ان كثيرا مما كنت اتوقع بيعة ذهب هدية الى رجال البلاط الذين لايشبعون واما ماتبقى لدى من مرايا وابر وسكاكين وخواتم فلم أوفق فى ايجاد المشترى المناسب .

ان مجموعة من البرانس ، والمسدسين فى علبتى خشب الماهاغونى كان يجب ان احتفظ بها لتقديمها هدايا الى الحكام السود وابنائهم واخوانهم وامهاتهم واعمامهم ووزرائهم ورجال البلاط ، واما النقود فكان لدى احتياطى صغير من الذهب الا ان احتياطى الحالات الطارئة يجب أن لايتنازل عنه لاننى لااعرف أين ستكون نهاية رحلتى ، وقد اضطر ان امكث وخدمى فى مدينة ساحلية حيث لاتشترى الليرات الذهبية باكثر من نصف قيمتها ولهذا كنت مضطرا ان اقترض من احد التجار مبلغ 200 مائتى تالر ووافق على ان ادفع فائدة قدرها 100٪ بعد خمسة شهور ، اى ان اكتب سند بقيمة 400 اربعمائة تالر ويدعى الدائن محمد صفارى وكان قد اتى من السودان مع بارت الى بورنو وكان يعمل هنا بمثابة قائم باعمال القنصل الانجليزى قاقليوفى وهو يمارس تجارة الرقيق

بنشاط وعلى وجه الخصوص بفتيات البولو اللواتى يباعن مقابل خمسين الى ستين تالر للراس الواحد ومع القافلة القادمة وجهت رسالة الى مجلس الشيوخ فى بريمن والى الجمعية الجغرافية فى لندن طلبت فيها دعماً اضافيا للرحلة كما كتبت فى الوقت ذاته الى الدكتور بيترمان طلبت فيه مكافأتى عن يومياتى التى كانت تحت الطبع فى حالة عدم وصول الدعم من الجهتين وأذكر هنا ان مجلس الشيوخ فى بريمن والجمعية الجغرافية لندن قد وافقا على طلبى وعلاوة على ذلك فان ملك بروسيا فيلهلم قد خصص لى من مخصصاته 800 تالر سنويا لمدة سنتين دعما منه للرحلة الدراسية التى يقوم بها رحالة من شمال المانيا وكان هذا تعبيراً عن اهتمامه الشخصى ولم اكتب له بالخصوص وان دينى من محمد صفارى دفعه روسى قنصل امبرطورية النمسا المجر فى طرابلس الى السيد قاقليوفى .

بحيرة تشاد

الرحلة الى البحيرة - بلدة كاوا - على الضفة - طريق العودة - المساحة - الموقع - الشكل - المياه التى تصب فيها - المياه التى تخرج منها اسم البحيرة - جزر بودمة وسكانها .

وأخيرا انتهى فصل المطر وانتهزت يوم الصحو الأول للقيام برحلة على ضفاف بحيرة تشاد كى أراها وقد ارتفع مستوى الماء فيها ، وعرض على السلطان حماية زائدة ، فطلبت منه شخصا واحدا فقط ممن يعرفون المنطقة لأننى أردت ان أعود فى مساء اليوم ذاته الى كوكه ، فأرسل الى الفارس الذى يتقدم ركبه واسمه الماس ، وهذا الرجل هو ابن أحد أعيان واندله (مندرة) الا أن الأتراك اخذوه فى طفولته واسترقوه وباعوه فيما بعد الى رشيد باشا فى طرابلس وبعد عتقه اتى مع أدوارد فوغل الى كوكه وعندما توجه فوغل الى وداى عينه السلطان عمر فى وظيفة مقدم موكبه ولما كان يتكلم العربية والتركية ويتحدث عن الأستانه وبلاد النصارى وبالطبع يطلق العنان لخياله فى الحديث عنها وبخاصة انه بارع فى المداهنة والتزلف وهذا ما سمح للعبد السابق ان يحصل على مركز مرموق فى بلاط بورنو وهو يمتلك بيتا ومزرعة وبساتينا وعددا من الأرقاء والأمات وثلاثة أو أربعة خيول للركوب ويعيش عيشاً رغيداً هانئاً مليئاً بالمسرات على حساب السلطان مثل كبار الدولة وان بطن الوجاهة يشهد على ما تعطيه الحياة الرائقة وانه يتذكر باخلاص ابن جلدتنا (فوغل) الذى فقد فى وقت مبكر ويتكلم عنه بتقدير ومودة وبعد فترة

قدم لى على وجه ما خدمات مفيدة وأعتقد أنه ما كان يكره ان يدخل فى خدمتى ولو لمدة قصيرة لو كان بوسعه ان يتخلص من الزى الرسمى للقناصل الانجليز ذى السوارى الثلاثة ، وفى كل مرة يتقدم فيها الموكب السلطانى يسمح له بالاستعراض وكانت هذه البذه من جملة الاغراض التى تركها فوغل ودخلت فى حوزة السلطان ومنها منظاره وسدسيته (1) والمزواة (2) والدائرة الموشورية (3) وغيرها من الادوات الفلكية .

وانطلقت عند السادسة والنصف صباحا من الباب الشرقى يرافقنى ألماس وخدمى وسرنا بزاوية قدرها 80 وكانت تحف بالطريق من الجانبين حقول القافولى والعرقوم وقد بلغت سوقها ارتفاعاً لا يصدق مقداره عشرون قدما ثم غابت المدينة عن أنظارنا وان الاكواخ الواقعة بين الحقول تدل على أمان الممتلكات اذ أنه على حدود البلاد لا يمكن للناس ان ـ يعيشوا الا مع بعضهم مجتمعين بحيث يكونون قادرين على مجابهة اعمال السلب ، ان الأرض تتناوب بين تربة رملية وسوداء الا ان الأرض الرملية أيضا كانت صالحة للزراعة بمساعدة السماد وبعد ساعة ونصف دخلنا غابة غير كثيفة فيها نخيل الدوم والكرونا والهجيلج والتمر هندى وغطت أرضها أعشاب مختلفة بفضل المطر الكثير ونادرا ما تظهر بينها ، ونتيجة لانتشار الادغال لم تظهر بعض القرى الواقعة على يمين ويسار الطريق . وحوالى التاسعة والنصف وصلنا القرية الهامة كاوة ويبلغ عدد اكواخها حوالى 1500 ولكل كوخ يحسب سبعة أشخاص مع العبيد وبذلك يقدر عدد سكانها حوالى 10000 عشرة الاف نسمة ولم تظهر سوى ذروة الاكواخ من اشجار الكورنا والاعشاب التى غمرتنا نحن الممتطين صهوة الخيول حتى صدرنا وكان علينا ان نجهد فى شق طريقنا عبرها الى منزل فقوبللابى (شيخ القرية) ان كلمة «ففو» تعنى رئيس ، وكلمة «بللا» تعنى القرية وليس المدينة كما يترجمها بارت وغيره . المدينة تعنى بالكنورية (برنى) وهكذا توجد اسماء مثل برنى كوكة وبرنى فيرقومو العاصمة السابقة التى تدعى ايضا ببساطة برنى مثلها مثل مدينة كافلة الواقعة جنوب غربى نقوره وهى خراب الآن ، وقد أعلنا عن وصولنا بطلقة ونزلنا بعدئذ امام مدخل البيت المترامى الاطراف ويتكون من جدار عال من الحصر يحيط بمجموعة من الاكواخ الكبيرة والصغيرة وتعزل عن بعضها

---

1 ـ اداة فلكية تستخدم فى قياس ارتفاع النجوم وتحديد المكان والزمان وبخاصة خلال السفر بحرا
2 ـ او التيودوليت وهى اداة تستعمل فى قياس الزوايا الافقية والعمودية
3 ـ اداة لقياس الزوايا ايضا بواسطة دائرة تامة

البعض بجدار من الحصر وتظللها أشجار الهلجليج او الكورنا واستقبلنا الفقوبللابى بلطف ودعانا للجلوس فى الفناء وامر باحضار الفطور الينا : خبز ، وعسل وحليب وزبدة طرية وقال لى انه من المستحيل العودة مساء من بحيرة تشاد الى كوكة وفى اثر ذلك امرت القطرونى بالعودة من هنا حتى لا يبقى بيتى ليلا دون حماية تماما ، وتركت الخدم الآخرين فى كاوة وحوالى الساعة الثانية بعد الظهر تابعت سيرى والماس كل منا مسلح ببندقية ذات فوهتين وقد أرسل رجل من القرية مسبقا ليبلغ البودمة العاملين على ضفاف البحيرة انى قادم بغرض ودى ، وحثثنا الخطى مدة ساعة ونصف باتجاه شرقى مستقيم واخذت كثافة اشجار الغابة تقل تدريجيا ولم يبق منها سوى بعض أشجار نخيل الدوم وبدءا من طرفها يبدأ مرج ذو أعشاب عالية ويمتد هذا المرج حتى البرك المرتبطة بالبحيرة ، وما ان شاهدنا البودمة حتى لجأوا الى الفرار أمام الفارسين المسلحين ببنادق وأخذوا يجدفون قواربهم فى البحيرة ، ولم تجد نداءاتنا اليهم بالعودة فقد اعتقدوا اننى من رجال السلطان ولا يريدون ان يدخلوا معهم فى علاقة ، كما انه لم تجد نداءات الرجل من كاوه والذى قال لهم اننى لست وصيلياً (عربيا) بل نصرانيا واننى ابن عم الأجنبى الذى زار البلاد قبل عشر سنوات (أوفيرفيغ) ولم يكونوا فى وضع يسمح لهم بالاقتناع بالعودة ومن المؤسف اننى لم اتمكن من مشاهدة قواربهم المطلية بالنطرون عن قرب ويضم الواحد منهم خمسة عشر رجلا .

ان بحيرة تشاد لم تكن قد بلغت فى 31 أغسطس مستواها الاعلى اذ ان الماء يصل حتى كاوه مباشرة وبالطبع لا يزيد ارتفاع هذه القرية سوى 18 قدما عن سطح البحيرة وحتى كوكة ذاتها لا يزيد ارتفاعها عن 24 قدما عن اخفض مستوى للماء فى البحيرة ، لقد وجدت طعم ماء بحيرة تشاد عذبا وذا لون اخضر وحرارته 25 عندما كانت حرارة الجو 26 ، وعلى الرغم من ان ضفاف البحيرة فى هذا الموضع كثيفة بالقصب الا اننى لم أشاهد سوى القليل من الطيور المائية ـ ربما جفلت من البودمة ومشترى النطرون الموجودين بكثرة ـ وكانت على ظهور أفراس النهر وهى تتمرغ وتقذف رذاذ الماء من فتحات خشومها دون خوف .

وعندما عدت ثانية الى بيت شيخ البلد فى كاوه كانت الشمس قد غابت وقد تحتم على أن اقبل عرضه اللطيف بتقديم فرصة للمبيت لدية ، ولكى اتفادى قرص البراغيث استقليت على سطح البرفة المكونة من خشب وحصير الا اننى طردت من مأواى اثر عاصفة محملة بالمطر اتت فجأة من الشرق ،

عندئذ جهز لى سرير من القصب ارتفاعة قدمان فى كوخ واسع واتيحت أمامى هنا فرصة وافية للتأكد من خطأ الزعم القائل ان براغيث بورنو لا تقفز وكان ذلك على حساب نومى فى تلك الليلة ، ان براغيث بورنو لا تقل فى مقدرتها على الوثوب عن أقرانها فى أوروبا .

وعند الساعة الثالثة صباحا امرت بسرج الحصانيين وجعلنا طريق العودة عبر بندر وتقع على مسافة ساعة الى الجنوب الغربى من كاوة وبعد فترة قصيرة من شروق الشمس دخلت ثانية بيتى فى كوكة ، ووجدت امامى مفاجأة مزعجة فتح سقف المطبخ والغرفة المجاورة اثر مطر شديد وسقط على الارضية ، ان هذه البيوت المشيدة من تراب وغضار لا تقاوم عنصر الرطوبة سوى مقاومة ضئيلة وتقوم الاكواخ التى يشييدها زنوج بلاد السودان من القش بحماية ساكنيها من المطر والحرارة الشمس الحارقة بصورة افضل من البيوت ، انها ايضا البيوت الوطنية لانها المسكن الانسب لظروف العواصف المطرية .

وأختتم تقريرى عن رحلتى القصيرة بدراسة بحيرة تشاد بمقدار ما تسمح به - الدراسات السابقة والملاحظات التى حصلت عليها .

كان دنهام وكلابرتون واودنى أول الأوربيين الذين زاروا بحيرة تشاد ووضعوا دراسات علمية حول مياهها وحتى ذلك الحين لم تتوفر معلومات حول هذا الحوض الكبير فى وسط افريقيا تخرج عما قاله بوركهارد وهو رغمان وجاكسون وعلى بك وأهالى البلاد والعرب ، ولم تكن هذه المعلومات غاية فى الضحالة فحسب بل مليئة بالتناقضات وهكذا يشتق العرب اسم بورنو من بر بمعنى بلاد ونوح بمعنى فيضان بينما يطلق اهالى بورنو على كل نهر كومادغو ، ويرى عرب شرق وشمال افريقيا فى كل ماء كبير وجار نيل مصر . ودرست بعثة بارت البحيرة دراسة أدق ، وتولى ذلك اوفرفيج الذى طاف جوانبها بقارب يفك ويركب احضرته البعثة معها من مالطا ، وعلى الرغم من ذلك فاننا مازلنا بعيدين عن التوصل الى معلومات دقيقة حول بحيرة تشاد . ويجب ان تتوفر قياسات على مدى سنوات للمستوى الأدنى للماء خلال فصل الجفاف والمستوى الاعلى له خلال الفصل المطير او بعده مباشره بحيث تحسب على ضوئها الحد الادنى والعادى لحيزها ، ولما كانت الفترة الجافة تمثل الجزء الأعظم من السنة فانه يجب ان ينظر الى الحيز الأدنى للبحيرة على انه الحيز العادى لها ، وقدرت هذا بحوالى 200 مائتى ميل مربع الا انه يبلغ خمسة امثال هذه المساحة خلال الفصل المطير ، ويصل فى الشمال حتى 15 تقريبا وفى الجنوب حتى 30ر12 وفى الغرب حوالى 13 وفى

الشرق حوالى 30ر15 درجة طول شرقى غرينتش ، ان شكلها على وجه العموم دائرى الا ان الضفة الغربية تسير بخط مستقيم تقريبا من الشمال نحو الجنوب مع شىء من الانحراف نحو الشرق ثم يصعد من نقيقمى نحو الشمال الشرقى حتى بيرى وينحرف من هنا نحو الجنوب الشرقى وعلى العكس من ذلك فان الضفة الجنوبية تدخل فى البحيرة باتجاه الشمال بسبب الفيضانات القوية فى دلتا شارى .

وحسب دراسات فوغل فان البحيرة تقع على ارتفاع 800 قدم عن سطح البحر ، وتبعاً لملاحظاتى الخاصة والتى حسبها الدكتور هان فان ارتفاع كوكة عن سطح البحر يبلغ 1168 قدم ويبلغ ارتفاع البحيرة حوالى 1150 قدم والبحيرة ليست اعمق حوض فى وسط أفريقيا ، وهذا ما اكدته بصورة نهائية دراسات ناختيغال الا انها الحوض الذى يجمع أكبر مقدار من الماء . من الناحية الغربية حيث تمتد منطقتها حتى درجة عرض 8 شمالا يتلقى جميع الفروع التى تنبع فى الطرف الشمالى من قوره ومنها كومادغو فوبة ولا يقل طوله عن طول نهر الراين ومن الجنوب يجرى نهر شارى الهام جدا ويتعزز بنهر لوقيمى الذى يعتبر بنفس الاهمية تقريبا ويصبان فى البحيرة ويقول بارت « ان شارى كان يوم 20 مارس 1852م فى مرحلة التزايد فى كمية مياهه وعمقه وهذا وضع جدير بالملاحظة باعتباره يأتى من منطقة قاصية فى الجنوب ، ان هذه الكميات من المياه التى ترد الى البحيرة تبلغ درجة من الضخامة بحيث لا يتصور المرء انها تتضاءل عبر التبخر والغور فى الأرض فقط بل يتوصل المرء الى الاعتقاد انه ينبغى ان يكون فى مكان ما مجرى لا شك ان بارت يكتب فى رحلته (المجلد الثانى ص 409) : « أستطيع ان أوكد انه ما من مجرى فى بحيرة تشاد وأن ماءها عذب » «وليس من حقه ان يتوصل الى هذا الرأى لانه لم يطف حولى البحيرة وفى رسائلى التى وجهتها من بورنو الى الدكتور بيترمان تبنيت وجهة النظر أنه من المستحيل ان تذهب هذه الكميات الهائلة من الماء بالتبخر والغور فى الأرض ومن المرجح ان بحيرة تشاد تجرى عبر بحر الغزال وفى وقت سابق روى أبناء البلاد لدنهام وكلابرتون : «فى الماضى كانت بحيرة تشاد تجرى بحر الغزال ، ان الحوض الجاف لهذا المجرى مازال ظاهرا للعيان الا انه الان يكتظ بالاشجار الكثيفة والاعشاب ويذكر احد التبو انه سمع من جده ان الماء كان ينقلب تدريجيا هناك الى مستنقع والان كل شىء غدا جافا . . لقد قتل البدومة هناك سيدى بركة على مصب هذا النهر ومنذ تلك الفترة اخذ بحر الغزال يجف وانقطع الماء عن الجريان . . وقد روى لنا شخص اسمه برقو تبو فى مرزق «ان بحر

الغزال كان ينبع فى الأصل من الجنوب ويتلقى مياه بحيرة تشاد وهو الأن
جاف وقد عثر فى حوضه على عظام اسماك هائلة الحجم وعلى ضوء ابحاث
ناختيغال فقد تأكد الأن مالا يدع مجالا للشك ان بحيرة تشاد تجرى فى بحر
الغزال من زاويتها الجنوبية الشرقية وينتشر ماؤها من هنا عبر منخفض بوديلة
ولا نستطيع ان نقرر الان فيما اذا كانت واحة واجنقا وغيرها تتغذى من مياه
بحيرة تشاد فمازالت تصوراته ان جبال تبستى تستمر فى الاتجاه الجنوبى
الشرقى تتطلب البرهان من رسالة وجهها ناختيغال الى المؤلف) على كل حال
فان المجرى لا يظهر للعيان دائما بل يختفى فى الغالب تحت الأرض ومثل هذه
المجارى تكثر كما هو معلوم فى الصحراء ونيشأ عن ود (وادى) كنستا
والعقيق والقر وغيرها من الفروع ود الصاورة الذى يجرى تحت توات
باجمعها وتحت ارض تافيلت يجرى نهر نهرسيس مع تفرعاته ويتكون منه بعد
أن يتلقى روافد قوية دايا الدورة .

وباستثناء بعض المواضع على الضفة التى يوجد فيها النظرون ويعطى للماء
طعماً مراً مالحاً فان ماء بحيرة تشاد على وجه العموم عذب ولايمكن ان يكون
على غير هذا الوجه نظراً لان الارض وحتى مسافات حول البحيرة تفتقد كل
ماهو مالح ، وان الروافد التى تأتيها من الجنوب والغرب ـ لاتتلقى بحيرة
تشاد روافد من الشمال والشرق ـ تنبع من مناطق وتجرى عبر بلدان فيها
الملح .

لايمكن ان يطلق على بحيرة تشاد مصطلح بحيرة بكل مافى الكلمة من
معنى إلا فى وقت الفيضان وفى أغسطس تبدأ بالامتلاء ويرتفع مستوى الماء
فيها خلال سنوات الى المقدار المعتاد للمطر حوالى عشرين قدماً وحسب
ملاحظات فوغل فانها ترتفع فى سنوات اخرى حوالى ثلاثين قدما وأكثر ،
وبالطبع يؤدى فيضان البحيرة الى دخول الماء فى مصبى نهرى فوبه وشارى ثم
الى مسافة بعيدة فى حوضهما وهذا مأادى بالعرب الى الاعتقاد ان بحيرة تشاد
تجرى عبر كومادوغو فوبه وخلال الفصول الجافة فان البحيرة توحى بمنظر
مستنقع هائل وتدعى المواضع التى تخلو من القصب ومن العشب نكى بول
(الماء الابيض) وأما المواضع العميقة فتدعى نكى تسيليم (الماء الاسود) ويبدو
أن أعمق المواضع تقع فى الجنوب الشرقى ووجد أوفرفيغ أن أعمق نقطة تبلغ
خمسا وعشرين قدما إلا ان دراسة هذه الناحية لم تبلغ النهاية .
واما مايخص اسم البحيرة باجملها فان بارت يؤكد على ضرورة كتابتها تساد

Tsad وحسب رأيى فانه من الاصح أن تكتب تشاد لان المؤلفين العرب
يكتبون فى الغالب بالشين وليس بالسين والكنورية غير مكتوبة وكذلك لغات
الشعوب الاخرى التى تسكن حولها وسمعت كلمة تشاد اكثر من تساد وعلى
هذا الاساس يكتب الرحالون الأوربيون الاسم بصورة متباينة ، هورنمان :
تساد Zad ليون : تساد Tsad ناختيغال : تسادى Tsade ولم اكتب الاسم
بطريقة بارت تساد بل كتبتها تشاد Tschad لأننى أرى ان هذا اللفظ لايقل
فى صحته عن تسمية بارت ومما يجدر ذكره ان البحيرة لاتسمى عند البودمة
تساد بل كولو Kolo وعلى مايبدو فانها نفس كلمة كلله Kulla التى دعت الى
الربط الغريب بين النيجر والنيل الذى يناقشه تفصيليا ريتر فى كتابه : «حول
افريقيا ص 484» فى نهاية القرن السابق ؤمطلع القرن الحالى ، وفى الخرائط
القديمة مثلا فى رحلة هورنمان نجد فى الموضع الذى نرسم فيه بحيرة تشاد
اسم بحر كللة .

وعلى الضفاف البعيدة كل البعد فى البحيرة وينبت فيها القصب والبردى
يعيش فرس النهر النيلى ويمكن مشاهدته فى قطعان تزيد عن 100 فرس ويندر
هنا وجود الفيل ووحيد القرن وحسب روايات الاهالى فان الفيلة لم تعد توجد
على الضفة الغربية والشمالية وبالطبع لاينعدم وجود التمساح فى هذه
المستنقعات ذات القصب .

وأما الطيور فهى من جميع الانواع وقلما توجد بهذه الكثرة فى أية بقعة من
العالم كما أبرز جميع الرحالين الذين زاروا بحيرة تشاد غناها غير العادى بالثروة
السمكية ، وعندما تمتلىء البحيرة من اغسطس حتى نهاية يناير تتشكل مجموعة
من الجزر الصغيرة تعود فى الصيف الى الاتصال مع بعضها البعض أو مع
اليابسة ويقول بارت ان اهم هذه الجزر تسمى قوريا ، ينادوجى ، حوشيا
بيكان ، برام ـ مدبولوا ـ فيده كوليا ـ دللابورمى تربوه ، دكابلايا ـ فوجيو ـ
تشيلم ـ بريجارى وكل واحدة منها تتكون من قرية مسكونة واما الجزر الكبيرة
فتقوم عليها قريتان او ثلاث قرى مسكونة مثل دوجى ، لقد زارها أو فيرفيغ
الا ان التقرير الذى كتبه بارت حولها وقدمه الى الوزارة الانجليزية لم يجد
طريقه الى النشر ، وفى 28 يوليه 1873م كتب الى د . بيترمان : «ان يوميات
اوفيرفيغ حول رحلته فى بحيرة تساد لم تطبع فى اى مكان وان ماستطعت قرا
ءته من ثنايا أوراقه كتبه بعناية إلى وزارة ـ الخارجية فى لندن وسلمتها وقتئذ

مع الاصل وقد استعملت هنا خريطة مفصلة وضعتها فى الصفحة الخامسة من خريطتى حول وسط افريقيا والبالغة عشر صفحات .»

ان سكان هذه الجزر يسمون انفسهم يادينا بينما يسميهم التبور والكنوريون بودمة وفى شكلهم الخارجى نجد النموذج الزنجى اكثر مما نراه لدى أهالى بورنو ، ان الشفاه اغلظ والوجنات تبرز اكثر الى الخارج ولون البشرة أعمق ان اشكال اجسامهم تتسم بالعضلات وتؤيد لغتهم وعاداتهم وقرابتهم من الكنورين ويعتقد بارت انهم اقرباء قبيلة كوتوكو التى تسكن نغالة فيقول ولايمكننى التقرير فيما اذا كنا يجب ان نرى اليادينا عامة على انهم اخلاف تلالة اوتالة من قبيلة سيو التى انسحبت الى الجزر فى ظل حكومة ادريس الاومة» .

ولما كان البودمة يقطنون الجزر التى تنفصل معظم ايام السنة عن اليابسة فقد استطاعوا ان يستقلوا عن بورنو وهم يشكلون شعبا من صيادى السمك وأصحاب الوقارب ويتولى قيادتهم فى وقت الحرب كاتشيلا (قائد عسكرى) وفى زمن السلم كان اسم الكاتشيلا كامى وهو ذو سلطة ضئيلة . ونظراً لعدم وجود ماى (ملك) لدى البودمة على الرغم من ان لغتهم تعرف اسم (دمهوبلا) للملك ويبدو ان ذلك يدل على انهم اصلا كانوا متحدين مع الكنوريين ثم استوطنوا الجزر فيما بعد تحت قيادة الكاتشيلا وعلى الرغم من انهم يعرفون الاسلحة النارية ، الا انهم يستخدمون الرماح والقوس والسهم ولايأتون الى بورنو دون سلاح .

ومما يثير الاعجاب القوارب الكبيرة (بوم) ويبلغ طول بعضها خمسين قدما وعرضها بين 8 ـ 10 اقدام ولديهم فيها حوالى 250 قاربا وهى تشبه فى شكلها سفن الشحن وليس لها حيزوم ولذلك تسير بصورة مسطحة تماما ، والجزر الخلفى عريض أما الامامى فهو حاد وعال وتشد الالواح بجبال صنعت من سعف النخيل وتطلى الثقوب والحزوز باللحاء وأما المرساة فهى من الصخر (عارم) ومن المؤكد أنها استقدمت من منطقة نائية لعدم وجود الصخر فى منطقة بحيرة تشاد ، وعوضا عن المجذاف الذى لايستعمل لدى السود تحرك السفينة بالمجراف (أورمى) على انه لاينعدم وجود دفة التوجيه (حقانة) والسارية(داهش) والشراع (قبقا) ونوع من ـ القمرة (درهان بومدى) وهى تتكون من الاغصان والحصر وتحمى من أشعة الشمس ويحضر البودمة الخشب لبناء سفنهم من بلاد الكوتوكو ويرى بارت فى ذلك برهانا على القرابة

الصميمية بين الشعبين على ان لهذا سببا طبيعيا يعود الى أن شواطىء بورنو القريبة وغابات كانم لاتوفر خشبا كبيرا ومناسبا ويشير غنى لغة البودمة بكلمات حول السفن الى مدى تطور هذه الصناعة لديهم فهم يميزون بين السفن الحربية (لوقوكاقرا) والسفينة التجارية (بوم كالاى دبوا) كما يستعملون كلمة أسطول (بوم يبو) واما القبطان فيدعى لوقدودمو بوم ، وموجه السفينة (انجر) ويطلقون على البحارالذى يجبر على العمل باحتقار (المسكو) ويبدو انهم على عداوة مع قبيلة المسكو وكثير من الكلمات مأخوذة ولاشك من الكنورية الا أن كلمات أخرى اخذت من دوقونية وعلى وجه العموم فقد تكون لغة البودمة احدى أغنى لغات وسط افريقيا .

والحرفة الرئيسية للبودمة تتمثل فى صيد السمك ويحضرون سمكا طازجا ومجففا للبيع فى كوكة والمناطق الاخرى ، وعلاوة على ذلك يمارسون تجارة النطرون الذى يوجد فى جزيرة بروم ، (ويكتبها أو فرفيع بروم بينما عند بارت برام) ومن حين لآخر يذهبون الى الضفة الشمالية والغربية للبحيرة كى يستحصلوا من رماد السواك على الملح ويعتمدون فى غذائهم على السمك الى درجة كبيرة وأما حاجتهم من القافولى والمعكوة والبصل والكريص والملوخية فينبغى ان يشتروها فى بورنو وتنبت بُعض اشجار الهجلج والكورنا والقريض والطلح فى الجزر الجنوبية فقط ، وأما تربية الحيوان فتقتصر على الدجاج والخيل ، والبقر ، وترسل خلال موسم الامطار الى المراعى فى كانم .

وحسب عادات جميع الشعوب السوداء يتزوج البودمة فى سن مبكرة ويحق للرجل ان يتزوج العدد الذى يحلو له من النساء طالما ان ثروته تسمح له بذلك ، على انه لايحق له ان يطلق اية زوجة ولاتشترى الفتاة بهدايا الاهل بل يتم الزواج بالاتفاق الحر بين الرجل والمرأة ويتحم على أهل العريس ان يقدموا الطعام لأقرباء العروس لمدة سبعة ايام ويدفنون موتاهم فى مقابر يوجهون الرأس نحو الجنوب والوجه نحو الشرق وإذا مالوحظ فى هذه العادة وبعض العادات الاخرى وقومهم تحت تاثير علاقاتهم مع الكنورين المسلمين والعرب والكانمبو ا لا انهم بقوا على الديانة الوثينة انهم يعبدون ويخافون الهم الاعلى (باجى كنم) وهو يمثل فى الوقت ذاته مبدأ الشر اذ يسبب هيجان الماء ويدمر السفن وهناك ألهة ثانوية بيتسيرومانيو وباكومامين ، وأرواح خيرة يلجأون اليها عندما تداهمهم الاخطار وعلى وجه الخصوص فى الاجواء العاصفة وان المعبودات التى تفرض الأضحيات غير موجودة لديهم وليس

لديهم مفهوم استمرار الحياة بعد الموت ، أو مفهوم الجنة والنار ، فى لغتهم توجد ولاشك كلمة (هاو) للسماء و(أو) لكلمة نار العربية الا انهم يفهمون تحت المفهوم الاول السماء الظاهرة وليس جنة المسلمين وتحت الكلمة الثانية يفهمون النار ذاتها (وليس جهنم) .

العاصمة كوكة وسوقها

اسم المدينة ـ العمارة ـ طراز معيشة السكان ـ النوكنة ـ النقود ـ المدرسة العليا ـ السوق الكبير ـ انعدام الجمارك ـ الاستيراد والتصدير ـ اسعار المنتجات والبضائع ـ شروط اقامة طرق مباشرة للتجارة بين أوروبا ووسط افريقيا .

ان كوكة الحالية بنيت فى عهد والد السلطان الحالى الشيخ محمد الكانمى[1] وفى بورنو لم يطلق على كوكة غير هذا الاسم، ومقابل ذلك نسمع فى بلاد السودان وعلى وجه الخصوص فى كانو اسم كوكاوة، وجاء هذا الاسم من شجرة فريدة فى حجمها (كوكة تعنى بالكنورية الشجرة العملاقة) ولا يوجد من نوعها فى المنطقة واعتبرت بذلك مثيرة للنظر ولذلك من الخطأ ان تدعى كوكاوة اى المدينة الغنية بأشجار الكوكة اذ ان كوكاوة هى صيغة الجمع لكوكة وفى الغالب صيغة المثنى .

وفى الواقع تتكون المدينة من قسمين وبالاحرى من شكلين رباعيين تفصلهما هضبة عرضها عشر دقائق. وتقع الجوانب الطويلة فى الجهتين الشمالية الغربية والجنوبية الشرقية والجوانب القصيرة فى الجهتين الشمالية والشرقية والجنوبية الشرقية، ويدعى القسم الغربى الاكبر قرفوتى أو بللا فوتعبى ، ويدعى القسم الشرقى قرقيدى أو بللا قديبى وان مجموعة البيوت والاكواخ التى تقوم بينهما تدعى نقيميقنى وعلاوة على ذلك توجد حولها كثير من البيوت والمزارع المبعثرة .

1ـ محمد الكانمى (1810 ـ 1839) اصله من فزان وعرف باسم الشيخ لمنو واشتهر بحكمته وورعه واستطاع بسلسلة من الحروب توطيد مركز برنو فى وسط افريقيا واسس كوكة فى 1814 عاصمة للدولة (انظر EI,[2] III, 589 .

قرقيدى هى مقر الدولة فيها مقر السلطان ويسكن هنا أولاده واخوته وكبار موظفى الدولة واغلب العساكر والخصيان ويغلب على قرفوتى طابع المدينة التجارية ويسكن فيها التجار الغرباء من طرابلس وفزان والقاهرة . . . . الخ .

وفى سورها الجامع الرئيسى للمدينة ويحيط بقسمى المدينة سور من الطين ويبلغ ارتفاعه حوالى عشرين قدما ويبلغ سمكه عند القاعدة هذا المقدار .
وهو من الخارج مستقيم وعمودى ومن الداخل على شكل مدرج بحيث يصل المحاصرون بسهولة الى فتحات الاطلاق. ويبلغ عدد ابواب قرفوتى خمسة واحد فى الشمال او الشمال الغربى واثنان منها فى الغرب وواحد فى الجنوب وواحد فى الشرق. واما قرقيدى فلها بابان اثنان نحو الغرب واثنان نحو الشرق .

ان فن بناء كوكة يختلف كثيرا عن طريقة بناء مدن الشمال الافريقى اذ تسود هنا مساكن السود الوطنية وهى عبارة عن اكواخ بنيت من اغصان اشجار رفيعة ووضعت بصورة فنية وفى الاعلى سطح من القش مقاوم للمطر يقوم على قاعدة مستديرة يبلغ قطرها 15 ـ 20 قدم وترتفع 10 ـ 15 قدم وحول الجدران تلتف فى الصيف اى خلال فصل المطر أوراق القرع الخضراء والبطيخ ولا يهمل مطلقاً تزيين السطح ببيضة نعام أو اكثر وهناك فتحة منخفضة تغلق بالحصر تستعمل كمدخل ومصدر للضوء وليس فى داخل الكوخ سوى عدة اوعية من القرع والطناجر والعلب الجلدية والحصر وفى البعض منها بعض الاسرة العريضة بطول الرجل مصنوعة من القصب ، ويطبخ عادة فى العراء تحت سطح يحمى من الشمس والمطر ويتكون من الاسرة الزنجية الذى يدعى فتو Fato فى العادة من ثلاثة إلى أربعة أكواخ تقوم داخل جدار من الطين أو الحصر وأما بيوت السلطان والتجار الغرباء والاعيان فتبنى من الطين وسقوفها مسطحة لا يجرى عنها المطر بصورة كافية وهى لذلك تتطلب الصيانة بعد كل مطرة شديدة .

ان كوكة تشبه من بعيد الغابة اكثر مما تشبه المدينة اذ انها خالية من الابراج والمبانى العالية وتظلل الاشجار جميع البيوت والمزارع وبين هذه الاشجار نجد على وجه الخصوص شجرة الجيجة وهى من نوع التين ذات جذور تبرز فوق الارض اوراق كبيرة لماعة وشجرة الغندة ذات اوراق طويلة وثمار رطبة بحجم رأس الطفل والاكاسيا التى تعبق رائحة ازهارها الزكية وبالطبع تعشعش فى

الاشجار مجموعات من العصافير وعلى اغصان اشجار الكورنا والاكاسيا تتعلق العصافير الصغيرة التى تبنى اعشاشها على شكل شبكات وتزقزق دونما توقف وليس من النادر ان يشاهد المرء اكثر من خمسين من مثل هذه الاعشاش فى شجرة واحدة ويهدر الحمام البرى الزمادى والقمرى فى اعالى الاشجار وخلال فصل المطر تأتى الطيور المائية من شواطىء بحيرة تشاد وتحوم فوق الطرق والميادين الرخم وتلتقط ما يرمى من فضلات اللحم ولولا هذه الطيور لكانت كوكة موئل الطاعون .

وفى قسمى المدينة طريق واحد عريض ومستقيم هو الدندل وقد ترجمه بارت باسم الطريق الملكى . ترجمة مناسبة وعلى جانبى هذا الطريق تمتد أزقة متعرجة وضيقة ، ولا توجد احجار لرصف الطرق ولذلك تتكون الطرق خلال الفصل الجاف من بحر من الغبار وخلال الفصل المطير تنقلب الى برك ومستنقعات وبحيرات وفى الغالب لا يمكن عبورها على ظهر الحصان .

ان الحياة فى العاصمة لا تبدأ صباحا فى وقت مبكر جدا ، فيمر اولا الفلاحون القادمون من المنطقة المحيطة عبر الطرقات ويصيحون ، كيام ، كيام (حليب ، حليب) كنداقو ، كنداقو (زبدة ، زبدة) نقبول كوكى بى (بيض ، الخ . . . . . .) ويحمل كل شىء على الرأس حتى اثقل الاحمال وتوازن نساء وفتيات سوداوات اوعية سعتها تتراوح بين 40 و 50 ليترا من الماء على رؤوسهن ونتيجة للضغط يفقدن فى وقت مبكر شعرهن الرئيسى فى المواضع المضغوطة .

واذا ما نهض سكان المدينة فانهم يغسلون الوجه واليدين بعناية ويكنسون أرض بيوتهم فالكنوريون يتميزون بالنظافة وبعد تناول الفطور يبدأ العمل ، وتجرى معظم الاعمال فى العراء وحتى الحرفيون : الحائكون والسراجون وحداد والاسلحة والاسكافيون يقيمون ورشاتهم فى الطريق امام ابواب منازلهم .

ويبلغ القسم الشرقى دروة نشاطه عند العاشرة صباحا ، ها هم كبار الاعيان من الامراء واقرباء السلطان على جياد تنقد نشاطا ومعهم مجموعة من العبيد اللاهثين يسيرون على الاقدام يتوجهون لى اجتماع المجلس (نوكنا) ذلك الفارس هناك يلبس زيا عربيا مشرفا هو ابوبكر اكبر اولاد الملك ولكن ما ان يصل الى القصر ، حتى يخلع جزمته وعمامته مثل الآخرين اذا انه ما من احد كبيرا كان ام صغيرا يسمح له ان يظهر امام السلطان ما لم يكن حافى

القدمين وحاسى الرأس ويجب آن يخر على الارض عند التحية وان يمرغ وجهه التراب ويرمى بيده اليمين حفنة من الرمل على قفا رأسه ويستمر اجتماع المجلس حوالى الساعة وعادة ما ينشغل بما يقوله الناس فى المدينة ومناقشة اتفه الحوادث ومن يأتى السلطان بأحدث وأطرف الاخبار يصبح صاحب الحظوة فى ذلك اليوم . وطيلة وجودى فى كوكة كان شخصى يمثل الموضوع المفضل للحديث ، فاذا ما ذهب الرجل الابيض الى السوق بذاته واشترى هذا الشىء أو ذاك أو ان النصرانى قد ركب حصانه متنزها ، وباختصار كانت تراقب كل خطوة أخطوها وتصبح حادثة يتكلم حولها الناس وعند نهاية الاجتماع يحضر عبيد السلطان الى القاعة أوعية خشبية ضخمة مليئة بالطعام ، ويتولى حمل الوعاء الواحد من مثل هذه الاوعية 6 ـ 8 رجال يأكل منه الحاضرون .

واذا ما عاد المشاركون فى المجلس الى بيوتهم تنعدم الحياة فى الشوراع اذ يدخل الناس بيوتهم بحيث يخلدون الى الهدوء او النوم خلال الساعات الحارة من النهار وحوالى الساعة الرابعة بعد الظهر تبدأ ثانية صورة مغايرة فى المدينة ، اذ تساق قطعان الغنم والبقر عبر الازقة الضيقة ويبدأ السوق اليومى ويستمر حتى المساء فى القسم الغربى من المدينة وامام ابواب القسم الشرقى وفى المدينة ذاتها يباع فى الدكاكين او فى مكان خال السمن والحليب واللبن والثوم والفول السودانى والبصل وخبز حامض من عرقوم مورو والدجاج ولحم البقر الذى يذبح يوميا .

والعملة الكبيرة هنا وكذلك الامر فى جميع ارجاء وسط افريقيا تتمثل فى تالر ماريا تبريزيا (بوطير) المصكوك فى العام 1780 وأما العملة الصغيرة (الفراطة) فتتمثل فى الاصداف وهى بحجم حبة البندق وتحمل من ارخبيل شرقى الهند عبر خليج غينيا الى شاطىء شرق افريقيا ومن هناك تورد الى دواخل ويسميها العرب كاورى (بالانجليزية Cowry ولدى الكنوريين تدعى كونقينا ولدى الهاوسا كردى ، وحسب رواية بارت كانت توجد فى السابق نقود نحاسية ولذلك نجد الآن اسم رطل لكل 32 كونقينا وان قيمة الكاورى الى بوطير (تالر ماريا تيريزيا) تختلف من منطقة الى أخرى ، وتزيد قيمة كلما توغل المرء فى الدواخل مبتعدا عن الشاطىء الا أن الحكام والاعيان يحاولون أن يوجهوا قيمة التبديل حسب مصالحهم فهم يرفعون القيمة او يخفضونها اصطناعيا وهكذا يقول بارت (ان نسبة التالر النمساوى (ابوطير) الى العملة الصغيرة غير محددة فى بورنو ، وهى ذات علاقة بتكهنات رجال الحكم وعلى

وجه التجديد صديقى المتوفى حاج بشير . . . . وعلى وجه العموم تتأرجح قيمة التالر الواحد (ابوطير) بين 3000 ـ 4000 صدفة وقبل وقت غير بعيد كان القماش القطنى المقلم تقليمات طولانية ورفيعة وينسج هنا ويدعى قبقة، كان يتداول بمثابة نقود وكل اربعة اشبار من القبقة تعادل رطل وبالطبع مازالت المقايضة قائمة فى مناطق مختلفة .

مع غروب الشمس يتناول الكنورى وجبته الرئيسية وبعد العشاء يتجمع رجال كوكة فى الميادين العامة ويتحدثون تحت شجرة مطاط ضخمة حول مستجدات الامور وأما النساء اللواتى لا يتخذن الحجاب وخرجن على هذه لعادة الاسلامية فانهن يقمن بزياراتهن أو يتنزهن بصحبة رجل احلامهن أو يقمن بمغامرات غرامية واما مفاهيم الوفاء للحياة الزوجية فهى لدى النساء وبالطبع لدى الرجال ذات حدود مائعة . . وتتميز نساء البولو والفلاته بالشهوانية ويتسمن باللون البرونزى الفاتح ويشكلن طابعا خاصا بين البياض والقوقازى وصفرة الملايو وحمرة الهنود الامريكيين ويشترك بالعبث الليلى شباب عمرهم 15 عاما وفتيات عمرهن 12 عاما ولا يتوقف الامر عند اللعب البرىء والغناء وقلما ينتظر غير ذلك نتيجة للطبيعة الحادة والثياب الواسعة .

وفى ظل حكم السلطان الحالى نالت كوكة فى بلاد السودان سمعة المدرسة العليا الممتازة ويدرس هنا 2000 ـ 3000 من الشباب الذين يتراوح عمرهم بين 20 ـ 25 سنة وان دراستهم لا تخرج عن حفظ السور التى يحتاجون اليها فى الصلاة وقراءة وكتابة اللغة العربية بصورة ميكانيكية دون ان يفهموا من المضمون شيئا ويشكل اللوح الخشبى والمحبرة الصغيرة المأخوذة من الطين وبعض اقلام الكتابة المأخوذة من القصب ووعاء من القرع كامل العدة، انهم يتجولون خلال النهار يشحذون، وينهبون بائعى المواد الغذائية ، اذ لا يحصل سوى جزء منهم على ماوى وطعام لدى الأعيان فمن عاداتهم ان يدعوا اولادهم يدرسون مع طلاب آخرين .

ولاتزيد كثيرا معرفة مدرس العربية عن معرفة التلاميذ ولما كانت الكنورية لاتمتلك كتابة خاصة بها فمن المحال تحقيق تطور فى تعليم الشعب . وكان المعلم محمد الكانمى يعتبر أعلم علماء زمانة لأنه كان يكتب العربية كتابة صحيحة نسبيا ولو أنه لايتكلمها . وعلى الرغم من أنه كان يأمر بأرسال

الكتب مع كل قافلة من تونس وطرابلس ومصر الا أن سمعته العلمية ما كانت تقوم على الكتب بل على غناه الذى كان يزداد نتيجة لأعماله المالية ويستعمل المسجد الرئيسى فى المدينة الغربية كمدرسة . ويجلس هنا المعلمون الحكماء يحيط بهم تلاميذهم المتثائبون ، يتكلمون حول لحية النبى محمد . انهم ينظرون بأنفه الى الشعب الجاهل الذى لايقرأ ويحتقرون كل مسقو لأنهم وحدهم ذوو الدين الحنيف ويصبون لعناتهم على النصرانى البغيض الكلب الكافر .

وفى كل يوم اثنين ينعقد السوق الرئيسى فى قرقوتى أمام الأبواب الغربية ويفوقه فى أهميته سوق أبوام فى تافليت ويأتى بعد سوق كانو فى حجمه . وفى البداية عند الباب تجرى مزايدة فى سعر الخيول وتفضل خيول بورنو فى عموم السودان ، وفى الحقيقة ان التجار المحليين ينشطون هذا النوع بتلقيحه المستمر من خيول الشمال . واشتريت للركوب حصانا عملياً وقصيراً مقابل عشرين تالر (يوطير) وقبل أن أغادر كوكه انخفض سعر هذه الخيول الى عشرة تالرات ثم الى ستة . واما الخيول الكبيرة وخيول الدولة ذات اللون الرمادى والتى تباع فى طرابلس بين عشرين وثلاثين تالر يصل سعرها هنا من مائة الى مائة وخمسين تالر . وعبر صف طويل من باعة الحصر الثمينة التى تستخدم فى فرش أرض الساحة أو فى السقوف ، والحصر ذات الشوك لغلق فتحات الباب يصل المرء الى الميدان حيث تقف الجمال والبقر والحمير للبيع وبعدها مباشرة يأتى سوق الرقيق ، شيوخ ابيضت شعورهم ، أمهات ورضيعون يرضعون من أثداء غريبة ، فتيات صغيرات ، رجال أقوياء ، أناس من بورنو وباجرمى والهاوسا واللوغون والمسقو ، ووداى وبلاد أخرى بعيدة ، كل هؤلاء معروضون للبيع لمن يختار . البعض منهم عراة تماما والبعض الآخر لفوا بعض الخرق حول الأرداف . وان أبناء بلاد المسقو مميزون بأن شفاههم العليا أو السفلى قد دخلت فيها قطعة كبيرة من النحاس أو التوتياء أو القرع وعندما يتكلمون تطبق على بعضها البعض وتحدث ضجيجا ، وأما الوشم على الجسم فهو منتشر لدى الجميع وحتى أبناء بورنو والهاوسا والتبو يشمون وجوههم بثلاثة حزوز طولانية على الوجه . ويتجول المشترون بين مجموعات الرقيق ويقيسون طولهم باليد (يتكلم المرء عن صبيان وفتيات بطول أربعة أو خمسة أو ستة أو سبعة أشبار) وينظرون الى الأسنان ويستفسرون عن الشهية وان ظاهرة الشعور بالجوع تفهم على أنه صحيح الجسم . واذا ما أعجبتهم

البضاعة يتم الاتفاق على السعر . ويبلغ سعر الصبيان مابين 15و30 تالر
وأما الفتيات الصغيرات والمرغوبات بينهن الفلاتة ، فيتراوح سعرهن بين 30
و 60 تالر وسعر الرجال والنساء يساوى سعر الأطفال 3 حتى 10 تالرات
ويجلب الى سوق الاثنين آلاف الرقيق للبيع وتعرض فى السوق اليومى
مجموعات تبلغ المئات وبعد ذلك يأتى تجار الحبوب ولديهم أكياس كبيرة مليئة
بالقمح والشعير والعرقوم والقافولى والرز وغيرها من الحبوب وتقف خلفها
جمال الحمولة وفى سنوات الخير يحصل مقابل تالر واحد (بوطير) على اربعة
أحمال جمل عرقوم أو ستة من أحمال صرغوم (حمل الجمل = 3 قناطير) . وأنا
شخصيا حصلت على حمل واحد من العرقوم مقابل بوطير واحد . وحصلت
فى وقت لاحق على حملين وقبل الموسم ثلاثة أحمال بنفس السعر . وفى ميدان
كبير يذبح البقر ويباع اللحم قطعا . وفى الوقت نفسه يقوم أصحاب المطاعم
بشوى اللحم على نار أشعلت فوق الرمل . وفى شارع يتفرع من هنا تباع
الصناعات الحرفية التى تنتج فى البلاد : حصر مزخرفة مصنوعة من الدوم
ويبلغ سعر الرقيقة منها التى يبلغ عرضها قدمين ونصف وطولها خمسة أقدام
تالر واحد ، ستائر ملونة للأبواب مصنوعة من القش للحماية من الذباب .
أغطية وأطباق قد جدلت من الدوم أيضا وهى فى خفتها مثل الكرتون وفى
مقاومتها مثل الجلد ، أوعية من كل حجم مأخوذة من قشور القرع أو الخشب
والبعض منها قد رسمت بصورة جميلة أو جعلت على أرجل أربعة ، كما
وضعت عليها أغطية ذات قبضات مزخرفة كما توجد طناجر وجرار وأوعية من
الفخار المشوى ، وهذه الأخيرة على درجة من الكبر بحيث تستوعب مائتى لتر
ماء وفى الشارع الذى يليه سوق السمك وتعرض هنا أسماك طازجة ومجففة
من بحيرة تشاد يتراوح طولها بين ستة أقدام وكبر الكف . ويبلغ أكبرها التى
يتراوح وزنها بين 10 و 15 رطلا العوضة (حوالى غرشين فضة) ويؤدى هذا
الشارع الى ميدان كدست عليه أكوام عالية من الحطب والى جانبها سلال من
فحم الخشب وعلى مقربة منها أقام الحدادون موضع عملهم . وقد وضعوا
حفرة النار فى الأرض وينفخونها بمنفاخ كبير وضع الى جانبها . انهم يصنعون
البلطات والفؤوس وقطعا حديدية وبعد ذلك يعرض حدادو الاشياء الدقيقة
أعمالهم على منصات او فى الدكاكين : رماح ، وأقراص حديدية ، وقسى ،
وتروس ، وسهام ، وأطواق للذراع ، وخلاخل للأقدام النسائية من الحديد
و النحاس الأصفر ، ومقصات ، وسكاكين ، وملاقط ، ان الملقط أداة ذات

أهمية بالغة فى بورنو وكل شخص يحمل ملقطا صغيرا فى جعبة جلدية بحيث
يسحب به أشواك الكائى من القدم اذ أنها تغطى الأرض فى كل مكان فى
الغابة والحقل . وبعد الحدادين يأتى صانعو الجلد ، وفيما عدا اكياس الحبوب
وقرب الماء يصنعون العلب ، والعلب الصغيرة ، والصناديق وشباشب
صفراء وحمراء مطرزة ودون تطريز ، و صنادل ، ومهامز ، وسروج الخيل
وتوجد لديهم مجموعة من جلود الأسود والفهود .

وبعدها يأتى باعة الملابس الجاهزة التى تجهز فى البلاد . انها ملابس قطنية
بسيطة أو مطرزة بصورة فنية ، أثواب بيضاء مصنوعة فى البلاد وتسمى كولقة
، ويوجد أفضل منها من صنع كانو ، وسراويل واسعة جدا ، قبعات بيضاء
من الكتان . مناديل نسائية زرقاء غامقة وقمصان نسائية توجد بكميات
ضخمة وهى تلبى كل طلب ، وأما سوق الثمار فلم يكن عامراً لأن الفصل
كان شتاء والتمر يباع بسعر غال يقارب سعره فى اوربا والهجلج والكولتشة ،
وهى نوع من البندوره أكبر مما لدينا وذات طعم مر ، كما يوجد الفكس وهو
نوع من الخيار وهناك انواع من حبيبات الغابة الصالحة للأكل .

وان المنتجات الأوربية وليس البورنوية الطبيعية والصناعية تخزن فى خيام
، وهى كتان أبيض وأقمشة وهى فى الغالب من مصانع عادية ،منتجات
حريرية برانس صوفية بيضاء ، قبعات حمراء مرايا ، أمواس حلاقة ، ابر
انجليزية والمانية ، لؤلؤ زجاجى ، مرجان ، كهرمان ، كحل ، رصاص
بارود (نوعية سيئة مصنعة فى بورنو) كبسول ، كبريت ، ملح مستخرج من
غلى الرماد ومستورد من بيلما ، توابل ، بهار هندى ، شيتة أو بهار السودان
وهو الآن يزرع فى بورتو ، بخور من الجزيرة العربية والسودان بالاضافة الى
العديد من المواد التجارية الأقل تداولا ، وقد أقيمت بعض الخيام للتصريف
حيث يصرف التالر (بوطير) مقابل الصدف . وليس للذهب هنا معدل
تبديل والتالرات الفرنسية والاسبانية لاتصرف الابخسارة . فى جميع الشوارع
يقف سقاة الماء وهم يسقون كل ظمآن من جرارهم الكبيرة مقابل بعض
الأصداف القليلة . فى كل مكان يسود تعامل تجارى وعلى الرغم من عدم
ظهور الشرطة والجيش لايقع ما يخل بالنظام . وان النزاعات والسرقات
الصغيرة يحكم فيها على عين المكان قاضى السوق .

ان بلوغ سوق كوكة مثل هذا التوسع الذى ينافس بموجبه كانو يدين به
لحرية التجارة والصناعة لمطلقة التى يتمتع بها الأجانب وأبناء البلاد وحتى

القوافل الكبيرة القادمة من بلاد السودان وطرابلس ودول الشمال الأفريقى الاخرى لاتدفع سوى رسم زهيد الى حراس الأبواب وهو على درجة من الضالة بحيث لايؤخذ فى الحسبان . وان الدخل النقدى الوحيد الذى يحصل عليه السلطان من السوق هى تلك المبالغ التى يدفعها أصحاب المزاد المحلفون لشراء مواضعهم فى السوق ذات الدخل الزائد اذ يحصل صاحب المزاد عن كل حصان يباع بالمزاد تالرا واحد (بوطير) وحتى الهدايا التى يطلبها السلطان والموظفون فى بلاد السودان من التجار الغرباء تسقط هنا .

فقد حدثنى رفيقى فى السفر المرابط القطرونى وهو تاجر غنى وتاجر رقيق أنه لم ير السلطان عمر مطلقا على الرغم من أنه يقوم للمرة الثالثة بالسفر من فزان نحو بورنو ، ولايفكر فى المستقبل بالذهاب الى البلاط ، لأن المرء لايمكن أن يقوم بزيارته هناك بايد فارغة واذا ما اتى تجار آخرون الى السلطان ويقدمون له الهدايا فانهم يفعلون ذلك متوقعين المقابل فإذا ماأثارت الهدية فضول السلطان وأهتمامه فانه يرد عليها بتقديم عبد أو عبدين أو حصان وبالطبع لايكلفه الرقيق شيئا واذا ما احتاج اليهم فتنظم فى مكان ما غزوة ويتم بذلك الحصول على العدد المطلوب وقد حصل الشريف الحشايشى الذى وصل بورنو قبلى بفترة قصيرة قادما من طرابلس حصل مقابل هديته البالغة حوالى 150 تالر على عدة أرقاء وأمات استطاع ان يبيع كلا منها فى مصر مقابل 200 الى 300 تالر كما حصل تاجر نصرانى من طرابلس على هدية قيمة جدا مقابل الهدية التى قدمها السلطان وتتكون من مرآة كبيرة وقماش وحرير وحتى الان يعتبر الطريق من طرابلس عبر فزان والصحراء الكبرى وكوار هو الطريق الوحيد الآمن الذى يصل شاطىء البحر المتوسط ببورنو . الا أن هذا الطريق الذى لا يمكن أن يقطع خلال فترة تقل عن ستة الى ثمانية شهور لايسمح للتجار الاوروبيين من منافسة التجار العرب وان هؤلاء قد تعودوا على أعباء الصحراء ولايعتدون بضياع الوقت والمخاطر والمصاعب وسيكون الوضع مغايرا كليا اذاما اقدمت انكلترا وألمانيا وفرنسا التى تزود وسط أفريقيا بالبضائع بصورة رئيسية ، على ايجاد طريق مباشر عبر يولا . واذا ماوصل الطريق فى المرحلة الاولى الى يولا فقط فان هذا سيعنى كسبا هائلا للتجارة الأوربية ، لان أبناء بورنو وباجرمى والهاوسا وغيرهم من شعوب وسط أفريقيا سيدركون بعد وقت قصير مقدار الفائدة التى يجنونها اذا ماقاموا بذاتهم

بمبادلة البضائع مع الاوربيين عوضا ان تصلهم هذه البضائع بواسطة العرب عبر الصحراء ..

واما المنتجات التى يمكن أن تصدرها بورنو بكميات فهى : الخيول ، البقر ، الحمير ، الغنم الماعز ، لحم الصيد ، عاج الفيل ، ريش النعام ، الأسماك المجففة ، العسل والشمع ، الجلود ، جلود الأسود والفهود وغيرها من الحيوانات ، الحبوب ، كولتشة وغيرها من المنتجات الزراعية التى يمكن أن يقوم الأهالى بالنشاط لزراعتها وهكذا يمكن أن تتوسع زراعة القطن والتبغ والنيلة وكذلك المطاط من غابة الميموز العظيمة شمالى بحيرة تشاد .

وأما متوسط الأسعار فى سوق كوكه فكانت على الوجه التالى . حصان قوى بنى فاتح أو أصهب عشرون تالر . ثور حمولة أو بقرة بالمفرق ثلاثة تالرات ويكون السعر أقل اذا بيعت فى إطار القطيع . عنزة ½ تالر . شاة ½ 1 تالر واذا ماكانت كبيرة ومن جنس خاص تالر واحد . ثور حمولة (2 ـ ½ 2 قنطار) من القافولى (صرغوم) والفرقوم مورو (ذرة السودان) ثالر واحد . قمح ورز 2 ثالر 5 ، 8 ، أو 10 جلود بقر حسب حجمها ثالر واحد . جلد أسد أو فهد أو نمر كبير وجميل 2 ثالر والأصغر ثالر واحد . جلد النعام حسب الجودة ثالر واحد الى ثلاث تالرات (فى طرابلس 40 ـ 60 تالر) قنطار عاج الفيل من الأسنان الصغيرة 20 ثالر . عاج فيل بوزن قنطار 35 ـ 40 ثالر . وفى زمن بارت كانت الأسعار أرخص بكثير . ثلاثة أحمال ثيران من الحبوب بقيمة ثالر واحد الثور ½ 1 ، الحصان 6 ـ 8 ثالرات . وفى دواخل البلاد مازالت الأسعار أرخص بكثير مثلا 40 ـ 50 رطلا سمن ثالر واحد وفى كوكة يدفع نفس السعر مقابل عشرين رطلا .

ومن البضائع الأوربية يحتاج أهالى بورنو الى الكتان ، القماش ، الورق ، الأمواس ، الكبسول الابر ، المرايا الصغيرة ، اللؤلؤ الزجاجى ، لؤلؤ طبيعى ، الكهرمان ، البخور ، الصمغ ، البارود الرصاص ، الكبريت ، ملح البارود ، الملح ، والسكر وهو حاليا من مواد الرفاهية لدى الأغنياء وأما القهوة والشاى لايتناولها أهالى بورنو . وعوضا عن ذلك يمضغون طيلة النهار حبوب القورو . وقد ذكرت فى موضع سابق أن أغلب المواد المستوردة فى وسط افريقيا من صنع المانيا وعلى وجه الخصوص المرايا والابر والسكاكين والسيوف والبنادق الصغيرة والورق ..

وأما ما يتعلق بأسعار البضائع الأوربية فى كوكة فانها تتوقف على طريقة الدفع فيما اذا كانت القيمة ستؤدى مقايضة مقابل رقيق او ستدفع نقودا وفى الحالة الثانية هل الدفع بكمبيالة أم نقدا وليس فى وسعى أن أورد فى هذا المجال سوى ماحصل معى عند بيع بضائعى فى كوكة ، وما كلفتنى هذه البضائع فى طرابلس لدى التجار اليهود والنصارى الذين يربحون فيها 100٪ البرنس القماشى (سعر الشراء فى طرابلس 10 حتى 12 ثالر) 35 ـ 40 ثالر ، قطعة قماش طولها 70 ذراع محمودى كتان أبيض انجليزى (سعر الشراء 5 ثالرات) 10 ـ 15 ثالر قطعة كتان من نوع آخر يدعى هنا خام وفى غرب أفريقيا مالطى وفى مراكش أمريكين وفى الجزائر وتونس هامبورغيز (سعر الشراء 3 ثالر) 7 حتى 8 تالرات ، مقابل علبة لؤلؤ زجاجى (سعر الشراء ½ تالر) 4 ثالرات . 3000 ـ 4000 ابرة تالر واحد وفى طرابلس يدفع هذا السعر لألفى ابرة . ان الربح اذن كثير ولكن يجب أن لاننسى أن نضيف الى السعر تكاليف الحمولة ومعيشة الأشخاص والحيوانات خلال الرحلة التى تستغرق أربعة شهور والمخاطر والمصاعب . وتبلغ أجرة الجمل بحمولة ثلاثة قناطير من طرابلس حتى سوكنه 6 ثالرات ومن سوكنه حتى مرزق 6 ثالرات أيضا ومن مرزق حتى تجرهى ثالر واحد تجرهى حتى كوار 5 ثالرات ، من كوار حتى بورنو 5 ثالرات أيضا وهكذا حمولة جمل واحد 23 ثالر والمعيشة تكلف 6 حتى 7ثالرات هكذا فإن حمولة جمل واحد من طرابلس حتى بورنو تكلف ثلاثين ثالرا . واذا أفترضنا أن تكاليف حمولة الجمل الواحد تنخفض فى حالة قافلة أكبر عدد جمالها عشرون الى ثلاثين جملا الى عشرين ثالرا وهكذا فان الربح المجزى فى البضاعة لا يمكن أن يحصل الا فى حالة مقايضة ذلك بالرقيق وريش النعام وعاج الفيل . وربما يعتقد البعض أن لاتكترى جملاً لهذه الغاية بل تشتريه الا أن طول الطريق وعبور مناطق مثل تلك الواقعة جنوبى فزان حيث لايتوفر علف طازج تسبب خوارا فى قوة الجمال . قليلة هى تلك الحيوانات التى يمكنها أن تحمل ثلاثة قناطير وفوقها حوالى قنطارين علف وماء ومواد غذائية وتقطع المسافة دفعة واحدة من طرابلس حتى كوار . وعندما يصلون فى النهاية الى بورنو فإن اعتى الجمال تقع تحت وطأة الطقس اذا لم تعد بعد فترة قصيرة ، فمناخ بورنو يفسد جمال الشمال الأفريقى ، لقد مات 14 جملا من أصل 18 جملا أحضرها الشريف الحشايشى من طرابلس الى بورنو وذلك خلال فترة أربعة شهور من وصولها

وقد نحلت أجسام جمالى الأربعة بشكل ملموس وما من أحد أراد أن يشترى منى هذه الجمال القادمة من الشمال . ومما يجدر ذكره أن حمولة جمالى كانت دائما خفيفة ولم يكن سيرنا قاسيا وأتيح لها أن تستريح بما فيه الكفاية خلال اقامتى فى كوار .

لن يشترك أوربيون كثيرون فى التجارة مع بورنو قبل أن يفتح طريق مباشر من المحيط نحو بحيرة تشاد ان البلدان المحيطة ببحيرة تشاد : كانم ، بورنو ، وداى ، باجرمى تعتبر من أقدر بلدان الأرض على الانتاج ويعتبر سكانها من أكثر سكان أفريقيا تسامحاً وتعاملا .

واذا ما أظهر بعض حكامها فى الزمن الحديث روحا عدائية ضد النصارى ، فان هذا يعود الى تحريض من جانب العرب وأربابهم ، من هنا من قلب أفريقيا قد يسهل تنفيذ طريق صالح للسير تصل بواسطته البضائع خلال ثلاثين يوما الى خليج غينيا .